

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الأمير عبد القادر
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
لِلعلوم الإسلامية قسنطينة
قسم اللغة العربية

رقم التسجيل: دط/3 آ ح إ/ل ع/19/02

الظواهر الفونولوجية في كتب ابن جني (ت: 392هـ)

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه.ل.م.د في اللغة والأدب العربي، شعبة: دراسات لغوية / تخصص:
لسانيات عامة

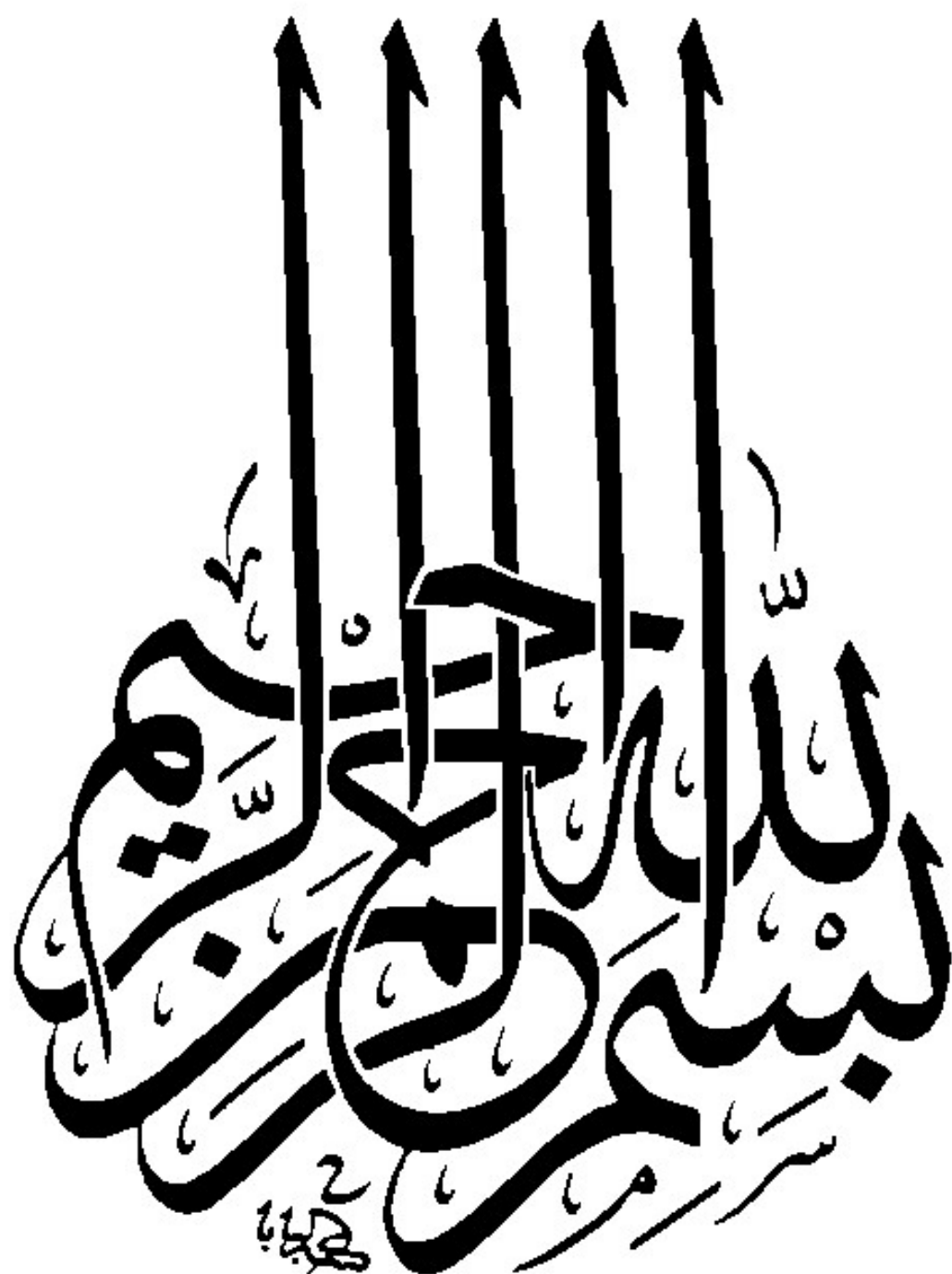
إشراف: أ.د/نور الدين بوزناشة

إعداد الطالبة: هاجرة ضريبي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أحمد كامش	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -	رئيسا
نورالدين بوزناشة	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2 -	مشرفا ومقررا
عصام خروي	أستاذ محاضر أ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -	ممتحنا
نعيمه روابح	أستاذ محاضر أ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -	ممتحنا
عادل بلخيري	أستاذ محاضر أ	جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة 1	ممتحنا
عز الدين هبيرة	أستاذ محاضر أ	جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة 1	ممتحنا

السنة الجامعية: 2025م/2026م الموافق ل: 1447هـ/1448هـ



إهداء

إلى روح والدي، الذي شهد أول الغرس ولم يدرك ثماره... الذي كان يتطلع بشغفٍ إلى لحظة هذا الإنجاز،

ففارقنا قبل أن نتجلى أمام ناظره

إلى أمي الغالية، التي ظلت دعواتها ترافق خطواتي، فكان نورها وعمها سنداً لي في إتمام هذا العمل

إلى زوجي السند والداعم الدائم في مسيرة إعداد هذا البحث.

إلى ابني أنس، الذي كان حضوره مصدراً قوّة وتحفيز

إلى إخواني وإخواتي، وأخص بالذكر أخي بلال، وكل من ساندني أو خضعني بدعوة

إلى كل شغوف بالعلم والمعرفة

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور نور الدين بوزناشة على توجيهاته العلمية وملاحظاته القيمة، إذ لم يأل جهداً ولم يذخر وسعاً في سبيل إتمام هذا العمل -
جزاه الله عنا من خيرى الدنيا والآخرة-

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير لى جميع أساتذة كلية الآداب والحضارة الإسلامية، وللى كل من كان له فضل على من أساتذة الجامعة وإدارتها، وكافة موظفيها، على ما قدموه من دعم وإرشاد خلال فترة إعداد هذا البحث.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، منزل الكتاب بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد في العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

تبوّأت اللّغة العربيّة مكانة سامية بين لغات العالم، فهي لغة القرآن الكريم؛ وتمثّل هذه اللّغة نسقا متكاملا من المستويات المترابطة التي تعمل في تناغم منظّم؛ لإنتاج المعنى والتّعبير عن الأفكار، وقد انصرف إلى دراسة هذه اللّغة ثلّة من العلماء الأفاضل؛ فمنهم من تعمّق في دلالتها ومعانيها، ومنهم من اهتمّ باستنباط القواعد التي تحكمها -نحوية كانت أم صرفية-، ومنهم من أولى عنايته بجانب ضبط النّطق بكلماتها، وبيان حروفها، وتوضيح مخارجها ومدارجها، وتمييزها عن بعضها، وبيان الظّواهر والقوانين التي تحكم هذه الأصوات أثناء تركيبها وتفاعلها مع بعضها البعض، ومن ثمّ تبيان وظيفتها التي تؤدّيها، وبعدّ المستوى الصّوتي المنطلق الأساس لدراسة اللّغة؛ إذ حظي باهتمام المتقدّمين والمتأخّرين على السّواء؛ فقد اتّجه للكتابة في هذا الجانب كلّ من رام بيان خصائص لغته، وسعى إلى تحقيق الغاية منها؛ وهي انطباعها على اللّسان دون تكلف، وخلق نوع من الانسجام الصّوتي أثناء نطق الكلمات، وتمثّل الأصوات اللّبنة الأولى التي تُصاغ منها الكلمات والتراكيب، وهي المدخل الرّئيس لفهم مختلف الظّواهر اللّغوية.

فلم يكن المستوى الصّوتي غائبا عن أنظار علماء العربيّة الأوائل، بل حظي بعناية فائقة في الدّرس اللغوي العربي، فقد برزت محاولات المبكّرة في رصد الأصوات، وتحليل مخارجها وصفاتها، وبيان ما يطرأ عليها من تغيير والقوانين التي تحكمها، وقد ارتبطت بداياته بملاحظات أبي الأسود الدّؤلي(ت69هـ) في بيان الآلية التي يتّوصل بها إلى وضع رموز الحركات، ثمّ جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ) في القرن الثاني للهجري الذي عُرف بدقّته وسلامته ذوقه في الجانب النّطقي للأصوات عن طريق ضبطه لمخرج الحرف وصفاته؛ ولهذا عدّ الخليل مرحلة تأسيسية مهّدت لعلماء القرن الرابع الهجري الذين بنوا على مقولاته بحوثهم الصّوتية، وفي مقدّمهم ابن جني(ت392هـ)؛ حيث بسط القول في دراسة الحروف العربية مفردة ومركبة؛ أي في علاقتها بعضها ببعض.

في العصر الحديث ظهرت اللسانيات الحديثة التي اهتمت بالمستوى الصّوتي؛ وكان لهذا المستوى مكانة رفيعة في دراسة اللغة؛ مستفيدا بذلك من التّطور العلمي والتّكنولوجي بظهور المختبرات والمعامل والآلات التي أدخلت الصّوت إلى المختبر وأخضعته للتّجريب؛ ومن ثمّة لم تعد دراسته مقتصرة على الملاحظات الدّاتية بل

أصبح أكثر دقة عن طريق توظيف الآلات الحديثة في رصد طبيعته، ومكوناته، وخصائصه ومزاياه، وقد أسهم ذلك في ترقية الدراسات الصوتية واصطبغها بصبغة علمية؛ إذ برز علم يعنى بدراسة الصوت؛ يسمى علم الأصوات.

ينقسم هذا العلم إلى قسمين؛ الأول: علم الأصوات (Phonetics) الذي يدرس الخصائص الفيزيائية والنطقية للأصوات، والثاني: الفونولوجيا (Phonology) الذي يهتم بالكشف عن القوانين المنظمة للعلاقات بين الأصوات داخل النظام اللغوي.

على الرغم من أن مصطلح الفونولوجيا حديث النشأة، إلا أن الفكر اللغوي العربي القديم توصل إلى فهم عميق لكثير من قوانينه، وإن عبّر عنها بمصطلحات خاصة به؛ فقد أولى علماء العربية القدماء اهتماما بالغاً بمختلف الظواهر الفونولوجية، وكان ابن جني أبرز رواد هذا المجال؛ إذ عُدّ من أوائل المنظرين للدرس الصوتي العربي من جانبه الوظيفي؛ فلم يقتصر تحليله على الجانب الوصفي لإنتاج الأصوات، بل تجاوز ذلك إلى رصد دقيق ومنهجي للتفاعلات الصوتية ودلالاتها الوظيفية؛ حيث تناول في كتبه ظواهر صوتية مختلفة "فونولوجية"، سعى فيها إلى بيان وظيفة الصوت ونظامه داخل اللغة العربية؛ ولهذا عدّت مؤلفاته مصدراً أساسياً في الدراسات الصوتية العربية؛ فهي تعمق فهمنا لكيفية عمل النظام الصوتي للغة العربية على المستويين النظري والتطبيقي، كما تظهر رؤيته التحليلية تقاطعاً مبكراً في كثير الأحيان مع المبادئ التي تقوم عليها الفونولوجيا الحديثة.

انطلاقاً من ذلك؛ اخترت أن يكون عنوان بحثي: **الظواهر الفونولوجية في كتب ابن جني (ت)**

392هـ)، وهو موضوع يعكس أهمية هذا الجانب في التراث اللغوي العربي، ويبرز إسهام ابن جني في تأسيس رؤية علمية دقيقة للظواهر الفونولوجية، في محاولة للكشف عن منهجه في معالجة هذه الظواهر، وإبراز دوره في بناء تصوّر علمي راسخ لبنية العربية الصوتية، وبذلك تتجلى أهمية الموضوع في بيان الجذور المبكرة للجانب الفونولوجي عند ابن جني، وبيان إسهامه في تأسيس علم الأصوات الوظيفي العربي، وقد اعتمدت في إبراز هذا المنحى التأصيلي على ربط التراث اللغوي العربي بالدراسات اللسانية الحديثة من خلال مقابلة ومقاربة مفاهيم ابن جني الصوتية بالمفاهيم الفونولوجية الحديثة؛ للكشف عن نقاط التشابه والاختلاف بين الدرس الصوتي العربي القديم والنظريات الصوتية الحديثة؛ أي: بيان أصالة الدرس الصوتي العربي في الجانب الفونوتيكي والفونولوجي.

كما تكمن أهمية البحث في كونه يسمح بالاطّلاع على أمّهات الكتب، وينهل من مختلف منابع العلم والمعرفة، ويبيّن أهمية التّراث اللّغوي العربي في البحث اللّغوي؛ وأنّه تراث وظيفي؛ يمكن الاستفادة منه؛ وذلك عن طريق استنطاق هذا الموروث اللغوي للتّوصل إلى ما يحتويه من درر ونفائس في الجانب الفونولوجي.

ولعل من الدوافع والأسباب التي حفزتني لاختيار هذا الموضوع:

- مكانة الفونولوجيا في الدرس اللساني الحديث.
- القيمة العلمية التي يتميز بها الجانب الفونولوجي؛ والذي يهتم بدراسة وظيفة الأصوات اللغوية؛ وكذا بيان القوانين التي تتحكم فيها.
- الرغبة في معرفة وفهم أسس الفونولوجيا؛ والاستفادة منها في التحليل اللغوي.
- الدافع المعرفي المتمثل في إعادة قراءة التّراث الصّوتي العربي، وإبراز الجوانب الوظيفية فيه.
- إجراء مقابلة نقدية بين نظريتين إحداهما قديمة تمتد إلى قرون؛ وهي تمثل مرجعا في التحليل، والأخرى حديثة؛ تعدّ أحدث ما توصل إليه الدرس اللساني الحديث؛ وفي هذا دعوة إلى الاستفادة من كلّ الجهود الإنسانية دون تقزيم أو تضخيم.
- يعدّ ابن جني مرحلة مهمّة في الدّرس الصّوتي العربي من النّاحية التّاريخية؛ ولذلك فإنّ دراسة جهوده تُسهم في إبراز جهود اللّغويين العرب في التحليل اللغوي، وتصحيح التّصورات التي تقلّل من قيمة التراث اللّغوي العربي عامة والصّوتي خاصة.
- وقع اختياري على ابن جني موضوعا لبحثي؛ لمكانته البارزة في التّراث اللغوي العربي، ولما يمثله من قيمة علمية متميزة في ميدان الدّراسات الصّوتية؛ فهو يعدّ من أبرز رواد الدرس الصوتي العربي القديم؛ فقد أسهم بجهود علمية رائدة؛ كان لها أثر جلي في الدّراسات اللاحقة، وذلك من خلال مؤلفاته التي تعدّ مرجعا مهمّا للباحثين في هذا المجال، ممّا يجعل دراسة أعماله ضرورة حتمية لفهم تطوّر الدّراسة الصّوتية.
- تمّ اختيار ثلاثة كتب لابن جني؛ لتكون محور هذا البحث؛ وهي: الخصائص وسر صناعة الإعراب والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات؛ وقد احتوت على مادة علمية صوتية؛ يمكن اعتمادها في دراسة

مختلف الظواهر الفونولوجية، وتتميّز هذه الكتب بشموليتها، ودقّتها العلمية؛ إذ فيها أمثلة ونماذج لغوية متنوّعة؛ وهي تعكس منهج ابن جني في وصف الظواهر اللغوية عموماً والصوتية خصوصاً، وكذا تحليلها.

ويهدف البحث إلى تحقيق مجموعة من الغايات؛ يأتي في مقدّمها إحياء التّراث الصّوتي العربي الزّاهر بالأعمال الخالدة؛ وذلك بالاطّلاع على منجز علماء العربية القدماء؛ والذي يستحقّ الفحص والاهتمام والمتابعة.

- التعريف بالفونولوجيا، وتبسيط مفاهيمها، ومبادئها وأسسها.

- التّنبية إلى شموليّة الدّرس اللّغوي العربي القديم، والتّدليل عليه.

- محاولة تطعيم الدّرس الصّوتي العربي القديم بالمفاهيم الفونولوجية المعيّنة فيه.

- تحيين التّراث الصّوتي العربي؛ عن طريق ربط التصورات القديمة بالحديثة، وإشراكه في الحوار العلمي؛ وهذا من أجل إبراز قيمته.

- إنجاز معجم يضم المصطلحات الصوتية عند ابن جني.

وأن يكون هذا البحث منطقاً وأرضية تفتح آفاقاً جديدة مستقبلية للبحث والدراسة في هذا المجال، كذلك مدّ جسراً بين التّراث اللّغوي الأصيل والأفكار اللسانية المعاصرة انطلاقاً من كون النص القديم مفتوحاً على القراءة على الدوام .

كما تهدف الدّراسة إلى تحليل بعض الظّواهر الفونولوجية التي تناولها ابن جني، واستجلاء مصطلحاته ومنهجه وطريقته في معالجتها، وذلك في ضوء ما أفرزته الدّراسات اللّسانية الحديثة، سعياً إلى إبراز نقاط التشابه والاختلاف بين المعالجة التراثية لهاته الظواهر والمعالجة الحديثة، والإشارة إلى حقيقة مفادها أنّ معظم الدّراسات اللّغوية الحديثة قامت بإعادة قراءة التراث، وصياغته في قالب جديد، يحافظ على الخصوصية ويبني على الأفكار القديمة تصورات حديثة من خلال ربط القديم بالحديث، عن طريق المراجعة و التقيد والتقييم .

لا أدعي السّبق بالبحث في هذا الموضوع، فلا شكّ أن ثمة دراسات عامّة للظّواهر اللّغوية عند ابن جني، وأخرى خاصّة بالجانب الصّوتي أذكر منها:

- ابن جني وجهوده في رواية اللغة من خلال كتابه الخصائص، وهو عبارة عن رسالة ماجستير للباحث: انتصار عثمان إبراهيم عثمان إشراف الدكتور: أم أسامة عبد الباقي يوسف، نوقشت بجامعة أم درمان الإسلامية سنة 1421هـ/2000م، إذ تناولت منهج ابن جني في الرواية والسماع ومصادره اللغوية، وهو ما يُعدّ أساساً مهماً لفهم الظواهر الفونولوجية في كتبه، غير أن هذه الدراسة انصرفت إلى الجانب المنهجي للرواية، وتطرقت إلى إشارات عامة للمستويات اللغوية في كتاب الخصائص، ولم تتناول الظواهر الفونولوجية دراسة تحليلية مستقلة، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته.

- ملامح الصوتيات التركيبية عند ابن جني، وهي عبارة عن مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، إعداد الباحثة سميرة بن موسى، نوقشت بجامعة ورقلة سنة 2011 - 2012م لاشك أن بين هذه الدراسة وبحثي تقاطعا ملحوظا ومباشرا؛ وذلك في تعرض الباحثة إلى مجموعة من التغيرات الصوتية عند ابن جني، بيد أنّها تطرقت إلى ملامح عامة وبصورة موجزة عن الجانب الفونولوجي في كتب ابن جني، فضلا عن تباين في الإشكالية المعالجة ضمن هذه الدراسة عن الإشكالية التي أروم معالجتها والإجابة عنها.

- الإدغام الأصغر عند ابن جني، إتحّد كريمة أبو القاسم خليفة، وهو عبارة عن مقال ركز فيه على تحليل هذه الظاهرة الصوتية عند ابن جني، استفدت من هذه الدراسة الجزئية في الجانب المتعلق بالإدغام عند ابن جني.

- الظواهر الموقعية عند ابن جني في ضوء فكرة التكامل المعرفي - قراءة لسانية في كتاب "الخصائص"، وهو عبارة عن مقال لنادية زيد الخير؛ تناولت هذه الدراسة مختلف الظواهر الصوتية عند ابن جني من خلال كتاب الخصائص، كما أبرزت فكرة تكامل المستويات اللغوية في تحليل هذه الظواهر، وأنّ التغير الصوتي يرتبط بموقع الصوت والبنية الصرفية، بالإضافة إلى الدلالة، انطلاقاً من مبدأ التخفيف والتيسير. وعليه؛ قدمت الباحثة معالجة جزئية للظواهر الموقعية في إطار معرفي تكاملي؛ بينما يروم بحثي استقصاء معظم الظواهر الفونولوجية في كتبه.

مع ظهور مختلف الدّراسات اللّسانية عند الغرب، ونتيجة للاحتكاك والتّثاقف العربي - الغربي، انتقل الدّرس الصّوتي في طابعه الحديث إلى البيئة العربيّة، ومن ملامح هذا التّأثير دراسة الأصوات في كنف علمين

الأول يُطلق عليه اسم علم الأصوات العام (phonetics)، والثاني علم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا (phonology)، وقد اشتمل التراث اللغوي العربي على إشارات في العلمين؛ وتمثّل كتب ابن جني منبعاً أصيلاً للدراسات الصوتية والفونولوجية؛ بما سجّله من ملحوظات دقيقة حول خصائص الأصوات العربية مفردة ومركّبة، وفي المقابل يبرز الدرس الصوتي الحديث إطاراً نظرياً ومنهجياً؛ لتحليل مختلف البنى الصوتية. ومنه تدور الإشكالية حول طبيعة الظواهر الفونولوجية التي تناولها ابن جني وكيفية معالجتها، والشواهد التي ساقها لتعليل أحكامه والبرهنة عليها، فنقول: ما الظواهر الفونولوجية في كتب ابن جني؟ كيف وصفها وصنفها؟ وكيف حلّلها؟ (وما منهجه في التحليل الصوتي)؟ وما الجوانب التي ركّز عليها؟ وإلى أي مدى تتقاطع النتائج الصوتية التي توصل إليها أبو الفتح مع مفاهيم الدرس الصوتي الحديث؟

إلى جانب هذه الأسئلة الكبرى تتفرّع عنها أسئلة صغرى:

- ما مدى احتفاء الدرس الصوتي العربي بالوظيفة؟
- ما هي طرق تطعيم الدرس الصوتي العربي القديم؛ لكي يكون مواكباً للدراسات الصوتية الحديثة؟
- ما الفونولوجيا؟ وما مبادئها؟
- ما أبرز الظواهر الفونولوجية التي تناولها ابن جني في كتبه؟
- كيف عالج ابن جني مختلف الفونيمات التركيبية والظواهر التطريزية من منظور فونولوجي؟ وما الأسس النظرية التي اعتمدها في تحليله وتعليقه؟
- إلى أي مدى تعكس معالجة ابن جني لظواهر المماثلة والمخالفة والقلب المكاني عن وعي فونولوجي بنظام الدرس الصوتي العربي؟
- كيف وضع ابن جني قواعد فونولوجية خاصة ببنية الكلمة العربية؟ وما أبرز المفاهيم والمصطلحات التي وظفها؟ وكيف يمكن تصنيفها ضمن إطار الفونولوجيا المتعارف عليها في الدرس الصوتي الحديث؟
- لمعالجة هذه التساؤلات والإجابة عنها اعتمدت خطة تتكوّن من مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة؛ اشتملت مقدمة على: التعريف بالموضوع وبيان أهميته، ودواعي اختياره، والدراسات السابقة والإشكالية و الخطة المتبعة، منهج الدراسة، والعقبات التي واجهتني أثناء إنجازه، أهم المصادر والشكر.

أمّا المدخل؛ فموسوم: التعريف بمصطلحات البحث مع ترجمة ابن جني؛ ضبطت فيه المفاهيم والمصطلحات الأساس ذات الصلة بعنوان الأطروحة؛ حيث تناول جملة من المفاهيم المتعلقة باللغة والصوت،

والفونيتيك، والفونولوجيا، من خلال تحديد مفهوم كل مصطلح؛ وبيان مجاله وموضوعه في الدرس اللغوي، ثم انتقل المدخل إلى التعريف بابن جني، فتناول نسبه ومولده، وشيوخه وتلامذته، ومؤلفاته، مع إبراز مكانته العلمية وأثره في تطور الدراسة الصوتية العربية، كما اشتمل المدخل على التعريف بكتب ابن جني الثلاثة (الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والمحتسب)؛ وبيان محتوى كل كتاب، وهدف تأليفه، والمنهج الذي اعتمده فيه، تمهيدا لدراسة الظواهر الفونولوجية في ضوء آرائه وتحليلاته الصوتية.

وأما الفصل الأول؛ موسوم: الدرس الصوتي العربي (النشأة والتطور)؛ تناولت فيه مراحل نشأته والمحطات التي مرّ بها وخصائص كلّ مرحلة؛ حيث بينت ملامح هذا التفكير لدى رواد الدرس اللغوي الأوائل، وفي مقدّمهم الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وابن جني، مع إبراز أسسهم النظرية ومنطلقاتهم في معالجة الظواهر الصوتية، كما عاجلت في هذا الفصل تجليات هذا التفكير عند القراء وعلماء التجويد من خلال بيان منهجهم في تناول الظواهر الصوتية المرتبطة بالقراءات القرآنية، وتطّرت كذلك إلى حضور الدرس الصوتي في سياق إعجاز القرآن الكريم والبلاغة، عبر الوقوف على بعض إسهامات الرماني والخفاجي والباقلاني في هذا الجانب، كما بحثت مظاهر التفكير الصوتي عند الفلاسفة، ولا سيما الفارابي وابن سينا، قبل تناول تطوّر الدراسات الصوتية في العصر الحديث، وختمت الفصل بالتأكيد على أهمية الدراسات الصوتية.

أما الفصل الثاني موسوم: "الظواهر الفونولوجية في اللغة العربية (تغيّراتها وقوانينها)؛" يهدف إلى دراسة أبرز الظواهر الصوتية التي تطرأ على بنية اللغة، عن طريق تحليل أسبابها وأغاطها والقوانين التي تضبط سيرورتها، وقد جرى تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث رئيسة؛ كان الأول عن **الفونيمات القطعية**، خُصّص هذا المبحث لدراسة الظواهر الفونولوجية المرتبطة بالفونيمات القطعية، درست فيه الإبدال والإعلال والإدغام والإمالة، وقد تناول تعريف لهذه الظواهر، مع بيان أقسامها وتفصيل مظاهرها في الاستعمال اللغوي، فضلا عن بيان دوافعها وأسبابها، والإشارة إلى العوامل المانعة التي تحول دون تحقيقها في بعض السياقات، وكان المبحث الثاني حول **الظواهر (الفوق مقطعية)؛** تناول هذا المبحث العناصر الصوتية التي تتجاوز حدود الكلمة المفردة، وتطّرت فيه إلى المقطع، والنبر، والتنغيم، وقد تم فيه تحليل الخصائص الصوتية لكل عنصر، وبيان وظائفه الدلالية والتواصلية، ودوره في توجيه المعنى وبيان المراد، في حين كان **المبحث الثالث** تحت عنوان **القوانين الفونولوجية؛** خُصّص هذا المبحث لدراسة القوانين التي تحكم التغيرات الصوتية، مع التركيز على قوانين المماثلة والمخالفة والقلب المكاني، وقد تم فيه بيان آليات عمل كل قانون، والعوامل المؤثرة في عمله.

أما الفصل الثالث موسوم : الظواهر الفونولوجية (الفونيمات القطعية وفوق قطعية) وتغيراتها عند ابن جني؛ ويُعدّ هذا الفصل محاولة لربط التراث الصوتي العربي، كما تجلّى في مؤلفات ابن جني، بالتصورات والمفاهيم التي أفرزها درس الصوتي المعاصر، وقد قسم هذا الفصل إلى مبحثين رئيسين؛ حُصِّص المبحث الأول لدراسة الفونيمات القطعية، في حين تناول المبحث الثاني الظواهر التطريزية (الفوق مقطعية).

أمّا الفصل الرابع موسوم: القوانين الفونولوجية (المماثلة، المخالفة، القلب) عند ابن جني "؛ عُني بالكشف عن القوانين الصّوتية التي تحكم الظواهر الفونولوجية في تراث ابن جني، وتحليلها في ضوء المناهج الصّوتية الحديثة، وقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث؛ حُصِّص المبحث الأول لدراسة المماثلة، وتناول المبحث الثاني المخالفة، بينما حُصِّص المبحث الثالث لدراسة القلب المكاني.

وفي آخر البحث؛ قُيّمت بخاتمة تضمّنت أهمّ التّائج المتوصّلة إليها ثمّ قائمة المصادر والمراجع، فملحق ثمّ الفهارس. وختم البحث بملخص بالعربية مترجم إلى الانجليزية والفرنسية.

اعتمد البحث على المنهج التاريخي في تتبع مسار الدرس الصوتي العربي والغربي مع الاستعانة بالمقارنة في مقارنة نتائج البحث بالتصورات اللسانية الحديثة، ودراسة آراء ابن جني في ضوء المفاهيم الصّوتية الحديثة، واستقراء ما انطوت عليه نصوصه من رؤية علمية، يمكن الاستفادة منها في تأصيل الظواهر الفونولوجية. كما اعتمد البحث المنهج الوصفي موظفا آلية التحليل؛ من خلال وصف مختلف الظواهر الفونولوجية وتحليلها.

وأما فيما يتعلّق بمنهج توثيق الاقتباسات؛ فقد سلكت فيه تقديم المؤلّف على المؤلّف مع ذكر جميع المعلومات أوّل مرّة، وعدم إعادتها بذكر المؤلّف وصاحبه والجزء إن وجد والصفحة عند ذكرها مرة أخرى، وإذا كان العزو إلى موضع تقدّم دون فاصل بينهما أضع عبارة المصدر/ المرجع نفسه.

كما قمت بكتابة الآيات القرآنية بالرّسم العثماني برواية ورش عن نافع، وذكرت أسماء السور وأرقام الآيات في متن البحث، وكذا قمت بعزو الأبيات الشعرية في هامش البحث.

اعتمدت الدّراسة على طيف واسع من المصادر والمراجع القديمة والحديثة، وتنوّعت بين المعاجم اللغوية وكتب اللغة والنحو والصرف والقراءات أذكر منها:

- الخصائص وسر صناعة الإعراب والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني.

- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي.

__- الأصول في النَّحو، ابن السراج.

- أثر القراءات في الأصوات والنَّحو العربي، عبد الصبور شاهين.

- أثر القوانين الصَّوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب.

- الأصوات اللُّغوية، إبراهيم أنيس.

- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، عبد البديع النيرباني.

- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي.

- الصوتيات اللغوية دراسة تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال.

- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُحمَّد الأنطاكي.

- دراسة الصَّوت اللُّغوي، أحمد مختار عمر.

_ مبادئ علم وظائف الأصوات(الفونولوجيا)، تروبتزكوي، تر:عبد القادر قنيني.

ولم يخلُ هذا البحث من بعض الصَّعوبات المنهجية والمعرفية؛ إذ واجهت الباحثة مجموعة من العوائق خلال مسيرتها تتمثل أساسا في دقَّة الموضوع المطروح، واتِّساع مجاله من جهة، وتشعُّب مصطلحاته وحساسيتها من جهة أخرى، ما يتطلب حيلة وحذرا شديدين في التَّحليل والاستنتاج، حتى لا يتم الوقوع في سوء الفهم أو إسقاط دلالات غير مقصودة على أقوال العلماء، أو نسبة ما لم يصرَّحوا به إليهم، لذلك كان لزاما على الباحث الالتزام بأقصى درجات الدقَّة والتحرِّي، مع الرجوع المستمر إلى المصادر الأصيلة، ومراعاة السياقات العلمية والتاريخية للنصوص، حفاظا على سلامة النتائج ومصادقية البحث العلمية.

لا يسعني في الأخير إلا أن أتقدِّم بجزيل الشُّكر والامتنان إلى الأستاذ الفاضل الدكتور نور الدين بوزناشة؛ الذي كان له الفضل بعد توفيق الله عزَّوجل في إنجاز هذا البحث، وتقويم زَلَّكه، وتذليل صعوباته، فلم يأل جهدا، ولم يدَّخر وسعا في إسداء توجيهاته وملحوظاته القيِّمة، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وعمّ بنفعه سائر

طلبة العلم، وجعل ذلك في ميزان حسناته، كما أتقدّم بجزيل الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة كل باسمه على
تجشّمهم عناء القراءة والتّصويب والنّقد، وما يقدّمونه من توجيهات لإثراء هذا البحث وتحسينه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، وبفضله ومنّه تنزّل البركات، وصلى الله وسلّم على سيدنا
مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدخل:

التعريف بمصطلحات البحث مع ترجمة

ابن جني

تعدّ اللغة من أهمّ الظواهر الإنسانية، وهي ليست مجرد وسيلة للتواصل فقط، بل هي الوعاء الأمين الذي يحوي الفكر الإنساني، والمرآة التي تعكس ثقافة الحضارات ومعارفها، وهي في أصلها (اللغة) ذات طبيعة صوتية؛ تعتمد على الأصوات التي يصدرها الإنسان بواسطة جهازه التّطقي، ومن ثمة؛ فإنّ الأصوات هي الجوهر والمادّة الخام التي تتشكّل منها الكلمات و الجمل ؛ لغة الإنسان.

قبل الشّروع في تناول موضوع البحث، سيتم التّطرق إلى التعريف بالمصطلحات والمفاهيم الضّروية التي تشكّل محور هذا البحث.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث

المطلب الأول: تعريف اللّغة، الصّوت، الفونيتيك، الفونولوجيا

أدرك علماء العربية الأوائل أهميّة الأصوات وطبيعتها وخواصّها؛ فتبوأ الصّوت مكانة أساسية في دراساتهم اللّغوية عامّة، وفي تعريف اللّغة خاصّة؛ ومن هؤلاء العالم الفذّ ابن جني؛ الذي يعدّ أحد أبرز أعلام الدّرس اللّغوي العربي؛ لما قدّمه من تصوّرات دقيقة أسهمت في تأسيس مختلف الأسس اللّغوية، ويأتي تعريفه للّغة ليعكس وعياً مبكراً بطبيعتها الصّوتية الاجتماعية ووظيفتها التّداولية والاجتماعية، مما يجعله مدخلاً مهمّاً لفهم التّصوّر العربي للّغة وأبعادها.

1/ تعريف اللّغة:

عرّفها ابن جني في كتابه الخصائص بقوله: «أما حدّها فإنّها أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»¹؛ وهذا التّعريف الذي قدّمه ابن جني للّغة؛ يُعدّ من أقرب التّعريفات التي يتبنّاها اللسانيون في العصر الحديث؛ فاللّغة-عنده- عبارة عن مجموعة من الأصوات المنطوقة، وليست المكتوبة؛ إذ إن الكتابة هي محاولة لرسم الصّوت، كما تؤدي اللغة وظيفة اجتماعية رئيسة هي: التواصل أو التعبير.

خصص ابن جني كتاباً لدراسة الصّوت اللّغوي في اللّغة العربية، وهو كتابه سر صناعة الإعراب، ففي هذا الكتاب، قام بتحديد مخارج الحروف وصفاتها بشكل مفصّل، وأضاف إلى ما كتبه الخليل بن أحمد (175هـ

¹ - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: مجّد علي النجار، عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، ص67

(في كتابه العين وما ذكره سيبويه (180هـ) في آخر كتابه، كما اهتم بتوضيح جهاز النطق البشري، الذي شبهه بمزمار له ثقب، وكل ثقب يخرج صوتاً خاصاً¹.

إنّ إشارة ابن جني إلى أنّ اللغة أصوات يعبر بها "كل قوم" تدلّ بوضوح على إدراك ابن جني لما يُقال الآن بأن اللغة هي ظاهرة اجتماعية؛ أي أنّها لا توجد إلا في سياق اجتماعي معيّن، فبدلاً من القول "يعبر بها كل إنسان"، أشار إلى "القوم"، ممّا يعكس فهمه العميق للعلاقة بين اللغة والمجتمع، كما أن قوله: "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" يدل على وعيه بالعلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر، وهذا يعدّ من المواضيع التي ناقشها اللسانيون المعاصرون بشكل موسّع، فكتبوا دراسات خاصّة حولها؛ إذ اللغة ليست مجرد أصوات عشوائية، بل هي أداة تواصلية تربط بين الأفراد، كما أنّها تعكس تصوّر الأفكار².

يتبيّن من تعريف ابن جني للغة أنّه كان جامعاً لمعظم الجوانب التي يتفق عليها اللسانيون المحدثون في تحديد مفهوم اللغة؛ ففي هذا التعريف، يُشير ابن جني إلى الوظيفة التعبيرية للغة أو التواصلية، حيث تعد وسيلة للتواصل والتعبير عن أغراض الأفراد، كما سلّط الضوء أبو الفتح على الطبيعة الاجتماعية لهذه اللغة، مبيناً أنّها لا توجد إلا في سياق جماعة لغوية معينة تتفاعل فيما بينها باستخدامها لنقل الأفكار والمشاعر والانطباعات، إضافة إلى ذلك يشير إلى أن مادة اللغة هي الأصوات، وبناء على ذلك يُعدّ تعريف ابن جني للغة تعريفاً دقيقاً شاملاً؛ يُؤكد على الطابع الصوتي للغة، ويُبرز دورها الاجتماعي في التعبير عن المعاني وتبادل الأفكار بين أفراد المجتمع، كما يشير إلى أن اللغة تكون خاصة بكل مجتمع بشري؛ إذ إن لكل قوم لغتهم الخاصة، فاللغة ظاهرة صوتية ذات وظيفة اجتماعية تتنوع بنية هذه اللغة من مجتمع إلى آخر.

يركز ابن جني في تعريفه للغة على الصوت؛ البنية والأساس الذي تبنى عليه، والركيزة الجوهرية لفهم نشأتها، وبنيتها، ووظيفتها التواصلية، فلا يمكن تصوّر اللغة في وجودها الطبيعي دون تحقّقها في صورة صوتية، ومن هذا المنطلق؛ يعدّ الصوت ظاهرة فيزيائية لسانية، ينتقل على شكل اهتزازات عبر الوسط المادي، ثمّ تدركه الأذن البشرية، كما يكتسب قيمته اللغوية داخل نظام اللغة، ويؤدّي بذلك وظيفة تمييز المعاني، لذلك اهتمت مختلف الدّراسات اللّغوية قديماً وحديثاً ببيان وتحليل طبيعته، وكيفية إنتاجه، ووظيفته في بناء النّظام اللّغوي؛

¹ - ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، ص 208

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 208

وعليه؛ فإنّ تعريف الصّوت لا يأتي بوصفه موضوعاً منعزلاً عن اللّغة، بل بعدّه مكوّناً أساسياً لها، واللّبنة التي تبنى عليها المستويات اللغوية الأخرى. فما تعريف هذه الظاهرة (ظاهرة الصوت)؟

2/ تعريف الصوت:

ذكر إبراهيم أنيس أن الصّوت عموماً هو: «ظاهرة طبيعية ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها»¹؛ فالصّوت إذا؛ يحدث نتيجة أسباب فيزيائية مادّية، تدركها الأذن سماعاً وتميزه، فهو ينتج عن طريق اهتزازات مادية تنتقل في وسط معيّن؛ حيث أنّ «كلّ صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتزّ، على أن تلك الهزّات لا تدرك بالعين في بعض الحالات»²، غير أن الإنسان لا يدرك هذه الاهتزازات بل يدرك أثرها السّمعى، وهو كما ذكر كمال بشر «أثر سمعي يصدر طواعية واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق»³.

يُستفاد مما سبق أن للصّوت اللّغوي عدّة جوانب، أبرزها⁴:

لـ الجانب العضوي الفسيولوجي (Physiological) أو النّطقي (Articulatory)، ويرتبط هذا الجانب بأعضاء النّطق؛ من حيث بنيتها، ووظائفها وأوضاعها وحركاتها أثناء إنتاج الصوت.

لـ الجانب الأكوستيكي (Acoustic) أو الفيزيائي (Physical)، ويرتبط بالآثار الفيزيائية النّاجمة عن هذا الإنتاج، والمتمثلة في الموجات أو الذبذبات الصّوتية التي تنتقل عبر الهواء حتى تصل إلى أذن المتلقي، فتحدث فيها تأثيراً معيناً.

لـ ويضاف إلى ذلك جانب ثالث هو الجانب السّمعى (Auditory)، وهو بدوره ينقسم إلى جانبين:

– جانب فسيولوجي يتعلق بأعضاء السمع وآلية عملها.

– وجانب عقلي أو نفسي (Psychological) يرتبط بالعمليات الذهنية التي تلي إدراك السامع للأصوات وتفسيرها.

¹ – الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأجلو المصرية، مصر، ط5، 1975م، ص6

² – المرجع نفسه، ص6

³ – علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2000م، ص119

⁴ – ينظر: المرجع نفسه، ص119.

وعليه؛ تقوم عملية الكلام على خمس مراحل أو أحداث متتابعة ومتراصة، تتكامل فيما بينها لتشكّل دائرة التواصل اللغوي بين المتكلم والسامع، ويمكن ترتيب هذه المراحل وفق تسلسل حدوثها كما يأتي¹:

1- العمليات النفسية والعقلية التي تتم في ذهن المتكلم قبل الشروع في الكلام أو أثناء إنتاجه، وتشمل التفكير، وصياغة المعنى، والتخطيط اللغوي.

2- عملية إنتاج الكلام والمتمثلة في إصدار الأصوات اللغوية بواسطة جهاز النطق، نتيجة حركات منسقة لأعضائه المختلفة.

3- انتقال الموجات والذبذبات الصوتية في الوسط الهوائي بين فم المتكلم وأذن السامع.

4- العمليات العضوية والفسولوجية التي يتعرّض لها الجهاز السمع لدى السامع، بعدها استجابة مباشرة للموجات والذبذبات الصوتية المنتشرة في الهواء.

5- العمليات النفسية والعقلية لدى السامع، التي تحدث عند استقبال الأصوات اللغوية، وتشمل إدراكها، وتحليلها، وتفسيرها دلالياً.

يقتضي منطق البحث العلمي أن يتناول اللغوي هذه المراحل الخمس بالدراسة والتحليل؛ بغية الوقوف على حقيقة مادته اللغوية، والكشف عن طبيعتها، واستجلاء أبعادها المختلفة، غير أنّ الاتجاه الغالب لدى معظم اللسانيين المحدثين استقر على إغفال المرحلتين الأولى والخامسة، وعدم تناولهما تناولاً مباشراً في الدرس اللساني، وقد استند هذا التوجّه إلى جملة من المبررات، يمكن إجمالها في سببين رئيسيين²:

لـ يتمثل السبب الأول في أنّ هاتين المرحلتين تنتميان إلى المجال النفسي العقلي، في حين ينصرف اهتمام اللغوي، ابتداءً وانتهاءً، إلى الوقائع اللغوية المنجزة في صورتها المنطوقة فعلياً، لا إلى مصادرها أو نتائجها النفسية والعقلية.

لـ أما السبب الثاني، فيكمن في أنّ هذه العمليات النفسية العقلية تتسم بدرجة عالية من التعقيد والغموض، ممّا يجعل الحكم عليها من منظور لغوي حكماً يفترق إلى الدقة والوضوح، فضلاً عن ذلك، فإن اللساني

¹ - ينظر: علم الاصوات، كمال بشر، ص 37-38

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 38

يشترط أن تكون له دراية بعلم اللغة النفسي، الذي يمكنه -بفضل أدواته المنهجية- من الكشف عن أسرارهِ (الصوت) وتفسير ما يجري فيه.

وهكذا؛ يسعى علم الأصوات إلى التركيز على الجوانب الفيزيولوجية والمادية والنفسية، ولا يمكن الاستغناء عن جانب معين منها؛ إذ إنّ عملية الكلام نشاط متكامل.

وانطلاقاً من أهمية الصوت في تحقيق عملية التواصل نشأ علم يُعنى بدراسة الأصوات اللغوية دراسة علمية دقيقة، وانقسم إلى فرعين رئيسين هما: الفونيتيك (Phonetics) والفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات (Phonology)، فما تعريف كل منهما؟ وما حدود التداخل والتكامل بين هذين الفرعين في سبيل تحليل الظاهرة اللغوية؟

3/ الفونيتيك والفونولوجيا تحديد وتعريف

يُعنى كلٌّ من الفوناتيک (Phonetics) والفونولوجيا (Phonology) بدراسة أصوات اللغة، غير أنّهما يختلفان من حيث مناهج البحث وزوايا المعالجة تبعاً لاختلاف تصوّرات الدارسين ومقاصدهم العلمية، ويُعدّ مصطلح الفونيتيك أكثر شيوعاً وتداولاً من مصطلح الفونولوجيا، كما أنّ نطاقه أوسع من حيث الاستعمال والتطبيق؛ إذ كثيراً ما يُستخدم للدلالة على الدراسات الصوتية بوجه عام، فيشمل حينئذ ما يُدرج ضمن الفونولوجيا عند إرادة التخصيص والدقة الاصطلاحية، وقد ظلّ هذا الاستعمال العام لمصطلح الفوناتيک هو السائد في التراث اللغوي القديم، واستمرّ كذلك حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر، قبل أن يستقرّ التمييز المنهجي بين الفرعين في الدرس اللغوي الحديث¹.

وقد أسهم التقدم في الدرس الصوتي، مدعوماً بالجهود العلمية المتواصلة وباستخدام الأجهزة والآلات الحديثة، في الكشف عن حقائق صوتية لم تكن معروفة سابقاً، وتبيّن للعلماء أن للصوت جوانب متعدّدة، يقتضي كلّ منها منهجاً تحليلياً خاصاً يختلف عن غيره، الأمر الذي جعل من الأنسب تخصيص فروع علمية مستقلة لدراسة هذه الجوانب أو مجموعاتها. وعلى هذا الأساس قُسمت الدراسة الصوتية إلى فرعين رئيسينهما: الفونيتيك والفونولوجيا².

¹ - ينظر: علم الأصوات، كمال بشر، ص 65

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 65

3-1/ علم الأصوات العام (Phonetics):

فعلم الأصوات ينصرف في مجمله، إلى «دراسة الأحداث الصوتية المنطوقة بالفعل، ويسعى إلى رصدها وتحليلها تحليلًا وصفيًا عامًا يصلح للتطبيق على مختلف اللغات»¹ وبعبارة أخرى، يدرس علم الأصوات المادة الصوتية الواقعية المنطوقة²؛ فهذا العلم يسعى إلى دراسة الأصوات التي ينطق بها المتكلم فعليًا أثناء عملية الكلام؛ أي: كما تتحقق في الواقع اللغوي المسموع؛ أي: يدرس الأصوات بوصفها أحداثًا فيزيولوجية، وفيزيائية، وسمعية قابلة للرصد والوصف والتحليل، وهذا الأمر ينطبق على مختلف اللغات.

3-2/ مصطلح الفونولوجيا (Phonology): هو ذلك «الفرع من علم اللغة الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية»³؛ فهو العلم الذي «يهتم بدراسة الصوت اللغوي داخل البنية، أي من حيث علاقته بالأصوات الأخرى من ناحية المعنى أو وظيفة الصوت في تحديد المعنى من ناحية أخرى»⁴ ويعتمد علم وظائف الأصوات على المعطيات التي يقدمها علم الأصوات، ويعمل على تنظيمها وتصنيفها، من خلال استخلاص القواعد والضوابط التي تحكم الأحداث الصوتية في لغة بعينها، فتعني الفونولوجيا بوظائف هذه الأحداث الصوتية بعد تجريدها وتحويلها إلى أنماط أو فئات أو مجموعات، وفق معايير تتصل بدرجة أهميتها ووظيفتها داخل النظام اللغوي المحدد⁵.

وعليه؛ فإنّ الفونولوجيا تُعنى بدراسة أصوات اللغة لا بوصفها وحدات منعزلة، بل من حيث انتظامها داخل التركيب؛ فهو يدرس القواعد التي تحكم تركيب الأصوات في الكلمات، ويبيّن ما يجوز من هذه التركيبات وما يمتنع، كما يتناول التغيرات التي قد تطرأ على الصوت اللغوي في مخرجه أو صفاته تبعًا للسياقات التركيبية المختلفة، فضلًا عن تحديد قيمته الوظيفية ودوره التمييزي في مختلف الأوضاع الصوتية داخل النظام اللغوي.

وبذلك يكون علم الأصوات ذا طابع عام، في حين تتسم الفونولوجيا بالطابع الخاص، سواء من حيث مجال الدراسة، أو من حيث منهج العمل، ومن هذا المنطلق جرى التمييز بينهما، عند الحاجة، باستخدام

¹ - علم الأصوات، كمال بشر، ص 473

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 473

³ - المرجع نفسه، ص 66

⁴ - مقدمة لدراسة علم اللغة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، للطبع والنشر والتوزيع، 2019، الاسكندرية، م، ص 66

⁵ - ينظر: علم الأصوات، كمال بشر، ص 66

مصطلحي: علم الأصوات العام (General Phonetics) وعلم وظائف الأصوات (Functional Phonetics) أو الفونولوجيا.

وعلى الرغم من هذا التمييز المنهجي بينهما، يظل الارتباط بين العلمين وثيقا، إلى الحد الذي يتعدّر معه الفصل بينهما فصلا قاطعا؛ إذ يستمد كل منهما مادته من الآخر ويعود إليه في مختلف مراحل التحليل والدّراسة، ويمكن توضيح طبيعة هذه العلاقة من خلال تشبيه تقريبي مفاده أنّ علم الأصوات العام يتولّى جمع المادّة الخام من الاستعمال اللّغوي الفعلي لدى المتكلمين، بينما تتكفل الفونولوجيا بمعالجتها وتقويمها، عبر تنظيمها وإعدادها للاستفادة منها، وهذا ما يبرز قيمتها الوظيفية ومكانتها داخل التسق الصّوتي للغة المعنية. ومنه؛ يتبيّن أن الفونولوجيا والفوناتيكا تربطهما علاقة وثيقة؛ إذ لا يمكن وضع حدّ فاصل طبيعيّ صارم بينهما على الرّغم من اختلاف مجال اهتمام كلّ منهما؛ فهما مجالان متكاملان، يُكَمِّل أحدهما الآخر، وتتخذان الأصوات اللغوية مادّة أساسية لهما في دراستهما؛ فهي الموضوع الرئيس للبحث.

سعت هذه الدّراسة إلى التعريف بالمصطلحات والمفاهيم المرتبطة بعنوان البحث، بوصف ذلك مدخلا منهجيا ضروريا لتحديد الإطار النظري، وضبط الدّلالات العلمية للمفاهيم المعتمدة، ثم بعد ذلك صار لزاما علينا الوقوف عند القرن الرابع الهجري مع العالم اللغوي ابن جني الذي مثل انتقالا نوعيا في معالجة مختلف الظواهر الصوتية، جامعا بين الفطنة اللغوية والدقة المنهجية في الوصف والتحليل، فأرسى بذلك قواعد وأسس هذا العلم، و لهذا ارتأيت التعريف به؛ من حيث مولده؛ وسيرته العلمية؛ ومكانته في الدرس اللغوي العربي، مع إبراز أهم إسهاماته الفكرية، مركزين على مدونة الدراسة المتمثلة في الكتب الثلاث؛ وهي: سر صناعة الإعراب، والخصائص، والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.

المبحث الثاني : ترجمة ابن جني وكتبه:

المطلب الأول: نبذة عن حياة ابن جني:

يعدّ ابن جني من علماء اللّغة العربية البارزين، ترك بصمة واضحة في الأجيال التي جاءت بعده، وكان له تأثير بالغ في الدّراسات اللّغوية، ألف العديد من المؤلّفات القيّمة التي تعدّ مرجعيّة أساسيّة في مجالها، ولا يزال عمله مصدر إلهام للباحثين والدّارسين في حقل اللّغة العربية.

بالإضافة إلى ذلك، يُعدُّ ابن جني رائداً في مجال الصّوتيات اللّغوية العربيّة، حيث قدّم دراسات معمّقة حول الأصوات العربيّة ومخارجها وأحوالها مفردة ومركبة، وتظهر أبحاثه تفرّداً في هذا المجال، مما يُعدّ إضافة مهمة للمكتبة الصّوتية العربيّة.

1-1 / اسمه ونسبه ومولده:

أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور؛ كان إماماً في العربيّة، قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي، وفارقه وقعد للإقراء بالموصل، فاجتاز بها شيخه أبو علي فرآه في حلقة والناس حوله يشتغلون عليه، فقال له: " زبت وأنت حصرم"، فترك حلقة وتبعه ولازمه حتى تمهّر¹.

ولد ابن جني قبل الثلاثين والثلاثمائة بالموصل، وكان أبوه جني مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتّصريف، وإلى هذا أشار بقوله في جملة أبيات²:

فإن أصبح بلاّ نسب ... فعلمي في الوزي نسبي
على أنني أوول إلى ... فزوم سادة تُجب
قياصرة إذا تطؤوا ... أزمّ الدهر ذو الخطب
أولاًك دعا النبي لهم ... كفى شرفاً دعاء نبي

وقد علّق محقق كتاب الخصائص على هذه الأبيات قائلاً: «وكأنما كان ابن جني يحسّ ضعة عند الناس إن لم يكن من أصل عربي، فعني أن ينضح عن نفسه، ويذكر أن عنده ما يعوّضه هذا النقص، ويأخذ بضبعه نحو المعالي وباسقات الشرف»³.

وله أشعار حسنة، ويقال أنّه كان أعور، وفي ذلك يقول⁴:

صدودك عني ولا ذنب لي ... يدلّ على نيّة فاسده
فقد وحياتك ممّا بكيت ... خشيت على عيني الواحد
ولولا مخافة أن لا أراك ... لما كان في تركها فائده

¹ - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، مج3، ط1900، ص246، ومعجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تح: إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1993م، ص1585، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد لأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ/1998م، ص287-288

² - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ص246، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص1586

³ - الخصائص، ابن جني، ص8

⁴ - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ص246. وقيل إن هذه الأبيات لأبي منصور الديلمي ينظر: الوفيات، ابن خلكان، ص246

وكان من عادته في حديثه يميل بشفته ويشير بيده؛ فحين حضر يوما عند أبي إسحاق في الديوان وكان معه أبو الحسن القمي، فبقي أبو الحسن شاخصا ببصره يتعجب منه، فقال له ابن جني: ما بك يا أبا الحسين تحدد إلي النظر وتكثر مني التعجب، قال: شيء طريف، قال: ما هو؟ قال: شَبَّهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول: ببوزه كذا وبيده كذا بقرء رأيتُه اليوم عند صعودي إلى دار المملكة، وهو على شاطئ دجلة يفعل مثل ما يفعل مولاي الشيخ، فامتعض أبو الفتح وقال: ما هذا القول يا أبا الحسين أعزك الله. ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أجن فتمجن بي؟! فلما رآه أبو الحسين قد حرد واشتات وغضب، قال: المَعْدَرَةُ أيها الشيخ إليك وإلى الله تعالى عن أن أشبهك بالقرء، وإنما شَبَّهت القرء بك، فضحك أبو الفتح وقال: ما أحسن ما اعتذرت!! وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع فكان يتحدث بها هو دائما¹.

ومردّ هذه الطريقة في الكلام عند ابن جني -حسب محقق كتاب الخصائص- إن صحّ إسنادها إليه- هي تأكيد المعنى في نفس السامع، وهو أمر باد في كتبه؛ إذ يميل إلى الإطناب والتكرار والإقناع بشتى الطرق، والإشارة باليد أو الفم تعدّ من هذه الوسائل النافعة، وكذلك سائر أحوال المتكلّم من طلاقة وجه أو انقباضه وغيره، كل ذلك من شأنه توضيح المعنى وبيان المراد؛ إذ هو القائل: "ربّ إشارة أبلغ من عبارة"، وقد يجوز أن ابن جني كان في لسانه لُكْنَة لمكانه من العجمة من جهة أبيه، فكان يستعين على إيضاح مراده بالإشارة².

روى أبو الحسن الطرائفي خبرا يدل على مكانته (ابن جني)؛ فقال: «كان ابن جني يحضر بحلب عند المتنبي كثيرا وينظره في شيء من النَّحو من غير أن قرأ عليه شيئا من شعره أنفةً وإكباراً لنفسه، وكان المتنبي يقول في أبي الفتح: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من النَّاس»³.

1-2/ شيوخه وتلاميذه

تتلمذ ابن جني على يد ثلّة من العلماء؛ فقد تلقى العلم على يد أبي علي الفارسي (ت388هـ)، الذي لازمه ابن جني مدّة طويلة، فقد ذكر صاحب معجم الأدباء أنّ ابن جني صحب أبا علي الفارسي أربعين سنة؛ وكان السبب في صحبته له أن أبا علي اجتاز بالموصل، فمرّ بالجامع وابن جني في حلقة يُقرئ النَّحو وهو شاب، فسأله أبو علي عن مسألة في التّصريف فقصر فيها، فقال له أبو علي: زبّبت قبل أن تحصرم، فسأل عنه فقبل له، هذا أبو علي الفارسي؛ فلزمه من يومئذ واعتنى بالتّصريف، ويقال: أن المسألة التي

¹ - ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص1586

² - الخصائص، ابن جني، ص11-12

³ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص1588

سأل عنها أبو علي ابن جني هي مسألة قلب الواو ألفا في مثل: قام وقال¹، بالإضافة إلى مجموعة من شيوخه منهم²:

1- أبو بكر مُجَدِّد بن الحسن بن يعقوب العطار المعروف بابن مقسم المتوفي عام 354هـ وهو تلميذ ثعلب، وأحد قراء بغداد.

2- أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المتوفي سنة 356هـ.

3- الأخفش الموصلية: واسمه أحمد بن مُجَدِّد أبو العباس الموصلية النحوي. وغيرهم كثير وأخذ عنه تلاميذ كثير يصعب حصرهم منهم³:

1- أبو الحسين مُجَدِّد بن عبد الله بن شاهويه (ت 361هـ).

2- عبد السلام بن الحسن بن مُجَدِّد البصري أخذ عنه وعن أبي علي الفارسي.

3- أبو الحسن علي بن عبد الله اليمسيمي (ت 415هـ)

4- أبو القاسم عمر بن ثابت الثماني (ت 442هـ)

5- أولاده الثلاثة علي وعلاء وعال

تذكر المصادر أن علماء معروفين تأثروا بابن جني ونقلوا عنه، وإن بعضهم أخذ أفكاره دون الإشارة إليه ومن هؤلاء- كما ورد في اللمع-⁴:

1- ابن سيدة أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت 458هـ) صاحب معجم المخصص ومعجم المحكم، فقد نقل عن ابن جني الكثير من آثاره في كتابه المحكم دون عزوها إليه.

2- ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) صاحب كتاب سر الفصاحة، وقد نقل كثيرا من أفكار ابن جني

3- ابن الأنثير نصر الله بن مُجَدِّد (ت 633هـ) صاحب كتاب المثل السائر، الذي نقل عن كتاب الخصائص فصلا كاملا دون عزوه.

4- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ) الذي نقل كثيرا من علوم ابن جني في كتبه المزهر والأشباه والنظائر والاقتراح.

3-1 مؤلفاته ومكانته العلمية

أ/ مؤلفاته

¹ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 1589

² - ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: مُجَدِّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ج 1، ص 129، 389

³ - ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج 12، ص 109

⁴ - ينظر: اللمع في العربية، ابن جني، تح: سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 1988م، ص 9

كان ابن جني من أحذق أهل الأدب، وأعلمهم بالنحو والتصريف وصنّف في ذلك كتباً أبرّ فيها على المتقدّمين، وأعجز المتأخرين، ولم يكن شيء في علومه أكمل منه في التصريف، ولم يتكلم أحد في التصريف أدقّ كلاماً منه¹.

ولابن جني ثلّة من المؤلّفات المفيدة تشهد له بفضله وعلوّ كعبه في شتى العلوم والفنون، تصل إلى أربعة وخمسين كتاباً منها: كتاب الخصائص، وسر الصناعة، والمنصف في شرح تصريف أبي عثمان المازني، والتلقين في النحو، والتعاقب، والكافي في شرح القوافي للأخفش، والمذكر والمؤنث، والمقصود والممدود، والتمام في شرح شعر الهذليين، والمنهج في اشتقاق أسماء شعراء الحماسة، ومختصر في العروض، ومختصر في القوافي والمسائل الخاطريات، والتذكرة الأصبهانية، ومختار تذكرة أبي علي الفارسي وتهذيبها، والمقتضب في المعتل العين، واللمع والتنبيه، والمهذب، والتبصرة وغيرها، ويقال: إن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي أخذ منه أسماء كتبه، فإن له: المهذب والتنبيه في الفقه، واللمع والتبصرة في أصول الفقه. وشرح ابن جني ديوان المتنبي وسماه القُسر².

ب/ مكانته العلمية

نال ابن جني مكانة علمية سامية تجلّت في جوانب عدّة نذكر منها³:

- 1- كان ابن جني دقيقاً في تعبيره، عذباً في أسلوبه، واضحاً في تفسيره يميل إلى الإطناب التكرار والتوسّل إلى الإقناع بكل وسيلة.
- 2- وكان موضوعياً في أحكامه على آراء غيره؛ فهو يمحّص الآراء، ويتعمّق في بحثه فيها، وفي تفاصيلها، ويعطي رأيه في قائلها سواء أكانوا من مدرسته أم من غيرها بتجرّد وحياد.
- 3- كما كان يقف موقفاً عادلاً من الضرورة في الشعر أو النثر، ويرى أنها لا تقلل من قيمة الشاعر أو الناثر، وكان يؤمن بجواز الضرورات للمحدثين كما جازت للأقدمين.
- 4- وكان مولعاً بالقياس مثل أستاذه أبي علي الفارسي؛ الذي كان يقول: بأن الخطأ في خمسين مسألة مما بابه الرواية أحب إليه من الخطأ في مسألة واحدة قياسية، وكان ابن جني يؤمن بأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ومع ذلك كان يقدر السماع، ويفضل المشهور بالرواية على النادر الموافق للقياس، ولا يقبل القياس إذا تعارض مع السماع عن العرب.
- 5- وبالنسبة للاحتجاج بكلام العرب؛ فقد كان ابن جني يعتمد على الأخذ عن بقيت فصاحته، ولم تتعرض لغته للفساد حضرياً كان أم بدوياً، ولم يكن يمانع في الاستشهاد بشعر المتأخرين والمولدين في المعاني دون الألفاظ.

¹ - ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج 12، ص 81

² - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ص 247

³ - اللمع في العربية، ابن جني، ص 9

ج/ وفاته:

توفي ابن جني يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ببغداد-رحمه الله تعالى-¹.

وبعد التعريف بابن جني والتوقف عند بعض معالم شخصيته العلمية؛ ننتقل إلى التعريف بكتبه الثلاث (الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والمحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)؛ والتي حملت فكره اللغوي، وتجلت فيها اجتهاداته.

المطلب الثاني: التعريف بكتب ابن جني: (الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والمحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)

ألف ابن جني مؤلفات كثيرة ومتنوعة في مختلف مجالات اللغة العربية - كما ورد في ترجمته-. ومن أبرز هذه المؤلفات التي أثّرت بشكل كبير في الدراسات اللغوية: **الخصائص** التي تناول فيه مختلف قضايا اللغة، و**سر صناعة الإعراب** الذي يعدّ أول كتاب مستقل في علم الأصوات العربية؛ ويُعد مرجعا أساسيا في هذا المجال، و**المحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها** الذي يُعد مرجعا مهما في دراسة القراءات الشاذة وتوضيح وجوه الاختلاف فيها، وهذه المؤلفات تبرز عمق فهم ابن جني للغة العربية ومختلف جوانبها.

1-1/ كتاب الخصائص

أ/ محتوياته

يعدّ كتاب الخصائص من أجَلّ الكتب التي تناولت المنتج العام لدرس اللغة؛ فقد أُلِّمَ بجميع جوانب اللغة صوتا وصرفا ونحوا ودلالة؛ حيث لا يُعد كتابا في الأصوات مثل كتاب "المنصف"، ولا كتابا في النحو مثل: كتاب "اللمع"، بل هو كتاب يعالج الأصول العامة للدرس اللغوي في العربية، وقد وضح ذلك في مقدمة الكتاب عند تفسيره لأسباب تأليفه،² حين قال: «وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين * تعرض لعمل أصول النحو، على مذهب أصول الكلام والفقه»³؛ فقد عالج فيه ابن جني كثيرا من قضايا فقه اللغة، كما قدّم نظريات وآراء تجاري أو تفوق أحدث ما قال به العلماء في العصر الحديث.⁴

¹ - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ص 248

² - ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص 190-191

* - البصرة والكوفة

³ - الخصائص، ابن جني، ص 48

⁴ - فقه اللغة مفهومه موضوعاته قضاياها، مُجَدِّد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، ط 1، 1426هـ/2005م، ص 47

تضمّن هذا الكتاب جوانب عدة أبرزها¹:

1- جوانب تتضمّن قضايا عامّة في حياة اللغة وتطوّرها؛ نحو: نشأة اللغة وتعريفها وتفرّعها إلى لهجات وتطورها وغيرها.

2- جوانب تتضمّن منهج البحث في اللغة: مثل حجّية اللغة، وطريقة جمعها وتصنيفها، ووضع التعاريف لها وتعليل الظواهر اللغوية وغيرها.

3- جوانب تشمل مستويات الدراسة اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية)، حتى وإن كان لا يوجد ربطا واضحا بين هذه المستويات، إلا أن أعظم ما وصل إليه تتطابق مع ما استقر عليه علم اللغة في العصر الحديث.

ب/ الغاية من تأليفه

بيّن ابن جني سبب تأليفه لكتاب الخصائص في مقدمته ويمكن إجمال هذه الأسباب فيما يلي²:

- أنه لم ير أحدا من علماء البصرة والكوفة قد ألف في علم أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه.

- أنه رأى أن ما ألف في علم أصول النحو لم يكن ملما كافيا؛ ويتضح من خلال كلامه عن كتاب ابن السراج وأيضا عن الأخفش الأوسط، حين قال: « فأما كتاب أصول أبي بكر فلم يلزم فيه بما نحن عليه، إلا حرفا أو حرفين في أوله (...) على أن أبا الحسن قد كان صنّف في شيء من المقاييس كتيّبا، إذا أنت قرنته بكتابتنا هذا، علمت بذاك أن نبنا عنه فيه، وكفينا به كلفة التعب به، وكافأناه على لطيف ما أولأناه من علومه المسوقة إلينا المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا³ ».

- وسبب آخر جعله يؤلف الكتاب يتمثل في إلحاح بعض تلامذته ممن يعتاده ويأنس بصحبته، ويرتضي حال أخذه عنه، في تأليف هذا الكتاب.

ج/ منهجه

¹ - فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص 53

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 48

³ - الخصائص، ابن جني، ص 48.

يتلخّص في نقاط أبرزها¹:

- الاستدلال بأصول الفقه وبراهين المتكلمين في استخراج أصول النحو وتأسيسها.
- الاهتمام بالأدلة المختلفة لتأصيل الأصول سواء أكانت عقلية أم عقلية.
- تراوح الأسلوب بين الإيجاز والإطناب؛ لأنّ شرح الأصول ومناقشتها يقتضي الوصول إلى قاعدة مختصرة.
- كثرة الجدل، وتعدد الاحتمالات والمناقشات والتخطئة والتصويب
- فمنهج ابن جني إذا؛ كان وفق منهج علماء الفقه والكلام.

2-1/ سر صناعة الإعراب

أ/ محتوياته:

يعدّ كتاب **سر صناعة الإعراب** أوّل كتاب مستقلّ لدراسة الأصوات في اللغة العربية؛ حيث خصّصه ابن جني لهذا الجانب من الدراسة بعد أن كان يتمّ تناولها ضمن بحوث النّحو كالكتاب لسيبويه، و"المقتضب للمبرد .

قدّم ابن جني في كتابه مباحث قيمة عن الأصوات، متناولا الفرق بين الصوت والحرف، مشبها الحلق والفم بالناي، ومبيّنا أنّ الحركات هي أبعاض حروف المد، كما بحث في الحروف ومخارجها وصفاتها، وأجناسها، ومدارجها، وتطرق إلى موضوعات مثل الحروف المستحسنة والمستقبحة، وذكر خلاف العلماء فيها، كما خصّص فصولا لكل حرف في الأبجدية، شرح فيها صفاته، مخرجه، وماله من تغييرات مفردة ومركبة، وتناول الكتاب أيضا تصريف الحروف واشتقاقها، إضافة إلى مذهب العرب في مزج الحروف²، بالإضافة إلى ذلك يتميّز الكتاب بغزارة المادّة، والوضوح، والشّمول، والسهولة، والاستقصاء³.

¹ - ينظر: خصائص التأليف النحوي في القرن الرابع الهجري، أبو تاجي سعود بن غازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1،

1425هـ / 2005م، ص225-226

² - ينظر: فقه اللغة مفهومه موضوعاته قضاياها، محمد بن إبراهيم الحمد، ص47-48

³ - المرجع نفسه، ص48

تناول في كتاب **سر صناعة الإعراب** الصوت كمادة علمية لها مفهومها المحدد، وتناول الأصوات العربية مفردة وأثناء اتئلافها لتكوين الكلمات، ويمكن تلخيص مادة الكتاب في النقاط التالية¹:

- 1- حديثه عن الصوت والحرف والفرق بينهما واشتقاق كل منهما.
- 2- عدد الحروف الهجائية العربية، وترتيبها وذوقها.
- 3- وصف مخارج الحروف - وهي الأصوات - وصفا تشريحيًا دقيقًا.
- 4- بيان الصفات العامة للحروف، وتقسيمها إلى أقسام مختلفة.
- 5- ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغير يؤدي إلى الإعلال، أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.
- 6- نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد، وأتمها راجعة إلى تأليفه من أصوات متباعدة المخارج.

ب/ الهدف من تأليفه:

وضَّح ابن جني ذلك في مقدمة كتاب **سر صناعة الإعراب**؛ إذ كان غرضه شرح جميع أحكام حروف المعجم، وكشف كل حالة من حالات كل حرف في اللغة العربية، مُبرزًا خصوصيات كل حرف من حيث مخرجه؛ وحركته؛ وصحته وعلته. وهدفه هو أن يوضح كيفية تأثير الحركة على الحرف، وتغيره من السكون إلى الحركة، وكيف تتصرف الحروف في تركيب الكلمات وفي سياقاتها المختلفة، كما ذكر صفات الحروف بأنواعها المختلفة (مهموسة، شديدة، رخوة، وغير ذلك)².

ويشير أيضا إلى أن كتابه سيركز على دراسة الحروف بشكل منفصل وليس تأليفا شاملا للغة العربية بأكملها، حيث ستكون الحروف جزءا من الكلمات مع تركيزه على أحوالها المنفردة وتصرفاتها في الكلام. ويهدف من ذلك إلى إظهار هذا العلم لمن يهتم به، ويبحث عن أسرار. كما عبر عن شكره لله وتواضعه، مؤكدا على ضرورة العمل في خدمة العلم، وابتغاء وجه الله في المقام الأول³.

ج/ منهجه:

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني أبو الفتح عثمان، مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث القديم، ط1، 1954م، ج1، ص14

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ج1، ص19-22

³ - المصدر نفسه، ص22

أما منهج ابن جني في كتاب سر صناعة الإعراب؛ فقد اعتمد على حروف المعجم التي تتكوّن منها بنية الكلمة، وقام بتحليلها من عدّة جوانب تتمثّل في¹:

1- ترتيبها: فقد رتبها ترتيباً هجائياً

2 - من حيث الصفات: وذلك عند تناوله لكل حرف؛ فقد فرّق بين الحروف المجهورة والمهموسة والمطبقة والمنفتحة، مبيناً حروف كل منهما وأهميتها.

3- الإشمام: فحدد حروف الإشمام وكيفيته وأهميته.

4- الاستعلاء والاستفال: فقد قسّم الحروف بحسب نوعها من جهة الاستعلاء والاستفال والمقصود منهما.

5- الشدة والرخاوة: فقام بتحديد الحروف الرخوة معللاً سبب رخاوتها، وحروف الشدة والسر في شدتها.

6- قام بتحديد حروف العلة، وكذا الحروف الصحيحة: فنراه عند ذكر كل حرف يحدد نوعه من جهة الصحة والاعتلال، وتأثيره في بنية الكلمة.

7- قام بدراسة صوتية للحروف وما يعتريها من حذف أو إبدال أو زيادة، شارحاً وموضحاً بالأمثلة متى يأتي كل حرف أصلياً أو زائداً أو مبدلاً، وأهمية ذلك عند دراسة لهجات القبائل المختلفة مثل العنينة، والكشكشة، وغيرهما.

8- الإدغام: حيث قام بشرح أهميته، وما يحدث لكل حرف إذا تم الإدغام من عدمه.

9- الإمالة: حيث حدد مفهومها وحروفها وأهميتها لغة ونحواً.

10- النقل والحذف: وأهميتهما بالنسبة لكل حرف موضحاً متى يجوز النقل، ومتى يجوز الحذف.

11- حدد بعض الحروف وتأثيرها في إعراب الكلمة: مثل حروف الجر.

وهو في كل ما سبق يقدّم الأمثلة ويشرح الأسباب بوضوح، مستنداً إلى حجج قويّة تدعم أحكامه القاطعة التي لا تختمل التأويل، مستعيناً بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه - ﷺ -، وأشعار العرب كدليل، كما يرد

¹ - سر صناعة الإعراب، ج1، ص3-5

على آراء الآخرين باستخدام أقوالهم ضدّهم، معتمدا على رجاحة عقله وصواب رأيه. بالإضافة إلى ذلك، يعرض آراء اللغويين والنحويين ليقوم بنقدها وتقديم رأيه الخاص المستقل، غير مقتصر على مجرد الرد عليها¹.

1-3/ المحتسب في وجوه القراءات والإيضاح عنها:

أ/ محتوياته

تناول ابن جني في هذا الكتاب ما شدّ عن القراءات السبع المعروفة، وقدم آراءه اللغوية والنقدية؛ قال في المقدمة: «وأنا -بإذن الله- بادئ بكتاب أذكر فيه أحوال ما شدّ عن السبعة، وقائل في معناه مما يمين به الله عزوجل»².

ب/ الهدف من تأليفه:

تنقسم القراءات القرآنية إلى نوعين: الأول هو ما اتفق عليه غالبية قراء الأمصار، وهو ما جمعه أبو بكر بن مجاهد في كتابه "السبعة"، أما الثاني فهو ما عدّه أهل زمانه شاذّا، إلّا أنّ ابن جني لم يعجب بهذه التسمية، لأنّها تحمل معاني الرفض والتقليل من قيمة تلك القراءات، ففي رأيه، هذه القراءات متصلة بالنبي -ﷺ- بأوثق الأسانيد، وبأفضل الأوجه العربية؛ لذلك قرر أن يخصص كتابا مستقلا لدعم هذه القراءات والدفاع عنها³؛ فصنف كتابه "المحتسب في تبين وجوه القراءات والإيضاح عنها" لتوضيح شواذ القراءات والاحتجاج لها. من جهته، لم يقصد أبو الفتح عثمان بن جني من تأليف هذا الكتاب انتقاد ما اتفق عليه الناس في الأمصار، بل كان هدفه إعادة الاعتبار لهذه القراءات الشاذة وتوضيح مدى صحتها؛ يقول في هذا الصدد: «ولسنا نقول ذلك فسحا بخلاف القراء المجتمع في أهل الأمصار على قراءتهم، أو تسويقا للعدول عما أقرته الثقات عنهم، ولكن غرضنا منه أن نرى وجه القوة ما يسمى الآن شاذّا، وأنه ضاربا في صحة الرواية بجرائه، آخذ من العربية مهلة ميدانية لئلا يرى مدى أنّ العدول عنه إنّما هو غرض منه أو تهمه له (...) إلّا أنّنا وإن لم نقرأ به في التلاوة مخافة الانتشار فيه، ونتابع من يتسع في القراءة كإجراء رواية

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص5

² - المحتسب في تبين وجوه القراءات والإيضاح عنها، ابن جني أبو الفتح عثمان، تح: ناصف علي النجدي وعبد الفتاح إسماعيل شلي، ج1،

ص35

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص32-33

ودراية نعتقد قوة هذا المسمى شاذاً¹؛ فابن جني هدفه دراسة هذه القراءات من حيث قوتها اللغوية؛ وصحتها في القياس؛ ولا يقصد بالبحث فيها إضفاء الحرية في التلاوة، أو مخالفة الرواية المتواترة.

ويقول في موضع آخر مبيناً رأيه في الشاذ: «إلا أننا وإن لم نقرأ في التلاوة به مخافة الانتشار فيه، ونتابع من يتبع في القراءة كل جائر رواية ودراية فإننا نعتقد قوة هذا المسمى شاذاً، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله*، وأراد إليه، ومرضى من القول لديه²؛ فالأوجه الشاذة لا يُقرأ بها التزاماً بالرواية المتواترة، لكنها تبقى صحيحة وقوية من حيث القياس اللغوي؛ مما يوضح تمييز ابن جني بين صحة اللغة وصحة القراءة التعبدية.

ج/ منهجه

منهج "المحتسب" يشبه منهج "الحجة" إلى حد كبير، إذ لا يختلفان إلا بقدر ما تقتضيه طبيعة الاحتجاج بين القراءات الجماعية والشاذة؛ ففي "المحتسب"، يعرض ابن جني القراءة، ويذكر من قرأ بها، ثم يعود إلى اللغة لبحث عن دليل يدعم القراءة، سواء كان ذلك من خلال الشواهد اللغوية أو النظائر أو اللهجات أو حتى التأويلات، يقوم بذلك بطريقة مختصرة أو مفصلة حسب الموقف، في الغالب، يكون أبو الفتح مائلاً إلى قبول القراءة والشواهد التي يذكرها، وقد يبدو من كثرة ما يعدد من خصائص القراءة أنه يميل إليها ويؤيدها، مثلما فعل في احتجاجه لقراءة الحسن في قوله: "اهدنا صراطاً مستقيماً"³، لكن إذا لم يجد للقراءة دليلاً مقنعاً، سواء بسبب شذوذها اللغوي أو تكلفه في الاحتجاج لها، لا يتردد في رفضها أو تضعيفها، ففي احتجاجه لقراءة ابن محيصين وقراءة أبي جعفر، يتحدث عن ضعف القراءة أو عن كونها لغة مردولة أو غير صحيحة⁴.

يتضح من خلال تعريف ابن جني وبض أسفاره؛ أن له إسهامات بارزة في معالجة الجانب الصوتي للغة، بما في ذلك الظواهر الفونولوجية، وبناء على ذلك، ننتقل الآن إلى الجانب النظري لهذه الظواهر، مع تعريفها وبيان أنواعها وتصنيفها.

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 33، 32.

* - بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر، 7]

² - المحتسب، ابن جني، ص 33

³ - ينظر: المحتسب، ص 12-13

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 13

الفصل الأول:

الدرس الصوتي العربي

(النشأة والتطور)

العلم عبارة عن تراكمات معرفية والجانب الصوتي للغة لا يحيد عن هذه القاعدة؛ لذلك لابد من معرفة ما توصّل إليه القدماء من علماء العربية وغيرهم في هذا المجال؛ لمعرفة المحطّات التي مرّ بها حتى استوى على سوقه؛ حيث «انتقلت هذه الدّراسة كغيرها من مرحلة التّأمّل العابر إلى مرحلة العلم المنظّم، بعد أن ارتبطت بالتّصوص المقدّسة ارتباطاً ذا طابع تعلّمي تقديسي، كما ارتبطت الدّراسات اللّغوية بأقدم دراسة عرفها الإنسان وهي الدّراسة الدّينية والفلسفية»¹؛ فالدراسات الصوتية كانت في بداياتها قائمة على الملاحظة والتّأمّل غير المنهجي، ثم انتقلت إلى مرحلة تعتمد على قواعد وضوابط، بل أصبحت علماً قائماً بذاته. ومنه؛ نطرح السؤال الآتي: هل كان البحث الصوتي موضوعاً مشتركاً لدى علماء العرب القدماء على اختلاف مشاربهم؟ وما المحطّات أو المراحل التي مرّ بها الدرس الصوتي العربي؟ وما خصائص كلّ مرحلة؟

المبحث الأول: التّفكير الصوتي عند العرب

بدأ التّفكير الصوتي منذ القدم، وقد صحب مراحل التّفكير الأولية للغة، ووصل إلى نتائج توارثتها الأجيال، ولا تزال - على الرّغم من قدمها - موضع عناية كلّ باحث في الدّراسات الصوتية الحديثة، ويعدّ العرب والهنود من أبرز المراجع التي يلجأ إليها كل من أراد خوض غمار هذا المجال من الدّراسات؛ يقول في هذا الصدد برجستراسر (G.Bergstrasser) حين تطرّق إلى الحديث عن الصوتيات قائلاً: «لم يسبق الغربيّين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشّرق، وهما أهل الهند يعني البراهمة، والعرب»²، ويؤيّد ذلك قول فيرث (Firth): «إن علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدّستين هما: السنسكريتية والعربية»³.

المطلب الأول: مرحلة الملاحظات: نقط الإعراب عند أبي الأسود الدّؤلي (ت69هـ)

كانت الدّراسات اللّغوية عند العرب مزيجاً من المستويات اللّغوية؛ إذ لم تحظ بمؤلف مستقلّ، نلاحظ ذلك عند مجموعة من اللّغويين العرب كالخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم كثير، وجاءت هذه الدّراسات في الأصل لخدمة النّص القرآني بعد انتشار اللّحن، ويعدّ عمل أبي الأسود الدّؤلي (ت69هـ) في وضع رموز الحركات أوّل عمل صوتي وصلنا عن علماء العربية؛ فقد أدرك أبو الأسود أن من أسباب الخطأ في قراءة القرآن

¹ - المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن، ط1، 2014، ص10

² - التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، أخرجه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1414هـ/ 1994م، ص11

³ - البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988م، ص101

الكريم عدم وجود تلك الرموز؛ يقول في هذا الصدد: «إذا رأيته أفتح فمي بالحرف فانقط واحدة فوقه، وإذا رأيته أضمه فانقط واحدة بين يديه، وإن رأيته أكسره فاجعل النقطة من تحته، وإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فاجعل النقطة نقطتين»¹.

لم يكن في هذه الفترة تصوّر واضح للأصوات الصائتة (الحركات) بدرجة كافية، بخلاف الأصوات الصامتة (الحروف)، وربما كان ذلك راجع إلى إهمال الرمز للأصوات الأولى في الكتابة العربية؛ فأبو الأسود الدؤلي لا ينظر إلى الحركات إلا بعدها صفات معينة للحروف؛ إذ إنّ فتح الفم أو ضمّه أو كسره تعدّ مجرد حركات فسيولوجية تحدث عند النطق بالحروف².

يُبرز صنيع أبي الأسود الدؤلي هذا؛ اختلاف حركات الأصوات باختلاف الحركات الفيزيولوجية، وعلى أساسه يمكن وضع الرموز لتلك الحركات، كما فرق بين الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة.

جاءت بعد ذلك محاولات أخرى في الجانب الصوتي كمحاولة نصر بن عاصم الليثي (ت89هـ) انتهت بوضع نقط الإعجام، للتمييز بين الحروف المتشابهة، مما يسّر القراءة، وسهّل النطق بهذه الأصوات³.

وقد استفاد الخليل من عمل أبي الأسود الدؤلي وهو ما سنبيّنه.

المطلب الثاني: مرحلة التأسيس: مع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ)

ومن أشهر هذه المحاولات وأكثرها دلالة على الوعي الصوتي ما قام به الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) الذي قدّم للفكر الصوتي أسسه ومبادئه؛ إذ بنا معجمه "العين" على أساس صوتي؛ أي اعتمد في ترتيب أبوابه على مخارج الحروف، مبتدئاً بحروف الحلق ومنتهاً بالحروف الشفوية، فكان أول معاجم اللغة العربية، حيث رتبّه وفق منهج صوتي رياضي دقيق يعتمد المجموعات، والاحتمالات والإحصاء والتقاليب، معرّفًا الجهاز الصوتي عند الإنسان، ومحدّداً مخارج الأصوات بطريقة علميّة، كما تمكّن من الوصول إلى تحديد صفاتها، من خلال ملاحظته الذاتيّة، وأشار إلى مختلف الظواهر الصوتية كالإدغام، ومعرفة الأصوات المتنافرة والمتجانسة، وقد ضمّن مقدّمته مادّة صوتيّة كانت بمثابة القاعدة والأساس لمن جاء بعده؛ إذ «لا ينكر أحد

¹ - علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1430هـ/2009م، ص73

² - ينظر: المرجع نفسه، ص74

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص75

أن هذه المقدمة على إيجازها هي أول مادة في علم الأصوات دلت على أصالة علم الخليل، وأنه صاحب هذا العلم ورائده الأول¹، وتوصل بفضل معرفته بالموسيقى إلى نظام الإيقاع وموسيقى الشعر العربي، ووضع الشكل المعروف، ووضع رمزا خاصا للهمزة، وهو عبارة عن رأس عين صغيرة (ء)، وفي اختيار هذا الرمز إحساس بالعلاقة بين صوت العين وصوت الهمزة المتقاربين مخرجا؛ ووضع الخليل أيضا رمز الشدة () للصوت المدغم في غيره، وربما كان ذلك إيجاء وإشارة لظاهرة الإدغام، التي كانت بعد ذلك من أهم القضايا التي شغلت التفكير الصوتي، كما يبدو إدراكه واضحا للعلاقة بين الحركات القصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) والحركات الطويلة (الألف والياء والواو) التي للمدّ ويتجلّى ذلك في نظام الشكل الذي ابتكره الخليل، وكلّما نجد قضية صوتية في العربية لم يتحدّث عنها الخليل، أو لم يشر إليها، وقد وصل إلى تلك المعارف بجهده الخاص، واتباع المنهج العلمي القائم على البحث والاستقراء، والتجربة، والملاحظة².

وقد تناولت مقدمة كتاب العين القضايا الصوتية الآتية³:

لمرتبب الحروف ترتيبا صوتيا.

لماعتبار الراء واللام والنون ذات وضع خاص وتسميتها بحروف الدلالة؛ وذلك لأنّها تخرج من ذلق اللسان؛ أي: بطرف أسلته، ولا ينطق طرف اللسان إلا بالراء واللام والنون فقط، وألحق الخليل بن أحمد الفراهيدي بهذه الثلاثة الفاء والباء والميم؛ لأنّها شفوية، وأطلق عليها اسم الدلالة كذلك.

لمتأكيده على أن حروف الدلالة الستة أسهل من غيرها في التطق، لذلك تكثر في أبنية الكلام، ولا يخلو أي بناء رباعي أو خماسي منها أو من بعضها.

لم الحديث عن مخارج الأصوات تفصيلا.

كان للخليل تأثير في الذين جاؤوا من بعده؛ فقد أولى الكوفيون عناية فائقة بالبحث الصوتي انعكست في نتائج جدّ مميزة؛ إذ درسوا الحروف الأصول، على أنّها ثمانية وعشرون، وذهبوا إلى أن الهمزة (بين

¹ - مقدمة تحقيق كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت، ج1، ص10

² - ينظر: علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، 75-77

³ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر ص94. و: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، ص10-26

بين) ليست بمتحركة ولا ساكنة، كما بحثوا في همزة الوصل؛ وبينوا مواضع الاتفاق والاختلاف بين مدرستي البصرة والكوفة، وقد تأثر الكوفيون برأي الخليل بن أحمد الفراهيدي فيها، في أن حركتها للاتباع والمجانسة ووجهوا عنايتهم أيضا إلى دراسة مخارج الحروف، وبرز في هذا المجال الفراء، وتجلّى جهد الكوفيين كذلك في دراستهم للحركات؛ من حيث المصطلحات، ومراتب النطق، والميل إلى الانسجام الحركي وأهميته في البحث الصوتي، كما وقفوا عند مسألة الوقف، وعالجوا جوانبها المختلفة من إشمام وروم، ووقف على المقصور، ونقل الحركة، وعالجوا بعض الظواهر الصوتية؛ كالإمالة والإدغام¹.

— سيبويه (ت180هـ)

ورث الخليل عمله وفكره لتلاميذه من بعده، وكان أشهرهم سيبويه (ت180هـ)، الذي حفظ معارف أستاذه وعمّقها، وأضاف ما عنّ له إليها، ووضع وصف تفصيلي لأصوات العربية، كما تجلّت عنده دراسة واسعة لظاهرة الإدغام، وملاحظات دقيقة تتعلّق بالحركات وبكتمها الزمّني وكلّ هذا في مؤلّفه الكتاب، الذي شمل قضايا كثيرة تتعلّق بالجانب الصوتي، تكشف عن المنهج العلمي الذي اتّبعه، سالكا في ذلك خطى أستاذه، ممّا يشهد له ولأستاذه بالدقّة والتفرد، وكان هذا المنهج منهجا وصفيّا قائما على الملاحظة الذاتيّة والمشاهدة والاستقراء، وكانت أفكارها مرجعا لكلّ من جاء بعدها من علماء النّحو، واللّغة، والتّجويد؛ فاستلهم بذلك سيبويه أفكار وتعليقات أستاذه وصاغها بشكل يتّسم بالشّمول والدقّة؛ فكان دقيقا في تحليلاته وتعليقاته وتقسيماته لصفات الأصوات ومخارجها فضلا عن دراسة الأصوات أثناء التّركيب وما يتعلّق بمختلف الظّواهر الفونولوجيّة التي درسها بدقّة واعيّة تنمّ عن إدراك عميق لأسباب وعلل تلك الظّواهر².

ولم يفرد سيبويه الدّرس الصوتي في جزء معيّن أو باب مستقل في كتابه، غير أن معظم القضايا الصوتية المتعلّقة بالأصوات وصفاتها ومختلف القضايا المتعلّقة بها، كانت بابا ومدخلا لدراسة ظاهرة الإدغام؛ يقول سيبويه في ذلك: «وإنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصّفات لتعرف بها ما يحسن به الإدغام، وما لا يحسن في ذلك ولا يجوز، وما تبدله استثقالا لما تدغم، وما لا تخفيه وهو بزنة المتحرّك»¹.

¹ - ينظر: المدخل إلى الصوتيات تاريخا جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص20

² - ينظر: المرجع نفسه، ص77-78

¹ - الكتاب، الكتاب، أبو بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تح: محمد كاظم البكاء، مكتبة زين الحقوقية والأدبية، بيروت-لبنان، ط1،

1435هـ/2015م، ج1، ص436

لقد حصر سيبويه حروف العربية في تسعة وعشرين حرفاً، رتبها حسب مخارجها مبتدئاً بالحلقي ومنتهياً بالخشوم، وجعل مخرج الألف من أقصى الحلقي، والواو والياء من مخرج الحروف المتحركة؛ إذ أسقط مخرج الجوف الذي جعله الخليل للواو والياء والألف اللينة، فجاء ترتيبه للحروف على الشكل الآتي: الهمزة، الألف والحاء والهاء والعين والغين والحاء والكاف والقاف والضاد والذال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والتاء والفاء والباء والميم والواو¹.

والمتمّن في الجانب الصّوتي عند سيبويه يجده مستنداً على فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي، يوافقه في مواضع ويخالفه في أخرى؛ فأعضاء النطق عند الخليل وعنده واحدة، والحروف في مدارجها، ويعني بها الأصوات تبعاً للخليل، فهي تبدأ بأقصى الحلقي وتنتهي بالشفّتين، وهي عنده كما هي عند الخليل، ويختلفان في ترتيب هذه الأصوات؛ حيث بدأ سيبويه بالهمزة والألف والهاء، وقدّم العين على الحاء، وأخّر القاف على الكاف، وهكذا وإن كان خلافاً جوهرياً في ترتيب مخارج الأصوات، لأنّه لا يعني أكثر من عملية اجتهادية في الموضوع، دون الخروج عن الأصل عند الخليل².

المطلب الثالث: مرحلة الاستقلال في التأليف مع ابن جني (ت392هـ)

إذا كان الخليل وسيبويه تناولا موضوعات صوتية في مواضع متفرقة من كتابيهما؛ فإن اجني أول من أفرد تأليفاً مستقلاً لدراسة الصوت اللغوي العربي؛ جمع فيه أفكار المتقدمين المبثوثة في ثنايا كتبهم؛ فهو قد جمع المفرق من الموضوعات في تأليف مستقل جامع.

إنّ حصيلة دراسات الخليل بن أحمد الفراهيدي الصّوتية و سيبويه وغيره من اللّغويين المتقدّمين قد آتت أكلها في القرن الرابع الهجري على يدي ابن جني الذي كان له الفضل في جمع التّراث الصّوتي للذين سبقوه؛ فهو امتداد لفكر الخليل وسيبويه؛ حيث عالج مختلف القضايا الصّوتية في العربية، وخصّها بمؤلّف مستقل من خلال كتابه سر صناعة الإعراب، كما عالج في كتبه الأخرى مختلف القضايا الصوتية، كالإدغام والإبدال والإمالة وغيرها.

¹ - ينظر : المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص94

² - المرجع نفسه، ص94

ولما كانت الوسائل والأجهزة العملية لاختبار الصّوت منعدمة في ذلك الزمن، اتّبع ابن جني وغيره من اللّغويين الطّريقة السّمعية المعتمدة على إرهاف السّمع وملاحظة مخارج الحروف وصفاتها، وغيرها من القضايا الصّوتية، سواء ماتعلّق منها بالأصوات - كما ذكرنا- أو بالتّظام الصّوتي كمواضع الاستبدال بين الحروف والإدغام، وتوصّلوا في تجاربهم اللفظية/السمعية إلى نتائج مفيدة ونافعة قد أقرت بها الدّراسات الصّوتية الحديثة ببعضها¹، وقد اتّسمت أعمالهم بالدّقة؛ يقول ابن جني في كيفية النّطق بالحرف: «وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكنا لا متحركا، لأنّ الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجذب به إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله؛ لأنّ الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: إك إق إج، وكذلك سائر الحروف»².

ويمثل ابن جني مرحلة متقدّمة في تطوّر الدّرس اللّغوي عامّة، والصّوتي خاصّة؛ ويظهر ذلك بجلاء في كتابه *سر صناعة الإعراب*؛ من حيث المفاهيم الإجرائية، وآليات البحث في الأصوات العربية تحليلا وتعليلا وتصنيفا³، وقد أفرد لهذا العلم اسم: «علم الأصوات» في مقدّمة كتابه، وجعل مباحث علم الأصوات مدخلا لدراسة قضايا التّصريف المتداخلة، جاعلا بذلك هذا العلم المستوى القاعدي والأساس الذي تقوم عليه باقي المستويات اللّغويّة الأخرى من صرف ونحو وبلاغة⁴، وقد استهلّ حديثه عن الأصوات اللّغوية بتعريفات أولية عن أهم القضايا الصّوتية، يقول أثناء تمييزه بين الصّوت والحرف: «اعلم أن الصّوت عرض يخرج مع النّفس مستطيلا متّصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشّفتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا»⁵، كما ربّ ابن جني حروف العربية على نحو ترتيب سيبويه، مخالفا بذلك ترتيب الخليل؛ حيث رأى في ترتيبه صوابا تؤيّد الملاحظة الدّقيقة والتّأمل العميق في خصائص تلك الأصوات ومخارجها¹.

معظم الآراء التي ساقها ابن جني في كتابه *سر صناعة الإعراب* نالت إعجاب المستشرقين وعلماء اللّغة الأوروبيين؛ ففي ثنايا بحوثه نحسّ بمبلغ القوّة العلميّة والدّقة الفائقة حتى ليثير إعجابنا، وصفه

¹ - ينظر: منهج البحث اللّغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث لعلي زوين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986م، ص62-63

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص19-20

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص21

⁴ - ينظر: المدخل إلى الصوتيات تاريخا جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص96

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص19

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص59

للجهاز الصّوتي وصف الفيلسوف الحكيم، والعالم التجريبي الذي كشف عن الأسرار الصّوتية، وأنها تحتاج إلى دراسة آلية - كما ذكر علماء اللغة المحدثون-؛ فقد شبّه الحلق بالنّاي (المزمار)، وشبّه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع؛ حيث تختلف الأصوات باختلاف وضعيّة الأصابع، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، كان ذلك سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة؛ حيث قدّم ابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب) توضيحا لحدوث الأصوات ممثّلا بالعود ووتر النّاي لحدوث الصوت يقول في ذلك: «شبّه بعضهم الحلق والفم بالنّاي، فإنّ الصّوت يخرج مستطيلا أملس ساذجا (...). فإذا وضع الزامر أنامله على خرّق النّاي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرّق منها صوت لا يشبه صاحبه»¹. ويقول أيضا: «ونظير ذلك أيضا وتر العود، فإن الضّارب إذا ضربه، وهو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدّى صوتا آخر، فإن أدناه قليلا سمعت غير الاثنين»².

نظرة ابن جني هذه نظرة علمية دقيقة صائبة تشير إلى حاجة الدّراسات الصّوتية إلى الجانب العملي التّطبيقي المعتمد على الآلات، كما يتّضح جليا في العصر الحديث الذي أجريت فيه التّجارب المعتمدة على الآلات والأجهزة الحديثة³؛ فجاءت بذلك آراء ابن جني مبيّنة نظريته العلمية الدقيقة في دراسة الأصوات، وجمع فيها بين الجانبين النظري والتّطبيقي؛ فقد تكلم عن الصوت المفرد بكلمات علمية لها مفهوم محدد، بالإضافة إلى تناوله الأصوات العربية أثناء التركيب.

وقد تميّز الدّرس الصّوتي عند ابن جني بجملة من الإضافات التّوعية إلى الدّرس الصّوتي العربي من أبرزها¹:

- إدراكه الدّقيق لمفهوم جهاز التّطق ووظيفته وطبيعته؛ إذ شبّه مجرى الهواء في الحلق والفم عند إنتاج الصّوت بوتر العود أو النّاي، مستثمرا هذا التّشبيه بوصفه أداة تفسيرية لتوضيح آلية إنتاج الصّوت

¹ - المصدر نفسه، ص 21

² - المصدر نفسه، ص 22

³ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، دار الكتاب الحديث، القاهرة،

1430هـ/2009م، ص 18

¹ - ينظر: الفكر اللغوي عند العرب القدماء: دراسة تأصيلية، عاطف فضل، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة إربد الأهلية، الأردن،

العدد 49، (مارس 2017م)، ص 126

اللّغوي، كما ميّز بوضوح بين الصّوامت والحركات اعتمادا على طبيعة ممرّ الهواء أثناء النّطق، وهو ما عبّر عنه باتّساع مخرج الحرف، وعدم انقطاع الهواء في حالة الحركة.

- تنبّه إلى طبيعة العلاقة القائمة بين الألف والواو والياء من جهة، والفتحة والضّمة والكسرة من جهة أخرى، مبيّنا أن الفارق بينهما لا يتجاوز اختلافا في مقدار الطول أو في كمية الصّوت، مع إشارته إلى أن أطوال الألف والواو والياء تتغيّر تبعا لاختلاف السياقات الصوتية التي ترد فيها.

- وتكشف الأبحاث الصّوتية المتعدّدة لابن جني عن إرسائه أصولا عامّة لعلم الأصوات وفق المنظور العربي؛ إذ يشتمل كتابه على مباحث فونيتيكية خالصة تتناول مخارج الأصوات وصفاتها، إلى جانب مباحث فونولوجية تُعنى بخصائص أصوات العربية ونظامها الصّوتي، ويُضاف إلى ذلك استخدامه الصّريح لمصطلح العلم في تعبيراته مثل: علم الأصوات والنغم وعلم الأصوات والحروف، بما يدل على وعيه المبكر باستقلال هذا الحقل المعرفي وطابعه العلمي المنهجي.

وقد سلك الخفاجي مسلك ابن جني في سر الصناعة؛ ومن ذلك قوله: «إن الواضع لها (اللغة) إن كانت مواضعة تجنب في الأكثر كل ما يثقل على النّاطق تكلفه، والتلفظ به -الجمع بين الحروف المتقاربة في المخارج وما أشبه ذلك- واعتمد مثل هذا في الحركات أيضا، فلم يأت إلا بالسهل الممكن دون الوعر المتعب، ومتى تأملت الألفاظ المهملة لم تجد العلة في إهمالها غلا هذا»¹؛ وهذا الكلام ذكره ابن جني في كتابه الخصائص وهو قائم على مبدأ الخفة والثقل في باب "ذكر علل العربية أكلامية هي أم فقهية"¹.

واعتمد اللّغويون الذين جاؤوا بعد ابن جني على ما جاء به هذا اللغوي وسابقه؛ إذ يرى عبد العزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود أن «العرب الذين حملوا راية الدّراسات الصّوتية، منذ عهد الخليل حتى عهد ابن جني، قد تخلّوا عن ريادةهم، عندما أصابهم الخمول وركنوا إلى الدّعة والكسل

¹ - سر الفصاحة، أبو مُحمّد عبد الله بن مُحمّد بن سعيد بن سنان الخفاجي، مكتبة لسان العرب، مصر، د.ط، 1372هـ/ 1952م، ص50

¹ - الخصائص، ابن جني أبو الفتح عثمان، تح: مُحمّد علي النجار، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ-2006م، ص77-107

العقلي، ففقد هذا الجانب من الدّرس أهمّيته وعناية العلماء به في العالم كلّ، حتى كانت التّهضة الأوروبية الحديثة، فاستعادت هذه الدّراسة قيمتها وأهمّيته، واتّسعت جوانبها وفروعها¹.

المبحث الثاني: التفكير الصوتي عند علماء القراءات والتجويد

اهتمّ علماء التّجويد والقراءات اهتماما بالغاً بالصّوت ووظيفته في الأداء القرآني، ويرتكز ذلك أساساً على تحليل الأصوات اللّغوية، وكيفية نطقها بشكل صحيح، بالإضافة إلى ملاحظة مختلف الظّواهر الصّوتية المرتبطة بهذا النّطق، فحلّلوها تحليلاً قائماً على السّماع والمشاهدة، مما أسهم في تأسيس قواعد صوتية رصينة تمثل نواة الدّرس الصّوتي في صورته التطبيقية بشكل أدقّ.

المطلب الأول: تجليات التفكير الصوتي عند علماء القراءات والتجويد

كان لعلماء التّجويد والقراءات باع طويل وإسهامات قيمة في هذا المجال؛ ويعدّ الإمام أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت224هـ) في القرن الثالث الهجري أوّل من جمع هذا العلم في كتابه "كتاب القراءات"، وقيل: إنّ أوّل من فعل ذلك هو حفص بن عمرو الدوري، وقد اشتهر في القرن الرّابع الهجري الحافظ أبو بكر بن مجاهد البغدادي، وهو أوّل من ألّف في القراءات السبع المشهورة، وفي القرن الخامس برز الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت444هـ)، مؤلف كتاب: "التيسير في القراءات السبع"، كما لمع في هذا العلم أيضاً الإمام مكي بن أبي طالب القيسي صاحب كتاب "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة"، وقد جاء كتابه مستقصياً، جامعاً وملخصاً لآراء العلماء والنحاة واللغويين والقراء قبله، ثم في القرن السادس الهجري برز أبو القاسم الشاطبي، وبعده استمر العلماء في الجد والاجتهاد، حتى قيّض الله لهذا العلم إمام المحققين، وشيخ المقرئين محمد بن الجزري الشافعي الذي ألّف كتباً كثيرة، أشهرها: النشر في القراءات العشر، كما نظم في التجويد، كتابه المعروف: بالمقدمة فيما على القارئ أن يعلمه¹؛ وبهذا اشتملت القراءات القرآنية على مجموعة من الظواهر الصوتية يقول ابن الجزري (ت833هـ): «أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به عن مقاربه، وتوفية كل حرف

¹ - علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، ص82

¹ - ينظر: المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص99

صفته المعروفة توفية تخرجه من مجانسه»¹، وهكذا يكون علماء القراءة قد «سجلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية، ووضعو رموزا كتابية تمثل هذه الخصائص»².

كما استمرّ الاهتمام بالمباحث الصوتية بوضوح في كتب علم التجويد، ولا سيما في شروح المقدمة الجزرية لابن الجزري، وقد تعزّز هذا الاهتمام على أيدي عدد من العلماء المتأخرين الذين عُنوا بتعليم قراءة القرآن الكريم، من أبرزهم مُجد المرعشي، المعروف بساجقلي زاده الذي ألّف كتاب **جهد المقل**، ثم شرحه في كتابه **بيان جهد المقل في علم التجويد**، وقد اشتمل هذان العملان على دراسة معمّقة وواسعة لأصوات العربية، تتقاطع في كثير من نتائجها مع الحقائق الصوتية التي أثبتتها الدراسات اللغوية المعاصرة³.

حافظ المسلمون على قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة منذ بزوغ فجر الإسلام؛ إذ كان المستوى النطقي من أهم وسائل حفظ القرآن الكريم من التحريف، وهذه عي الغاية عند علماء التجويد، ومن ثمّ فقد وصفوا قواعد وضوابط لدراسة اللغة العربية؛ فوصفوا المخارج وصفا دقيقا وبيّنوا صفاتها، فنشأ في القرن الرابع الهجري ما يسمى بعلم التجويد، هذا العلم الذي يُعنى بـ«دراسة مخارج الأصوات وصفاتها وما يترتب على ذلك من أحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق»⁴. والتجويد كعلم مستقل بذاته قد تأخر في الظهور بالنسبة إلى كثير من علوم العربية وعلوم القرآن، وقد استخلص علماء التجويد مادتهم الصوتية من مؤلّفات اللغويين والنحويين وعلماء القراءات، وصاغوا منها علم التجويد، وواصلوا أبحاثهم في هذا المجال مستنديين إلى تلك المادّة، مع إضافة خلاصة جهدهم إليها؛ حتى بلغ علم التجويد مرتبة عالية من التّقدّم في دراسة الأصوات اللغوية، وعلى الرّغم من استنادهم على جهود سابقين من علماء العربية وعلماء القراءات، فإنّ عملهم جاء متميزا الشّمول والخصوصية، وبينما تناول علماء العربية الموضوع في إطار الدرس الصرفي، تجاوز علماء التجويد هذا الإطار؛ وذلك بالنظر إلى أصوات اللغة نظرة أشمل من ذلك، أما علماء القراءات؛ فقد انشغلوا برواية النص القرآني الكريم وضبط حروفه وبيان ألفاظه المختلف فيها، ونقلها كما نقلتها طبقات علماء القراءات

¹ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري مُجد بن مُجد بن مُجد بن علي بن يوسف، دار ابن الجوزي، مصر، القاهرة، ط1، 1435هـ/ 2014، ج1، ص214-215

² - علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1997م، ص96

³ - ينظر: المدخل إلى علم الأصوات العربية، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص11

⁴ - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، 1428هـ/ 2007م، ص15

طبقة عن طبقة حتى وصلت إلى طبقة الصحابة رضوان الله عليهم، الذين تلقوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم¹.

يتجلى استقلال علم الأصوات بوضوح أكبر في مؤلفات علماء التجويد؛ إذ أفردوا للمباحث الصوتية المرتبطة بقراءة القرآن الكريم كتباً مستقلة عن كتب القراءات، وأطلقوا عليها اسم علم التجويد، وقد بدأ هذا الاتجاه في القرن الرابع الهجري على يد أبي مزاحم الخاقاني، الذي نظم قصيدة في تحسين أداء القرآن الكريم، عدّها ابن الجزري أول مصنف مستقل في علم التجويد²، وهي قصيدة من واحد وخمسين بيتاً يقول في مطلعها³:

أَقُولُ مَقَالًا مُعْجَبًا لِأُولِي الْحِجْرِ وَلَا فَحْرَ إِنَّ الْفَحْرَ يَدْعُو إِلَى الْكِبْرِ

أَعْلَمُ فِي الْقَوْلِ التَّلَاوَةَ عَائِدًا بِمَوْلَايَ مِنْ شَرِّ الْمَاهَاةِ وَالْفَحْرِ

يشارك علماء التجويد والقراءات القرآنية في العناية بألفاظ القرآن الكريم، غير أنهما يختلفان من حيث الموضوع والمنهج؛ فعلم التجويد لا ينصرف إلى تتبع اختلاف الروايات بقدر اهتمامه بتحقيق الأداء الصوتي وضبط اللفظ القرآني المتفق عليه في الجملة بين القراء، بينما يُعنى علم القراءات بإثبات أوجه الاختلاف المنقولة عن الأئمة، ومن حيث المنهج، تقوم كتب القراءات على الرواية المعتمدة على النقل والمشافهة، في حين تُعدّ كتب التجويد كتب دراية، تركز على التحليل الصوتي، والتعليل اللغوي، واستنباط القواعد، وقد أشار مكّي بن أبي طالب القيسي إلى هذا الفرق في كتابه الرعاية، مبيناً أن كتب القراءات تحفظ الروايات المختلف فيها، أما كتب التجويد فتحكم ألفاظ التلاوة التي لا خلاف فيها، فكانت تلك كتب رواية، وهذا كتاب دراية- يقصد كتابه- ويتجلى ذلك في منهجه؛ إذ لم يقتصر على عرض الأحكام التجويدية، بل حرص على تحليل الظواهر الصوتية وتعليلها تعليلًا لغويًا¹.

¹ - ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، ص21

² - ينظر: المدخل إلى علم الأصوات العربية، غانم قدوري الحمد، ص10

³ - ينظر: هدي المجيد في شرح قصيدتي الخاقاني والسخاوي في التجويد، جمال مُجَدِّد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، د.ط، د.ت، ص16

¹ - ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكّي بن أبي طالب القيسي، تحق: أحمد حسن فريحات، دار عمار، عمان، الأردن، ط3،

1417هـ/1996م، ص26، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم بن قدوري الحمد، ص22

ومع هذا التمييز لا يفهم أن الرواية والدراسة علمان منفصلان أو أن أحدهما يغني عن الآخر؛ بل إن الدراية متوقفة على الرواية، إذ لا يمكن النظر والتحليل قبل ثبوت المنقول، فالرواية تمثل الأصل الذي تُبنى عليه الدراية، ومنها تنطلق عملية الفهم والاستنباط، وبها تتحقق الدقة العلمية ويرتقي العلم، كما لا يُقام فرع بلا أصل ولا بناء بلا أساس¹.

المطلب الثاني: منهج علماء التجويد في الدراسة الصوتية

وتُظهر كتب التجويد المؤلفة في القرن الخامس الهجري - والتي وصلت إلينا - اكتمال البناء العلمي لهذا الفنّ وشمول مباحثه؛ إذ تناولت دراسة أصوات اللغة من مختلف جوانبها، وقد لخص الحسن بن القاسم المرادي أسس علم التجويد في أربعة أركان رئيسة²:

لـ أحدها: معرفة مخارج الحروف.

لـ والثاني: معرفة صفاتها.

لـ والثالث: معرفة الأحكام الصوتية الناشئة عن تركيب الأصوات.

لـ والرابع: تدريب اللسان على الأداء الصحيح من خلال الممارسة وكثرة التكرار.

ولا يخلو كتاب من كتب التجويد من تناول الأركان الثلاثة الأولى، وهي المخارج والصفات والأحكام الصوتية أثناء التركيب، والتي تمثل جوهر الدرس الصوتي العربي قديماً وحديثاً، في حين يختصّ الركن الرابع بالجانب التطبيقي القائم على التلقّي والمشاهدة ورياضة اللسان على النطق السليم، ما يضمن أداء القراءة أداءً صحيحاً مضبوطاً، متصل السند إلى النبي ﷺ وفق أصول الرواية المعتمدة، يقول ابن الجزري في مقدمته¹:

وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَرْكِهِ... إِلَّا رِيَاضَةُ امْرِئٍ بِفَكِّهِ

¹ - ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم بن قدوري الحمد، ص22

² - ينظر: المدخل إلى علم الأصوات العربية، غانم قدوري الحمد، ص10-11

¹ - منظومة المقدمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن علي بن يوسف بن الجزري، تح: أيمن رشدي سويد، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط2، 1433هـ/2012م، ص18

فليس بين التّجويد وتركه فرق إلا رياضة امرئ؛ أي مداومته على القراءة والتكرار والسماع من أفواه القراء المجيدين، لا مجرد الاختصار على النقل¹.

وهذا يدل على أن منهج علم التجويد؛ أي طريقتهم في دراسة الأصوات اللغوية منهج شامل استغرق جميع المباحث المتعلقة بعلم الأصوات النطقي، وهو منهج خالص لم تختلط فيه الدراسة الصوتية بما عداها من الموضوعات؛ إذ تناول الموضوعات الأساسية في علم الأصوات النطقي، والتي شملت²:

1/ إنتاج الأصوات اللغوية وتقسيمها: من خلال دراسة آلة النطق ومخارج الحروف وصفاتها.

2/ الأحكام الصوتية الناتجة عن تركيب الكلام: أي الظواهر الصوتية المرتبطة بالنطق. كما تناول المنهج موضوعات تكميلية تتعلق بالتعليم الصوتي والتدريب على النطق؛ إذ يقوم على التلقي المباشر عن المعلم المتقن، يليه التدريب المستمر على النطق، وهو ما عرف برياضة اللسان، ويتميز هذا المنهج بإطار نقدي متوازن، حيث تضمن القاعدة المدونة ضبط الأداء الصوتي ومنع الانحراف، في حين تعمل الدراية العملية على تدقيق هذه القاعدة والارتقاء بها نحو دقة أعلى في التعبير عن جوهر العملية النطقية³.

بالإضافة إلى شمولية منهج علماء التجويد في دراسة الأصوات، فإن منهجهم كان كذلك منهجا صوتيا مستقلا ومحدد المعالم، على الرغم من اشتغالهم بعلوم متداخلة كعلم القراءات، والنحو، والصّرف، ورسم المصحف، والوقف والابتداء، وقد أدرك هؤلاء العلماء مبكرا ضرورة الفصل المنهجي بين علم التجويد وغيره من العلوم، فخصّصوا له كتباً مستقلة عالجت القضايا الصوتية المتعلقة بأداء القرآن الكريم، وهو شرط أساسي في تميّز أي علم واستقلال منهجه؛ فقد استقرّ مصطلح علم التجويد منذ القرن الخامس الهجري ليكون عنوانا جامعاً لهذه المباحث الصوتية، بعد مرحلة تردّد اصطلاحية ظهرت في المؤلفات الأولى، ولا سيما عند مكي بن أبي طالب والداني، ومع هذا الاستقرار الاصطلاحي، غدا علم التجويد علما

¹ - ينظر: المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية، ملا علي بن سلطان مُحمّد القارئ، شرح: زكريا الأنصاري، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، 1367هـ/1948م، ص22

² - ينظر: المرجع نفسه، ص64

³ - ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، ص64

يُعنى بـ كيفية الأداء الصوتي للحروف من حيث مخارجها وصفاتها وأحكامها عند التركيب، لا برواية وجوه الاختلاف القرائي¹.

ومن أبرز مظاهر خلوص المنهج الصوتي عند علماء التجويد تمييزهم الواضح بين التجويد والقراءات؛ إذ جعلوا القراءات علم رواية يعتمد على النقل، بينما جعلوا التجويد علم دراية يقوم على المشاهدة ورياضة اللسان والتحليل الصوتي، فدراسة الظواهر الصوتية ذاتها - كالإدغام أو المد - تدخل في علم التجويد، أما اختلاف القراء في تطبيقها فيرجع إلى علم القراءات، كما وعى علماء التجويد حدود علاقتهم بعلوم أخرى؛ فعلم الوقف والابتداء، وإن كان له أثر في حسن الأداء، عُدّ علما مستقلا، ولم يُدرج في كتب التجويد إلا على سبيل التكميل أو الإجمال، وكذلك الشأن في مباحث التصريف ورسم المصحف، التي أُحيل تفصيلها إلى مظانها الخاصة، حرصا على نقاء موضوع التجويد، كما تكشف طرائق تبويب كتب التجويد، على اختلاف عصورها، عن هيمنة البعد الصوتي في تنظيم المادة العلمية؛ إذ تدور غالبا حول مخارج الحروف وصفاتها، وأحكامها عند التركيب، مع تفاوت في الأسلوب والتقسيم يعكس تطوّر التفكير الصوتي لا اضطرابه².

وخلاصة القول؛ أن منهج علماء التجويد في دراسة الأصوات العربية منهج صوتي شمولي، قائم على وصف الظاهرة الصوتية وتحليلها في سياق الأداء القرآني، مع وعي دقيق بحدوده العلمية، وحرص واضح على تمييزه عن غيره من العلوم المتصلة به.

المبحث الثالث: الدرس الصوتي عند علماء إعجاز القرآن الكريم والبلاغة

أسهم مؤلفو كتب إعجاز القرآن وعلوم البلاغة إسهاما جليا في الدرس الصوتي؛ إذ قدّموا معطيات صوتية ذات قيمة علمية، وركزت معظم مباحثهم على ظاهري تنافر الأصوات وتآلفها؛ أي: تحقيق الفصاحة من خلال مراعاة الانسجام الصوتي، مما استلزم بحث مخارج الحروف، وبيان أثر القرب أو البعد المخرجي في تحقيق التنافر أو التآلف.

المطلب الأول: عند الرماني (ت 384هـ)

¹ - ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، ص 64-84

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 64-84

نجد في علم البلاغة مباحث تتعلق بالأصوات؛ كحديثهم عن فصاحة الكلمة، وشرطهم: خلّوها من تنافر الحروف ونحو ذلك؛ ومَن سلك هذا المنحى علي بن عيسى الرُّماني في كتابه: "النكت في إعجاز القرآن الكريم"؛ فقد ذكر فيه أقسام البلاغة العشرة المعروفة في عصره؛ ومنها: التلاؤم والإيجاز؛ ومن ذلك ما قاله في الموازنة بين قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة، 179]، وقول العرب: "القتل أنفى للقتل" ذكر أن الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحسن، وموجود في اللفظ بأن الخروج من الفاء إلى اللام "في القصاص" أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد صوت الهمزة عن اللام في القتل أنفى، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء في "القصاص حياة" أعدل من الخروج من الألف إلى اللام "أنفى للقتل"، وأما التنافر؛ فعلته ما ذكره الخليل بن أحمد الفراهيدي من البعد الشديد أو القرب الشديد؛ وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة المشي المقيد؛ لأنّه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه وكلاهما صعب على اللسان ولذلك وقع الإدغام والإبدال في الكلام¹.

المطلب الثاني: عند ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)

يرى ابن سنان الخفاجي أنّ مسألة تنافر الأصوات قد تناولها من سبقه من العلماء؛ إذ ينقل رأي الرماني الذي ذهب إلى أن التنافر ينشأ إمّا عن تقارب الحروف في المخارج، أو عن تباعدها تباعداً شديداً، وهو رأي يعزوه إلى الخليل بن أحمد ويُسبِّبه هذا الاتجاه شدة التباعد بالطفر، وشدة التقارب بمشي المقيد، لما في الحالتين من مشقة على اللسان، ويرى أنّ الاعتدال بينهما هو موضع السهولة، ومن هنا فسّر وقوع الإدغام والإبدال في الكلام².

غير أن ابن سنان الخفاجي يخالف هذا الرأي، ويصرّح بموقفه قائلاً: «والذي أذهب أنا إليه (...) لا أرى التنافر في بعد ما بين مخارج الحروف وإنما هو في القرب»¹؛ ويستدل على ذلك بكلمة "ألم"، مبيناً أنّها غير متنافرة مع أنّها مكوّنة من حروف متباعدة المخارج؛ إذ إن الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين،

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 19-20

² - ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تح: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط 3، 1976م، ص 184

¹ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ص 184

واللام متوسطة بينهما، ويؤكد أن هذا التركيب - وفق الرأي السابق - كان ينبغي أن يُعدّ متنافرا لبلوغ حروفه غاية البعد، ثم يخلص إلى أن استقراء الأمثلة لا يثبت أثرا للبعد الشديد في التنافر¹.

ويعرّز ابن سنان رأيه بالاحتجاج بظاهرتي الإدغام والإبدال، معتبرا إياهما شاهدين على أنّ التنافر إنّما ينشأ من تقارب المخارج لا من تباعدها؛ إذ لا يقعان في الاستعمال اللغوي إلا طلبا للخفة وتجنبًا لثقل تقارب الحروف، ويؤكد في ختام حجّته أن هذا الرأي هو الأجدر بالاعتماد، مستندا في ذلك إلى التتبع والتأمل بوصفهما أساسا للحكم العلمي الصحيح².

المطلب الثالث: عند الباقلاني (ت 403هـ)

ضمّن أبو بكر الباقلاني (القرن الرابع الهجري) كتابه الشهير "إعجاز القرآن" عددا وافرا من المباحث الصوتية، اتخذها أداة لتحليل الآيات القرآنية، والكشف عن وجوه إعجازها، ومن أبرز القضايا التي تناولها في هذا السياق بحثه في فواتح السور، ولا سيما سرّ اختيار حروف بعينها دون غيرها لهذه الفواتح³، وأهم ما ذكره في هذا الجانب⁴:

لـيشير أبو بكر الباقلاني إلى أن الحروف التي يقوم عليها كلام العرب تبلغ تسعة وعشرين حرفا، في حين أن عدد السور التي افتتحت بذكر الحروف يبلغ ثمانا وعشرين سورة، وتشكل الحروف المذكورة في أوائل السور نصف مجموع حروف المعجم؛ أي: أربعة عشر حرفا، مما يشير إلى دلالة هذه الحروف على غيرها من الحروف، كما يقسم الباقلاني هذه الحروف إلى أقسام؛ فهناك حروف مهموسة وعددها عشرة: الحاء، الهاء، الخاء، الكاف، الشين، الثاء، الفاء، التاء، الصاد، السين، وما تبقى من الحروف فهي مجهورة، ويلاحظ أن نصف الحروف المهموسة المذكورة ضمن الحروف الواردة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة، بلا زيادة ولا نقصان، ما يدل على انتظام اختيار الحروف وتوازنها¹.

¹ - ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ص 184-185

² - ينظر: المرجع نفسه، 185

³ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 97

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 97

¹ - ينظر: إعجاز القرآن، الباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب، تح: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 2009م، ص 66-67

لم يذكر الباقلائي أن نصف حروف الحلق، وهي: العين، الحاء، الهاء، الخاء، الهمزة والغين، قد وردت في فواتح السور، وكذلك نصف الحروف غير الحلقية، كما يوضح أن نصف الحروف الشديدة، وهي: الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، التاء، الدال، الطاء، والباء، وردت ضمن هذه الحروف، مع الإشارة إلى أن الطاء، القاف، الكاف، والهمزة مذكورة تحديداً في فواتح السور. وبالنسبة للحروف المطبقة، وهي: الطاء، الضاد، الصاد، والظاء، فقد ذكر الطاء والصاد في هذه الفواتح، مما يعكس انتظام توزيع الحروف في البنية الصوتية للفواتح.

لموفيما يتعلّق بالبدء بحروف "ألم"، يوضح الباقلائي أن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة؛ لأنها تُنتج بالشفّتين، ومن هنا نبّه إلى ذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنّه أتى بذلك الكلام المنظوم اعتماداً على ما تعارف الناس عليه من الحروف التي تتوزع بين هذين الطرفين¹.

المبحث الثالث: التفكير الصوتي عند الفلاسفة

نالت الدّراسة الصّوتية العربية عناية فائقة لدى الفلاسفة، الذين تناولوا الصوت كعنصر أساسي في تشكّل اللغة وتوليد الدلالة اللغوية، ولم يكن هذا الاهتمام منفصلاً عن الجهود التي اضطلع بها اللغويون في تحليل الأصوات وبنيتها، ولا عن إسهامات علماء القراءات والتجويد في تقعيد الأداء الصوتي وضبطه، ولا عن آراء علماء الإعجاز والبلاغة الذين أبرزوا الوظيفة الجمالية والدلالية للصوت في الخطاب القرآني، وقد اهتم بهذا الجانب ثلّة من الفلاسفة، من أبرزهم الفارابي وابن سينا، وإخوان الصفا، وسنركز على الجهود الصوتية للفارابي والطبيب ابن سينا.

المطلب الأول: الفارابي (ت 340هـ)

كان للفلاسفة دور بارز في مجال الدّرس الصوتي؛ كالفارابي الذي تناول مختلف الجوانب الصّوتية من خلال كتابيه: "إحصاء العلوم"، "الموسيقى الكبير"؛ حيث عرض فيهما تصوّرات دقيقة عن طبيعة الصوت، وطرق توليده، وصلته بالمخارج والآلات¹.

وكان الفارابي على معرفة عميقة بعلوم اللغة، ولا سيما علم الأصوات، رغم انشغاله بالفلسفة والمنطق؛ فقد استوعب علم الأصوات في أبعاده الثلاثة: الفيزيائي والنطقي والسمعي، وكان من أوائل من فسّر

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 68-69

¹ - ينظر: المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص 100

عملية السمع تفسيراً فيزيائياً قائماً على مبدأي التضاغط والتخلخل في جزيئات الهواء، كما أدرك الفارابي حقيقة الصوت ومصدره الفيزيائي وأسباب حدوثه، ويرتبط نبوغه الصوتي بتمييزه الموسيقي نظرياً وعملياً؛ إذ أسهم في تععيد النظريات الموسيقية، وبيان السلم الموسيقي، وتحليل أثر الألحان الانفعالي والتخييلي في النفس الإنسانية والحيوانية، وانتبه الفارابي مبكراً إلى مفهوم المقطع وتقسيمه على نحو قريب من التصورات اللسانية المعاصرة، واهتم بعلم الأصوات النطقي عبر تحديد أعضاء النطق والتمييز بين أعضاء التصويت وغيرها، وتميّز بتمييزه الدقيق بين الصوت والحرف مفهوماً ووظيفةً، كما قسم الأصوات اللغوية إلى مصوّنة وغير مصوّنة، وقسم غير المصوّنة بما يخدم الحسّ النغمي والموسيقي الذي يهيمن على تصوّره الصوتي¹.

المطلب الثاني: ابن سينا (ت 428هـ)

يعدّ ابن سينا من أبرز من تناول الصوت من منظور علمي شامل؛ إذ اجتمعت في بحوثه صفات النّضج والاكتمال التي لم تتوافر بهذا الشكل لكثير ممن جاء قبله²، وقد سلك طريقاً آخر في دراسة أصوات اللّغة؛ في رسالته المسماة بـ "أسباب حدوث الحروف" عرض فيها الأصوات العربية وأسباب حدوثها، ووصف أجزاء الحنجرة واللّسان وذلك في ستة فصول من الكتاب، وذلك على أساس تشريحي علمي³.

وتنقسم رسالة أسباب الحروف إلى ستة فصول رئيسة، حيث خصّص كل فصل لدراسة جانب محدّد من قضايا الحروف وأسبابها وهي كما يلي:

لـ **الفصل الأول** في سبب حدوث الصوت؛ حيث يبحث فيه ابن سينا في طبيعة الصوت وكيفية تشكّله.

لـ **الفصل الثاني** عنوانه: سبب حدوث الحروف، وفيه يتحدث عن مخارج الأصوات ومحابسها .

لـ **مخصص ابن سينا الفصل الثالث** لتشريح الحنجرة واللسان، فكان تحت اسم: في تشريح الحنجرة واللسان؛ وصف فيه أعضاء النطق، بما في ذلك مكوّنات الحنجرة واللسان ودورها في إنتاج الحروف .

لـ أما **الفصل الرابع** فعالج فيه الحروف العربية، وبين كيفية صدور كل حرف منها، ووصف العملية العضوية مع كل حرف وصفا مفصّلاً .

¹ - ينظر: المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، ص 100

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 100

³ - ينظر: علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، ص 81

لـ وأما الفصل الخامس فكان في الأصوات التي سمعها في لغات أخرى غير العربية؛ مثل: السين الزائفة، والزاي المسينية، والزاي الطائية، والفاء الشبيهة بالباء.

لموأنهى ابن سينا رسالته بفصل فريد بين فيه كيفية إنتاج هذه الأصوات بحركات غير نطقية؛ حيث ناقش فيه ابن سينا إمكانية سماع بعض الحروف نتيجة حركات فيزيائية غير مرتبطة بالنطق المعتاد.

تعكس هذه الفصول تنظيماً منهجياً محكماً متدرجاً من العام إلى الخاص؛ حيث تبدأ بدراسة الصّوت وطبيعة نشوئه، ثمّ تنتقل إلى تحليل الحروف وأسبابها مع ربطها بأعضاء النّطق، وتشمل مقارنة الحروف العربية بأصوات شبيهة ودراسة الظواهر الصوتية غير المعتادة، ويظهر من هذا التدرج منهج علمي متكامل يجمع بين التحليل التفصيلي للحروف والتشريح الصوتي.

ويرى ابن سينا أن تمييز الحرف (الصوت) عن غيره يعتمد على مجموعة من العوامل، منها¹:

لـ اختلاف نقطة التّحكم في مجرى الهواء: حيث تتباين هذه النّقاط باختلاف الأجرام التي يحدث عندها الحبس والإطلاق؛ فقد تكون هذه الأجرام ألين أو أصلب، أكثر ييساً أو أكثر رطوبة، وقد يختلف الحبس في صغره أو كبره، والمحبوس في كثافته أو نقصه، والمخرج في ضيقه أو اتساعه، وشكله بين الاستدارة والعرض مع دقة في الصنع، كما يختلف الحبس في شدته أو لينه، ويختلف الضغط بعد الإطلاق في قوته وسلامته.

لـ اختلاف حالة التّموج: بعد أن بيّن أن الصّوت نفسه ينشأ عن التّموج، يوضح أن حالة التّموج تعتمد على اتّصال أجزاء الصّوت مع بعضها أو تماسه، أو على تشظيه؛ فالاتصال بين الأجزاء يولد الحدة، بينما التشظي يُحدث الثقل، وهكذا يكون الحدة ناتجة عن الاتصال، والثقل ناتج عن التشظي.

يعرض ابن سينا تصوّراً صوتياً يربط بين حدّة الصوت وثقله وطبيعة الجسم المولّد له؛ فالأجسام عالية الكثافة تنتج أصواتاً حادّة، والأقل كثافة تنتج أصواتاً ثقيلة، كما ميّز بين الأصوات بحسب طريقة التحكم في الهواء عند النطق، مفرّقاً بين الحبس التام والناقص، وهو ما يقابل تقسيم الحروف إلى مفردة ومركبة، أي الوقفية

¹ - ينظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تح: مُحمّد حسان الطيّان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط1،

والاحتكاكية في الاصطلاح الحديث، ويعتمد هذا التمييز على التحليل الزمني للنطق؛ إذ لا تمتد الحروف المفردة صوتياً، بخلاف المركبة¹.

قسّم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) إلى مفردة على الإطلاق، وهي: الباء، والتاء، والجيم، والذال، والطاء، والقاف، والكاف، والهمزة، حيث يتحقّق فيها الحبس التّام دون امتداد صوتي، ومفردة من وجه، وهي: الضّاد، واللام، والميم، والنون، لاقتزان الحبس فيها بقدر من الامتداد، وباستبعاد هذه الحروف، تكون الحروف المركبة عنده؛ هي بقية الأصوات، وتمتاز بامتداد الصّوت زمنياً نتيجة اجتماع الحبس مع الإطلاق، ويمتاز مصطلح **المركب** عند ابن سينا بسعته المفهومية؛ حيث يستوعب صوت الراء المكرّر، وقد أفرد ابن سينا للأصوات العربية فصلاً كاملاً في رسالته، وهو **الفصل الرابع**، وقد المعنون بـ "في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب" وتناول في هذا الفصل دراسة الأصوات العربية دراسة تفصيلية؛ إذ عالج كل صوت على حدة، ملتزماً ترتيباً خاصاً عرض فيه الحروف على النحو الآتي²: الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الخاء، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، السين، الصاد، الزاي، الطاء، التاء، الدال، الثاء، الذال، الطاء، اللام، الراء، الفاء، الباء، الميم، النون، الواو الصامتة، الياء الصامتة، المصوتات: الألف الصغرى والكبرى، الواو الصغرى والكبرى، الياء الصغرى والكبرى³.

ما نلاحظه على ترتيب ابن سينا ما يأتي⁴:

لـتفريقه بين السّواكن والعلل، وتسميته الأولى: صوامت؛ والثانية: مصوّتات.

لـتفريقه بين نوعين من الواو والياء؛ فنوع أدرجه في الصوامت، ونوع أدرجه في المصوتات.

لـتفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى).

لـاتباعه الطريقة العربية التي ترتب الأصوات من الداخل إلى الخارج.

يتسم ترتيب ابن سينا بعدد من السمات أبرزها¹:

¹ - ينظر، البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص107

² - ينظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص72-85

³ - ينظر، البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص107-108

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص108-109

- عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جني.

- تقديم القاف على الكاف مخالفا في ذلك سيبويه.

- إبعاد الواو والياء إلى ما بعد الانتهاء من الصوامت .

- تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) إلى ذيله.

فكان ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت؛ ثم أشباه المصوتات؛ ثم المصوتات .

- وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما؛ لاشتراكهما في صفة الأنفية .

- أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر، ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد في معجمه العين .

أما تناوله لمخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها، فيتسم بدرجة عالية من الدقة والتفصيل، تفوق ما نجده في مؤلفات اللغويين، وقد أسهمت خبرته العملية الواسعة في تشريح جسم الإنسان وفهم تركيب أعضائه في تمكينه من وصف الحركات العضوية وصفا علميا دقيقا، وتحديد العضلات والمفاصل المشتركة في عملية إنتاج الصوت؛ ومن ذلك قوله عن الهمزة أنها «تحدث من حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير، ومن مقاومة الطَّرْجَهالي الخاصر زمانا قليلا لحفز الهواء، ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالعضل الفاتحة وضغط الهواء معا»².

نخلص مما تقدم ذكره؛ إلى أن علماء العربية القدماء أسهموا ببحوث متميزة في ميدان الدراسات الصوتية، بالاعتماد على ملاحظاتهم الدَّاتية والدَّوق بعيدا عن الآلات والأجهزة الحديثة.

ويمكن تلخيص أهم النقاط التي تطرق إليها علماء الأصوات العرب في¹:

● النظرية العربية في الأبجدية (الحروف) الصوتية على أساس المخارج والمدارج والمقاطع كما عند الخليل وسيبويه والفرّاء.

¹ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص109

² - ينظر: أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص72.

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجَد، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1434هـ/013م، ص55-59

- النظرية العربية في أجهزة النطق وأعضائه، وتشبيهه بالناي تارة، وبالعود في جسّ أوتاره تارة أخرى (كما عند ابن جني) وكذا التطرق إلى كيفية حدوث الأصوات وانتقالها و العناصر المساهمة في تشكيله (كما هو الحال مع الفلاسفة مثل إخوان الصفا، ابن سينا، الفارابي...).
- النظرية العربية في التمييز بين الأصوات ذات المخرج الواحد عن طريق الصفات المميزة.
- النظرية العربية في ربط الإعلال والإبدال، والترخيم والتنغيم، والمدّ والإشمام بعميلة حدوث الأصوات وتركيبها.
- النظرية العربية في التلاؤم بين الحروف وأثره في سلامة الأصوات، والتنافر فيها وأثره في تنافر الأصوات (كما هو الحال في الدرس البلاغي).
- النظرية العربية في أصول الأداء القرآني، وعروض الشعر والإيقاع الموسيقي، وعلاقة ذلك بالأصوات (لأن العروض هو علم موسيقى الشعر العربي بمراعاة التوازن بين الساكن و المتحرك أو التفاعيل). النظرية العربية في التوصل إلى معالجة بعض القضايا النحوية (الحركة الإعرابية وما ينوب عنها من حروف)، والمسوغات الصرفية في ضوء علم الأصوات.

وتفصيل ذلك على النحو الآتي¹:

1- وضع أبجدية صوتية للأصوات العربية على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي أولاً؛ ثم سيبويه ثانياً، ثم ابن جني؛ حيث كان ترتيب هؤلاء بحسب المخارج من أقصى الحلق إلى الشفتين، كما وُضعت رموز خطية لهاته الأصوات.

2- عرف العرب معظم أعضاء النطق في جهاز التصويت؛ فعرفوا الحنجرة، والحلق، واللهة، والحنك، والأنف والخيشوم، واللسان، والأسنان، والشفيتين.

3- تحدثوا عن مخارج الأصوات وتقسيماتها، فحدّدها الخليل خمسة مخارج أو أحياز عامة وسبعة مخرجا خاص¹، وسيبويه بستة عشر مخرجا خاصاً²، وقد حددت مخارج أصوات العربية الفصحى في وقتنا الحاضر بعشرة مخارج هي: الحنجرة للهمزة والهاء، والحلق للعين والحاء، واللهة للقف، والطبق للكاف والغين والحاء، والغار للشين والجيم والياء، والثلة للام والراء والنون، والأسنان مع الثلة للذال والضاد والتاء

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجّد، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1434هـ/013م، ص55-59

¹ - العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج1، ص64-65

² - الكتاب، سيبويه، ج4، ص433

والطاء والزاي والسين والصاد، والأسنان للذال والطاء والثاء، والشفة والأسنان: الفاء، والشفة الباء والميم والواو¹.

4- صَنَّفُوا الأصوات بحسب صفاتها، وفرقوا بينها بناء على ذلك؛ فمنها المجهور والمهموس، والشديد والرخو، والمطبق والمنفتح.

5- اهتمدوا إلى تقسيم الحروف إلى صحيحة ومعتلة، ثم قَسَمُوا أصوات العلة إلى قصيرة، وهي: الحركات: الكسرة والفتحة والضمة، وحروف المد الطويلة: الألف والواو والياء؛ فقد اعتمد ابن جني في هذا التقسيم على اتساع مخارج الأصوات المدية يقول في ذلك: «والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء، ثم الواو (...)» أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر².

ويقول في موضع آخر: «اعلم أن الحركات أبعاد حروف المد اللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة كذلك الحركات ثلاثة كذلك الحركات ثلاثة؛ وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو (...)» ويدل ذلك على أن هذه الحركات أبعاد لهذه الحروف؛ وذلك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه³، ويبدو أنهم أدركوا القسم الآخر للعلل، وهو الذي سميت من أجله حديثاً بأنها أشباه العلل Semi (Vowels) في نحو (ظي، وولد)، فالواو والياء فيهما ليستا مداً أو حرفي علة، وإنما هما أشبه بالأصوات الصحيحة التي تقبل الحركات، فتعامل معاملة الأصوات الصحيحة.

6- توصّل علماؤنا إلى أن إنتاج الأصوات يتمّ التّحكم به عن طريق تدفّق الهواء في مجراه أو حجزه جزئياً أو انحباسه كلياً، وهذا واضح من خلال تشبيه ابن جني لمجرى الهواء بالناي¹. يقول أيضاً ابن سينا في هذا الصّدّد حين فرق بين الأصوات الشديدة أو الانفجارية والأصوات الرخوة أو الاحتكاكية: «إنّ سبب حدوث الحروف هو الهواء المتموج في مسلكه، يصادفه مخارج ومحابس تنتج عنها الحروف، وقد تحدث

¹ - ينظر: المدخل إلى علم اللغة، رمضان عبد التواب، ص 30-31

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 21

³ - المصدر نفسه، ص 33

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 22

بعض الحروف عن حبس تام للهواء بعده يطلق دفعة واحدة؛ مثل: الباء والتاء والذال والقاف والكاف واللام والميم والنون، وبعض الحروف تنتج عن حبسة غير تامة للهواء وهي سائر الحروف»¹.

7- كان علماؤنا على دراية بما يُعرف اليوم بـ"الوحدة الصوتية المميزة" ووظيفتها في بنية الكلمة؛ وذلك في حال استبدالها فتحل محل أخرى فتعطي معنى مختلفا كما في نفر ونفق، فالقاف والراء مقابلان استبدالان فكل منها يعطي معنى جديدا للكلمة، إذا استبدل بالآخر مع ثبوت النون والفاء، وقد تنبه إلى ذلك ابن جني².

8- إدراك علماؤنا تأثير بعض الملامح الصوتية المصاحبة بمفهومها وإجراءاتها أو الفونيمات غير التركيبية في اصطلاحات فيرث كالنبر والتنغيم.

9- قدّموا التفسير الصوتي الدقيق لكثير من الظواهر الصوتية التي تحدث في سياق الكلام، وهو التعليل الذي يُطلق عليه في عرف اللسان الحديث الاقتصاد في الجهد العضلي الذي يوفر انسجاما صوتيا، وتخفيفا وسهولة في النطق كالإدغام والإبدال بما فيهما من تقريب ومضارعة أو قلب مما اصطلح عليه حديثا بالتحديد أو المماثلة أو المخالفة.

10- لقد شغل علماؤنا القدامى كغيرهم بالقيمة التعبيرية للحرف العربي، أي بما يسمى في عصرنا بالعلاقة بين الصوت والمدلول (Sound Symbolism)، وحاول بعضهم كابن جني أن يثبت بكل ما أوتي من قدرة لغوية، أن هناك دلالة طبيعية للحرف العربي على المعنى، وفتح لها أبوابا في كتابه الخصائص³. وهذا التوجه قد أيّده الكثيرين شرقا وغربا، وإن انتهى الدرس اللساني إلى أن العلاقة بين الصوت والمعنى اعتباطية.

11- في حديث سيبويه والجاحظ عن الحروف التي تدخل فيها اللثة كالشين والقاف والراء وصف للنطق المرضي للأصوات (Articulation Theology) وهو سبق لعلمائنا لأحد منجزات علم اللسان الحديث باهتمامه الخاص فيما يسمى بعلم اللسان المرضي (Logopedy).

¹ - ينظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص 60-61

² - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجّد، ص 65

³ - ينظر: الخصائص، الأبواب: تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، ص 381، تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، 403، إمساس الألفاظ أشباه المعاني 407

فكان بذلك للغويين العرب القدامى قدم راسخة في سبيل تأسيس الدرس الصوتي؛ وقد تجلّت في عنايتهم بتحديد مخارج الأصوات وصفاتها الدقيقة، ودراستها حال انفرادها، وفي أثناء التركيب وما ينتج عنها من ظواهر صوتية؛ كالإدغام والإبدال والمماثلة والمخالفة.

وعليه؛ يمكن القول أن الدرس الصوتي العربي القديم أسهم في رسم معالمه؛ ووضع أسسه: اللغويون، وعلماء التجويد والقراءات، وعلماء إعجاز القرآن الكريم والبلاغة، والفلاسفة؛ حيث أسهم كل فريق من هؤلاء في بلورة المفاهيم الصوتية وإثراء الدرس الصوتي العربي، مما مهد الطريق لبزوغه بملاحه الأصيلة المتميزة؛ ذلك أن الناظر في التراث العربي يجد أن الظاهرة الصوتية قد تناولها الفيلسوف والبلاغي والناقد وعالم الكلام والنحوي وعالم التجويد كل من زاوية نظره؛ ومن الموقع الذي يخدم فيه العلم الذي يهتم بوضعه أو تأصيله أو الإسهام في توضيح ما غمض منه؛ وعليه فالدرس الصوتي العربي مفتوح على العديد من العلوم وموزع بينها؛ الشيء الذي نتج عنه تفتيت الظاهرة الصوتية؛ وإلحاق كل عنصر منها بعلم من العلوم المذكورة؛ وهكذا درس الفيلسوف والموسيقي الأصوات من وجهة نظر فيزيائية بالدرجة الأولى؛ (لأنهم يبحثون في ماهية الأصوات وكيفية حدوثها وتنوعها)، والنحوي من وجهة تأليف هذه الأصوات، ومن ثمة؛ تأثيرها في بعضها البعض؛ وما ينتج عنه من الظواهر الصوتية الصرفة من إدغام وإعلال... وعالم التجويد من وجهة تحقيق نطق سليم وقراءة معيارية للنص القرآني؛ والناقد والبلاغي من وجهة تنافر وتلاؤم الحروف المؤلفة؛ ومن ثمة أدوات تحقيق نصوص أدبية ذات جرس موسيقي.¹

المبحث الرابع: الدرس الصوتي في العصر الحديث

ومن جانب آخر فقد بدأت الدراسة الصوتية في أوروبا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي على يد العالم الرياضي الإنجليزي جونز (jones)، الذي انطلق في أبحاثه من الجانب الفيسيولوجي والتشريحي، كما فعل عالمنا العربي ابن سينا، فقد استطاع جونز تحديد الأصوات الصامتة والحركات، طبقاً لمواضع نطقها في داخل الفم؛ حيث كانت هذه الدراسة فاتحة أعمال أخرى كثيرة سارت على منوالها، وقد ظل هذا الاتجاه قائماً على هذا النهج حتى ظهر إلى الميدان العالم الفيزيائي الفيسيولوجي هلمهولتز Helmholtz من خلال كتابه علم إدراكات الصوت، فأحدث بذلك ثورة في هذا الجانب من الدراسات الفيسيولوجية والفيزيائية؛ حيث أدخل

¹ - مدخل إلى الدراسة الصوتية عند العرب القدماء، مبارك حنون، مجلة جذور، السعودية، ع5، مارس 2001، ص578

المنهج الفيزيائي في معالجة الصوت الإنساني إلى جانب المنهج الفسيولوجي¹.

برز في القرن التاسع عشر اتجاهان رئيسان في دراسة الأصوات؛ عني أحدهما بدراسة أنماط الأصوات اللغوية، وقد مثل هذا الاتجاه علماء اللغة؛ أمثال: بوب (Boop) وجريم (Grimim) وفون همبولت (von humboldt) وغيرهم، وعني الاتجاه الآخر بدراسة عملية صنع الأصوات اللغوية، والتركيب الأكوستيكي والفيزيائي للظواهر الصوتية، وقد مثل هذا الاتجاه عدد من علماء الفسيولوجيا، والفيزياء، ومن انضم إليهم من علماء النفس، ومن هؤلاء (ميلر، وتروتمن، وسيف) وغيرهم، وأجرى الأب روسلو (Rosillo) بحوثا صوتية على إحدى لهجات اللغة الفرنسية، مستخدما مناهج فسيولوجية وفيزيائية، وهو ما مهد لظهور علم الصوتيات العملي، الذي تستخدم فيه طرق عملية، وتطبق بصورة منتظمة على قضايا ومسائل لغوية. وقد شهدت الدراسة الصوتية بعد ذلك تطورا كبيرا على يد (تروبسكوي) الذي أسس علم الفونولوجيا، هذا العلم الذي قطع بعد ذلك شوطا كبيرا، وأسهم في هذا التطور ثلة من العلماء الفونولوجيين أمثال: روستي (Rostti) الذي عرف الفونيم بتعريف أقرب ما يكون من تعريف (تروبسكوي)؛ فهو تلك "الصورة الذهنية التي يصنعها الإنسان لنفسه عن شيء".²

وقد شهدت الدراسات الفونولوجية تطورا كبيرا، بظهور علم الصوتيات التوليدي (Generative phonology)، والذي يركز على نظرية البناء أو التركيب الصوتي للغة، وكان ذلك نتيجة لجهود اللسانيين الأمريكيين؛ وفي مقدمتهم تشومسكي (Chomesky) وهال (Halle). يضاف إلى ذلك أن القرن العشرين حصل فيه تقدما في مستوى الدراسات الصوتية العملية؛ حيث دخلت هذه الدراسات في مجالات كثيرة: الطب والهندسة والموسيقى¹.

وهنا نشير إلى أن الغربيين استفادوا من دراسات العرب الصوتية، وأصلوا عليها علوما كثيرة وفروعا للدراسات الصوتية، وذلك بفضل تطور العصر، وظهور الآلات الدقيقة، والدّرس المعلمي الصوتي، الذي مكن من تحديد الأصوات وضبطها بدقة فائقة².

¹ - ينظر: علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، ص 83، 85

² المرجع نفسه، ص 87

¹ - علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، ص 85-87

² - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 22

من أبرز اللسانين العرب المحدثين الذين استفادوا من الدرس الصوتي الغربي ونقلوه إلى السياق العربي: إبراهيم أنيس؛ وذلك من خلال " الأصوات اللغوية" قدم فيه وصفا جديدا للأصوات العربية باستثمار المعرفة اللسانية الحديثة؛ وما أقرته الدراسات الفونتيكية والفونولوجية، تبعه بعد ذلك ثلة من الباحثين العرب ؛ من هؤلاء عبد الرحمن الدواخلي الذي قدّم للفكر الصوتي العربي كثيرا من الأفكار عندما ترجم مع مُحمّد القصاص كتاب " فندريس" الموسوم "اللغة"، وعبد الرحمن أيوب صاحب كتاب "أصوات اللغة"، وتمام حسان الذي وضّح لنا منهج الدرس الصوتي في كتابه: " مناهج البحث في اللغة"، وكمال بشر الذي انتفع دارسوا الأصوات بكتابه: " علم اللغة العام: الأصوات"، ومحمود السعران بكتابه النافع علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، وقد ترك لنا زميله مُحمّد أحمد أبو الفرج مكتبة صوتية ولغوية جاء بها من الخارج عند عودته، كانت مقصدا للطلاب والدّارسين بعده، وقد سار على درب هؤلاء كثير من تلامذتهم، كما نذكر إسهامات عبد الرحمن الحاج صالح الذي كانت له آراء متميزة في التأصيل للدرس الصوتي العربي، وكذا تناول قضايا فونولوجية، نحو: الفونيم والمقطع وأشكاله¹.

نبه إلى أن الدراسات الصوتية في التراث العربي نشأت نشأة أصيلة، وتطورت تطورا ذاتيا نابعا من حاجات المتكلمين بالعربية والمهتمين بدراسة نظامها اللغوي وقواعدها، وقد قطعت هذه الدراسات شوطا متقدما في بناء أسس علم الأصوات، فجاءت الدراسات الصوتية العربية الحديثة معتمدة عليها، ومتممة لما أرسته من مبادئ وقواعد، ويقرّ بذلك عدد كبير من مؤرخي الدرس الصوتي اللغوي عالميا بأسبقيّة الدراسات الصوتية العربية في إرساء حقائق هذا العلم على أسس علمية منهجية.¹

والحقيقة أن المؤلّفات العربية الحديثة في علم أصوات العربية تتباين إلى حد ما من حيث درجة اعتمادها على مصادر التراث الصوتي العربي؛ فبعضها يغلب عليه طابع الترجمة الحرفية لمؤلّفات علم الأصوات الغربية، وبعضها الآخر يسعى إلى الجمع بين المصادر التراثية والحديثة، بيد أن كثيرا من المؤلّفين يمنحون الدراسات الصوتية الغربية مساحة أوسع في أعمالهم، والنهج الأمثل يقتضي الاعتدال وتحري الدقة

¹ - ينظر : علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، ص 89

¹ - ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية، غانم قدوري الحمد، ص 11

العلمية؛ فإذا وُجدت الحقيقة العلمية في مصادر الدرس الصوتي العربي القديم، فإنّ الرجوع إليها أولى، وإلا فإن الاستفادة من الدراسات الحديثة تظلّ مشروعة؛ لأنها تخدم المعرفة العلمية.¹

المبحث الخامس: أهمية الدراسات الصوتية وفائدتها

تُعَدّ الدراسات الصوتية حجر الأساس في البحث اللغوي؛ إذ يمثل الصوت المادة الأولية التي تتجسد من خلالها الظواهر اللغوية كافة، ومن ثمّ فإن دراسة الأصوات اللغوية، من حيث مخارجها وصفاتها، وأنماط تألفها السياق الكلامي، تُسهم إسهاما جوهريا في تفسير بنية اللغة ومختلف وظائفها، وتمتد آثار الدرس الصوتي إلى سائر المستويات اللغوية، كالصرف والنحو والدلالة، وذلك فإن الإحاطة بالدراسات الصوتية تمثل شرطا منهجيا لا غنى عنه لأي بحث لغوي يتوخّى الدقة العلمية والشمول المعرفي، ومن الصعب «أن تكون لغويا دون أن تكون لديك معرفة متينة في علم الأصوات»²؛ وذلك لأنّ «أيّ دراسة تفصيلية للغة ما تقتضي دراسة تحليلية لمادتها الأساسية، أو لعناصرها التكوينية، وتقتضي دراسة تجمعها الصوتية»³.

ويشير الباحثون إلى عدد من الأمور التي تبرز فائدة وأهمية الدراسات الصوتية، ومنها:⁴

1- **المحافظة على صحة الأداء القرآني:** فمن الدوافع الرئيسة التي تحثنا على دراسة الأصوات أنها تخدم القرآن الكريم؛ وذلك بالحفاظ على أحكام قراءته، وإخراج كل حرف من مخرجه، وإعطائه حقه ومستحقه.

2- **تعليم اللغة، سواء أكانت لغة قومية أم أجنبية،** فالإلمام بالمبادئ الأساسية لعلم الأصوات يعين المتعلّم على إدراك الفروق الدقيقة بين الأصوات المتقاربة، ويُعَدّ ضرورة لا غنى عنها لمعلّم اللغة، لتمكينه من توجيه المتعلّمين إلى النطق السليم، وقد أثبتت التجربة التعليمية أن الجهل بالجانب الصوتي يؤدي إلى التباس في التمييز بين الأصوات، كما هو الحال في صعوبة التفريق بين بعض الأصوات في اللغات الأجنبية، أو في تكون تصورات خاطئة عن أصوات اللغة العربية نتيجة التشابه الشكلي في النظام الكتابي، رغم اختلاف العلاقات الصوتية الحقيقية بينها.

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص12

² - علم الأصوات، المالمج، ص268

³ - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص347

⁴ - ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية، غانم قدوري الحمد، ص300-304، والفكر الصوتي عند علماء العربية قديما وحديثا، فتحي أبوعبد المجيد الدابولي، ص54-57

3- دراسة اللغة: وتبرز أهمية علم الأصوات كذلك في دراسة اللغة دراسة علمية؛ إذ إن اللغة في أصلها نظام صوتي تنتظم فيه الأصوات لتشكّل الكلمات والتراكيب، ومن ثمّ فإنّ الفهم الدقيق للنظامين الصّري والنّحوي متوقّف على الإحاطة بالنّظام الصوتي، وقد أسهمت الحقائق الصوتية في تفسير كثير من القضايا الصرفية والنحوية في العربية.

4- تعليم الصّم والبكم النّطق، ومعالجة عيوب النّطق: كما يدخل علم الأصوات في تعليم النّطق للصّم والبكم ومعالجة عيوب النّطق؛ حيث تعتمد هذه المجالات على توظيف المعارف الصوتية لمساعدة من حرّموا من الاكتساب اللغوي الطبيعي أو أصيبوا باضطرابات نطقية تؤثر في تواصلهم الاجتماعي وحالتهم النفسيّة.

5- تصنيع أجهزة الاتصالات الحديثة: ويمتدّ أثر علم الأصوات إلى تصنيع أجهزة الاتّصال الحديثة؛ إذ تعتمد هذه الأجهزة على فهم طبيعة الصّوت البشري وآليات إنتاجه واستقباله، ولذلك يشترك الأصواتيون ومهندسو الصّوت والاتّصال في تطوير تقنيات تحسين الاتّصال وتسجيل الصّوت وإعادة إنتاجه.

6- وتتنسّع مجالات الإفادة من علم الأصوات لتشمل قضايا أخرى، مثل وضع النظم الكتابية للأبجديات (نظم كتابية)، وفنون الأداء والإلقاء الصوتي.

كما أن الجهل بمبادئ علم الأصوات لا يقتصر أثره على الجانب النظري، بل ينعكس مباشرة على تحقيق التراث اللغوي وفهمه فهما صحيحا، ومن ثمّ فإنّ العناية بعلم الأصوات تمثل ضرورة علمية وثقافية، لما له من دور محوري في الدراسات اللغوية العربية وفي التعامل الرصين مع نصوصها التراثية.

ويمكن القول إجمالاً أن للدراسة الصوتية أهمية قصوى في جوانب عدة؛ في مجال اللغة والمجتمع؛ فهي مهمة جداً للباحث اللغوي بصفة عامة «إذ لا يمكن الأخذ في دراسة لغة ما أو لهجة ما دراسة علمية ما لم تكن هذه الدراسة مبنية على وصف أصواتها وأنظمتها الصوتية»¹؛ وعلى هذا «يجب على دارس الأصوات اللغوية أو عالم اللغة بوجه عام أن تتوافر له القدرة على وصف جميع الأصوات الكلامية الخاصة بأي لغة من اللغات»²؛ فالدراسة الصوتية لها أثر كبير يمكن استخدامه في وضع أبجديات دقيقة للغات التي ليس لها كتابات حتى الآن، كما أن دراسة الأصوات مهمة جدّة في صرف اللغة ونحوها؛ إذ أن

¹ - علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص 133

² - المرجع نفسه، ص 154

الأبواب التشكيلية أصواتية تنغيمية، وإن كانت هناك أبواب عامة نحوية في طبيعتها، كالجملية المؤكدة وغير المؤكدة، والطلب والتقرير، والتمني وما إلى ذلك، كما لا يمكن دراسة الصرف دراسة صحيحة إلا بالاعتماد على الوصف الصوتي، فدراسة المادة الصوتية تعتبر الخطوة الأولى لدراسة تركيب الكلمات (morphology) ودراسة الجانب الصرفي للغة، وهذا الربط بين علمي الصرف والأصوات واضح من دراسات علمائنا الأقدمين، فقد حاولوا بيان التغيرات التي تطرأ على أبنية الكلمة العربية وهي - في معظمها - تعتمد على الأصوات، كما يعدّ النحاة العرب دراسة أصوات اللغة قسماً من أقسام النحو الكبرى، ودراسة الأصوات ذات صلة وثيقة بالدراسة المعجمية؛ إذ لا بد للمعاجم من الاستعانة بالأصوات، وهو ما نلاحظه في مقدمة معظم المعاجم، كما نجد هذه الصلة في المعاني التي تدل عليها الحروف والكلمات؛ إذ إن تحديد المعنى أحياناً يتوقف على الطريقة الصوتية كالنبر والتنغيم¹، وهذا ما ذكره ابن جني في باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني وترتيب الأصوات وفق الأحداث المعبر بها عنها".

وبناء على ما سبق يمكن القول؛ إن العرب القدماء، في إطار دراستهم اللغوية، قد بلغوا شأواً متقدماً في البحث الصوتي، وهو ما أثار دهشة الدارسين المحدثين من العرب والغربيين على حدّ سواء؛ فقد اتّسمت دراساتهم بنظرات فاحصة وآراء دقيقة، قامت على التحليل والاستقراء وربط الظواهر الصوتية بوظائفها النطقية والسمعية، كما أن كثيراً من تصوّراتهم وملحوظاتهم ونتائجهم تتوافق في جوانب متعددة - إلى حدّ كبير - مع ما انتهى إليه علم الأصوات الحديث من نتائج ومنجزات علمية، وهو ما يدلّ على أصالة الدّرس اللّغوي العربي وعمقه المنهجي، ويؤكد أن التّراث اللّغوي العربي لم يكن مجرد اجتهادات وصفية، بل كان يحمل في طياته بذور التّفكير العلمي المنظم.

وبعد الوقوف على المحطات الكبرى لنشأة التفكير الصوتي، وما ميّز كل محطة مع ذكر أبرز أعلامها، تتجه هذه الدراسة إلى تناول مختلف الظواهر الفونولوجية بتعريفها وبيان أقسامها، وتحليل أسبابها، ومختلف الجوانب المتعلقة بها.

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 23-25

الفصل الثاني:

الظواهر الفونولوجية

في اللغة العربية (تغيراتها وقوانينها)

تُغنى الصّوتيات الوظيفية بدراسة الأصوات اللّغوية من حيث وظيفتها، ومن ذلك دراسة التّغيّرات التي تطرأ على الأصوات اللّغوية داخل النّظام اللّغوي، وذلك وفق قوانين تضبط تفاعلها، ويركّز هذا الفصل على التّغيرات التي تصيب الفونيمات القطعية كالإبدال والإدغام وغيرهما، إضافة إلى الظّواهر التطريزية مثل النبر والتنغيم، كما يتناول القوانين الفونولوجية العامة بوصفها آليات منظمّة للتّغيرات الصّوتية وذلك كالمماثلة والمخالفة وغيرهما.

المبحث الأول: الفونيمات القطعية

وتُسمى الفونيمات التّركيبية أو الرّئيسية أو القطعية، وهي تمثّل الوحدة الصّوتية التي تشكّل جزءاً من أبسط صيغة لغوية ذات معنى منفصل عن السّياق، يتمّ تحليل الكلام إلى قطع متميّزة، وتنقسم إلى نوعين: الصوامت (الأصوات الصحيحة) والتي تعرف في الإنجليزية بـ: "consonant"، والصوائت والتي تعرف في الإنجليزية بـ: "vowel"، وهي في اللّغة العربية الحركات الثّلاث: الفتحة، الضمة، والكسرة، وعند تمديدها تصبح ستة¹.

المطلب الأول: الإبدال

تعدّ ظاهرة الإبدال من الظواهر الصوتية البارزة في اللغة العربية، لما لها من أثر جلي في بنية الكلمة، وقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام واسع لدى اللغويين والباحثين قديماً وحديثاً؛ إذ تناولوها بالدراسة والتحليل من مختلف جوانبها، وسعوا إلى تعليل وبيان أسبابها. فما تعريف هذه الظاهرة؟

1/ تعريف الإبدال:

أ/ الإبدال لغة:

ورد في لسان العرب: «البَدِيل: البَدَلُ، وبَدَّلَ الشَّيْءَ: غَيَّرَهُ (...) وَأَبْدَلَ الشَّيْءَ مِنَ الشَّيْءِ وَبَدَّلَهُ: اتَّخَذَهُ مِنْهُ بَدَلًا. وَأَبْدَلْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ، وَبَدَّلَهُ اللَّهُ مِنَ الْخَوْفِ أَمْنًا. «²؛ بمعنى: أن الإبدال هو جعل شيء مكان شيء آخر، قال تعالى: ﴿وَلَيَبْدِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور، 53]، وقال أيضاً:

¹ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 138-139

² - لسان العرب، مُحمَّد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور، دار الأبحاث للنشر، الجزائر، ط 1، 2008م، ج 1، ص 231 (ب د ل)

﴿قَاوَلْنِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان، 70]. جاء في المعجم الوسيط: «أَبَدَلَ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ وَمِنْهُ: اتَّخَذَهُ عِوَضًا عَنْهُ وَخَلَفًا لَهُ»¹.

يقصد بالإبدال في اللغة: العوض؛ و جعل الشيء مكان آخر.

ب/ اصطلاحا:

فهو: «جعل حرف مكان غيره»²، ويقول الجرجاني: «هو أن يُجعل حرف موضع حرف آخر؛ لدفع الثقل»³.

من التعريفين يتبين أن:

- الدلالة اللغوية تتداخل مع الدلالة الاصطلاحية للإبدال، فكلاهما تحمل معنى التّحوية والتّغيير والتّعويض، وإن كان اللغوي فيه عموم لجعل الشيء مكان شيء آخر، في حين الاصطلاحية قد خصص ذلك بالحرف.

- الهدف من الإبدال هو دفع الثقل والبحث عن السهولة.

وقد قسّم العلماء الإبدال إلى أقسام متعدّدة بحسب نوع الحروف؛ وأسباب الإبدال.

2/ أقسام الإبدال وحروفه:

ينقسم الإبدال إلى نوعين رئيسين؛ إبدال قياسي خاضع لضوابط وقواعد لا ينفك ولا يحد عنها، وإبدال سماعي سمع عن العرب ولا يخضع لضوابط معينة.

وعليه؛ فالحروف التي يبدل بعضها من بعض يمكن تقسيمها إلى: قسمين⁴:

¹ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، ج1، ص45.

² - شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمد نور الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1975، ج3، ص197.

³ - التعريفات، الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985، ص21.

⁴ - ينظر: فصول في علم الأصوات مع دراسة لظاهرة الإبدال عند ابن جني، ناصر علي عبد النبي، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا - القاهرة - ط1،

1434هـ/2013، ص92-93.

أحدهما: الحروف التي يكون إبدال بعضها من بعض قياسا، كإبدال الهمزة من دعاو، وبناي، وكإبدال الألف من الواو والياء؛ إذا وقعت إحداها متحركة بعد فتحة، نحو: قال وباع، أصلهما: قَوْلَ وَبَيْعَ، فأبدلت الألف من الواو في: قَوْلَ؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ وكذا إبدال الألف من الياء؛ لتحركها(الياء) وانفتاح ما قبلها.

والصورة المستعملة في اللغة هي بعد الإبدال، أما الصورة الأولى (قبل الإبدال) فهي مهملة في الغالب؛ فكلمة بناء مثلا؛ بعد إبدال الهمزة من الياء؛ هي المستعملة، أما بنأى فهي غير مستعملة في اللغة.

ويطلق على هذا النوع اسم الإبدال المطرد: كما يسمى الإبدال القياسي أو الصرفي؛ وهو والإبدال الذي «يخضع لقواعد صرفية محكمة لا سيما في صيغتي (افتعل والافتعال)»¹؛ كإبدال تاء الافتعال طاء إذا جاءت بعد حروف الإطباق.

وقد حدّد اللّغويون عدد الأصوات التي تبدل قياسا، واختلفوا اختلافا بينا في هذا العدد، فعند بعضهم هي (أحد عشر) صوتا هي(الهمزة، والألف، والياء، والواو، والتاء، والdal، والطاء، والميم، والجيم، والهاء، والنون)²، وهي عند البعض الآخر(اثنا عشر) صوتا جمعت في قولهم(طال يوم أنجدته)³، وعند غيرهم(ثلاثة عشر) صوتا، وهناك من يعدها (أربعة عشر) صوتا⁴، وهناك من يعدها(تسعة) أصوات جمعها ابن مالك في عبارة: هدأت موطيا؛ قال ابن مالك:

أَخْرُفُ الْإِبْدَالِ هَدَأْتُ مَوْطِيَا فَأَبْدَلُ الْهَمْزَةَ مِنْ وَاوٍ وَيَا⁵

فهذه الحروف؛ هي: الهاء، والdal، والهمزة، والتاء، والميم، والواو، والطاء، والياء، والألف.

¹ - منهج الدرس الصوتي عند العرب، علي خليف حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011م، ص172

² - الكتاب، سيبويه، تح: محمد كاظم البكاء، مج5، ص551

³ - ينظر: الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م، ج2، ص70

⁴ - شرح المفصل، موفق الدين بن أبي البقاء يعيش بن علي الموصليابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، ج5، 347-348

⁵ - ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ابن مالك، مكتبة الآداب- القاهرة، 2001، ص64

هذا الاختلاف في عدد حروف الإبدال يدلّ على مرونة الدّرس الصّوتي العربي وتعدد آراء العلماء في فهم الإبدال وضبطه، كما يعكس تنوّع الاستخدامات اللّغوية في العربية، ويمثّل رأي ابن مالك ومن سار على دربه أشهر الآراء، اعتمد عليه كثير من اللّغويين المتأخّرين في التّفعيد والتّعليم.

3/ مظاهر الإبدال:

يمكن حصر مظاهر الإبدال في القوانين الآتية¹:

1- تُبدل تاء **افتعل** ومشتقاته ومصدره **ثاء**؛ إن كان فاء الكلمة **ثاء**، وتدغم فيها: **ثأر**، **ثُأر**، **أثأر**.

2- تُبدل تاء **افتعل** ومشتقاته ومصدره **طاء**؛ إذا كانت الفاء أحد **حروف الإطباق** (ص، ض، ط، ظ) نحو: "صفا، اصطفى، اصطفى"، "ضجع، اضجع"، "طرّد، اطرد، اطرّد"، "ظلم، اظلم، اظلم"، ويجوز بعد هذا الإبدال أن تُبدل الطاء حرفاً من جنس ما قبلها وتدغم فيه: "اصّفى، اصّجع، اطرّد، اظلم".

3- تُبدل تاء **افتعل** ومشتقاته ومصدره **دالا**، إذا كان فاء الكلمة أحد هذه الحروف (**د- ذ- ز**)؛ فيُقال في: "دعا: ادّعى، ادّعى"، وفي: "ذكر ادّكر ادّكر"، وفي: "زهر: ازهر، ازهر"، ويجوز بعد هذا الإبدال أن تُبدل الدال حرفاً من جنس ما قبلها وتدغم فيه: "ادّكر، ازهر"، وقد يُعكس الإدغام في بعض ما مرّ في القانونين الثاني والثالث، وذلك مع التاء والذال والطاء، فتقلب هذه الحروف إلى ما صارت إليه تاء الافتعال ثم تدغم: "إثأر، إدّكر، إظلم".

4- يجوز أن تُبدل تاء **تفاعل** و**تفعّل** و**تفعّل** ومشتقاتها حرفاً من جنس الفاء إذا كان هذا الفاء أحد الحروف الآتية: "ث- د- ذ- ز- ص- ض- ط- ظ"، ثمّ تُدغم فيه، ثمّ تجلب للكلمة همزة الوصل بسبب سكون أولها التّاجم عن الإدغام: "تثاقل، اثّقل"، "تذاكر، اذّكر"، "تدحرج، ادّحرج"، "تزّين، ازّين"، "تصالح، اصّالح"، "تضافر، اصّافر"، "تطلب، اطلب"، "تظلم، اظلم".

5- إذا وقعت **التاء** ساكنة قبل **الدال**، وجب إبدالها **دالا**، وإدغامها في الدال التي بعدها: "عتود، عتّودان، عدّان".

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مجّد الأنطاكي، دار الشروق العربي، بيروت، ط3، د.ت، ج1، ص113-115

6- إذا وقعت التّون ساكنة قبل الميم أو الباء، وجب قلبها ميمًا، فإن كانت الميم هي التي بعدها قلبت لفظًا وخطًا وأدغمت: "انمحي، انمحي"، أما إن كانت الباء هي التي بعدها، فالقلب في اللفظ لا في الخط: "سنبِل، سَمبِل".

7- تقلب الواو في كلمة "فو" ميمًا وجوبا في حالة الإفراد "الفم".

8- كما تُبدل فاء (افتعل) ومشتقاته ومصدره تاء إذا كانت فاؤه واوا أو ياء نحو: اتّزن، واتّعد وأصله: وتزن، ووتعد، فقلبت الواو تاء، وأدغمت في تاء (افتعل) فصار اتّزن واتّعد، وكذلك الياء تقول في افتعل من يأس: اتّأس.

والقسم الثاني: الحروف التي يكون إبدال بعضها من بعض عشوائيا: كإبدال الميم والباء مثل: اطمأنّ واطبأنّ، وغير ذلك من الحروف التي يُبدل بعضها من بعض إبدالا عشوائيا، لا يخضع للقياس؛ كإبدال السين والصاد، أحدهما من الآخر؛ فليست كل كلمة مشتملة على سين - مثلا - تُبدل سينها صادًا، أو العكس، وهذا النوع من الإبدال العشوائي على عكس الإبدال السابق؛ إذ يمكن أن تستعمل فيه صورتا الكلمة، سواء أكانت إحدى الصورتين تنتمي إلى لهجة، والأخرى تنتمي إلى لهجة أخرى، أم كانتا تنتميان إلى لهجة واحدة؛ وإن كان بعض العلماء كالبطليوسي يقصر الإبدال على الصورتين اللتين تنتميان إلى لهجة واحدة، ولا يرى في الصورتين اللتين تنتميان إلى لهجتين مختلفتين إبدالا¹.

في حين يذكر الثعالبي أن العرب يسلكون هذا المسلك من الإبدال؛ ويرى أن من سنن العرب إبدال الحروف، وإقامة بعضها مكان بعض، وذلك في نحو في قولهم: مدح ومدّه، وجدّ وجدّ، وخرم وخرم، وصقع وسقع، وفاض أي مات وفاظ، وفلق الصبح وفرقه، وفي قولهم: صراط وسِراط، ومُسيطر ومُصيطر، ومكّة وبكّة²، وهو ما أورده الصاحب في فقه اللغة؛ حيث يرى أن هذا النوع من الإبدال (العشوائي) «كثير مشهور، قد أُلّف فيه العلماء»³.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ج 1، ص 115

² - ينظر: فقه اللغة وأسرار العربية، الثعالبي، مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، (د.ت)، ص 248، وينظر: الصاحب في فقه اللغة، ابن فارس، تح: عمر الطباع، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، 1993م، ص 209

³ - الصاحب في فقه اللغة، ابن فارس، ص 209

كما يطلق على هذا النوع من الإبدال اسم **الإبدال اللغوي**، ويسمى كذلك الإبدال السماعي أو غير المطرد، وهو ما جمعه اللغويون من الألفاظ المتقاربة في أصواتها، والتي لها معنى واحد¹، ويكون هذا الإبدال لسبب معين أساسه العلاقة بين الأصوات من حيث مخارجها وصفاتها، فهل يكون الإبدال أثناء التقارب أو التباعد في المخرج؟.

وهناك مصطلحان آخران كانا يستخدمان عند بعض القدماء بمعنى: الإبدال العشوائي، هما: التعاقب، والقلب يستخدمان لإبدال حرف من حرف يقول الفراء: «إذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال: جدفٌ، وجدثٌ»².

أما مصطلح القلب فبمعنى الإبدال؛ يقول أبو علي الفارسي: «أصل القلب في الحروف إنما هو ما تقارب منها (...) فأما الحاء فبعيدة عن الثاء، وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداها إلى أختها»³.

وعلى الرغم من استخدام مصطلحي **التعاقب** و**القلب** عند بعض القدماء بمعنى: الإبدال أحيانا، فإن مصطلح **الإبدال** هو أنسب هذه المصطلحات- في الغالب- للدلالة على الظاهرة؛ لأنه الأكثر شيوعا عند القدماء والمحدثين؛ بدليل مجيئه وحده عنوانا على بعض الكتب التي ألفت في الظاهرة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمصطلحين الآخرين؛ حتى إن الكتب التي جاء فيها أحد المصطلحين عنوانا لها- جاء مصاحبا له مصطلح الإبدال في العنوان مثل: "الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي"، ومثل: "القلب والإبدال لابن السكيت"، ومصطلح الإبدال أيضا هو الأوضح والأدق في الدلالة على الظاهرة؛ فمصطلح القلب يكثر استخدامه عند بعضهم للدلالة على القلب المكاني في نحو: جذب وجذب، وليس القلب المكاني من الإبدال في شيء؛ ومصطلح التعاقب يعيبه أن يستخدم مرة بلفظ "التعاقب"، ومرة بلفظ "المعاقب"؛ فهو غير ثابت على لفظ واحد⁴.

¹ - ينظر: منهج الدرس الصوتي عند العرب، علي خليف حسين، ص 175

² - ينظر: معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط3، 1403هـ - 1983م، ج3، ص241، الأمالي، ج2، ص68

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص68

⁴ - فصول في علم الأصوات مع دراسة لظاهرة الإبدال عند ابن جني، ناصر علي عبد النبي، ص95

وعليه؛ فإنه بالرغم من استخدام القدماء لمصطلحي التّعاقب والقلب أحيانا بمعنى الإبدال، يبقى هذا الأخير الأكثر دقة ووضوحا؛ لانتشاره واستقلاله لتسمية عناوين الكتب مقارنة بالمصطلحات الأخرى.

والإبدال السماعي اللغوي « لا يخضع لقواعد، وليس له ضوابط عامة، كإبدالهم القاف من الكاف في "وكنة وقنة"، والحاء من العين في "ربع، ربع"، وهذا النوع ليس تبديلا صوتيا اقتضاه تبدل الأصوات بعضها ببعض، وإنما هو ضرب من اختلاف اللهجات»¹، ويندرج في هذا القسم ثلاثة أنواع من الإبدال تتمثل في²:

1- إبدال لهجي لم تتبّنه الفصحى، كإبدال بني تميم العين من همزة "أن"، وهذا النوع قياسي مطرد في لهجته، فلا ينطبق عليه وصف السماعي، وهو أيضا إبدال تُقرّه القوانين الصوتية.

2- إبدال سماعي تبنته الفصحى ولم تقس عليه؛ إبدال الفاء من الثاء في: **ثوم** ← **فوم**، فهو إبدال قياسي في لهجته سماعي في الفصحى، وهو أيضا إبدال تُقرّه القوانين الصوتية.

3- إبدال لا تُقرّه القوانين الصوتية، وليس له تفسير سوى أنه ضرورة شعرية ارتكبتها الشاعر في سبيل الوزن والقافية؛ وذلك كإبدال الياء من السين: **السادس** ← **السادى**.

فالإبدال السماعي ظاهرة لهجية غير خاضعة لقوانين وضوابط صوتية مطردة، ويصنّف إلى ثلاثة أنواع: لهجي غير متبع في الفصحى، وسماعي تبنته الفصحى دون القياس عليه، وشعري ضروري للوزن والقافية.

وقد ذكر صاحب كتاب "المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها" بعض الإبدالات السماعية على النحو التالي³:

1- **ثروغ الدلو** ⇔ **فروغ الدلو**: حكاه أبو علي عن يعقوب.

2- **ما اسبك؟** ⇔ **ما اسمك؟**: حكاه أبو علي عن الأصمعي.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ص113.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص113.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص117-122

3- ينفحن منه لهباً منفوحاً↔منفوخاً)، وقد وصف الصّرفيون هذا الإبدال بالشّدوذ الذي اقتضته الضّرورة الشعريّة في القافية، وقد يكون هذا صحيحاً من وجهة النّظر الصرفيّة، أما من وجهة النظر اللغويّة فهو إبدال صحيح؛ لأنّ النون والفاء في اللغة تدلان على الظهور بغض النظر عما يثلهما، تقول: نفخ ونفح ونفر ونفق ونفج ونفس ونفج ونفض ونفث، وكل ذلك يدلّ على الظّهور والخروج، ويمكن أن لا يعتبر هذا إبدالاً فالنفحة من الريح؛ هي: الروح كما يقول القاموس، وهو مغنى قريب جداً مما يريده الشاعر.

4- غمر الأجارى كريم السّنع↔السّنع ضرورة شعريّة ارتكبتها رؤية.

5- درع نثرة↔نثلة كثيراً ما يحدث التبادل بين الراء واللام لأنهما من مخرج احد.

6- (قام زيد فم عمرو↔ثم حكاه أبو علي عن يعقوب وهو عكس الصورة الأولى، وإبدال الثاء من الفاء وعكسه كثير مثل: ثوم ↔ فوم، جدث↔جدف.

7- عربي كح↔عربي قح وهو ناتج عن تطور الأصوات.

8- عصيك↔عصيت ضرورة شعريّة ارتكبتها أحد الرجاز؛ وهو يهجو عبد الله بن الزبير؛ بقوله:

يَا ابْنَ الزُّبَيْرِ طَالَمَا عَصَيْكََا وَطَالَمَا عَنَيْتُنَا إِلَيْكََا¹

9- أريد عن أسافر↔أن لهجة كانت لتميم؛ وتسمى عنعنة تميم.

10- السّدة↔الشّدة الإبدال بين السين والشين مشهور بين اللغات السامية.

11- المشتق↔المشتاق ضرورة شعريّة ارتكبتها رؤية في قوله:

يَا دَارَ مِي بَدَاكَيْكَ الْبُرْقُ مَهْلًا فَقَدْ هَيَّجَتْ شَوْقَ الْمِشْتَقِّ

12- دابة ↔ دابة، لبّ الرجل بالحج ↔ لبي، العالْم↔العالم، بأز↔باز، الشّئمة↔الشّيمة،

قطه الله أَدِيهِ↔يديه، مؤسى= موسى) لهجة لتميم التي كانت تغالي في الهمز.

¹ - خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تح: عبد السلام نجّاد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4، 1997، ج4، ص 428.

13- أُبَاب البحر ⇔ عُباب البحر إبدال تقرّ القوانين الصوتية؛ لأنّ العين من الحلق، والهمزة من الحنجرة، وهما محبسان متجاوران وهي عكس العننة.

14- قَصَى الثوب ⇔ قَصَصَه؛ يفسر هذا الإبدال بأنّه للتخلص من توالي ثلاثة أمثال.

15- الضفادي ⇔ الضفادع، الثعالي ⇔ الثعالب، الأراي ⇔ الأرانب، الثالي ⇔ الثالث، السادي ⇔ السادس، وبعض هذه الإبدالات جاء في القوافي فدل ذلك على أنها ضرورات شعرية، وجاء بعضها في أحشاء الأبيات، ولكن هذه الأبيات كانت كلها من صنع واختراع خلف الأحمر.

16- شَيْرة ⇔ شجرة: الإبدال بين الياء والجيم تقرّ القوانين الصوتية لوحدة المحبس، وهذه الصورة من الإبدال عكس الصورة التي في لهجة تميم؛ حيث يبدلون الجيم من الياء المشددة والمخففة.

17- البنام ⇔ البنان: الإبدال بين الميم والنون شائع؛ لأنّ كليهما أنفي.

18- بنات بحر ⇔ بنات محر، مازلت راقما ⇔ راتبا، رأينا من كثم ⇔ من كثب): والإبدال بين الميم والباء تقره القوانين الصوتية لوحدة المحبس في الحرفين.

19- لعن ⇔ لعل: إبدال لهجي، وهو مقر صوتيا لوحدة المحبس للحرفين.

20- النات ⇔ الناس: ضرورة شعرية ارتكبتها ابن أرقم اليشكري في قوله:

يا قَبَحَ الله بني السِّعْلَةِ عَمْرُو بن يَرْبُوعٍ شَرَارِ النَّاتِ¹

21- لصّت ⇔ لصّ: إبدال غريب لا يقرّه قانون.

22- هَرَاد ⇔ أراد: لهجة لطية حملتها معها من اليمن، وهو إبدال يوافق السبئية الجنوبية التي تجعل "هفعل" دائما مكان "أفعل" في العربية الشمالية. وهو إبدال مقبول صوتيا لوحدة المحبس بين الهاء والهمزة، فكلاهما من الحنجرة.

23- أصِيلال ⇔ أصيلان: اللام والنون من محبس واحد، والفرق بينهما أن الأول فموي والثاني

أنفي.

¹ النوادر في اللغة، أبوزيد الأنصاري، تح: مُجَدِّد عبد القادر أحمد، دار الشروق، مصر، ط1، 1981، ص345.

24- الطجع ↔ اضطجع: اللام والضاد من محبس واحد، والفرق بينهما أن الأول رخو والثاني شديد.

25- فحصط ↔ فحصت: هذه لهجة لبني تميم، وهو إبدال تقرّ القوانين الصوتية.

26- فزد ↔ فزت: وهذه لغة لبني تميم أيضاً، وهو إبدال تقره القوانين الصوتية، وفيه جهرت التاء المهموسة لمجاورتها الزاي المجهورة، فانقلبت إلى دال.

27- عليّ ↔ عالج: الياء والجيـم من محبس واحد، سوى أن الأول شبه طليق، والثاني حبيس شديد، وهذه الصورة من الإبدال هي عكس الإبدال في (شيرة ↔ شجرة).

28- صلخ ↔ سلخ: يجوز في السين أن تطبق فتصبح صاداً إذا جاء بعدها أحد حروف الإطباق أو الاستعلاء.

29- يُزْدَل ↔ يُسْدَل، فَزْدِي ↔ فَصْدِي: جهر كل من السين والصاد المهموستين فصارتا زايًا لمجاورتها للدال المجهورة.

30- ظَدَق ↔ صدق: جهرت الصاد مع المحافظة على إطباقها لمجاورتها الدال المجهورة.

31- أَجْدَق ↔ أَشْدَق: حيث جهرت الجيم لمجاورتها الدال المجهورة؛ فصارت جيماً شديدة التعطيش.¹

تُظهر دراسة الإبدالات السَّماعية في العربية القديمة أن هذه الظاهرة تنشأ نتيجة تفاعل عدة عوامل منها: الضَّرورات الشَّعرية التي تفرض تغييرات في الأصوات؛ لتحقيق القافية والوزن؛ نحو: النَّاسُ ← النَّات، عصيت ← عصيك، التطورات اللهجية التي تعكس اختلافات قبائلية أو محلية؛ نحو: عَنّ ← أُنّ، والقوانين الصوتية المرتبطة بقرب أو تشابه أماكن النطق للأصوات؛ مثل: شجرة ← شيرة، وعلى الرغم من وجود بعض الحالات النادرة التي تخرج عن هذه القواعد، فإن معظم الإبدالات تحافظ على الدلالة الأصلية للكلمة، وتدل على مرونة النظام الصوتي العربي في التعبير، مما يعكس قدرة اللغة على التكيف مع الاستخدامات الإبداعية والشعرية دون فقدان الوظيفة الدلالية للأصوات.

¹ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ص 122،

4- قوانين الإبدال:

هناك بعض القوانين الصوتية الخاصة بالإبدال، وهذه القوانين خاصة بالإبدال بنوعيه السماعي والقياسي، وهي تعين على تفسير ظواهر الإبدال السماعي واللهجي، نذكر منها¹:

1- إذا اجتمع في كلمة **مطبق ومنفتح**، مال المنفتح إلى أن يصير مطبقا توفيراً للانسجام الصوتي في أصوات الكلمة، وهذا يفسّر لنا لما تصير تاء الافتعال طاء بعد الحروف المطبقة "ص-ض-ط-ظ"، والمنفتحات المعرضات للإطباق؛ هي: "ت-د-ذ-س-ث-ل"، وتصبح عند إطباقها على الترتيب "ط، ض، ظ، ص، لام مغلظة"، أمّا الثاء فليس لها نظير في العربية، وكلما تقارب المطبق من المنفتح كان التأثير أقوى، ولا سيما إذا كانا متلاصقين لا تفصل بينهما حركة مثل: **اصتدم←اصطدم**.

2- إذا التقى **مجهور ومهموس** في كلمة، وكان المهموس ساكناً، مال المهموس إلى أن يكون مجهوراً مثل: **أسبغ←أزبغ**، والمهموسات هي: ت-ث-ح-خ-س-ش-ص-ط-ف-ق-ك-هـ، وتصير عند جهرها، على الترتيب: د-ذ-ع-غ-ز-جيم معطشة-ض.

3- إذا كان المجهور هو الساكن؛ فقد يحدث العكس؛ ويهمس المجهور؛ مثل: **اجتمع←اشتمع**.

4- إذا تطوّر صوت ما تاريخياً انحصرت تبدلاته في الأشكال الآتية:

لـ قد يُجهر بعد أن يكون مهموساً مثل: **سراط←زراط**.

لـ أو يُهمس بعد أن يكون مجهوراً مثل: **دمدم←تمتم**.

لـ أو يشتد بعد أن كان رخوا نحو: **علي←علج**.

لـ أو قد يصبح رخوا بعد أن كان شديداً مثل: **اضطجع←الطجع**.

لـ وقد يتقدم بمحبسه إلى الأمام قليلاً؛ مثل: **قح←كح**، أو قد يرجع بهذا الحبس إلى الخلف قليلاً مثل: **فوم←ثوم**.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصفها، محمد الأنطاكي، ج 1، ص 116-117

يمكن القول؛ أنّ ظاهرة الإبدال في العربية ليست عشوائية، بل تخضع لقواعد وقوانين صوتية دقيقة؛ تهدف إلى تحقيق الانسجام والتماثل بين الأصوات داخل بنية الكلمة؛ فالأصوات **المطبقة** مثلاً؛ تؤثر في الأصوات **المنفتحة** فتجعلها مطبقة، و**المجهور** يؤثر في **المهموس**؛ إذا كان ساكناً فيحوّله إلى مجهور، وقد يحدث العكس في بعض السياقات الصوتية، فالأصوات تتغيّر صفاتها من حيث الجهر؛ أو الهمس؛ أو الشدة؛ أو الرخاوة؛ تبعاً لمجاورتها لأصوات أخرى، مما يكشف عن نظام صوتي متكامل قائم على ضوابط معينة.

ومن ثمة؛ فعلاقة **الصوت المبدل بالمبدل** منه تُعرف بمخرج وصفات كل منهما، ومنه فالعلاقات التي تسوغ الإبدال تتمثل في¹:

1- **التماثل**: وهو اتحاد الحرفين مخرجا وصفة ورسمًا، كالباء والباء، والتاء والتاء.

2- **التجانس**: ويكون في اتحاد الحرفين مخرجا واختلافهما صفة، كالذال والطاء، والذال والظاء.

3- **التقارب**: ويكون في إحدى العلاقات الآتية:

- اتحاد الحرفين مخرجا، وتقاربهما صفة: كالحاء والهاء.

- تقاربهما مخرجا وصفة: كاللام والراء.

- تقاربهما مخرجا وتباعدهما صفة: كالذال والسين.

- تقاربهما صفة وتباعدهما مخرجا كالشين والسين.

4- **التباعد**: ويكون بإحدى العلاقتين:

- تباعد الحرفين مخرجا واتحادهما صفة: كالنون والميم.

- تباعدهما مخرجا وصفة: كالميم والصاد.

هذا بالنسبة للإبدال الذي يكون مدار بحثه على مستوى الحروف الصامتة، في حين يكون الإبدال في الأصوات الصائتة؛ ويكون مدار التغيير فيه على الحركات وحروف العلة.

¹ - ينظر: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، تحسين عبد الرضا الوزان، دار دجلة، عمان، الأردن، ط1،

المطلب الثاني: الإعلال

يعدّ الإعلال ظاهرة صوتية صرفية تمسّ بنية الكلمة؛ ويتّضح في التّغيير الذي يصيب حروف العلة؛ بهدف التّخفيف وتجنّب الثّقل تحقيقاً للانسجام الصّوتي، و يتجلى هذا التّغيير في صور متنوعة، تحكمها ضوابط وقوانين لا يحيد عنها.

1/ تعريف الإعلال

أ/ لغة: يحيل المصطلح إلى معنى المرض والتغيّر؛ وقد شُبّه بالعلّة التي تصيب الجسم، جاء في لسان العرب: «أَعْلَى الْمَرِيضُ؛ إِذَا أَصِيبَ بِالْعِلَّةِ»¹؛ فكما أن المريض يصيبه ضعف وتغيير في حالة الجسد أثناء المرض؛ فكذلك الحرف المعتلّ يصيبه تغيير معين؛ فينقلب إلى صورة غير صورته الأولى، وشبهوا حروف العلة بالشخص «الْعَلِيلُ الْمُنْحَرِفُ الْمَزَاجِ الْمُتَغَيِّرُ حَالاً بِحَالٍ (...)» وحروفُ العِلَّةِ والاعتِلَالِ: الألفُ والياءُ والواوُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِيْنِهَا وَمَوْتَهَا. ²، فحروف العلة بسبب لينها وضعفها؛ تكثر فيها مختلف التّغيرات الصّوتية والصّرفية.

ب/ اصطلاحاً: أما اصطلاحاً فهو «تغيير حروف العلة للتّخفيف»³؛ فهذا التّغيير مخصوص بحروف معينة، وهي حروف العلة؛ وذلك لتسهيل النّطق، وهو: «إحدى ظاهرتي التّبدل* الصّوتي، ونعني به: تلك التّبدلات التي تصيب الطّليقات الطّوال وأشباهاها مما ندعوه في العادة بحروف العلة، وهي: الألف والياء والواو»⁴؛ فالإعلال إذا؛ ظاهرة صوتية صرفية، وتتمثل فيما يطرأ على حروف العلة من تغيير؛ كالقلب والحذف؛ طلباً للخفّة والتّيسير في النّطق.

2/ أقسام الإعلال:

معلوم أنّ الإعلال ينقسم إلى ثلاثة أضرب: إعلال بالقلب، وإعلال وبالحذف، وإعلال بالإسكان؛ وقد جمع الاسترادي هذه الأضرب في تعريف الإعلال حين قال: «إنّ لفظ الإعلال في اصطلاحهم مختصّ

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (علل)، ص 3081

² - المرجع نفسه، ص 3081

³ - التعريفات، علي بن مُحمّد بن علي الجرجاني، ص 48

* - ظواهر الإبدال

⁴ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُحمّد الأنطاكي، ص 105

بتغير حروف العلة، أي: الألف والواو والياء(بالقلب)أو (الحذف)أو (الإسكان)¹؛ كما يضيف أن القلب خاص بإبدال حروف العلة والهمزة بعضهما مكان بعض²، فإذا كان القلب أحد أنواع الإعلال؛ فالهمزة تدرج ضمنه أيضاً؛ إذ يتمثل الإعلال بالقلب في قلب حروف العلة همزة أو العكس.

ذكر عبد العزيز الصيغ هذه الأنواع وفق ما يلي³:

- **الإعلال بالقلب** فهو تابع للإبدال، فهو إبدال لكنه مخصوص بصوتي اللين؛ مثل: عجائز، والأصل: عجاوز.

- وأما **الإعلال بالثقل**؛ فهو تابع للقلب المكاني، فهو قلب مكاني؛ إلا أنه قلب لمكان الصوت فقط؛ مثل: يقول، والأصل يقول.

- أما **الإعلال بالحذف**؛ فيكون في صورتين قياسية وسماعية، أما السماعية فلا دخل لها بالتعامل الصوتي، وأما القياسية؛ فإن السبب فيها هو: طلب الخفة بسبب الثقل.

وهذه الأنواع مفصلة وفق ما يلي:

1- **الإعلال بالحذف**: حيث يُحذف حرف العلة في ثلاثة مواضع⁴:

1- أن يكون حرف المد ملتق بساكن بعده مثل: قام ← يقوم ← قوم ← قم، ورمى ← رمأث ← رمت.

2- أن يكون واو واقعة فاء فعل مكسور العين في المضارع، فيحذف من المضارع والأمر نحو: وَعَدَ يَعِدْ، ووصلَ يَصِلْ، كما يُحذف من المصدر وشرط ذلك أن يُعوّض عنه بتاء مثل: عِدَّة صِلَّة.

3- أن يكون حرف العلة لام أمر أو لام مضارع مجزوم لم يتصل بهما شيء مثل: إرَمَ لم يَرَمْ، إْحَشَ لم يُحْشَ، أَدَعَ لم يَدَعْ.

2- **الإعلال بالتسكين**: ويتم فيه حذف حركة العلة أولاً، ثم نقلها إلى الساكن الذي قبلها، ويحتكم هذا النوع من الإعلال إلى ضوابط وشروط تتلخص فيما يلي⁵:

¹ - شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الإستربادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1402هـ-1982م، 67/3-66.

² - المرجع نفسه، ص66-67.

³ - ينظر: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1428-2007م، ص252.

⁴ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ص105-106.

⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص106-108.

1- إذا تطرّفت الواو والياء بعد حرف متحرّك، حُذفت حركتهما إن كانت ضمة أو كسرة؛ مثل: يدعو، يرمي، إلى الوادي وأصل ذلك كله: يدعُو يرمي إلى الوادي.

2- فإذا ترتّب على تسكين حرف العلة التقاء ساكنين حُذف حرف العلة؛ مثل: يرمي يرميئون←يرمون.

3- إذا كانت الواو والياء عينا في كلمة وكانتا متحرّكتين، وكان ما قبلهما صحيحا ساكنا، وجب نقل حركة الياء أو الواو إلى الساكن الصحيح الذي قبلهما، مثل: يَقُوم←يَقُوم، يَبِيع←يَبِيع.

هذا إن كانت الحركة المنقولة مجانسة لحرف العلة، أما إن كانت هذه الحركة من غير جنسه اقتضى تطبيق قانون إضافي هو قلب حرف العلة إلى حرف يجانس حركته مثل: أقوم←أقوم←أقام، يَقُوم←يقوّم←يقيم.¹

3- إعلال بالقلب: وهو عبارة عن تقديم بعض حروف الكلمة على بعض، وأكثر ما يتّفق القلب في المعتل والمهموز، وقد جاء في غيرها قليلا؛ نحو: "امضحلّ" و"اكرهفّ" في: "اضمحلّ" واكفهّر"، وأكثر ما يكون بتقديم الآخر على متلوّه، مثل: ناء، بناء في نأى، ينأى، وراء في رأى، ولاع، وهاع، وشواع في: لائع وهائع وشوائع.²

ويكون هذا النوع من الإعلال وفق قواعد وشروط يتحقق من خلالها، وهي كالآتي³:

1/ إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلهما، قُلبتا ألفا، مثل: "دَعَوَ←دعا، رَمَى←رمى".

وبما أن هذه القوانين تسعى إلى التخفيف، فإنّ عملها يتوقّف إذا أدى تطبيقها إلى أحد الأمور الآتية⁴:

لـ إلى تشويه الكلمة وابتعادها كثيرا عن أصلها؛ فمثلا لو طَبّقنا على الواو من كلمة "أهوي" قانونا يقتضي بنقل حركتها إلى الساكن قبلها، ثمّ قلبها ألفا لصارت "أهاى"، وهو ما يقتضي تطبيق قانون ثالث بسبب التقاء الساكنين، وفيه يتمّ حذف الساكن الأوّل؛ لتصبح الكلمة "أهى"، وهي هيئة مشوّهة أبعدت الكلمة عن

¹ - وهذا القانون لا ينطبق على الكلمات التي هي من الأنواع الآتية: أفعل التعجب، ما كان على وزن أفعل من اسم التفضيل والصفة المشبهة، ما كان على أوزان (مُفْعَل، مَفْعَلَة، مَفْعَال) من أسماء الآلات ومبالغة أسماء الفاعلين، ما كان بعده واوه أو يائه ألف، ما كان مضعفا، ما أعلت لامه، ما صحت عين ماضيه المجرد. ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجَدّ الأنطاكي، ص108

² - شرح شافية ابن الحاجب الإستربادي، 22-21/1

³ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص109-112

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص108-109

أصلها، وهو مالا يجوز وهو ماعبر عنه النحاة؛ بقولهم: "عدم جواز توالي إعلالين في كلمة واحدة"¹، في حين إذا طُبّق القانون على الياء؛ (لأنّ الياء متحركة؛ ومفتوح ما قبلها فتقلب ألفا) من هذه الكلمة تصبح "أهوى" ظلت الكلمة قريبة من أصلها.

لـ إلى الدخول في ثقل أكبر من الذي فر منه، فلو طبقنا القانون السابق مثلاً؛ على كلمة "رَمَيَا" لصارت "رما" ثم التخلص من التقاء الساكنين فصارت "رما" لدخلت الكلمة في ثقل أكبر من الذي فر منه، وهي نفس الصيغة المستعملة في المفرد الغائب المذكور؛ وهو ما يؤدي إلى اللبس بين التصريفيين (المفرد والمثنى)؛ و لذلك مُنِعَ عمل القانونين.

لـ إلى الوقوع في اللبس.

لـ إلى حرمان الكلمة من صيغة تحمل مقولة صرفية معينة؛ فلو طبقنا مثلاً؛ القانون السابق على كلمة "أبيض" لصارت "أباض"، فتفقد الكلمة وزن "أفعل" الموضوع لمقولة صرفية { هي مقولة الوصفية، يفقد الفعل معنى الوصفية هنا لذلك يُمنع عمل هذا القانون.

2/ إذا سُبقت الواو بكسرة أو بواو ساكنة قُلِبَت ياءاً، مثل: "مِوعاد" ← "مِيعاد، رَضِو" ← "رَضِي، دُئِي" ← "دُئِي، صِوام" ← "صِيام، سِواط" ← "سِياط"، والدليل على واوية هذه الياءات؛ أنّها من: "الوعد والرضوان والدلو والصوم والسوط"، وذلك بتوفر الشروط السابقة؛ وهو شأن القوانين التي سنذكرها أيضاً.

3/ إذا اجتمعت الواو والياء والسابقة منهما ساكنة قُلِبَت الواو ياءاً، وأدغمت بالياء التي معها؛ مثل: "مَرْمُوي" ← "مرمي، أَيّوام" ← "أيّام، ولهذا القانون كما لغيره شواذه؛ مثل: "ضِيّون، ويوم أيّوم، وعوى الكلب عيوة وعوة، والرجاء ابن حيوة.

4/ إذا اجتمعت واوان في الطرف قُلِبَتا ياءاً مشددة؛ مثل: "دَلُو" ← "دُلُو" ← "دُئِي، عصا" ← "عَصُو" ← "عِصِي، وشرط ذلك أن تكون الكلمة جمعاً، فإن كانت مفرداً فلا قلب؛ مثل: عَتَا، عَتُوًا، نما نَمُوًا، سما سَمُوًا.

5/ إذا وقعت الواو عين كلمة في جمع على وزن "فُعَل" صحيح اللام قلبت الواو المشددة ياءً مشددة مثل: "صَائِم" ← "صُوم" ← "صِيَم، نَائِم" ← "نُوم" ← "نُيَم" ويجوز عدم القلب، وهو أكثر استعمالاً من القلب.

6/ إذا سكنت الياء بعد ضَمّة قُلِبَت واوا؛ مثل: "مُيسر" ← "موسر"، إلا فيما كان جمعاً على وزن "فُعَل"؛ مثل: بيض وهيم؛ لأنّهما جمعاً: أبيض وأهيم، والقياس أن يكونا: بُيُض وهُيَم؛ لأنّ جمع "أفعل وفعلاء" هو "فُعَل" بالضم، لكن كسرت الفاء لتصحّ العين.

¹ _ ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 108

7/ إذا تطرّفت الياء متحركة بعد ضمة قلبت واوا؛ مثل: قُضِيَ ← قُضُو.

8/ إذا وقعت الألف بعد كسرة، أو بعد ياء التصغير قُلبت ياءً مثل: كتاب ← كُتِبَ، مصباح ← مصابيح.

9/ إذا وقعت الألف بعد ضمة قلبت واوا؛ مثل: شاهد ← شوهده.

10/ إذا تطرّفت الواو والياء بعد الألف زائدة قُلبتا همزة؛ مثل: بني ← بنياء، بناء،

كسوّ ← كساو ← كساء، فإن اتّصل بالكلمة ما زال شرط التطّرف جاز القلب وعدمه، تقول: بناءة وبنائية، وكساءان وكساوان، فأما تاء التأنيث المفرقة بين المذكر والمؤنث فلا تلغي حالة التطرف لأنها في حكم الزائلة، تقول: بناء وبنائة لا غير.

11/ إذا وقعت الواو والياء عينا في فعل أعلنا فيه، قلبتا همزة في اسم فاعله؛ مثل: "قَوْل ← قال ← قائل، بيع ← باع ← بائع".

12/ إذا وقعت الواو والياء فاء في صيغة الافتعال قلبتا تاء وأدغمتا في تاء الافتعال، سواء أكان ذلك في الفعل أم كان في المصدر؛ مثل: "اوتخذ ← اتخذ ← اتَّخذ ← اتَّخَذَ، إيتسر ← إتسر ← اتَّسار".

13/ إذا وقع حرف المدّ الزائد ثالثا في اسم صحيح الآخر، قلبت همزة؛ مثل: عجوز ← عجاوز ← عجائز، قلادة ← قلادة ← قلائد، صحيفة ← صحايف ← صحائف، فإن كان حرف المد غير زائد فلا قلب؛ مثل: عاش ← يعيش ← معيشة ← معايش، وشذّ عن ذلك: مصائب، ومنائر، وكذلك لا قلب إذا كان الحرف حرف لين لا حرف مد؛ مثل: جدول ← جداول. وإذا اعتلت اللام في هذه الطائفة من الأسماء كان الجمع منها على مثال: "فعالي" مثل: قضية ← قضايا، مطية ← مطايا، فإن همزت اللام قلب حرف المد مع الهمزة إلى "ياء"؛ مثل: بريئة ← برايا، خطيئة ← خطايا.

14/ إذا توسّطت ألف بين حرفي علة في اسم صحيح الآخر، قلب ثانيهما همزة؛ مثل: أول ← أوأول ← أوائل، فإن اعتلت لامه جمعته على مثال "فعالي" مثل: زاوية ← زواوي ← زوايا.

15/ إذا اجتمعت واوان في صدر كلمة وجب قلب الأولى همزة؛ مثل: واصله ← وواصل ← أواصل، فإن

كانت الواو الثانية منقلبة عن ألف عند بناء الفعل للمفعول جاز القلب وعدمه؛ مثل: وارىـ ووري أو أوري.

16/ إذا كانت الواو مضمومة ضمة لازمة جاز قلبها همزة مثل: دارـ أدورـ أدور.¹

إن هذا التغيير بين حروف العلة؛ يكون لأجل التخفيف؛ إذ إن «التمائل أثقل من التنافر؛ لأنّ التنافر يمتاز عن التماثل بشيء من التنوع الموسيقي الناتج عن اختلاف الجروس الحركية»²؛ فاختلاف حروف العلة بسبب "التنافر" يفضل أحيانا على تماثلها؛ وذلك لأن التنافر يحقق مبدأ السهولة في النطق؛ والتنوع الموسيقي؛ فانتقال جهاز النطق بين حركات متطابقة يتطلب جهدا عضليا أكبر، بينما يتيح الانتقال بين حركات مختلفة مرونة وسهولة في عملية النطق.

بناء على ما سبق ذكره من أحكام الإعلال؛ التي عالجت استئصال حروف العلة وهو ما أدى إلى تخفيفها بالقلب أو الحذف أو النقل، وبيان مختلف القواعد والشروط التي يتحقق بها التغيير، ننتقل إلى ظاهرة الإدغام بوصفها نوعا آخر من أنواع التخفيف الصوتي؛ فإذا كان الإعلال يسعى لدراسة الحرف المعتلّ، فإنّ الإدغام يسعى لمعالجة تكرار الحرف الصّحيح، محولا المتماثلين أو المتجانسين أو المتقاربين إلى صوت واحد مشدّد يرتفع به اللسان مرة واحدة، تحقيقا لمبدأ الاقتصاد اللغوي، وتجييدا للانسجام النطقي.

المطلب الثالث: الإدغام

الإدغام ظاهرة صوتية صرفية منتشرة بشكل واسع في الدّراسات اللّغوية العربية، لقيت عناية فائقة من طرف الباحثين؛ فبحثوا عن شروطها، وأحكامها، وأقسامها وكذا مختلف الجوانب المتعلقة بها.

1/ تعريف الإدغام (complete Assimilation)

أ/ الإدغام لغة: هو الإدخال والامتزاج، عرّفه الفراهيدي بقوله: «الدَّعْمَةُ: اسم من إدغامِكَ حَرْفًا في حرفٍ. وأدّعمت الفَرَسَ اللجام: أدخلته في فيه»³، وجاء في لسان

¹ ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص112.

² - التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992، ص61-62

³ - كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج4، مادة (دغم)، ص395

العرب: «دَعَمَ الغَيْثُ الأرضَ يَدْعُمُهَا وَأَدْعَمَهَا إِذَا غَشِيَهَا وَقَهَرَهَا. والدَّعْمُ: كَسْرُ الأنفِ إِلَى بَاطِنِهِ (...)
والإِدْعَامُ: إِدْخَالُ اللَّجَامِ فِي أَفْوَاهِ الدَّوَابِّ»¹، قال ساعدة بن جُوَيْة في هذا السياق²:

بِمُقَرَّبَاتٍ بِأَيْدِيهِمْ إِذَا أَعْنَتَتْهَا ... خُوصٍ إِذَا فَرَعُوا أُدْغِمْنَ بِاللُّجْمِ

(المُقَرَّبَاتِ: اللّوَاتِي عِنْدَ الْبُيُوتِ لِصَارِخٍ أَوْ لَفَزٍ. وقوله: أُدْغِمْنَ فِي اللَّجْمِ؛ أي: أُدْخَلَتْ رِءُوسُهُنَّ فِي اللَّجْمِ)

وجاء في المعجم الوسيط: «الإِدْعَامُ: إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ، ... وأدْعَمَ الحَرْفَ فِي
الحَرْفِ (...) ودَعَمَ الغَيْثُ الأرضَ: غَمَرَهَا»³.

نستنتج من هذه التعريفات اللغوية؛ أنّ الإدغام يحمل معنى الإدخال والامتزاج، أي: إدخال شيء في شيء آخر؛ حتى يصبح جزءاً منه، وهو ما يشكل الأساس الذي بني عليه المفهوم الاصطلاحي الذي خُصّ هذا الامتزاج والإدخال بصوتين بينهما قرابة من ناحية المخرج، أو الصفة، أو هما معا.

ب/ اصطلاحاً: هو «نطق الحرفين المتماثلين دفعة واحدة بغير فاصل من حركة أو صمت (...) ولا يتهيأ لك ذلك إلا إذا كانا متلاصقين، وبعبارة أخرى: إلا إذا كان أولهما ساكناً، وثانيهما متحركاً»⁴؛ اقتصر هذا التعريف على نوع من الإدغام وهو الإدغام الذي تتحقق فيه شروط معينة؛ بأن يكون الحرفان متماثلان أولهما ساكناً وثانيهما متحركاً ولا يوجد فاصل بينهما. في حين قد يكون الإدغام بين حرفين غير متماثلين، كما عُرِفَ على أنه عبارة عن «إدماج الصوتين المتتاليين ونطقهما دفعة واحدة؛ قصد التيسير والتخفيف، إذ كانت هناك صعوبة يصادفها المتكلم في سلسلة التيار الكلامي. فإن لم يصادف عمد إلى الإظهار والبيان»⁵؛ والإدغام، وفق هذا التعريف يعدّ ظاهرة صوتية وظيفية تقوم على دمج صوتين ونطقهما دفعة واحدة؛ تخفيفاً للجهد التطقي عند حدوث صعوبة في توالي الأصوات أثناء الكلام، أما إذا انتفت هذه الصعوبة، فيُعدّل إلى الإظهار والبيان، وعلى هذا فهو «إِسْكَانُ الحَرْفِ الأوَّلِ وَإِدْرَاجُهُ فِي الثَّانِي، ويسمى

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مج2، مادة دغم، ص1392

² - ديوان المهذلين، محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، 1965، ج1، ص203

³ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1426هـ/2005م، مادة دَعَمَ

⁴ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي محمد، ج1، ص123

⁵ - الصوتيات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1418هـ/1998م، ص301

الأول مدغما، والثاني مدغما فيه»¹، وورد في السياق نفسه أنه: «إلباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث الحرفين؛ نحو: مدّ وعدّ»² ³.

أما عند اللسانيين المحدثين فهو التماثل (Similarity)، أو درجة منه، فهو إذا؛ جزء من المماثلة الصوتية (Assimilation)، في سياقها الرجعي (Regressive)⁴.

ويقصد به: وصل حرف ساكن بحرف مثله من موضعه من غير حركة فصل بينهما ولا وقف؛ فيصيران بذلك كحرف واحد، ويُرفع اللسان عنهما رفعة واحدة، ويشتدّ الحرف⁵؛ فهذا التعريف متعلّق بالصّوتين المتماثلين (كالباء في الباء والتاء في التاء)؛ أي أنّه يتمّ إدخال حرف ساكن في حرف متحرّك بشرط أن يكون الحرفان متماثلين؛ أي: متّفقين مخرجا وصفة، وألّا يفصل بينهما فاصل.

وعمليا يتمّ خلال هذه الآلية ارتفاع اللسان؛ أي أن اللسان ينتقل مباشرة إلى مخرج الحرف المدغم، ولا يتمّ الانتقال من مخرج إلى مخرج آخر، وإنّما يتمّ نطق الصوتين من مخرج واحد؛ حيث يصيران باتّصالهما كصوت واحد مشدّد؛ إذ إنّ المشدّد في أصله صوتان الأول ساكن والثاني متحرّك.

استخدم الخليل بن أحمد الفراهيدي مصطلح التشديد للدلالة على الإدغام؛ حين قال: «فإن صيرت الثنائي؛ مثل: قد وهل، ولو اسما أدخلت عليه التشديد؛ فقلت: هذه لو مكتوبة وهذه قد حسنة الكتابة، زدت واوا على واو، ودالا على دال، ثم أدغمت وشددت، فالتشديد علامة الإدغام»⁶.

ولا يختلف مفهوم هذه الظاهرة عند علماء التجويد؛ فهو عندهم «اللفظ بساكن فمتحرّك بلا

¹ - التعريفات، علي بن مُجّد بن علي الجرجاني، ص 29-30

* - ملاحظة: الحرف المشدّد الذي يحدث من عملية الإدغام هو في واقعه حرف واحد لا حرفان بيد أن المدة التي يستغرقها النطق به تكون ضعفي مدة الحرف البسيط أو ثلاثة أضعافها، أيضا درجة توتر أعضاء النطق في الحرف المشدّد تكون أعلى من الحرف البسيط، وهذا من وجهة النظر الصوتية، أما من وجهة النظر الصرفية يعتبر الحرف المشدّد حرفين، لأنّه ينقلب إلى حرفين في تصاريف الكلمة المختلفة فالدال من "مدّ" هي دالين في "مددت، لم يمدد... وهكذا. ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي مُجّد، ج 1، ص 123

³ - المرجع نفسه، ص 30

⁴ - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 299

⁵ - ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، أبو بكر مُجّد بن السري بن سهل، تح: مُجّد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مج 2، ص 484

⁶ - العين، الفراهيدي، ج 1، ص 55

فصل من مخرج واحد»¹؛ أي: يكونان من مخرج واحد دون فصل الساكن عن المتحرك، وهو أيضا «اللفظ بحرفين حرفا كالثاني مشددا»²؛ حيث يُنطق الصوتان دفعة واحدة (من مخرج واحد) كالصوت الواحد تكون حركته من جنس الثاني.

وأصل الإدغام أن يُدخل الحرف الأول الساكن في الثاني المتحرك؛ فإن كان الأول متحركا سُكّن، كما قد يُدغم الثاني في الأول في بعض الحالات، وفي الإدغام «يؤثر الأقوى مخرجا أو صفة في الآخر، فيصبغ عليه بعض الصفات أو كلها»³؛ فالمتحرك يؤثر في الساكن؛ إذ الحركة تمثل قوّة صوتية والسكون يمثّل ضعفا صوتيا (انعدام الحركة)، فيتمّ بذلك الإدغام سواء أكان تاما أم ناقصا.

يتبين من التعريفات؛ أنّ المعنى الاصطلاحي للإدغام مأخوذ من معناه اللغوي المتضمّن معنى إدخال الشيء في الشيء وامتزاجه به؛ فقد انتقل هذا المعنى إلى الاصطلاح الصوتي مع شيء من التخصيص؛ فأصبح يدلّ على إدخال حرف في حرف آخر؛ بحيث يندمج الأول في الثاني، وبهذا حافظ المصطلح الاصطلاحي على جوهر الدلالة اللغوية، مع ضبطها في إطار صوتيّ وظيفيّ؛ يهدف إلى تحقيق التخفيف والانسجام في النطق.

فعلة الإدغام إذا؛ هي الجنوح نحو التيسير والسهولة في النطق؛ إذ إنّ السبب الرئيسي للإدغام هو «التخفيف، لأنّ الإنسان إذا لفظ بالحرف من مخرجه، ثمّ عاد مرة أخرى إلى المخرج بعينه ليلفظ بحرف آخر مثله، صعب عليه ذلك»⁴.

2/ أقسام الإدغام وأحكامه

ينقسم الإدغام إلى قسمين رئيسيين، إدغام كبير حين يكون الحرف الأول متحركا، والثاني ساكنا، وإدغام صغير حين يكون الحرف الأول ساكن، والثاني متحرك.

¹ - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، البنا أحمد بن محمد، تح: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407-1987م، ج1، ص21

² - المرجع نفسه، ص21

³ - العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، مختار نويوات ومحمد خان، مشروع دراسة لسانية للدارجة في منطقة الزيبان، بسكرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، ط1، 2005م، ص41

⁴ - الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، عبد البديع النيرباني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سورية، ط1،

1427هـ/2006م، ص103

– **الإدغام الصغير:** ويكون فيه أول **المثلين** ساكنا والثاني متحركا، وهو واجب الحدوث دائما، سواء كان في الكلمة الواحدة مثل: **العدْدُ** ← **العدّ**، أم وقع في كلمتين؛ مثل: **إحْبَسْ سَعِيداً** ← **إحْبَسَّعِيداً**، وسبب وجوبه الدَّائم: هو أن الإنسان ينساق إليه انسياقا لا خيار له فيه، فهو آلية نطقية حتمية¹.

– **الإدغام الكبير:** وهو الإدغام الواقع بين متماثلين تفصل بينهما الحركة؛ نحو: "مَدَدَ" ← "مَدَّ"، وطبيعي أن هذا لا يتم إلا بعد حذف حركة الحرف الأول من المتماثلين؛ إذ يتعذر الإدغام مع وجود الحركة العازلة، فهذا النوع من الإدغام مجرد حذف لهذه الحركة لتتم بعد ذلك عملية الإدغام الصغير بصورة عفوية حتمية.

ويرى الأشموني وغيره* أنَّ **الإدغام** على ضرب²:

أ/ إدخال حرف في حرف، دون وجود حركة تفصل بين الحرفين.

ب/ التقاء حرفين من سلالة واحدة، فيسكن الأول؛ ويدخل في جنس الثاني؛ ليصبح حرفا مشددا يظهره اللسان مرة واحدة.

ج/ التقاء حرفين متقاربين في الصفة الإنتاجية (المخرج)؛ فيدل الأول حرفا من جنس الآخر، ويدغم فيه؛ ليتشكل من تلك صورة حرف واحد.

يُعدّ الإدغام عند الأشموني ظاهرة صوتية دقيقة؛ تقوم على دمج صوتين متجاورين؛ لتسهيل النطق، وقد صنّفه إلى:

لـ **إدغام تامّ:** يزول فيه أثر الحرف الأوّل.

لـ **إدغام متماثل:** يجتمع فيه الحرفان في المخرج والصفة.

¹ – وهذا خلاف ماذهب إليه الصرفيون؛ فقد حكموا بامتناع الإدغام الصغير إن وقع المتماثلان في كلمتين وكان أولهما حرف مد؛ مثل: يسموا واصل، يرمي يزيد، أو وقعا في كلمة واحدة نتيجة قلب لم يقصد منه الإدغام؛ مثل: **عوود** من "عاود" و **ريّا** من "رئيا"، وليس ماذهب إليه الصرفيون بصحيح؛ لأن الواوين في هذه الحالات ليسا بمتماثلين؛ فالأول صوت طليق والثاني شبه طليق، والفرق بينهما واسع لا يقل عن الفرق بين السين والزاي، وما قيل في الواوين يقال في اليائين ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها، وصفها، الأنطاكي، ج1، ص124

* – غيره المقصود بها: ابن السراج والزجاجي، وأبو حيان الأندلسي

² – ينظر: شرح الأشموني، ج3، ص889، والأصول في النحو، ج3، ص405، والجمل في النحو، ص313-314

لـ إدغام متقارب: يلتقي فيه حرفان متقاربان في المخرج أو الصفة، مع اشتراط أن يكون الأول متحركاً والثاني ساكناً؛ حتى يتم الإدغام.

وعليه؛ فالإدغام تتباين أنواعه وصوره تبعاً للمعايير المعتمدة في التقسيم؛ فقد قسم إلى قسمين رئيسين باعتبار التحريك والتسكين هما: الإدغام الكبير والصغير، كما قسم إلى الإدغام الكامل (التمام) لفناء الصوت الأول في الثاني، والناقص لبقاء صفة من صفات الصوت الأول، وقسم أيضاً بحسب المخرج والصفات إلى ثلاثة أنواع؛ هي: إدغام المتماثلين، إدغام المتجانسين، إدغام المتقاربين.

والإدغام لا يتم إلا بتحقيق شروط وضوابط معينة، فليس كل التقاء بين حرفين يؤدي إلى الإدغام. فمتى يحدث هذا الإدغام؟ ومتى يمتنع؟ ومتى يجوز الوجهان؟

3/ مسوغات الإدغام الكبير وموانعه:

إذا التقى حرفان متجانسان متحركان؛ نتج عنه ثلاثة أحكام؛ إما يجب أن يدغم الأول في الثاني من منهما؛ وذلك بتحقيق شرطين، وإما امتناع الإدغام وفق شروط وقواعد معينة، أو يجوز فيهما الوجهان الإدغام وعدمه، بالإضافة إلى وجود حالات شاذة للإدغام في مواضع وألفاظ معينة لا يقاس عليها.

أ- يجب الإدغام الكبير في¹:

1- في المثليين؛ إذا وقعا نهاية فعل؛ مثل: شَدَدَ ← شَدَّ، يَشْدُدُّ ← يَشْدُ، شَادَدَ ← شَادَّ.

2- في المثليين؛ إذا وقعا في نهاية اسم موازن للفعل، مثل: رجل طَبَّ ← طَبَّ، مُسْتَعِدُّ ← مُسْتَعِدَّ، أَجَلُّ ← أَجَلَّ؛ فالكلمات: طَبَّ، مُسْتَعِدُّ، أَجَلُّ توازن الأفعال علم، يستعمل، أشرب، ويستثنى من ذلك ما كان مفتوح الفاء والعين؛ نحو: قَصَصَ - عَدَدَ.

ب- امتناع الإدغام الكبير: يمتنع الإدغام الكبير²:

1- إذا كان المثلان في صدر اسم؛ مثل: دَدَن - بَبَر - تَتَر.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 125

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 125

2- إذا كان أحد المثليين حرف مضارعة؛ نحو: تتمايل، تتدحرج، إلّا إذا كان ذلك في الثلاثي المزيد؛ فيجوز الإدغام بشرط أن يحدث في درج الكلام لا في الابتداء؛ مثل: جاءت زينب تمايل، فأما إن كانت الكلمة من الرباعي المزيد؛ مثل: تتدحرج فلا إدغام مطلقا.

3- إذا أدى الإدغام إلى أن تفقد الكلمة وزنا إلحاقيا مقصودا، أو وزنا له معنى صرّفي معين، ويدخل في هذا هذا ما زيد للإلحاق؛ نحو: جلبّب، قزّدد، هيّلل، ثم بعض أوزان المجموع؛ مثل: درر- سرر- لِمم، ثم وزن أفعّل للتعجب؛ مثل: أحبب بزید، فكلّ ذلك إذا جرى فيه الإدغام انتهى اللبس.

4- إذا كان المراد إدغامه مدغما فيه؛ مثل: جلل- حرر.

5- إذا كان ثاني المثليين ساكنا سکونا لازما، ويحدث هذا عند اتصال الفعل بضمائر الرفع المتحركة مثل: مدّدت-مددنا.

ج/ جواز الإدغام الكبير وعدمه: يجوز الإدغام الكبير وعدمه في المواطن الآتية¹:

1- وذلك في غير ما ذكر من حالات الوجوب والامتناع؛ وذلك؛ مثل:

- امددّ ← مدّ: سکون ثاني المثليين عارض وليس لازما.

- تتابع ← اتّابع: المثلان في صدر فعل لا صدر اسم، وليس أحد المثليين حرف مضارعة.

- اقتتل ← قتل المثلان في وسط الكلمة.

2- ويجوز الإدغام وعدمه إن كان عين الكلمة ولا مها ياءين؛ فلازما تحريك ثانيهما؛ نحو: عيّ عيّ وحیی فتقول: عيّ وحیی بالإدغام أيضا، فإن كانت حركة الثاني عارضة للإعراب؛ كقولنا: لن يحيي، رأيت محييا امتنع إدغامه.

3- يجوز الإدغام وعدمه؛ إذا كان المثلان في كلمتين؛ مثل: يضرب بکر ← يضرب بکر.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 126-127

4/ حالات الإدغام الشاذة: يمكن حصر حالات الإدغام الشاذة في ثلاثة أنواع¹:

1- ما شذَّ في القياس والتزم به في السَّماع، وهو محصور في الألفاظ الآتية: أَلَلَّ السقاء؛ أي: تغيّرت رائحته، دَبَّ الرجل؛ أي: نبت الشعر في جبينه، ضَبَّت الأرض؛ أي: كثر ضبابها، قَطَطَ الشعر؛ أي: قصر وتجدد، لَخَت العين؛ أي: كثر دمعها، مَشِشت الدابة؛ أي ظهر في وظيفها (الساق) المشش، وهو شيء كالعظم، عَزَزَت التّافة؛ أي: ضاق مجرى لبنها، طَعَام فيه قَضِضٌ: أي فيه تراب، رجل ضَفَفٌ؛ أي: ضيق الحال، فكل ذلك يوجب القياس إدغامه، ولكن السَّماع ورد بفكه.

2- ما شذَّ في المشهور واطرد في لهجته، وهو ما تفعله بكر بن وائل وغيرهم من المحافظة على الإدغام على الرغم من اتّصال الفعل بضمائر الرفع المتحركة التي توجب سكون ما قبلها، فيقول هؤلاء: رَدَّت وردّن بدلا من رَدَدَتْ ورددُن، وربما زاد بعضهم ألفا قبل الضمائر ليوفروا لها بذلك الساكن قبلها، فيقولون: رَدَدَات ورددَان.

3- ما شذَّ فكّه للضرورة الشعرية؛ كقول أبي النجم العجلي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ².

5- إدغام المتقاربين: المتقاربان: «صوتان اتفقا محبسا* واختلفا صفة، كالباء والميم، فكلاهما من محبس الشفتين، إلّا أنّ الباء شديدة والميم رخوة، أو اتفقا صفة واختلفا محبسا؛ كالميم والنون فكلاهما أنفي، إلّا أنّ الميم من محبس الشفتين والنون من محبس اللثة، أو تجاوزا محبسا؛ كالكاف والقاف، فالأول من محبس الطبق، والثاني من محبس اللهاة»³.

ولما كانت آلية الإدغام لا تكون إلّا بين متجانسين أوّلها ساكن، كانت عملية إدغام المتقاربين تحتاج

إلى⁴:

أولا: تحويل أحد المتقاربين إلى صوت من جنس الآخر، كتحويل تاء الافتعال إلى طاء

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 127-128

² خزانة الأدب، البغدادي، ج 2، ص 390.

* - مخرجا

³ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 128

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 128-129

ثانيا: تسكين أول المتقاربين إن كان متحركاً؛ كتسكين التاء؛ في "تتأقل"←"تثاقل"، وبذلك يتم الإدغام.

قد يحول في عملية الإدغام الأول إلى الثاني أو العكس؛ بأن يحول الثاني إلى الأول؛ أي: يمكن أن يكون التأثير تقدماً حين يؤثر الصوت الأول في الثاني، أو رجوعاً حين يؤثر الصوت الثاني في الأول، كما يمكن أن يحول أحدهما إلى صوت آخر غير الأول والثاني.

تحدثت في إدغام المتماثلين عن شروط وقيود منها: متى يجب الإدغام، ومتى يمتنع، ومتى يجوز الوجهان، فكَذلك بالنسبة لإدغام المتقاربين.

حالات إدغام المتقاربين: لهذا النوع من الإدغام ثلاث حالات؛ وهي على النحو الآتي¹:

1- **حالة وجوب:** وذلك كإدغام لام التعريف في الحروف الشمسية، وكإدغام تاء الافتعال في الطاء في مثل: **اطْلُبْ**، وإدغام الواو والياء في تاء الافتعال في مثل: **اتَّسَر** واتَّحَدَ.

2- **حالة امتناع:** وتكون إذا كان المتقاربان في كلمة واحدة وأدّى إدغامها إلى الالتباس؛ مثل: **وطد ووتد**، فلو أدغمت الطاء والتاء في الدال؛ لانتهدت الكلمتان إلى **وَدَدَ**؛ وهي كلمة تعني غير ما تعنيه الكلمتان السابقتان، وكذا إذا أدّى الإدغام إلى **ثقل**، فلا يقال **اسمقارناً** في: **اسمع قارئاً**.

3- **حالة جواز:** يدخل فيها كل ما خرج عن حالي الوجوب والامتناع؛ ولها صور كثيرة منها:

- فمن زحزح عن النار←فمن زحزَع النار.

- اسلخ غنمك←اسلَعْنَمَك.

- بل ران←برَّان.

والإدغام في الكلام يجيء على نوعين²:

أحدهما: إدغام حرف في حرف يتكرر.

والآخر: إدغام حرف في حرف يقاربه.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 129

² - الأصول في النحو، ابن السراج، مج 2، ص 491

فالنوع الأول يُعرّف على أنه: «إدغام الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً؛ لا يزول عنه»¹؛ أي يكون نفس المخرج؛ وذلك يتعلّق بالحرفين المتجانسين، ويكون ذلك في كلمة وفي كلمتين.

⇐ ففي كلمة واحدة:

نجد في الفعل الثلاثي الذي لا زيادة فيه؛ نحو: فَرَّ، سَرَّ ← فَرَّرَ، سُرِّرَ، كما نجد في الأسماء على وزن الأفعال المدغمة (فيعلّ ويدغم) باستثناء فَعَلْ؛ نحو: طَلَلْ وَشَرَّرَ فلا إدغام فيه، فإن كان المضاعف على وزن فَعْلٍ وفَعِلْ* لا بد أن يأتي مدغماً نحو: رجل صَفَّ الحَال (والضَفَفُ شدة المعيشة وكثرة العيال)، وإن كان المضاعف فُعَلْ أو فِعَلْ أو فُعْلٌ مَّا لا يكون مثاله فعلاً فهو على الأصل؛ نحو: خُزِرَ وَمَرِرَ، وَخُضِرَ، فأما قولهم قَصَصَ بتحريك العين، وقَصَّ بسكون العين؛ وهم يعنون المصدر؛ فإنّما هما اسمان فجاءا على أصولهما، ومثله من غير المضاعف: مَعَزَ وَمَعَزَ، وَشَمَعَ وَشَمَعَ، وقَصَا؛ بسكون العين، ليس من قَصَصَ، لكن كل واحد منهما أصلٌ، وفي هذا كَلَّه؛ فإنّ الصدر يبقى كما هو؛ نحو: رَدَدَان، أما إذا ألحق ما ذكر ألفاً ونوناً؛ نحو: فَعْلَان أو فَعْلَان؛ فيتم الإدغام؛ أي: رَدَان، وكان أبو الحسن الأخفش يُظهر؛ فيقول: رَدَدَان ورَدَدَان².

أما إذا تجاوز التضعيف ثلاثة أحرف؛ فيكون على ضربين: ملحق، وغير ملحق:

لـ أما الأول؛ فيظهر فيه التضعيف؛ نحو: مَهْدَدٍ الملحق بـجَعْفَرٍ، وجَلْبَبَةٍ الملحق بـدَحْرَجَةٍ

لـ أما الثاني؛ فيدغم؛ نحو: احْمَارَ، واحْمَر، ولو كان له في الرباعي؛ مثال لما جاز تضعيفه، كما لم يجوز إدغام اقْعَنْسَسَ لما كان ملحقاً بـ: احرنجم³.

⇐ أمّا الضرب الثاني من الإدغام؛ فيكون من كلمتين منفصلتين:

وفيه ما يجوز إدغامه؛ وما لا يجوز إدغامه:

نقول: المَالُ لَكَ، وهم يُظْلَمُونِ، فهنا نجد سكون قبل الحرف المدغم؛ وهو حرف مدّ، فإن كان غير ذلك لم يجوز الإدغام؛ نحو: ابْنُ نُوجٍ، واسمُ مُوسَى فلا إدغام فيها، كما لا يجوز؛ إذا كان قبل الحرف الأول

¹ - الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص491

* - لم يسمع منه شيء بل جاء على أصله

² - ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص406-407

³ - المرجع نفسه، ص409-410

حرف ساكن، فأما قول بعضهم نِعَمًا* بتحريك العين؛ فليس على لغة من قال: نِعَم بإسكانها، ولكنها على لغة من قال: نِعِم محركا بالكسر، وهي لغة هذيل، كما كسروا لِعِب¹.

وأما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَجَوَّأْ﴾ [المجادلة، 9] قبله حرف مد (الألف) يُمكن إسكانها وإدغامها، وأما ثوبٌ بَكْرٍ وكذلك جيبٌ بَكْرٍ، الواو هنا لا تشبه الألف؛ لأنَّ الحركة التي قبلها ليست من جنسها، والإدغام فيهما جائز، وإن لم يكونا بمنزلة الألف؛ حيث يكونان بمنزلتها؛ إذا كان قبل الواو الحركة المجانسة لها؛ وهي الضمة، و أيضا قبل الياء كسرة².

بعد حديثنا عن ما يجوز إدغامه، ننتقل إلى بيان ما لا يجوز إدغامه، فمثلا قولنا: مررتُ بعدوٍ وليدٍ؛ فلا يجوز الإدغام؛ لأنَّ إدغام الياء في وليٍّ والواو في عدوٍ يؤدي إلى رفع اللسان رفعة واحدة، فذهب المد وصارت بمنزلة إدغام غير المعتل؛ إذ الواو الأولى من عدوٍ بمثابة اللام في دَلُوٍ، والياء أما إن كانت الواو قبلها ضمة فإنها لا تدغم إذا كان مثلها بعدها، وذلك نحو قولنا: ظَلَمُوا وَاقْدَا، ويغزو وَاقْدًا، فلا إدغام فيها³.

أما النوع الثاني من الإدغام؛ هو ما أدغم للتقارب، وهذا النوع ينقسم قسمين⁴:

أحدهما: أن يدغم كل من الحرفين في صاحبه

والآخر: لا يدغم أحد الحرفين في الآخر، ولا يدغم الآخر فيه

أولا: ما يدغم:

من المعلوم أن أحسن الإدغام يكون في حروف الفم وما قرب إليها، وأبعده ما يكون في حروف الحلق، وما قرب من الفم لا يدغم في الذي قبله، وهذه الحروف المدغمة تنقسم ثلاثة أقسام⁵:

فمنها ما يُبدل الأول بلفظ الثاني، ثم يُدغم فيه، ومنها ما يُبدل الثاني بلفظ الأول، ثم يُدغم الأول في الثاني، ومنها ما يُبدل الحرفان جميعا بما يُقاربهما، ثم يُدغم أحدهما في الآخر.

* - وهي إشارة إلى قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة، 271]

¹ - ينظر: الكتاب، سيبويه تح: محمد كاظم البكاء، مج2، ص408

² - ينظر: الكتاب، سيبويه، مج2، ص409

³ - ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص412-413

⁴ - المرجع نفسه، ص413

⁵ - ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص413

1/ ما يُدغم من حروف الحلق:

للحلق ثلاثة مخارج، وفيه تُدغم:

- الهاء مع الحاء؛ نحو: اجْبُهُ حَمَلًا ← اجْبَحَمَلًا ، والعكس غير صحيح؛ لا تُدغم الحاء في الهاء.

- العين مع الهاء؛ نحو: أَقْطَعُ هِلَالًا، تُبدل العين حاء والهاء حاء، ثم يتم الإدغام ، والإظهار أحسن، وبنو تميم يقولون حَحْمٌ، وحَاوَلَاء يريدون: مَعَهُمْ، وَمَعَ هَوَلَاء¹.

- العين في الحاء؛ في مثال: أَقْطَعُ حَمَلًا ← اقْطَحَمَلًا.

- الحاء في العين؛ نحو: امدَحْ عرفة ← امدَحَّرْفة.

- الغين في الحاء؛ نحو: ادمَغْ خلفًا ← ادمَحَّلْفا.

- الحاء في الغين؛ نحو: اسلِخْ غنمك ← اسلِغْنَمك.

- القاف مع الكاف، حيث تدغم القاف في الكاف، والكاف في القاف في نحو: الحق كَلْدَة ← الحَكَلْدَة، انهك قَطْنَا ← انهقَطْنَا.

ومما أُدغم للتقارب: الجيم مع الشين؛ نحو: ابْعَجْ شَيْثًا، واللام مع الراء: اشغَلْ رَجْبَة، والنون مع الراء اللام والميم؛ نحو: مَنْ الراشد، مَنْ لَّكْ يتم فيهما الإدغام بغنة وبعدهما، والنون مع الباء*؛ نحو: مَنْ بك، عنبر ← مُمْبِك، عنبر، والنون مع الواو: حيث تُدغم فيه بغنة وبعدهما. والنون مع الياء، بغنة وبعدهما، والياء في النون أحياناً².

الإدغام في حروف طرف اللسان والشنايا³:

_ الطاء مع الدال: اضْبِطْ دُلَامَه ← اضْبِطُّلَامَة، مع بقاء صفة الإطباق

¹ - ينظر: الكتاب، سيبويه، مج2، ص313

* - حيث تُقلب النون ميمًا مخففة

² - ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص420-422

³ - الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص422-423

— الدال في الظاء: أَفْقَدَ ظالما

— الظاء مع التاء: تُدْغَمُ كل واحدة منهما في الأخرى مع بقاء صفة الإطباق الظاء في التاء، وكذلك التاء في الظاء: انْعَثَ طالبا ← انْعَطَّالبا

— التاء مع الدال: التاء في الدال والدال في التاء: انْعَثَ دُلاما، انْقَدَ تَلْكَ ← انْعَدَّلاما، انْقُتِّلْكَ.

✚ إدغام الصاد والزاي والسين¹:

—الصاد مع السين: تُدْغَمُ كل واحدة منهما في الأخرى؛ نحو: افحصْ سالما، احبس صابرا ← افحصْسالما ← احبصَّابرا

—الزاي في الصاد: أَوْجَزْ صابرا--أَوْجَصَّابرا

—الزاي والسين:الزاي في السين والسين في الزاي: احبس زردة، وُزْز سلمة ← احبَّزردة ← ورسَّلمة

✚ الظاء والذال والثاء:

تُدْغَمُ الظاء في الذال كما تُدْغَمُ الذال في الظاء: احفظ ذلك، خُذْ ظالما ← احفَظْذلك (مع بقاء صفة الإطباق)، خطَّالما، كما تُدْغَمُ الثاء في الظاء: ابعث ظالما ← ابعْظَّالما، والدال مع الثاء تُدْغَمُ كل واحدة في صاحبتها: خُذْ ثابتا، ابعث ذلك ← حُثَّابِثا، ابعدَّلك، والبيان فيهن أفضل منه في الصاد والسين والزاي².

✚ إدغام مخرج في مخرج مقارب له:

تُدْغَمُ الظاء والدال والتاء في الصاد والسين والزاي نحو: ذهبسَّلمى، واضبَّزردة، وانعصَّابرا، وقسمَّعت، وقرأ بعضهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ الصافات، 8] يريد لا يتسمعون، وكذلك تُدْغَمُ الظاء والذال والثاء في حروف الصفيـر (ص، ز، س) نحو: ابعسَّلمة، وخصَّابرا، واحفسَّلمة، واحفزَّزردة، مُزَّمان، ومُسَّاعة*، كما لا يمتنع في الإدغام بعضهم من بعض؛ كل من (الدال والدال والظاء) و(الذال، والثاء والظاء)؛ وذلك؛ نحو: اهبْظَّالما،

¹ - الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص424

² - المرجع نفسه، ص425

* - بدون إدغام: ابعث سلمة، ولُحِذْ صابرا، واحفظ سلمة، واحفظ زردة، مُذْ زمان، ومذ ساعة

وانعتابنا، وابعذلک، وحذاد، واحفظالبا، وابعثک**، والصاد والسين والزاي امتنعت من إدغامها في هاته الحروف ؛ وذلك لأنها فيها صفة الصفيير؛ وهن أندی في السمع، وأیضا امتنع إدغام الراء في اللام، ومن جهة أخرى تُدغم الذال والطاء والثاء في الضاد؛ نحو: انقضّمة، واضبّضّمة، وانعّضّمة*، والطاء والثاء والذال يُدغمن أيضا في الضاد نحو: حُضّمة، واحفضّمة، وابعضّمة**، ولا تُدغم الضاد في أحرف الصفيير والعكس صحيح، وتُدغم الطاء والذال والثاء في الشين؛ نحو: اضبّثبثا، وانقّثبثا، كما تُدغم الذال والطاء والثاء في الشين أيضا نحو: ابعثّنباء، واخفّثنباء، وحُثّنباء، وجميع ما أدغم وهو ساكن يجوز في حال الحركة¹.

🔑 مما امتنع إدغامه من الحروف المتقاربة: وهي على قسمين:

نذكر منها: ما يدغم في الحرف الذي يقاربه ولا يُدغم الآخر فيه، ومنها مالا يُدغم في مقاربه ويُدغم مقاربه فيه؛ فحروف القسم الأول؛ هي: الهمزة والألف والواو، أما القسم الثاني؛ فحروفه هي: الميم والراء والشين؛ فالميم لا تُدغم في الباء، والباء تُدغم فيها نحو: اصحططرا: يريدون اصحب مطرا، والفاء لا تُدغم في الباء، والباء تُدغم فيها نحو: اذهقي ذلك، والراء لا تُدغم في اللام ولا في النون؛ لأنها مكررة، لكن تُدغم اللام في الراء والنون، والجيم تُدغم في الشين والشين لا تُدغم فيها².
نلاحظ مما سبق في إدغام الحروف المتقاربة وامتناعها؛ أنّ الأضعف يُدغم في الأقوى منه، ولا يُدغم القوي في الضعيف، وكذا قلة الإدغام في حروف الشفة لبعدها، وكثرتها في حروف الفم واللسان والحلق لقرب بعضها من بعض.

المطلب الرابع: الإمالة:

يميل المتكلم عادة إلى التخفيف والبحث عن أسهل الطرق في كلامه، وهو ما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث تحت ما سمي "الاقتصاد اللغوي" (Linguistic Economy)، وتعدّ الإمالة إحدى أساليب التخفيف التي تُستخدم لتسهيل النطق، وجعل الصوت أكثر خفة وسلاسة، وقد حظيت باهتمام كبير من قبل اللغويين، والقراء على حدّ سواء؛ حيث قاموا بتعريفها، وشرح أسبابها، وبيان أنواعها، وكل ما يتعلق بها.

أولا/ الإمالة الصوتية: مفهومها، درجاتها، وأسبابها:

** - بدون إدغام: ابيضظالما، وانعت ثابتا، وابعذلک، وحذاد، واحفظ طالبا، وابعث تلك

* - بدون إدغام: انقضّمة، واضبّضّمة، وانعّضّمة، وانعت ضمرة

** - بدون إدغام: حُذّمة، واحفضّمة، وابعث ضمرة، وابعث ضمرة

¹ - الأصول في النحو، ابن السراج، مج2، ص 425-427

² - ينظر: المرجع نفسه، مج2، ص 425-427

الإمالة ظاهرة صوتية تحدث في بعض اللغات، وخاصة العربية، تتعلق بتغيير في نطق بعض الأصوات، ولهذه الظاهرة أسباب أدت إلى حدوثها، ويمكن أن تكون بدرجات مختلفة بحسب الصوت الذي تقترب منه.

1/تعريف الإمالة

أ/ لغة: الإمالة في اللغة؛ تعني: الميل والعدول من شيء إلى شيء آخر؛ جاء في الصحاح: «المَيْلُ: المَيْلَانُ. يقال: مَالَ الشَّيْءُ يَمِيلُ مَيْلًا وَمَيْلًا، مثل: مُعَابٍ وَمَعِيبٍ، في الاسمِ والمصدرِ. وَمَالَ عَنِ الْحَقِّ، وَمَالَ عَلَيْهِ فِي الظُّلْمِ. وَأَمَالَ الشَّيْءُ فَمَالَ. والمَيْلُ بالتحريك: ما كان خَلْقَةً. يقال: مِنْهُ رَجُلٌ أَمِيلُ الْعَاقِبِ، في عُنُقِهِ مَيْلٌ. والأَمِيلُ: الذي لا سَيْفَ مَعَهُ، على أَفْعَلَ. والأَمِيلُ: الذي لا يَسْتَوِي عَلَى السَّرَجِ». ¹ وهو ما ذكره ابن منظور حين قال: «(م.ي.ل.): المَيْلُ: العُدُولُ إلى الشَّيْءِ والإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ المَيْلَانُ وَمَالَ الشَّيْءُ يَمِيلُ مَيْلًا وَمَمَالًا وَمَيْلًا وَمَمِيلًا» ²

فالإمالة في أصلها اللغوي تحمل معنى الميل والانحراف والعدول عن الشيء إلى غيره، والانتقال بين حالتين، سواء أكان ذاك الميل حسيا كميل الشيء، أم معنويا؛ كالميل في الظلم، أو العدول عن الحق.

ب/ اصطلاحاً: الإمالة: «تقريب صوتي بين الصوائت، ومعناه الاتجاه بالصائت قصيرا كان أم طويلا إلى حالة ارتكازية وسطى بين اثنين من قرباناته، وفي الإمالة تقترب الفتحة من الكسرة، والفتحة من الضمة، والكسرة من الضمة، والضمّة من الكسرة» ³، فهنا حدد مجال الإمالة؛ حيث تكون بين الحركات مشيرا إلى أنّ الصوت خلالها يكون في حالة وسطية بين صوتين متحركين، وذكر السيوطي أن «الإمالة هي أن ينحى جوازا بالألف نحو الياء» ⁴، فالسيوطي هنا اقتصر على إمالة الألف فقط، بيد أنّه يذكر أثر الكسرة في ذلك حيث يقول: «ولا يمكن أن تنحى بها نحو الياء؛ حتى ينحى بالفتحة نحو الكسرة؛ فيحصل بذل التناسب» ⁵، وعرفها ابن يعيش بقوله: «عدول عن الألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء؛ فيصير مخرجه

¹ - الصحاح، الجوهري، تح: مجّد تامر، دار الحديث، القاهرة، مج1، 1430 هـ، 2009 ص 1107-1108

² - لسان العرب، ابن منظور، ج11، مادة (ميل)، ص633.

³ - الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، 1418هـ/1998م، ص306-307

⁴ - همع الموامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تح: عبد العالم سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1،

1400هـ/1980م، ج2، ص200

⁵ - همع الموامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، ص200

بين مخرج الألف المفخمة؛ وبين مخرج الياء»¹، اقتصر هو الآخر على إمالة الألف نحو الياء فقط دون الفتحة نحو الياء، وأشار في موضع آخر إلى أن «الفتحة قد تُمال كما تُمال الألف»²، موضّحاً أن الغرض الصوتي من الإمالة إنّما هو «مشكلة الأصوات وتقريب بعضها من بعض، وذلك موجود في الحركة كما هو موجود في الحرف، لأنّ الفتحة من الألف»³؛ فالإمالة تسعى إلى نوع من التجانس والانسجام بين الأصوات؛ فيسهل الانتقال من صوت إلى صوت آخر، ومن ثمة؛ تتيسر عملية النطق، كما أن الإمالة لا تقتصر على الصوامت فقط بل تشمل الصوائت كذلك؛ فالحركات تخضع لنفس الضوابط التي تخضع لها الحروف؛ من حيث التأثير والتأثير، فمثلاً الفتحة يجري عليها ما يجري على الألف؛ لأنّها منه وفرع عنه، وذهب آخرون إلى أنّها تقريب الألف من الياء، والفتحة من الكسرة⁴، وهو تعريف شامل يجمع سببي الإمالة: وهما الكسرة والياء.

يتّضح من التعريفات أن هناك ثلاثة اتجاهات في تعريف الإمالة؛ فمنهم من عرّفها من جهة الحركات، فجعلها تنحيةً للفتحة نحو الكسرة، ومنهم من عرّفها من جهة الحروف؛ فجعلها إمالةً بالألف نحو الياء، ومنهم من جمع بين الأمرين، فعبر عنها بتنحية الألف نحو الياء، والكسرة نحو الياء.

ذكر شارح الشافية أنّ إمالة فتحة الألف نحو الكسرة يلزم إمالة الألف نحو الياء؛ وذلك أن الألف المحض لا يكون إلا بعد الفتح المحض، ويميل إلى جانب الياء بقدر الفتحة إلى جانب الكسرة ضرورة، فلما ألزمها لم تحتج إلى ذكرها⁵.

ولكلمة إمالة ثلاثة معانٍ⁶:

¹ - شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين (ابن يعيش)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ - 2001م، ج5، ص188

² - المرجع نفسه، ابن يعيش، ص198

³ - المرجع نفسه، ص198

⁴ - ابن السراج، الفارسي، ابن مالك، وآخرون، ينظر: الأصول في النحو، مج2، ص348، التكملة، أبو الحسن، بن أحمد بن عبد الغفار، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1419هـ - 1999م، ص536، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد في النحو، (جمال الدين) ابن مالك، المطبعة الأميرية، مكة، 1319هـ، ص85، حاشية الصبان، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، طه عبد الرؤف سعد، المكتبة التوفيقية، مصر، ص220

⁵ - شرح شافية ابن الحاجب، الرضي الاستربادي، ج3، ص4

⁶ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص94

فإذا أطلقت قصد منها: الصوت الذي بين الفتحة والكسرة، وإذا قيل : إمالة الألف أو الفتحة قصد بها: إبدال صوت الإمالة من أحد هذين الصوتين، وإذا قيل: إمالة الدال أو اللام وغيرها قصد بها: إلحاق صوت الإمالة بهذه الحروف.

والغرض من الإمالة هو التقريب؛ أي: تقريب الأصوات بعضها من بعض؛ لضرب من التماثل والتشاكل، فُقربت الألف من الياء، لأنَّ الألف تُطلب من الفم أعلاه، في حين الكسرة تطلب أدناه، وأسفله فحدث تنافر، فجنحت الفتحة نحو الكسرة، والألف نحو الياء، فصار بذلك الصوت بينهما، وزال الثقل الحاصل بسبب التنافر¹، وهذا التجانس والتماثل هو ما يُعرف في الدرس الصوتي الحديث بالمماثلة الصوتية؛ إذ الإمالة تعدّ ظاهرة صوتية؛ تهدف إلى نوع من المماثلة بين الحركات، وتقريبها بعضها من بعض، وهي وسيلة من وسائل تيسير النطق، والاقتصاد في الجهد، والغرض منها: هو تحقيق الانسجام الصوتي الذي يعد ضرباً من المماثلة²، وهو ما ذهب إليه ابن الجزري ذاكراً أن انحدار اللسان أخف من ارتفاعه؛ حيث يرتفع مع الفتح، وينحدر مع الإمالة، لهذا تمت الإمالة، أما من لجأ إلى الفتح؛ فقد راعى الأصل الذي هو الفتح³.

2/ درجات الإمالة:

الإمالة على درجات⁴: فمنها القوي الحاد الذي يقرب جداً من الكسرة، وهذا الذي يسمى إمالة، ومنها الضعيف القريب جداً من الفتحة، وهذا لا يسمى إمالة، بل يسمى "بين اللفظين" أو ترقيقاً.

وعليه؛ فالإمالة ليست على درجة واحدة؛ إذ تتفاوت بحسب مقدار ميل الفتحة نحو الكسرة؛ فأقواها الإمالة الحادة، وهي التي تقارب الكسرة مقاربة واضحة، وهذه هي الإمالة المعروفة اصطلاحاً عند علماء القراءات، وأما ما كان الميل فيه وقريباً من الفتحة، فلا يُعدّ إمالة حقيقية، بل يُسمّى بين اللفظين أو ترقيقاً، لعدم تحقق معنى الإمالة فيه على وجه بَيّن.

¹ - ينظر: شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، 189

² - ينظر: سبل التيسير والتخفيف الصوتي في قراءة القرآن الكريم، ظاهرة الإمالة أمودجا، مجلة الصوتيات، العدد 2، 1439هـ، 2018 م، مجلد 20، ص 7

³ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص 432

⁴ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ج 1، ص 94

كما يُظهر أن القراء الأوائل في تعاملهم مع ظاهرة الإمالة كانوا على درجة عالية من الدقة في الأداء الصوتي، وما ارتضوه من مقادير ودرجات محددة لها، ويُفسّر هذه العناية الدقيقة ما قرّره الإمام الجعبري؛ إذ قسّم الإمالة إلى قسمين رئيسين¹:

لـ أحدهما ما يُمال فيه الصوت إلى حدّ لو زاد لانقلب ياء، وتُسمّى هذه إمالة محضة أو كبرى، وهي المرادة عند الإطلاق.

لـ والثاني ما كان الميل فيه إلى لفظ متوسط بين الفتح المحقّق والإمالة المحضة، وتُعرف هذه بالإمالة الصغرى، ويُعبّر عنها أيضا بقولهم: بين بين أو بين اللفظين؛ أي: بين الفتح والإمالة المحضة.

قد زاد أبو عمرو بن العلاء تقسيمين آخرين، هما: ما هو أقرب إلى الفتح، وما هو أقرب إلى الإمالة الكبرى، فهو يجعل التقليل تقليلين، والمحضة محضتين، بيد أنّ القراء اقتصروا على ما عليه الجمهور، لعدم تحقّق هذين القسمين الأخيرين تحقّقاً سمعيّاً منضبطاً في الأداء والرواية².

3/ أسباب الإمالة وشروطها

اشتهرت الإمالة عند قبائل شرقي الجزيرة ووسطها؛ مثل: أسد، وتميم، وتغلب، وطئ، وبكر بن وائل، وعبد القيس، ورد في شرح المفصل أنّها تُنسب إلى «لغة بين تميم، وعامة أهل نجد من تميم، وأسد، وقيس، أما الفتح فهو لغة أهل الحجاز؛ وهم لا يميلون إلّا في مواضع قليلة، وأن الممال كثير في كلام العرب الأكثر استعمالاً، فيميلونه ويفخمونه سواء، وهناك من يستعمل أحد الأمرين، والذي يكون أنسب»³، كما اشتهر بها قراء الكوفة بالعراق؛ أمثال: حمزة، والكسائي، وخلف، وهم ممّن تأثّروا بالقبائل العربية التي هاجرت إلى العراق من شرقي الجزيرة ووسطها، فاشتهرت بذلك الإمالة عند القبائل البدوية؛ حيث يكون وضع اللسان عندها مرتفع في اتجاه الحنك الأعلى، وهو ما يتناسب مع الكسر، وتبعاً لمقدار الارتفاع تكون الإمالة شديدة أو خفيفة، وتتميّز هذه القبائل بالسرعة في التّطق، تقليلاً من الجهد العضلي، في حين يكون

¹ - ينظر: في الدراسات اللغوية والقرآنية الإمالة في القراءات واللهجات العربية، عبد الفتاح إسماعيل شلي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر،

بيروت، ط 1429هـ/2008م، ص34

² - ينظر: المرجع نفسه، 34.

³ - شرح المفصل، ابن يعيش، ج9، ص5

عند الحضري مستو في قاع الفم؛ حيث يستوي مع الفتح، ويتميز الحضري بالأناة، وعدم السرعة في كلامه ووضوح الأصوات، وفصلها عن بعضها البعض¹.

وتختلف قواعد الإمالة من قبيلة إلى أخرى؛ قال سيويه: «واعلم أنه كل من أمال الألفات وافق العرب من غيره ممن يميل، ولكنّه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه، فينصب بعض ما يميل صاحبه، ويميل بعض ما ينصب صاحبه، وكذلك من كان التّصّب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأوّلين في الكسر، فإذا رأيت عربيا كذلك فلا تريّه خلط في لغته، ولكن هذا من أمرهم»²، وهناك قواعد عامة للإمالة تنطبق على جميع القبائل، وليست خاصة بقبيلة بعينها، ولكل حرف ممال قواعد، وأسباب وشروط أدت إلى إمالاته.

1- إمالة الألف قواعدها وأسبابها

الإمالة في حقيقتها شكل من «أشكال ظاهرة التّمائل، فكّلما اجتمعت كسرة وفتحة؛ أثّرت الأولى في الثانية؛ فحولتها إمالة»³؛ فتنشأ نتيجة تأثر الفتحة بالكسرة المجاورة لها، فتميل نحوها خروجا من الفتح المحض. ويمكن حصر قواعد الإمالة فيما يلي⁴:

1- تُمال كل ألف بعدها كسرة، ولا يوجد فاصل بينهما من فتح، أو ضم، نحو: عابِد.

2- تمال كل ألف قبلها كسرة، ولا يوجد فاصل بينهما من فتح أو ضم، ويسمح في هذه بأن يُفصل بينها وبين الكسرة الفتح فقط، وذلك بشرطين:

لـ أولهما أن يكون أحد الحروف الصحيحة التي بين الكسرة والألف هاء، والثاني أن تُمال الفتحة العازلة أيضا، نحو: لن يضربَهَا وأن يسفِهَهَا، وفي هذا السياق

يقول سيويه: «واعلم أن الألف إذا دخلتها الإمالة دخل الإمالة ما قبلها، وإذا كانت بعد الهاء فأمالتها، أمالت ما قبل الهاء، لأنك كأنك لم تذكر الهاء، فكما تتبعها ما قبلها منصوبة كذلك تتبعها ما قبلها

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسة تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 407-408

² - كتاب سيويه، سيويه، تح: عبد السلام هارون، ج 4، ص 126

³ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 95-96، وشرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ص 189-192

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 96-97

مِمالَة¹؛ يُبرز سيبويه في هذا النص قاعدة دقيقة في ظاهرة الإمالة، وهي ميل الألف نحو الياء؛ فبيّن أن الإمالة لا تقتصر على الألف نفسها، بل تمتد لتشمل الحرف الذي يسبقها؛ إذ يتأثر موقعه الصوتي تبعاً لإمالة الألف، كما أوضح أن وجود الهاء بعد الألف لا يقطع هذا الأثر؛ وذلك لأنّ الهاء تُعامل -وكأنّها- غير موجودة؛ من حيث التأثير الصوتي، فيستمر الحرف السابق لها في اتباع الألف سواء كانت منصوبة أو ممالَة.

3- تُمال كل ألف قبلها ياء، سواء كانت هذه الياء حرف مد، نحو: كِيزان، أو كانت حرف لين ساكناً؛ مثل: شِيبان، أو حرف لين متحركاً، مثل: حِوان، ويسمح في هذه بفاصل الفتح مع شرطيه المذكورين سابقاً، مثل: يَدَها.

4- تُمال كل ألف أصلها ياء؛ نحو: باع، وناب، ورضى.

5- تُمال كل ألف أصلها واو مكسورة في الفعل، مثل: خاف، من خوف.

6- تُمال كل ألف كانت لام فعل، سواء كان أصلها الياء كما في: رمى، أو كان أصلها الواو كما في: غزا.

7- تُمال كل ألف وقعت رابعة فأكثر، سواء كان أصلها الياء كما في: مصطفى، من صفوّ، أو كانت للتأنيث كما في: حبلى أو كانت للإلحاق؛ كما في: معزى، أو كانت منقلبة عن تنوين؛ كما في: عبداً، أو كانت في ضمير كما في: طلبنا.

8- تُمال كلّ ألف سُبقت بإمالة؛ نحو: رأيت عماداً.

9- تُمال كل ألف وقعت في فاصلة شقيقتها ممالَة، نحو: والضّحى، حيث أميلت ألف الضّحى لإمالة ألف قلى.

نستنتج أن الألف تُمال لأسباب عدّة؛ منها:

لـ إذا وقع قبلها أو بعدها كسر.

لـ إذا كانت أصلها ياء.

لـ إذا جاءت بعدها أو قبلها ياء سواء أكانت متصلة أم منفصلة.

¹ - كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، ج4، ص126

لـ إذا كانت مبدلة من عين الفعل.

لـ إذا سبقها ألف مماله؛ أي: الإمالة اللاحقة تتبع السابقة، وتكون هنا الإمالة؛ لأجل الإمالة.

وعموماً؛ تنحصر أسباب الإمالة في شيئين رئيسين؛ هما: الكسر والياء سواء كانتا ظاهرتين أو مضميرتين، وهو ما أكدّه ابن الجزري في كتابه: "النشر في القراءات العشر"؛ بقوله: «هي عشرة: ترجع إلى شيئين؛ أحدهما: الكسر، والثاني: الياء، وكلّ منهما يكون متقدماً على محل الإمالة من الكلمة، ويكون متأخراً، ويكون أيضاً مقدراً في محل الإمالة، وقد تكون الكسرة والياء غير موجودتين في اللفظ، ولا مقدرتين محل الإمالة، ولكنهما مما يعرض في بعض تصارييف الكلمة»¹، كما أنه قد تُمال «الألف، أو الفتحة لأجل ألف أخرى، أو فتحة أخرى مماله، وتسمى هذه إمالة لأجل الإمالة، وقد تمال الألف تشبيهاً بالألف المماله (...) وتُمال أيضاً بسبب كثرة الاستعمال»².

ثانياً/ أسباب قوة الإمالة وأسباب ضعفها

هناك مسوغات تقوي الإمالة؛ كما أن هناك أسباب أخرى تضعفها؛ وهي على النحو الآتي:

1- أسباب قوّة الإمالة³:

- 1- إذا وُجدت كسرتان قبل الألف؛ كان مقتضى الإمالة أقوى، مثل: حِلْبَلاب.
- 2- إذا وُجدت كسرة طويلة قبل الألف؛ أي: ياء مدّ، كان مقتضى إمالة الألف أقوى، مثل: كيزان.
- 3- إذا اجتمعت كسرة وياء لين قبل الألف؛ كان المقتضي أقوى، مثل: العِيان.
- 4- لزوم الكسرة يقوي سبب الإمالة؛ فالإمالة في: بائع أقوى منها في: على الباب؛ لأنّ كسرة الهمزة في الكلمة الأولى لازمة، أما كسرة الباء في الكلمة الثانية فعارضة للإعراب، وهي لذلك عرضة للزوال.
- 5- إذا كانت الكسرة في الرء كان ذلك أقوى، سواء كانت قبل الألف أو بعده نحو: رجال وعارِف.

¹ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص 431

² - المرجع نفسه، ص 431

³ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ج 1، ص 98-99

6- قرب الكسرة من الألف يقوي مقتضي إمالتها، فالإمالة في: كتاب أقوى منها في: مفتاح؛ لوجود حرفين بين الكسرة والألف، وهذه أقوى من الإمالة في: أن يسفهننا لوجود الفتح العازل.

7- الاتصال يقوي الإمالة، ونعني بذلك: أن تكون الكسرة والألف في كلمة واحدة، والانفصال عكسه، فالإمالة في: كتاب أقوى منها في: لزيد مال لوجود الكسرة في كلمة والألف في كلمة أخرى، وبين الدرجتين درجة وسطى تظهر في كلمة بنا؛ حيث نرى "الباء" و"نا" في حكم الكلمة الواحدة، وإن كانتا كلمتين مستقلتين نحويا.

8- كون الألف في فعل؛ يجعل مقتضي إمالتها أقوى مما لو كانت في اسم، فالإمالة في الفعل باع أقوى منها في الاسم ناب.

9- شيوع اللفظ يقوي مقتضي إمالة ألفه، فالإمالة في: يعبد الله أقوى منها في: لزيد مال؛ لشيوع كلمة الله، وقلة شيوع كلمة المال.

10- الوقف على الكلمة يقوي إمالتها، فالإمالة في: زيد منا أقوى منها في: منا زيد.

يتضح من هذه الأسباب؛ أن الإمالة ظاهرة صوتية تحكمها العلاقة القائمة بين الألف والكسرة خاصة، وأن قوتها تتناسب طرديا مع:

لمقرب الكسرة من الألف.

لمتصلها المباشر بها.

إضافة إلى عوامل أخرى تعد من أسباب قوة الإمالة؛ كأن تكون الكسرة لازمة، واجتماع الكسرة مع الياء، والإمالة في الفعل أقوى من الإمالة في الاسم، وشيوع اللفظ، والوقف، ووجود الكسرة في الراء.

وعليه؛ فإن الإمالة ليست ظاهرة صوتية اعتباطية، بل تمثل نظاما صوتيا دقيقا؛ يقوم على مبدأ التيسير الصوتي والانسجام النطقي، ويعكس حسا لغويا رفيعا لدى العرب في تنظيم الأصوات داخل بنية الكلمة.

هذا بالنسبة للأحكام التي توجب الإمالة، أما التي تمنعها، أو تجعلها ضعيفة فسنذكرها كالاتي:

2- أسباب ضعف الإمالة¹:

1- تعدّ حروف الاستعلاء* (ص، ض، ط، ظ، خ، غ، ق) أقوى المضعفات للإمالة، بل عدها النحاة مانعة للإمالة في الكثير من الأحيان، فأقوى تأثير للحرف المستعلي؛ إذا كان قبل الألف مباشرة، نحو: صائم، أو بعده مباشرة، نحو: صائم أو بعده بحرف نحو: نافخ، فإذا وقع المستعلي في الألف هذه المواقع منعها من الإمالة، ويأتي ذلك في الرتبة أن يكون المستعلي قبل الألف ساكناً متوسطاً بينها وبين الكسرة، مثل: مصباح، أو يكون بعد الألف بحرفين مثل: مناشيط، وأضعف تأثير له إذا كان قبل الألف والكسرة، مثل: قيباب، أو بعد الألف في كلمة أخرى، مثل: مساجد صالح، وسبب المنع في هذه الحروف لأنّ الصّوت يستعلي معها إلى الحنك الأعلى في حين الإمالة تسفل فحدث تناف بينهما.

2- الراء المضمومة والمفتوحة من مضعفات الإمالة، وأقوى حالات إضعافها أن تكون مباشرة للألف قبله أو بعده، مثل: راشد، حجار؛ ففي هذين الموقعين تمنع إمالة الألف كما يمنعها المستعلي، أما إذا تباعدت عن الألف فقد اختلف النحاة، فمنهم من ترك لها شيئاً من التأثير، ومنهم من ألغى تأثيرها نهائياً، مثل: رواعد، نواذر.

3- بُعد الكسرة عن الألف يضعف الإمالة.

4- الانفصال يضعف الإمالة.

5- الوصل يضعف الإمالة وهو عكس الوقف.

6- عروض الكسرة يضعف الإمالة، وهو عكس لزومها.

7- زوال الكسرة يضعف الإمالة، ويكون زوالها لعارض إدغام، كما في: جادّ؛ حيث حذفت كسرة الدال الأولى التي بعد الألف لأجل الإدغام، والأصل: جادد، أو يكون زوالها لعارض وقف، كما في: ماش، إذ الأصل في الوصل ماش، وعلى هذا تكون الإمالة في هاتين الكلمتين وما هو في حكمهما أضعف من الإمالة في مثل: عابد.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ج 1، ص 99-102

* - ودُكرت هذه الحروف؛ لأنها تخرج بارتفاع اللسان والتصاقه بالحنك الأعلى في حين أن الإمالة تنشأ بانخفاض اللسان

8- كون الألف المراد إمالتها ألفا منقلبة عن تنوين يضعف مقتضي الإمالة، فالإمالة في: رأيت عبدا أضعف منها في: رأيت حبلى.

و عليه؛ يمكن القول أن ضعف الإمالة يرتبط بموقع الأصوات المجاورة للألف وطبيعتها، وكذا بالسياق التركيبي (وصل/وقف)، والصرفي (أصل الألف أو انقلابها) للكلمة.

3- ألفات لا تمال:

الألفات التي لا تمال على ثلاثة أنواع¹:

1- ألفات لم يتوقّر لها سبب من أسباب الإمالة التي ذكرت سابقا.

2- ألفات الأحرف وإن توقّرت لها الأسباب، فلا تُمال الألف في: إما وإلا، على الرغم من وجود كسرة قبلها.

3- ألفات الأسماء غير المتمكنة وإن توقّرت لها الأسباب، فلا تُمال الألف في: إذا، على الرغم من وجود كسرة قبلها.

4- ألفات أميلت سماعا:

هي الكلمات الآتية²: العشاء، المكاء، الباب، المال، الحجاج*، الناس، بلى، يا، لا، ذا، أنى، متى، عسى، وجميع أسماء حروف التهجي: (با..تا..ثا...) واشتروا فيها أن تكون علما.

5- إمالة الفتحة قبل هاء التانيث: وإمالة الفتحة الواقعة قبل هاء التانيث جائزة في الوقف خاصة، فتقول: جاءت فاطمة بالإمالة، أمّا إذا وصلت فقلت: جاءت فاطمة إلى البيت فلا إمالة، وقد اختلف النحاة والقراء في شروط هذه الإمالة؛ فالكسائي أجازها مطلقا، في حين قيدها غيره بحسب طبيعة الحرف السابق، فاستحسنوها مع كل الحروف المستقلة، واستقبحوها مع الراء، وعدّوها متوسطة مع حروف الاستعلاء، أمّا القراء فكانوا أكثر تشدّدا؛ فمنعوها مع حروف الاستعلاء، ومع الحاء والعين والألف، إلا إذا سبق هذه الحروف كسر أو ياء ساكنة، فأجازوا إمالة الفتحة حينئذ مثل: الحافرة، الخاطئة³.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ص102

² - المرجع نفسه، ص102

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص103

6- إمالة الفتحة قبل الراء المكسورة:

أجازوا إمالة الفتحة إذا جاءت قبل راء مكسورة، مثل: من المطر، من الكبر، واشتروا لذلك شرطين¹:

لـ أولهما ألا يفصل بين الفتحة والراء المكسورة فاصل من حركة أخرى.

لـ والثاني ألا يأتي بعد الراء المكسورة حرف استعلاء، فلا تُمال فتحة السين في كلمة السرّ؛ لوجود القاف بعد الراء، أما إذا جاء حرف الاستعلاء قبل الراء فلا أثر له في منع الإمالة، فتقول: من المطر.

7- إمالة الضمة والواو:

إذا سبقت الضمة أو الواو الساكنة راءً مكسورة جاز إمالتها نحو الكسرة والياء، كما في: من عمر وهذا ابن بُور؛ وتُفسّر هذه الإمالة صوتياً على أنها انتقال من صوت طليق بسيط (الضمة أو الواو) إلى صوت طليق مختلط؛ أي: صوت يجمع خصائص حركتين مختلفتين؛ ففي النطق الطبيعي تتطلب الكسرة ارتفاع مقدّم اللسان مع انفراج الشفتين، بينما تتطلب الضمة ارتفاع مؤخر اللسان مع ضمّ الشفتين، أمّا في الإمالة فيحدث تضاد في أوضاع أعضاء النطق؛ إذ يرتفع اللسان كما في الكسرة مع ضمّ الشفتين، أو يرتفع كما في الضمة مع انفراج الشفتين، فينشأ عن ذلك صوت وسيط غير خالص².

هذان النوعان من الأصوات المختلطة معروفان في العربية: الفتح المشوب بالضم، والضم المشوب بالكسر (إمالة الضمة)، وهما يعبران عن ميل الأصوات إلى الانسجام الصوتي، وتخفيف الجهد التطقي في سياقات مخصوصة³؛ ومن ثمة؛ فإنّ إمالة الضمة والواو ظاهرة صوتية مشروطة بالسياق، تتحقّق داخل سياق صوتي محدّد؛ فإذا جاءت بعدها راء مكسورة، أميلت الضمة نحو الكسرة، والواو نحو الياء، ويمكن تفسيرها عملياً بانتقال صوت طليق بسيط إلى صوت طليق مختلط؛ ناتج عن تضاد في أوضاع اللسان والشفّتين، فتختلط خصائص الضم والكسر في نطق واحد.

المبحث الثاني: الظواهر التطريزية

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مجّد الأنطاكي، ص 103-104

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 104

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 104

يطلق مصطلح **الظواهر التطريزية** على كل ظاهرة أو صفة صوتية ذات دلالة أو قيمة وظيفية في الكلام المتصل؛ إذ تشمل المنطوق بأكمله، وتضفي عليه خصائص مميزة؛ وقد سُميت بهذه التسمية تشبيها لها بالسّمات أو الزخارف التطريزية التي تُلحق بالتّوب أو تُضاف إليه، فتمنحه جودة أعلى ودقّة أكبر، وتجعله أكثر قبولاً¹.

ويُقصد بهذه الظواهر مظاهر التّلوين الصّوتي، كالنّبر والتّنغيم والمقطع والوقف، وتُعرف باسم **الفونيمات الثانوية**؛ إذ الفونيم الرئيسي؛ هو: الوحدة الصّوتية التي تدخل في بنية الكلمة، كالفاء، أو، العين أو اللّام، في حين أن الفونيم الثّانوي لا يشارك في تركيب الكلمة ذاتها، بل يكسوها فلا يمكن قطعها أو فصل امتدادها الصّوتي، كما قد يُطلق على هذه الظواهر مصطلح **البروسوديات**، وهو تعريب للكلمة الإنجليزية (prosodic)².

ويسمى هذا النوع من الظواهر أيضاً باسم **الفونيمات فوق التركيبية** أو **غير التركيبية** (Suprasegmental phonemes)، أو الفونيمات الثانوية أو **فوق القطعية**، وهي ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوّعة، وهي تُصاحب التّطق³، فالفونيمات فوق التركيبية أو الثانوية لا تكون جزءاً من تركيب الكلمة، وإنّما تظهر حين نضمّ كلمة إلى أخرى، أو حين تستعمل الكلمة بصورة خاصة، كأن تستعمل في جملة⁴؛ فالفونيمات فوق القطعية إذا؛ تتعلق بالأداء النطقي وفق سياق معين، ويشمل كل من: المقطع، والنبر، والتّنغيم، والفاصلة وغيرها.

من أهم وظائف الفونيمات فوق التركيبية: أنّها تؤدي وظيفة دلالية؛ حيث تعمل على إيضاح كثير من المعاني التي لم يستطع المتكلم الإفصاح عنها - في أحيان كثيرة - من خلال أنظمة اللّغات الأخرى؛ وذلك أنّ الكتابة لا تستطع أن تترجم أحاسيس الإنسان، وميوله، وتطلّعاته، فهذه الفونيمات تتعاوض معاً؛ لإبراز المعاني، وترجمة الإحساس بصورة أصدق من المكتوب⁵.

¹ - ينظر: الدراسة التاريخية للظواهر التطريزية والظواهر الصوتية في اللغة العربية عند المستشرقين، حامد الظالمى، مجلة آداب البصرة، العدد 78،

جامعة البصرة، (2017م)، ص 94

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 94.

³ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 219

⁴ - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، 113

⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص 115

المطلب الأول: المقطع (مفهومه أنواعه ومميزاته)

يُعدّ المقطع من الظواهر المحورية في الدرس الصوتي، إذ تتجلى أهميته في كونه أساسا لتنظيم وضبط مختلف الظواهر الصوتية؛ كالنبر والتّنعيم، كما يسهم في تفسير بنية الكلمة، وتوزيع الأصوات داخلها، وعلى الرغم من هذه الأهمية لم يتفق علماء اللغة على تعريف موحد له، ويرجع ذلك إلى اختلاف زوايا النظر إليه؛ فقد عالج بعضهم من منظور أكوستيكي، وعالجه آخرون من منظور فيزيائي؛ يركز على الخصائص الفيزيائية للصوت، وآخرون من منظور نطقي؛ يهتم بحركات أعضاء النطق، في حين تناوله آخرون من منظور وظيفي؛ ببيان دوره في التنظيم اللغوي، وهو ما أدّى إلى تعدّد تعريفاته. فما تعريف المقطع؟ وهل تختلف مكوناته وخصائصه من لغة لأخرى؟

1/ تعريف المقطع:

أ/ لغة: مقطع كل شيء آخره، جاء في لسان العرب: «وَمَقْطَعٌ كُلُّ شَيْءٍ وَمُنْقَطَعُهُ: آخِرُهُ حَيْثُ يَنْقَطِعُ (...) وَالْمَقْطَعُ: أَيُّ: الْآخِرُ وَالْحَاقِمَةُ (...) وَمَقَاطِعُ الْقُرْآنِ: مَوَاضِعُ الْوُقُوفِ»¹، وجاء في المعجم الوسيط: «الْمَقْطَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخِرُهُ؛ حَيْثُ يَنْقَطِعُ وَيَنْتَهِي؛ كَمَقَاطِعِ الرِّمَالِ، وَالْأَوْدِيَةِ، وَالْمَزَارِعِ وَنَحْوِهَا»².

ب/ اصطلاحا:

لا يوجد تعريف موحد للمقطع يمكن الاعتماد عليه؛ وذلك لاختلاف النظام المقطعي بين اللغات - ولو في جزئية يسيرة-، بالإضافة إلى اختلاف وجهات النظر بين العلماء؛ فمنهم من يعرفه فيزيائيا، ومنهم من يعرفه انطلاقا من الجانب السمعي (أكوستيكي)، ومنهم من يركز على الجانب الوظيفي له، ويمكن القول أن هناك اتجاهاً رئيساً في تعريف المقطع: اتجاه فونيتيكي، واتجاه فونولوجي.

من أهم تعريفات الاتجاه الفونيتيكي للمقطع نذكر³:

1- تتابع من الأصوات الكلامية، له حد أعلى أو قمة إسماع طبيعية (بغض النظر عن العوامل الأخرى، مثل: النبر والنغم الصوتي) تقع بين حدين أدنيين من الإسماع.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مج5، مادة (ق.ط.ع)، ص3676

² - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة(ق.ط.ع)، ص746

³ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص284

2- قطاع من تيار الكلام؛ يحوي صوتا مقطوعيا ذا حجم أعظم، محاطا بين قطاعين أضعف أكوستيكيًا.

3- أصغر وحدة في تركيب الكلمة.

4- وحدة من عنصر أو أكثر يوجد خلالها نبضة صدرية واحدة: قمة إسماع أو بروز.

5- ومن اللّغويين من ركّز أكثر على النّاحية الفيسيولوجية؛ فعرف المقطع على أنه: نبضة صدرية، أو وحدة منفردة؛ لتحرك هواء الرئتين لا تتضمّن أكثر من قمة كلامية، أو قمة تموج مستمر من التوتر في الجهاز العضلي النّطقي أو نفخة هواء من الصدر¹.

فالتعريف الفونيتيكي يركّز على الأصوات بعدها: وحدات منطوقة تتولّد في جهاز فيزيولوجي، ثمّ تنتقل في وسط فيزيائي وصولا إلى أذن السّامع، بغض النّظر عن القوانين التي تحكمها، تجلّى ذلك في عبارات استعملت في ثنايا هاته التعريفات: "تتابع الأصوات، قطاع من تيار الكلام، أصغر وحدة صوتية، نبضة صدرية".

أما الاتجاه الفونولوجي؛ فيعرف المقطع على أنّه «عدد من التتابعات المختلفة من السّواكن والعلل بالإضافة إلى عدد من الملامح الأخرى؛ مثل: الطول والنبر والنغم، أو إلى علل مفردة أو سواكن مفردة تعتبر في اللغة المعينة كمجموعة واحدة بالنسبة لأي تحليل آخر»²؛ فالتعريف الفونولوجي يركز على الوظيفة داخل النظام الصوتي للغة، فينظر إلى المقطع كوحدة صوتية لها دور مهم داخل بنية اللغة.

ومن تعريفات المقطع الفونولوجي³:

1- الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحد من النبر (كما في الإنجليزية)، أو نغمة واحدة (كما في كثير من اللغات النغمية).

¹ - إذ إن تقدم الوسائل العلمية، واستخدام الأجهزة الحديثة لتسجيل الكلام وكذا أشعة إكس، وتسجيل حركات العضلات، ومواضع الضغط بين الأعضاء (...) كل هذا جعل من الممكن تحديد النبضة الصدرية (chest pulse) لكل مقطع، ومعرفة الدور الذي يؤديه هذا التحرك الأساسي لتوزيع الأدوار على مكونات المقطع (العله والسواكن)، كما جعل من الممكن ملاحظة قطار الأحداث في القدم، وفي المجموعة النفسية، وفي العبارة.

ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 285

² - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 285

³ - المرجع نفسه، ص 286

2- إنه الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها.

3- إنه وحدة تحتوي على صوت علة واحد، إما وحده أو مع سواكن بأعداد معينة، وبنظام معين.

وهو -بالنظر إلى مكوناته - وحدة صوتية أكبر من وحدة الصوت المفرد، وتتألف هذه الوحدة من صوت طليق واحد، قصيرا كان أو طويلا، معه صوت حبيس واحد أو أكثر، ففي كلمة **قال** مثلا؛ مقطع واحد يتألف من طليق واحد هو الفتحة الطويلة؛ أي: الألف، وعلى جانبيه حبيسان اثنان، هما القاف واللام، وفي كلمة **هاتي**؛ مقطعان: أولهما: **ها** المؤلف من فتحة طويلة، وهاء، وثانيهما: **تي**، المؤلف من كسرة طويلة وتاء، أما كلمة **ضرب** فتتألف من ثلاثة مقاطع، كل منها مؤلف من فتحة قصيرة، وحبيس واحد، وهي، على الترتيب: **ض-ر-ب**¹.

والمقطع يتكوّن نتيجة «حركة الرّئين واندفاع الهواء منهما دفعة واحدة، تسمح بخروج هذا القدر من الأصوات بهذه الكيفية التي يحس بها الناطق والسامع على سواء»²؛ فهو إذا؛ ينشأ بطريقة فيزيولوجية (حركة الرّئين) فيزيائية (انتقال الأصوات في الوسط الفيزيائي) سمعية (استقبال الأذن للأصوات) منظمة، وبذلك يتشكل الكلام الإنساني الذي يضم عدة مقاطع صوتية.

وللمقطع «جزءان أساسيان أحدهما يعرف بـ(القمة)، والآخر بـ(القاعدة) أو (الوادي) أو(الهامش)»³؛ وهذا يتعلّق بدرجة الوضوح السمعي؛ إذ إن «أعلى الأصوات وضوحا في السمع يمثل "القمم"، وما عداها مما يدخل في تركيب المقاطع الصوتية يسمى "قواعد" أو "وذيّانا" أو (هوامش)»⁴.

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 21

² - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 260

³ - المرجع نفسه، 261

⁴ - المرجع نفسه، ص 261، " ومعروف أن أصوات اللين أو العلة أكثر وضوحا في السمع من السواكن كما أنّها فيما بينها تختلف في درجة الوضوح نسبيا، وإذا رتبناها على حسب درجة وضوحها بحسب الطول والقصر، فالطويلة ألف المد - واو المد - ياء المد أوضح من القصيرة: الحركات: الفتحة - الضمة - الكسرة، ويليهما الأصوات الساكنة مع تفاوت في درجة وضوحها، فاللام والنون والميم تعد أوضح من غيرها من السواكن وتسمى " أشباه أصوات اللين " لأنّها تليها في درجة علوها السمعي لإمكانها أن تحل محلها، وما عداها من السواكن يقل عنها وضوحا. ينظر: المرجع نفسه، 261

تختلف الأصوات المقطعية عن الأصوات غير المقطعية؛ إذ «تسمى الأصوات التي تقع "قمة" في المقاطع أصواتا مقطعية، وتسمى الأصوات التي تقع "قاعدة" أو "هامشا" أصواتا غير مقطعية»¹، وتعدّ العلل الواسعة (a-a) أصواتا مقطعية حتما؛ لأنها أعلى الأصوات وضوحا، أما ما عداها فقد تسمى مقطعية حيناً، وغير مقطعية حيناً آخر، فإذا صاحبت ما هو أعلى منها وضوحاً؛ فهي أصوات غير مقطعية وإذا صاحبت ما هو أقل منها وضوحاً سميت مقطعية، وهو -في الحالين- أمر نسبي².

2/ أنواع المقاطع ووقوعها في اللغات:

تُقسّم المقاطع -بالنظر إلى طبيعة الصوت الذي تنتهي به- إلى قسمين رئيسيين هما: مقطع مفتوح ومقطع مقفول (أو مغلق)

1- المقطع المفتوح (open): وهو المقطع الذي «ينتهي بحركة طويلة أو قصيرة "علة"؛ مثاله في الفرنسية "روبو" (repu) ومعناها: شعبان، فمقطعاها مفتوحان»³.

ومثاله في العربية: لى، بم فالمقطع الأول "لى" ينتهي بحركة طويلة، والمقطعان بم ينتهيان بحركة قصيرة⁴.

2- المقطع المغلق أو المقفول (Closed): وهو المقطع الذي «ينتهي بحرف ساكن أو حرفين، وإذا انتهى بحرفين سمي أحيانا مزدوج الانغلاق»⁵، ومثاله في الفرنسية: اسم العلم: فكتور (victor)، يتكوّن من مقطعين؛ الأوّل يتكون من (س+ع+س)، والثاني من (س+ع+س)، ومثاله في العربية كلمتي: عِلْمٌ، وَقَدْرٌ، فكل من الكلمتين يشتمل على مقطعين مغلقين، يتكون كل منهما من (س+ع+س)، ومثاله كلمة (نستعين)- في حالة الوقف- فالمقطع الأخير "عين" مغلق، مكون من (س+ع+س+س)، وكلمة رادّ تمثل مقطع مزدوج الإغلاق- حال الوقف- فالكلمة كلها مقطع واحد يتكون من (س+ع+س+س)⁶.

¹ - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 262

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 263

³ - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 285.

⁴ - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 264

⁵ - المرجع نفسه، ص 264

⁶ - المرجع نفسه، ص 264

كما تقسّم المقاطع من حيث النطق بها إلى: مقاطع قصيرة ومقاطع طويلة؛ فالمقطع القصير هو «الذي ينتهي بحركة قصيرة»¹؛ ومثاله في العربية كلمة قرأ؛ فهي مركبة من ثلاثة مقاطع قصيرة: هي (ق-ر-أ) فهو إذا «لم يزد عن صوتين؛ نحو: ك-ك-ك بفتح الكاف وضمتها وكسرها»²، أمّا المقطع الطويل فهو الذي «ينتهي بحركة طويلة أو بحرف»³؛ وهو الذي يشتمل «على أربعة أصوات، أو ثلاثة، أحدهما لين طويل، فمثال ما تكون من أربعة أصوات: بحر-درج-فكر، ومثال ما تكون من ثلاثة: أحدهما لين طويل: نار- طول-نير»⁴ ومثاله: قرأنا، تتكوّن من مقطعين طويلين، الأوّل "قرأ" ينتهي بصوت صامت هو الهمزة الساكنة، والثاني "نا" ينتهي بحركة طويلة هي الألف المدية.

والمتوسط إذا يكون من ثلاثة أصوات، أو صوتين أحدهما لين طويل، فمثال ما تكون من ثلاثة: كم-كن-من ومثال ما تكون من صوتين؛ أحدهما لين طويل: كا-كو-كي⁵.

3/ المقطع والكلمة العربية:

تتألف الكلمة العربية من مجموعة من المقاطع، وتتنوع مقاطع الكلمة العربي على النحو الآتي⁶:

1- أحادية المقطع؛ نحو: عن-س ع س

2- ثنائية المقطع؛ نحو: اكتب-س ع س-س ع س

3- ثلاثية المقطع؛ نحو: كاتب-س ع ع +س ع س (وقفا) و س ع ع +س ع س (وصلا).

4- رباعية المقطع نحو: مدرسة-س ع س+س ع س+س ع س (وقفا)، س ع س+س ع س (وصلا).

¹ - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 265

² - المرجع نفسه، ص 265

³ - المرجع نفسه، ص 265

⁴ - المرجع نفسه، ص 265

⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص 265

⁶ - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 221-222

5- خماسية المقطع؛ نحو: احتفالات ← س ع س + س ع + س ع + س ع س (وقفا)، س ع س + س ع + س ع ع + س ع ع + س ع (وصلا).

6- سداسية المقطع؛ نحو: إستقبالاتهم ← س ع س + س ع + س ع + س ع + س ع س (وقفا)، س ع س + س ع + س ع ع + س ع + س ع + س ع (وصلا).

7- سباعية المقطع؛ نحو: استقبالاتهم ← س ع س + س ع + س ع + س ع + س ع + س ع س (وقفا)، س ع س + س ع + س ع ع + س ع + س ع + س ع + س ع (وصلا).

4/ أشكال المقاطع في العربية وخصائصها

تتكوّن المقاطع بطريقة آلية عملية في جهاز النطق، ويتحدّد نوع المقطع بناءً على الكيفيّة التي تتمّ بها هذه العملية؛ إذ إن جهاز النطق مؤهّل لإنتاج عدد كبير من الوحدات الصوتية، التي ينتظم بعضها مع بعض لتكوين الكلمات ثمّ الجمل، ويقوم هذا الانتظام على آليات **الفتح والغلق الكلّي** أو **الجزئي** التي تحدث داخل جهاز النطق في تتابع مستمر أثناء العملية الكلامية، وينتج عن هذا التتابع نطقٌ مقطّع للكلمة والكلام، تحكمه إيقاعات صوتية مخصصة، تُقسّم الكلام إلى وحدات جزئية يُطلق على كلٍّ منها مصطلح **المقطع**¹؛ وعليه؛ فالمقطع الصوتي: وحدة نطقية أساسية تنتج عن تنظيم آلي وإيقاعي لعمل جهاز النطق، قائم على تعاقب الفتح والغلق أثناء الكلام. وللمقطع العربي خمسة أشكال هي²:

1- حبيس + طليق قصير؛ مثل: ب (قصير مفتوح)

2- حبيس + طليق طويل؛ مثل: يا (متوسط مفتوح)

3- حبيس + طليق قصير + حبيس؛ مثل: من (متوسط مغلق)

4- حبيس + طليق طويل + حبيس؛ مثل: باب (طويل مغلق)

5- حبيس + طليق قصير + حبيس + حبيس؛ مثل: بحر (طويل مضاعف الإغلاق)

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 260

² - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 48

يمكن إضافة لهذه الأشكال الخمسة شكلين آخرين للمقطع العربي لا يوجدان إلا في حالة تخفيف الهمزة، أي: حال نطقها بين بين، فأولهما يتألف من طليق قصير فقط، مثل المقطع الثاني من كلمة (أنا)←أ، -، نا)، وثانيهما يتألف من طليق قصير بعده حبيس واحد، مثل المقطع الثاني من كلمة (أنتم)←أ، -، ن، تم)¹. وعموما؛ فالكلمة جزء من الكلام، وتتكون على الأقل من مقطع واحد، وتلك المقاطع لها أشكال معينة، وقد أجمع الدارسون على خمسة أشكال وهي كالآتي²:

1- مقطع قصير مفتوح (صامت+حركة)، ورمزه ص ح؛ نحو: ف←ص ح، كَتَب←ك: ص ح/ت←ص ح/ب←ص ح.

2- مقطع طويل مفتوح (صامت+حركة+حركة أو حركة طويلة)، ورمزه: ص ح ح نحو: ما في كلمة (مالك)←ص ح ح وبعضهم يسميه مقطع متوسط مفتوح.

3- مقطع طويل مغلق؛ (صامت+حركة+صامت)، ص ح ص، نحو (عن)←ص ح ص، وشرطه الوقوف أو عدم الإعراب، وبعضهم يسميه مقطع متوسط مغلق.

4- مقطع مديد مغلق بصامت (صامت+حركة+حركة+صامت) ورمزه (ص ح ح ص)، وبعضهم يسميه مقطع طويل مغلق.

5- مقطع طويل مغلق بصامتين (صامت+حركة+صامت+صامت)، ورمزه (ص ح ص ص) نحو: كُنْتُ (ص ح ص ص)، ومنهم من يسميه المقطع العنقودي، أو المقطع الطويل المزدوج الإغلاق. والصحيح أن المقطع الطويل المزدوج الإغلاق هو (صامت+حركة+حركة+صامت+صامت) ورمزه: (ص ح+ح+ص+ص) نحو: مادّ، جادّ (ص ح ح ص ص)، ووسمه آخرون بالمقطع البالغ الطول المزدوج الإغلاق، وهذا النوع من المقاطع مهمل عند كثير من اللغويين، ولم يحفلوا به، ومن ناحية أخرى فإن الأنواع الثلاثة الأولى، وهي (ص ح)، و(ص ح ص) تعدّ من أكثر الأنواع شيوعاً في الكلام العربي، أما المقاطع الأخرى فقليلة الشيوع.

ثمة تقسيم آخر للمقاطع من حيث الكمية؛ فقد قسّمت إلى ثلاثة أقسام (مقاطع قصيرة، مقاطع متوسطة، مقاطع طويلة) أي بحسب معيار المكونات الصوتية للمقطع، كما قسمت بحسب طبيعتها إلى

¹ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 49

² - الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، ص 97-98

قسمين (مقاطع مفتوحة ومقاطع مغلقة)؛ أي: بحسب معيار نوع المكونات الصوتية للمقطع، كما قسمت بحسب معيار الزمن إلى مقاطع قوية، وأخرى ضعيفة؛ وذلك بحسب الزمن الذي يستغرقه النطق بالمقطع، وقسمت أيضا إلى مقاطع حرة وأخرى مقيدة؛ أي: بحسب نوع المقطع نفسه؛ فالحر هو الذي يأتي في بداية الكلمة، ووسطها، ونهايتها، ويشتمل على المقطع القصير، والمقطعين المتوسطين المفتوح والمغلق (ص ح) و(ص ح ح) و(ص حص). وأما المقيد فهو الذي يلزم موقعا معينا في الكلمة، ومن أمثله المقطع الطويل المزدوج الإغلاق (ص ص ص) الذي لا يرد إلا في أواخر الكلمات، وحين الوقف، مثل كلمة (مستقر) (مُسْن)، (ت) (قَرَّ) ¹.

5/ النسخ المقطعية:

يمكن أن تتألف الكلمة العربية من مقطع إلى سبع مقاطع؛ فأما بنات المقطع الواحد؛ فقد يكون فيها المقطع قصيرا مفتوحا؛ نحو: "ب، و"، وقد يكون متوسطا مفتوحا؛ نحو: "يا، ذي، ذو"، وأغلب الكلمات التي من هذين الشكلين أدوات نحوية، حروف أو أسماء مبنية، وما كان من غير الأدوات فهو قليل مثل: "ق، ع، ف، وغيرها"، وهي أفعال أمر من: "وقى، وعى، وفى"، وقد تكون بنات الواحد من مقطع متوسط مغلق، مثل: "يد، دم"، ويكثر هذا الشكل في الأدوات النحوية مثل: "عن، بل، هل، كم، لو، وغيرها"، وقد تكون من مقطع طويل مغلق؛ مثل: "باب، عيد، سور"، أو من مقطع طويل مضاعف الإغلاق مثل: "درب، عمر، بئر" ².

فهذه الأنسجة إذا؛ تندرج على الترتيب ضمن الأشكال: الأول والثاني والثالث والرابع والخامس السالفة الذكر، في حين أن بنات الاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة والستة والسبعة فلا يمكن حصر أنواع نسجها لكثرتها، فنكتفي بالتمثيل لكل طائفة منها ³:

- من بنات الاثنين (هاتوا ← ها-تو)

- من بنات الثلاثة (ضرب ← ض-ر-ب)

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجد، ص 98-99

² - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 49-50

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 50

- من بنات الأربعة (شَجَرَةٌ ← شَ - ج - ر - ثُنْ)

- من بنات الخمسة (شَجَرْتُكَ ← شَ - ج - ر - ث - كَ)

- من بنات الستة (سَأَلْتُمُونِيهَا ← سَ - أَلْ - ت - مُو - نِي - هَا)

- من بنات السبعة؛ فَسَيَكْفِيكَهُمُو (فَ - سَ - يَكْ - نِي - كَ - هُ - مُو)

وهكذا؛ تتألف اللغة العربية من أنسجة عديدة من المقاطع لا يمكن حصرها، بيد أنها لا تقبل

بعض الأنسجة، فممّا لا تقبله ما يلي¹:

1- كلمة مؤلّفة من ثمانية مقاطع وأكثر.

2- كلمة في صدرها أو حشوها مقطع من الشكل الخامس (طويل مضاعف الإغلاق).

3- كلمة مجردة من الضمائر مؤلّفة من أربعة مقاطع من الشّكل الأول (قصير مفتوح)، أما المؤلّفة من

ثلاث مقاطع من هذا الشّكل فكثيرة مثل: "ضَرَبَ - أَكَلَ - شَرِبَ"، فإذا اتّصل بالكلمة شيء من الضمائر أو أضيفت جاز أن تشتمل على أكثر من ثلاثة من هذا الشّكل مثل: "شجرة أحمد" ← شَ - ج - ر - هُ - و "شَ - ج - رَثُ - كَ".

4- كلمة مجردة من الضمائر مؤلّفة من ثلاثة مقاطع من النوع الثاني (متوسط مفتوح)، فإذا وجدت

كلمة منسوجة على هذا المنوال؛ فهي لا شك أعجمية، مثل: "قاديشا" ← قا - دي - شا.

5- كلمة مجردة من الضمائر مؤلّفة من مقطعين؛ أولهما من الشكل الثاني (متوسط مفتوح)، وثانيهما

من الشكل الخامس، فإن وجدت كلمة من هذا النسيج كانت ولا شك أعجمية؛ مثل "جُو مَرَّتْ" ← جو - مَرَّتْ. أما ذوات الضمائر فلا تأبى أن تكون من هذا النسيج؛ مثل: "شَارَكْتُ" ← شَا - رَكْتُ.

6- كلمة مؤلّفة من ثلاثة مقاطع أولها من الشّكل الثالث (متوسط مغلق)، وثانيها وثالثها من الشكل

الثاني، فإن وجدت كلمة من هذا النسيج كانت أعجمية؛ مثل: "سَرَعَايَا" ← سَرَّ - غَا - يَا، إلا أن بعض

¹ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، الأنطاكي، ص 50-51

الكلمات إذا وقف عليها بالألف بدل التنوين المنصوب غدت من هذا النسيج؛ مثل: "اشتريت سربالا" ← سر-با-لا".

7- كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع؛ أولها من الشكل الثاني وثانيها وثالثها من الشكل الثالث مثل: "شابندر" ← شا-بن-در".

6/ مميزات المقطع العربي:

يتميز المقطع العربي بخصائص بنيوية؛ تجعله يخضع لنظام صوتي قائم على قواعد وأسس لا يجيد عنها، ومن مميزات المقطع العربي ما يلي¹:

لـ تقع المقاطع الأربعة الأولى في جميع مواضع الكلم، في حين لا يقع المقطع (ص ح ح ص ص) و (ص ح ص ص) إلا في آخر الكلمة، وفي حالة الوقف حصراً، ولا يأتيان في درج الكلام، نحو: كلمة (عاد) ← ص ح ح ص ص، وكلمة (عُذْتُ) عُذ ← ص ح ص، وث ← ص ح.

لـ لا يبدأ المقطع الصوتي في العربية بصامتين أو أكثر، ولا ينتهي بصامتين إلا في حالة الوقف، ولا يتوالى في المقطع الواحد ثلاثة صوامت أو أكثر.

لـ لا يبدأ المقطع في العربية بصائت، بل يبدأ بصامت تتبعه حركة.

لـ يجوز أن يتتابع صامتان في وسط الكلمة العربية أو آخرها، وترجع استساغته هذا التتابع إلى أن أول الصّامتين هو نهاية المقطع الأول، والثاني بداية للمقطع الثاني، وبذلك لا يقع محذور في تأليف مقاطع الكلمة، كما في كلمة (يكتب)، حين تجاوز صامتان في الكتابة، ولكن الأول نهاية المقطع، والآخر بداية لمقطع ثان.

لـ لا تعرف اللغة العربية مقطعا يتكون من صوت واحد، سواء أكان صامتا أم صائتا.

لـ لا تجيز اللغة العربية البدء بالصحيح المضعف (الصامت المضعف)، أو صحيح مضعف وصحيح، فقواعد التركيب الصوتي للكلمة العربية تتطلب اعتبار الصحيح المضعف صحيحين من متواليين.

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجد، ص 101-102

لـ لا تكون نواة المقطع الصّوتي في العربية إلا صائناً، ولا تأتي صامتاً بأي حال من الأحوال، فقد عدّ الصائت نواة المقطع، ويكون وسط المقطع المغلق، لكنه يقع في أواخر المقاطع المفتوحة.

لـ تميل اللغة العربية إلى المقاطع الساكنة، وقد رأى النّحاة القدماء استحالة اجتماع أربعة متحركات في الكلمة الواحدة، وكرهته فيما هو الكلمة، ومعنى ذلك أن اللسان العربي ينفر من توالي أربعة مقاطع متحركة، ولكنهم أباحوا توالي أربعة مقاطع ساكنة، نحو: (استفهمتم) اسن/تف/هم/تم.

يمكن القول -من خلال هذه المميزات- أن المقطع الصّوتي في اللغة العربية يخضع لنظام صوتي دقيق؛ يقوم على قواعد ثابتة؛ فمثلاً لا يبدأ المقطع بصائت ولا بصامتين أو أكثر، ولا تنتهي الكلمة بصامتين إلا في حالة الوقف، كما أن نواة المقطع لا تكون إلا صائناً، ولا يوجد مقطع يتكوّن من صوت واحد، كما تتجنّب العربية توالي الصوامت داخل المقطع الواحد، وإن وُجد ذلك ظاهرياً في الكلمة؛ فهو نتيجة التقاء مقطعين، كما تميل إلى كراهة توالي المقاطع المتحركة وتستسيغ المقاطع الساكنة، مما يدل على حرص العربية على التوازن والانسجام الصوتي وسهولة النطق، وهو ما يكشف عن أن اللغة العربية قائمة على قواعد واضحة تضبط تأليف المقاطع، وتضمن سهولة النطق وسلاسة الإيقاع، كما تدل على وعي العرب القدماء بالبنية الصوتية للكلام، وحرصهم على التخفيف من الثقل الناتج عن توالي الصوامت أو الحركات.

7/ مقارنة بين تركيب المقطع في العربية و اللغات الأجنبية:

يختلف تركيب المقطع في العربية عنه في اللغات الأجنبية وذلك أن¹:

لـ في اللغات الأجنبية؛ يمكن فيها بدء المقطع بصوت واحد كما في كلمة (pert)- الفرنسية- فالحرف (ب)(p) هو العنصر الفاتح للمقطع، وقد يبدأ بعدة أدوات فاتحة كما في (trac) فحرفاً (تر)(tr) بدأ بهما المقطع- كذلك- ويقوى الانفتاح فيها إحدى الحركات، لكن العربية يبتدئ المقطع فيها بحرف واحد مطلقاً، فالمجموعة ذات الصوتين لا تقع في أول كلماتها، وإذا وقعت في وسطها فلا تُنسب المجموعة إلى مقطع واحد، بل إلى مقطعين اثنين، وذلك مثل (قطرة)؛ حيث يوجد حرفاً (طر) لكن تنسب الطاء إلى المقطع الأول (قط)، وتنسب الراء إلى المقطع الثاني (ر)، فإذا وقعت مجموعة من حرفين في أول الكلمة لم تبدأ بالساكن- كما

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 269-270

في اللغات الأجنبية- بل يجب اعتمادها على الحركة التي تمكن من التّطق بها مثل كلمة (الجارية)، فإذا ابتدأ الكلام بها حوّلت همزة الوصل إلى همزة قطع فتنتطق (أالجارية)، فإذا وقعت هذه (الجارية) وسط جملة وجب ربطها بحركة سابقة تعتمد عليها مثل: (قامت الجارية) فتربط التاء في (قامت) باللام في (الجارية) نتيجة التّحريك بسبب التقاء الساكنين وتسقط همزة الوصل، ويصير المقطع (تل)، وبذلك تتخلص العربية من المجموعات الحرفية وسط الكلمة أيضا.

لـ ينتهي المقطع في اللغات الأجنبية بحركة طويلة أو قصيرة، أو بحرف مثل (ك)(c) في (trac) أو حرفين مثل (رت) في (pert)، والانتهاؤ بحرفين يجعل المقطع مزدوج الإغلاق، ولكن في العربية ينتهي بحركة أو بحرف واحد (في حالة المقطع المغلق)؛ ولذلك انعدمت في العربية المقاطع ذات الانغلاق المزدوج؛ لأنّها لا توجد إلا في الوقف فقط، ويتخلّص منها بإقحام حركة فاصلة بين الحرفين كما في شِعْر وشَعْر ونَهْر ونَهْر بإسكان العين وفتحها وهكذا¹.

قد تشتمل الكلمة على مقطع واحد أو تشتمل على عدة مقاطع، وهذا يختلف من لغة إلى أخرى؛ أمّا بالنسبة للغة العربية؛ لاحظ الباحثون أنّ الكلمة المشتقة المجردة تكاد تزيد على أربعة مقاطع، ونادرا ما تأتي على خمسة مقاطع، ومثال ذلك وزن (يتفعّل) ويتفاعل والأسماء المشتقة منهما -حال الوصل- نحو: يتقدّم ومتقدّم، ويتسامح ومتسامح، فكّلها تتألف من خمسة مقاطع²، والكلمات العربيّة التي اتّصلت بها اللّواحق أو السّوابق لا تزيد على سبعة مقاطع، وذلك مثل كلمتي: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة 136]، فمقاطعها هي (ف-س-يك-في-ك-ه-م)، وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [هود 28] مقاطعها: هي (أ-نل-ز-م-ك-مو-ها)، وكل من مقاطع الكلمتين مقاطع مفتوحة ومغلقة، وعدد

¹ - ويجوز البدء بحرفين في أول المقطع في بعض اللهجات العربية الدارجة مثل: (كتب)، (مطر)، بإسكان الحرف الأول، وقد كثرت فيها المجموعات ذات الحرفين في آخر المقاطع الواقعة داخل الكلمة مثل (منجلى)، وقد تقع حركة قصيرة فاصلة بين العنصرين الحرفيين مثل (ندرس) الخنطة، وقد يغير هذا من التركيب المقطعي للكلمة. أما وقوع حرفين في آخر الكلمة، قد أصبح جائزا مثل: كبش، ولا يضطرون إلى إقحام حركة فصل بين الحرفين إلا في المجموعات الأشق على النطق. لكن اللهجة المصرية لا تبدأ المقطع بحرفين، ولا تجيز ذلك وسطا وإن أجازته آخرًا حال الوقف. ينظر: الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 191-193

² - فكلمة (يتقدم) تتألف من مقطعين مفتوحين (ي-ت) + مقطع مقفول (قد) + مقطعين مفتوحين (د-م)، أما كلمة (متقدم) فتشتمل على: مقطعين مفتوحين (م-ت) + مقطع مقفول (قد) - مقطع مفتوح (د) + مقطع مقفول (من)، وأما كلمة (متسامح): فتحتوي على خمسة مقاطع مفتوحة هي: (ي-ت-سا-م-ح) إلا إن الأوسط منها يحتوي على لين طويل، فأما كلمة (متسامح) فتتكون من أربعة مقاطع مفتوحة والثالث منها يحتوي على لين طويل وهي (م-ت-سا-م) + مقطع مقفول (حن). ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 270-271

المقاطع في كل منهما سبعة، وهو أقصى ما تصل إليه الكلمة العربية في تأليفها المقطعي، وهو صنف نادر في العربية¹.

يتّضح من خلال المقارنة بين تركيب المقطع في العربية واللغات الأجنبية؛ أن المقطع العربي يخضع لقواعد أكثر صرامة؛ فعلى سبيل المثال أن العربية لا يبدأ المقطع فيها إلا بحرف واحد يتبعه حركة، بينما تسمح اللغات الأجنبية بالمجموعات الحرفية في بداية المقطع، كما أن المقطع العربي لا ينتهي إلا بحركة أو بحرف واحد في المقطع المغلق، على عكس اللغات الأجنبية التي يمكن أن يكون المقطع مزدوج الإغلاق، كل ذلك يعكس حرص العربية على التوازن الصوتي وسهولة النطق.

8/ أهمية الدراسة المقطعية:

إنّ للدراسة المقطعية أهمية في بيان النطق الصحيح للغة معينة؛ فإذا «أريد تعلّم لغة إحدى اللّغات نطقت كلماتها نطقاً بطيئاً، مجزءاً إلى مقاطع، ثم يتدرّج ذلك إلى السرعة العادية؛ حتى يتقن المتعلم هذه اللغة بنطقها الصحيح»²؛ فمعرفة المقاطع في اللغة يساعد على النطق الصحيح للكلمات؛ فعن طريق تجزئة الكلمة إلى عدة مقاطع وترديدها يؤدي حتماً إلى نطقها الصحيح.

كما يُعرف عن طريق المقاطع نسج الكلمة في لغة من اللغات³؛ ففي العربية مثلاً؛ نستطيع معرفة ما ليس بعربي، فما خالف النسج المألوف فيها فهو أعجمي، كمقطع من النوع الثالث (س+ع+س) ومقطعان من النوع الثاني (س+ع)⁴.

يمكن بواسطة المقاطع معرفة التفعيلات العروضية، وطريقة تركيب الكلمات، كما يستفاد منها في تعليم الصم، كما ثبت ذلك من التسجيلات الفونوغرافية في مدرسة تعليم الصم بباريس⁵.

يقول أحمد شوقي⁶:

¹ - ينظر : الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 271-272

² - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 240

³ - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 109

⁴ - المرجع نفسه، ص 117

⁵ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 238

⁶ - الشوقيات، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، ط1، 2012، ص 83

أَلَا حَبْدًا صُحْبَةُ الْمَكْتُبِ... وَأَحِبُّ بِأَيَّامِهِ أَحِبُّ

وَيَا حَبْدًا صَبِيَّةً يَمْرُحُونَ... عَنَانَ الْحَيَاةِ عَلَيْهِمْ صَب

فينتكون البيتان السابقان من مقاطع وأجزاء، تُقسّم بحسب الحركات والسّواكن، وبناءً على اتصال السّكون بالحركة من عدمه (حبّدا ← حبّ، ب، ذا مثلاً) إلى مقاطع قصيرة وأخرى طويلة.

كما يؤثر المقطع في طرق الكتابة المستعملة في بعض اللغات¹؛ فهي تذلل وتسهّل الصعوبات الإملائية.

وهكذا؛ فإن أهمية المقطع في الدراسة الصوتية ترجع إلى أسباب كثيرة منها²:

1- أن اللغة كلام، والمتكلمون لا يستطيعون نطق أصوات الفونيمات كاملة بنفسها، أو هم لا يفعلون ذلك إن استطاعوا، وإتّما ينطقون الأصوات في شكل تجمعات هي المقاطع، ولذلك يُقال: إنّه في المقطع يخرج الفونيم إلى الحياة، ولكي تصف المقطع أنت تخبر كيف تشكّله الفونيمات، ولتصف الفونيمات تدرس كيف تنظم نفسها في المقاطع.

2- التركيب المقطعي يساعد كثيراً في اتخاذ قرار بالنسبة لأفضل تحليل لصوت، أو مجموعة صوتية؛ تعد من الناحية الصوتية غامضة.

3- أن المقطع؛ هو مجال العمل بالنسبة للطرق الثلاثة الأكثر أهمية التي تعدل أصوات الكلمات؛ وهي:

له النبر (نبر كلمة)؛ فهو يساعد على تحديد مكان النبر، سواء تعلق الأمر بأول الكلمة أو وسطها أو نهايتها.

له الإطالة ذات المعنى، لنجعل كلمة (awful) -مثلاً؛ أكثر تأكيداً؛ فنحن نمد المقطع الأول، المقطع المنبور.

¹ - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 274

² - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، احمد مختار عمر، ص 281-283. وصرّح بعضهم بأن المقطع لا أهمية له، وعدّه بعض اللغويين غريباً على التحليل اللغوي، في حين أن الدراسات التجريبية للكلام أثبتت أهميته. ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجّد، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط 1، 1434هـ/2013م، ص 93

لـصعود وهبوط درجة الصوت (pitch)، وعادة ما يتطابق التغيير الملحوظ في منحنى درجة الصوت مع حدود المقطع.

4- أن المقطع موجود سواء أردنا أم لم نرد:

لـ فكثير من المقاييس العروضية في اللغات تقوم على أساس من المقطع.

لـ وبعض طرق الكتابة قد وضع على أساس مقطعي.

5- أن المقطع يشكل درجة في السلم الهرمي للوحدات الصوتية التي يشكل كل منها من أصغر وحدة تسبقه الوحدة الصغرى؛ فيأتي الفونيم، ثم يأتي المقطع (المكون من فونيمات بترتيب معين)، ثم تأتي مجموعة النغم المحتوية على النبر، وعلى تتابعات من المقاطع، ثم مجموعة التنغيم التي تحتوي على تتابعات من مجموعات النغم.

6- أن التسجيلات أثبتت أن المتحدثين المتمهلين الذين يظنون أنهم يتكلمون في شكل أصوات منفصلة هم واهمون؛ لأنهم ينتجون مقاطع في واقع الأمر.

7- أن المقطع هو أكبر وحدة نحتاج إليها في شرح كيفية تجمع الفونيمات في اللغة، إذا فحصنا تركيب مقطع مفرد يمكننا أن نعتبر الوحدات الكبرى لتتابعات من المقاطع.

8- أن الكلمة (word) مصطلح له في المقام الأول مغزى نحوي، أما المصطلح الأساسي الفونولوجي الخاص لمجموعة من السواكن والعلل لها مركز الوحدة، فهو المقطع، فالمقطع بهذا الاعتبار أصغر وحدة يمكن نطقها بنفسها.

9- أن المقطع أساسي لاكتساب طريقة النطق المطابقة لنطق أصحاب اللغة؛ فأحسن طريقة للتعود على النطق الصحيح للنغمات الصوتية وللوقفات الموجودة في لغة أجنبية؛ هي نطق الكلمات أو مجموعة الكلمات ببطء مقطعا مقطعا مع الوقفات الصحيحة بين كل مقطع ومقطع، وبالتدريج يزيد المرء من سرعة نطقه للحدث الكلامي حتى يصل إلى السرعة العادية.

9/ النبر والمقطع:

إذا كان النّبر هو الضّغط على مقطع من الكلمة؛ ليرتفع عما عداه من مقاطع الكلمة، فإنّ المقطع هو كل جزء منطوق من أجزاء الكلمة، وكلاهما عمليتان رئويتان تعدّان الأساس الذي يبنى عليها كل ما تبقى من الكلام، ويذكر عبد الكريم قحطان أن النّبر يرتبط بمستوى كل اللغات بالمقطع الصوتي، وأن قمة المقطع الصوتي في بنية اللسان العربي تكون في صوته الأخير، ولا شيء من ذلك إلا الصوت الذي يلحق بهامش المقطع إلحاقاً مع الوقف عند ختام القول، كما أن قمة المقطع غير القصير تكون حاملة للنبر بالضرورة¹.

كما ذكر أن قمة المقطع الصوتي العربي تكون في صوته الأخير، ويتحقّق ذلك من تحليل ظاهرتين معتبرتين في واقع الكلام؛ هما²:

1- **ظاهرة التّخلص من تتابع الساكنين**؛ حيث يشير علماء الصّرف الأوائل إلى هذه الظاهرة؛ بعدّها محاولة لتفادي التقاء ساكنين، ويقصدون بالساكن هنا: كل صوت ممدود (كالألف والواو والياء المديّة)، أو: أي صامت يُوقف عليه؛ أي: لا تسبقه حركة، فإذا ما اجتمعت هذه السواكن في سياق واحد داخل الكلام وجب تعديل الساكن الأول دون الأخير، وذلك بشرط أن يندرج هذا التتابع ضمن بنية مقطع صوتي واحد، كما يخضع هذا التعديل لما يُعرف بـ"قانون الأقوى" الذي وضعه اللساني م. جرامون (Maurice Grammont)؛ والذي ينصّ على أن الصوت الأضعف . سواء من حيث موقعه أو امتداده النطقي . هو الذي يتأثر بالصوت الأقوى، في السياق العربي؛ يُعدّ الصّوت الأخير في المقطع هو الأقوى؛ إذ يُمثّل القمّة النّطقية للمقطع، وبما أن لكل مقطع صوتي قمّة واحدة، فإنّه لا يجوز تكرار هذه القمّة ضمن مقطع واحد، الأمر الذي يفرض تعديل الساكن الأول عند التقاء ساكنين.

2- **ظاهرة الأصوات التي تسمح بزيادة الضّغط عليها في سياق الكلام خلال القراءة التعبيرية، أو في ترتيل القرآن الكريم، أو في التنغيم**، هي ظاهرة كان قد كشف عنها العلماء والمفكرون الأوائل، ولم ينكرها المعاصرون.

فقمّة المقطع العربي تكون في الصوت الأخير، وأن النبر يؤدي إلى فهم المعنى، وفهم المعنى يؤدي إلى تحديد ومعرفة المقطع، وبالتالي فهناك وتداخل وتلازم وترابط بين مختلف الظواهر الصوتية.

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجدّد، ص 99-100

² - الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجدّد، ص 100

المطلب الثاني: النبر

يميل المتكلم في كلامه إلى إبراز وإيضاح مقاطع معينة في كلماته؛ فيجعلها أبرز وأوضح من الأجزاء الأخرى، وهذا الضَّغَط يطلق عليه اسم النبر، ويعدّ من الظواهر التطريزية التي تمنح الكلام معنى وتناغما؛ يجعله أكثر وضوحا.

1/ تعريف النبر:

أ/ لغة: يرى ابن منظور أنّ النبر بالكلام: هو الهمز؛ «النَّبْرُ بالكلام: الهمزُ. قَالَ: وَكُلُّ شَيْءٍ رَفَعَ شَيْئًا، فَقَدْ نَبَرَهُ. وَالنَّبْرُ: مَصْدَرُ نَبَرَ الْحَرْفَ يَنْبِرُهُ نَبْرًا هَمْزَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: لَا تَنْبِرْ بِاسْمِي؛ أَي: لَا تَهْمِزْ»¹، فالنبر هو «همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها»²، والنبر عند العرب أيضا: «ارتفاع الصوت»³، ونبر الرجل: «إذا تكلم بكلمة فيها علو (...) والمنبر: مَرْقَاة الخاطب، سمي منبرا لارتفاعه ع علوه»⁴، فالنبر إذا؛ يحمل معنى الهمز، والارتفاع والعلو.

ب/ اصطلاحا: لا يتعد المفهوم الاصطلاحي للنبر عن معناه اللغوي؛ فهو يُعرّف بأنه: «أحد الفونيمات الثانوية التي لها دور في مبنى الكلمات في بعض اللغات، ولها دور في معناها كذلك»⁵، ويكون النبر «بتقوية صوت في كلمة معينة، أو الضَّغَط على مقطع معين من الكلمة»⁶؛ وذلك «ليرتفع على غيره من أصوات الكلمة ذاتها بعامل من عوامل الكمية والضَّغَط، ويصبح أكثر وضوحا في النطق من غيره لدى السامع»⁷، فهو إذا «درجة القوة التي تقع على أحد المقاطع؛ يتميز فيها صوت له مدلوله في الكلام اللغوي»⁸، فالضَّغَط على مقطع معين من الكلمة يجعلها أكثر وضوحا أثناء نطقها بالنسبة للسامع مقارنة بالمقاطع المجاورة، وهو ما يُسهّم في إيصال معان مختلفة، ولا يقتصر وجوده على اللغة العربية بل نجده في لغات أخرى،

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مج6، ص4323، مادة (نبر)

² - المرجع نفسه مج6، ص4323

³ - المرجع نفسه مج6، ص4323

⁴ - لسان العرب، ابن منظور، مج6، ص4323، مادة (نبر)

⁵ - الأصوات اللغوية، عاطف فضل نجاد، ص145

⁶ - المرجع نفسه، ص145

⁷ - المرجع نفسه، ص145

⁸ - المرجع نفسه، ص145

ورغم تمييز النبر للكلمات المختلفة ومعانيها؛ بيد أنه لا يعدّ فونيميا أساسيا في التركيب كالحروف في بعض اللغات.

ذكره ابن سينا لما أشار إلى الهمز وكيفية حدوثه- والذي يعني النّبر والضغط- أنه «حفز قوي من الحجاب، وعضل الصّدر لهواء كثير»¹؛ فأخراج الهمزة يحتاج إلى نشاط وضغط قويّ من العضلة التي تفصل بين التجويف الصدري والبطن نتيجة الانقباضات العضلية، وكذلك بالنسبة للنبر يكون فيه ضغط وقوّة؛ إذ يتّسم بالقوّة والارتفاع في موضع معيّن من الكلمة، فينقلها من معنى معيّن إلى معنى آخر؛ من الاسمية إلى الفعلية أو العكس مثلاً، وبطريقة آلية عملية ينتج النّبر عن طريق الزيادة في دفع الهواء بكمية أكبر خارج الرئتين، فيحدث بذلك اهتزازاً للأوتار الصوتية محدثاً نبرة قوية.

عرّفه إبراهيم أنيس بقوله: «نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد، يترتب عليه أن يصبح الصوت عالياً واضحاً في السمع»²؛ فالنبر إذا؛ ليس مجرد تغيير في مستوى الصّوت، بل هو عملية تفاعل بين أعضاء النطق (الحلق واللسان والشفّتان...) في آن واحد؛ لإنتاج صوت عالي قوي واضح لدى السامع؛ مما يسهل فهم معنى الكلمات، ومن ثمّ الجمل.

2/ النّبر في اللّغة العربيّة

عرفت العربيّة النّبر، وعبرت عنه بمسميات متعدّدة؛ كالهمز، والعلوّ، والارتفاع، ومطل الحركات، والارتكاز، والإشباع، والتّوتر، والمد، والتّضعيف، وكلها تُحيل إلى مستوى دلالي واحد بوظائف متباينة؛ تبعا للسياق وبروز القيم الاستدلالية في النص اللغوي³.

ومن المنكرين* لوقوع النّبر في اللّغة العربيّة المستشرق هنري فليش (Henry Fleisch)؛ الذي ذكر بأنّ النّبر لم يُلْتَفَت إليه إلا جزئياً، في الجانب الصّرفي للغة العربيّة، حين يتحدثون عن الاسم المؤنّث، إشارة منه إلى غيداء، نجلاء؛ وذلك حين تلحق بالاسم المؤنّث ألف التّأنيث الممدودة في مقابل الألف المقصورة، وهو

¹ - رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ص 72

² - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 170

³ - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 241

* - ممن أنكر النبر في العرب من الباحثين العرب الطيب البكوش وعبد الرحمن أيوب؛ ينظر: التطور اللغوي، ص 188

يريد بالأولى المنبورة والثانية غير المنبورة، كما يذهب هذا المستشرق إلى إنكار النبر وعدم وجود أي دور له في علم العروض¹.

وفي السياق ذاته؛ أنكر المستشرق الألماني برجستراسر (G.Bergestrasser) هو الآخر النبر؛ ففي رأيه أنه لا يوجد نصّ يُستند عليه كدليل؛ كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن؟، وما يتّضح من اللغة نفسها، ومن شعرها ووزنها؛ أنه لا يوجد ضغط فيها، أو لم يكد يوجد، ففي رأيه أن اللغة الضاغطة كثيرا ما يحدث فيها حذف الحركات غير المضغوطة، وتضعيفها وتقصيرها، ومدّ الحركات المضغوطة فيها، وهو ما لم يجده في العربية².

رد عليه رمضان عبد التواب حين قال: أما أنه لا يوجد لدينا نصّ نستند إليه في معرفة حالة النبر في العربية القديمة؛ فهذا صحيح، وأما أن العربية لم تكن تنبر فهذا نشك فيه، بدليل التطور اللغوي، وتأثير الشعوب التي غزتها العربية بعاداتها القديمة في النبر، وهو ما أثر على اختلاف موضعه، ومثال ذلك: تعدّد طرق النبر في كلمة "مطبعة"³، فلا يقاس على هذه الكلمة نتيجة التطور، كما أن اللغة العربية الفصحى تتضمن نماذج حمة من التضعيف، والمد، والقصر في الحركات.

كما أكّد بروكلمان* على وجود النبر في العربية؛ حيث يرى أن اللغة العربية فيها نوع من النبر تغلب عليه الموسيقية، يتوقّف على كميّة المقطع، ويسير من آخر الكلمة إلى أولها، حتى يقابل مقطعا طويلا؛ فيقف عنده، وإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل، فالنبر يقع على المقطع الأول⁴، وهو ما ذهب إليه رمضان عبد التواب حين قال: «من طبيعة العربية الفصحى، أن تقصر الحركة الطويلة في المقطع المفتوح، إذا كان يسبق مقطعا آخر منبورا، ذا حركة طويلة، فأصل مصدر "فاعل" في العربية القديمة هو "فِيعال" نبر المقطع الثاني، وقد ترتّب على خلوّ المقطع الأول من النبر، أن قُصّرت حركته، صار المصدر "فِعال"؛ مثل "قاتل قتالا" بدلا

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 243

² - التطور النحوي، برجستراسر، أخرج وتصحيح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1414هـ/1994م، ص 72-73

³ - ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشرق، مصر، القاهرة، ط2، 2000م، ص 59-60

* - ومن أكد على وجود النبر في العربية من المحدثين: إبراهيم أنيس، رمضان عبد التواب، أحمد مختار عمر، جان كاتينيو وعبد الصبور شاهين ينظر:

الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 170، و لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ص 59، التصريف العربي من خلال علم

الأصوات الحديث، الطيب البكوش، تونس، 1973م، ص 78، دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 188، العربية الفصحى نحوى بناء

لغوي جديد، هنري فليش، تعريب: عبد الصبور شاهين، المطبعة الكاثوليكية، ط1، بيروت، ص 19

⁴ - فقه اللغات السامية، بروكلمان كارل، المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض، 1397هـ/1977م، ص 45، 47

من "قتل قبتالا"¹، وهذا ما ذكره المبرد حين قال: «ويجيء في فاعل، الفاعل؛ نحو: قاتلته قتالا، وراميته رماء، وكان الأصل: فيعالا؛ لأنّ فاعلت على وزن: أَفَعَلْتُ وفَعَلْتُ، فكان المصدر كالزلزال، والاكرام، ولكن الياء محذوفة من فيعال، استخفا، وإن جاء بها جاء "فمصيب"².

فالنبر لا تخلو منه لغة، فكلّ متحدث بلغة ما يضغط على بعض المقاطع فيها، كما أنه في قراءة القرآن الكريم* يكون هناك ضغط على بعض الحروف عند التّطّاق بها، مثل قَوّامين، صبيّا، وغيرهما، وأكثر ما يكون في الحروف المشدّدة³؛ فالحكم على اللغة العربية بأنّها لم تعرف النبر أو إنكاره؛ هو حكم غير دقيق إلى حد ما؛ وهو ناتج عن عدم التّقصي والوقوف على نصوص علمائها الأفذاذ؛ التي أشارت إلى مفهومه؛ إذ إنهم أشاروا إليه وأكّدوه في مصطلحات تدلّ عليه، وإن لم يفردوه بمصطلح واحد، فالقول بعدم وجود النبر في العربية هو ناتج عن ضعف في استقراء الموروث اللّغوي للعربية، كما أن عدم ذكر النبر أو المقطع في اللغة العربية لا يعني عدم وجودهما.

3/ درجات النّبر:

اختلف الدّارسون في عدد درجات النّبر؛ فمنهم من يرى أن النّبر متساو؛ أي: له درجة واحدة، ومنهم من يرى أن للنّبر درجتين هما: الأولى، وهو النّبر الأكثر قوّة، وآخر ثانوي، وهو الأضعف، ومن اللّغويين من

¹ - لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ص 59-60

² - المقتضب، المبرد، أبو العباس مُحمّد بن يزيد، تح: مُحمّد عبد الخالق عزيمة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة أحياء التراث الإسلامي، مصر، القاهرة، ط3، 1415هـ/1994م، ص 100

* - والنبر في القرآن الكريم يكون في:

له الوقف على الحرف المشدّد، ويستثنى من ذلك:

- النون والميم المشدّدتان.

- الوقف على حرف القلقلة المشدّد.

له عند النطق بواو مشدّدة قبلها مضموم أو مفتوح، وكذلك عند التّطّاق بياء مشدّدة قبلها مكسور أو مفتوح.

له عندما يسبق حرف المد الحرف المشدّد.

له عند الوقف على همزة قطع مسبوق بحرف مدّ أو لين.

له في حالة التّطّاق بكلمة في آخرها ألف التثنية، وقد سقطت لالتقاء الساكنين وصلا فيشتبه اللفظ حينئذ بالمفرد، فرفعا لهذا اللّبس نضغط لابد من النبر عند الوصل. ينظر: الشامل في التجويد، عمر بن أحمد بوسعدة، الدار البيضاء، الجزائر العاصمة، ط3، 1435هـ/2014م، ص 217-219

³ - الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُحمّد، ص 146

يرى أن له ثلاث درجات؛ هي القوي، والمتوسط أو الثانوي، والضعيف، ومنهم من يرى أن له أربع درجات هي: الأولى، والثانوي، والتبر الثالث، والتبر الضعيف¹.

4/ أنواع التبر:

للتبر نوعان رئيسان؛ هما²:

أولاً: تبر الكلمة المفردة:

التبر له علاقة وطيدة بعدد المقاطع؛ فإذا كانت الكلمة مؤلفة من مقطع واحد، فالتبر يقع على المقطع كله، أيًا كان شكل هذا المقطع نحو: لَمْ، قَدْ، لا، وإن كانت الكلمة أكثر من مقطع، مثل: مستهدي، فإن التبر يقع على المقطع الثالث وهو هنا (دي)، وقد يقع على المقطع الثاني إذا كان من الأنواع الطويلة؛ نحو: يستهدي، فقد وقع التبر على (هـد)، وقد تكون الكلمات كثيرة المقاطع، فنجد نوعين من التبر؛ واحد قوي، والآخر ضعيف؛ وذلك مثل: متعلمتان (علّ+تا)، ومن الباحثين من يقسم تبر الكلمة إلى: تبر الشدة؛ وهو ضغط نسبي يستلزم علواً سمعياً لمقطع على غيره من المقاطع، وله تسميات مختلفة، مثل: التبر الترميزي أو التوتّر، وهناك تبر الطول: وهو إطالة زمن النطق بالصوت، ويسمى بنبر الزمن، أو الطولي، ويقسم إلى تبر الطول في الصوائت، مثل كلمة (رائع) أو (هدوء) تعبيراً عن غرض كلامي معيّن، ونبر الطول في الصوامت هو إطالة زمن النطق بالصّامت مثل كلمة (تحفة) أو (مدهش) تعبيراً عن غرض كلامي معيّن.

ثانياً تبر الجملة:

وهو ضغط على كلمة معيّنة من كلمات الجملة للاهتمام بها، أو التأكيد عليها، ونفي الشك عنها بين المتكلم والسامع، مثل: نجح أخوك، بنبر كلمة (أخوك) فإنّ ذلك يقتضي تأكيد أن النّاجح هو أخوك وليس شخصاً آخر، أما إذا وقع التبر على (نجح) فإن هذا يعيّن تأكيد حدث النّجاح.

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، ص، 147 للاستزادة ينظر: مدخل الى علم اللغة لمحمد علي الخولي ص47، ومحاضرات في

اللسانيات، فوزي الشايب ص218

² - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، ص148-149

ذكر آخرون نوعاً ثالثاً للنبر يتمثل في النبر الانفعالي، وهو الضغط على جزء من الكلمة أو الجملة، ويصاحب ذلك انفعالات المتكلم وتعبيره عن عواطفه، ومنهم من قسمه إلى: نبر شعري ونبر لغوي، وهذا قُسم إلى ثلاثة أقسام هي¹:

- النبر الظاهر: ويكون على الكلمات المكتوبة فقط.

- النبر اللغوي: وهو النبر الصادر من الأصوات والحركات، سواء من الجمادات أو الحيوانات.

- النبر العفوي الصادر بشكل فجائي؛ وذلك نتيجة مشاهدة أمر غير متوقع، كالوفاة أو الغرق وغيرهما.

لملاحظة: أدوات الاستفهام والشَّرط والطلب تأخذ عادة النبر القوي.

5/ قواعد النبر:

تتحدّد قواعد النبر بحسب المقطع الذي يتم فيه النبر فهي على النحو الآتي²:

1- النبر على المقطع الأول:

- إذا توالى ثلاثة مقاطع متماثلة من النوع القصير المفتوح (ص ح)؛ مثل في كلمة (كتب): (ص ح/ص ح/ص ح) فإن النبر يكون على الحرف الأول وهو (ك).

- إذا كانت تشتمل على أكثر من ثلاثة مقاطع، إلا أن الثلاثة الأولى من النوع القصير المفتوح، فمثلاً المقطع لكلمة (ثمرة) يكون: (ص ح/ص ح/ص ح)؛ ومن ثمة؛ فإن النبر يكون على الحرف الأول وهو (ث).

- إذا كانت الكلمة مقطعا واحدا (أحادية المقطع)؛ فمثلاً كلمة (نار) في حالة الوقف فإنها تتكوّن من (ص ح ح/ص ح) فالنبر يكون على الحرف الأول وهو (ن).

2- النبر على المقطع الأخير:

إذا كان المقطع الأخير من النوعين (ص ح ح/ص ح) أو (ص ح ص/ص ح)؛ فإن النبر يكون على المقطع الأخير، فمثلاً كلمة (نستعين) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح/ص ح/ص ح/ص ح)؛ فإنّ النبر

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجدّد، ص 149

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 153-154

يكون على المقطع الأخير وهو (عين)، وكلمة المستقر تحتوي على المقاطع الآتية (ص ح ص/ص ح ص / ص ح ص ص) فإنّ النّبر يكون على المقطع الأخير وهو (قر).

3- النّبر على المقطع الذي قبل الأخير:

إذا لم يكن المقطع الأخير من التّوعين (ص ح ص) أو (ص ح ص ح)، ولم تتوال في الكلمة ثلاثة مقاطع من نوع واحد قصير مفتوح (ص ح)؛ فمثلا كلمة (انصر) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص/ص ح ص)، فإنّ النّبر يكون على المقطع قبل الأخير؛ وهو (أن)، وكلمة (أخاك) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح/ص ح ح/ص ح)، فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي قبل الأخير وهو (خا).

4- النّبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير:

- إذا كان المقطع ما قبل الأخير من النّوع قصير مفتوح (ص ح)، وسبق بنظير له من النّوع قصير مفتوح (ص ح)، فمثلا كلمة (ازدهر) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص/ص ح/ص ح/ص ح)، فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (د)، وكلمة (انكسر) تحتوي على المقاطع الآتية (ص ح ص/ص ح/ص ح/ص ح) فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (ك).

- إذا كان المقطع الأخير من النّوع (ص ح ص)؛ والذي قبل الأخير من النّوع (ص ح)، فمثلا كلمة (رّجّبك) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص/ص ح ص/ص ح)؛ فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (رك).

- إذا كان المقطع الأخير من النّوع (ص ح ح) طويل مفتوح، والذي قبله قصير مفتوح، مثل كلمة (بكروا) تحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص/ص ح/ص ح ح)؛ فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير (بك).

6/ العوامل التي تؤثر على مواقع النّبر:

يختلف موقع النّبر في العربية؛ وذلك لعدة عوامل؛ منها¹:

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، ص 155-156

1- الاشتقاق: فمثلا الفعل الماضي "نَفَرَ" يحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح / ص ح / ص ح) فإنّ النّبر يكون على الحرف الأول (ن)؛ وذلك لتوالي ثلاثة مقاطع من نوع واحد، أما المضارع منه "ينفر" يحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص / ص ح / ص ح)؛ ومن ثمة؛ فإنّ النّبر يكون على المقطع الذي قبل الأخير وهو (ف).

2- إسناد الفعل إلى الضّمائر: عند إسناد الفعل الماضي إلى ضمائر الرفع المتحركة ينتقل النّبر من مكانه الذي كان فيه قبل الإسناد؛ فمثلا عند إسناد الفعل "درس"، والذي يحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح / ص ح / ص ح)، فهنا يكون النّبر على المقطع الأول وهو الحرف (د)، وضمير المتكلّمين "درسنا" تصبح المقاطع هي (ص ح / ص ح ص / ص ح ح)، يقع النّبر على المقطع ما قبل الأخير وهو "رس"، وعند إسناد الفعل الماضي إلى ضمائر الرفع السّاكنة كآلف الاثنين، وواو الجماعة لا يغيّر من موضع النّبر.

3- جزم المضارع: يتغيّر موضع النّبر بحسب رفع الفعل أو جزمه، فمثلا الفعل (يلعب) يحتوي على المقاطع الآتية: (ص ح ص / ص ح / ص ح)، فيكون النّبر على المقطع ما قبل الأخير وهو "ع"، أمّا في حالة الجزم فنقول: "لم يلعب"؛ فإنّها تحتوي على هذه المقاطع: (ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص)، فيقع النّبر على المقطع الأوّل، وهو (لد) وذلك لتوالي ثلاثة مقاطع من نوع واحد.

ونخلص مما تقدم ذكره؛ إلى أن النّبر يكون فونيميا ثانويا، وله دور في مبنى ومعنى الكلمات في بعض اللغات؛ كما ننبه إلى أنّ اللغة العربية لا تعتمد على النّبر في قولهم "كتب" التي تتحوّل إلى "كاتب"؛ لأنّها لا تعتمد على النّبر في تصنيفها الصّرفي، أما إن كان النّبر على الكلمات في الجملة، أو على كلمة واحدة في الجملة؛ لإظهارها على بقيّة كلمات الجملة، فإنّ ذلك يكون نبرا سياقيا دلاليا يُسمّيه التّنغيم¹.

يضاف إلى ذلك؛ تحديد علماء الأصوات لعوامل فيزيائية، وفيزيولوجية، وأخرى صوتية، وفونولوجية مختلفة؛ تتحكم في ظاهرة النبر وموضعه؛ نذكر منها²:

لـ الأثر في السمع.

لـ وعلو الصوت (Hauteur).

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، 156

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 157

لموكمية الصوت (Quantite).

لـ وشدة الصوت (Intensite)؛ أي: الطاقة التطبيقية؛ فالشدة هي التي تعطي الصوت عند إدراكه صفة الضعف أو القوة، وهي مقياس الطاقة التي تنتجها حركة اهتزازية في وحدة زمنية ووحدة مساحية محددتين، وكلما كانت سعة الحركة اهتزازية أكبر كان الصوت أشد وأقوى، والعكس صحيح.

المطلب الثالث: التنعيم

تُلفظ الكلمة الواحدة بعدة طرق نطقية، مما يؤدي إلى تحديد معاني الكلمات، ومن ثمّ الجمل، وهو ما يعكس مقصود المتكلم، ويبيّن مراده، وعليه؛ كيف يُسهّم التنعيم في التواصل الفعال؟.

1/ تعريف التنعيم

أ/ لغة: يعني الجرس؛ ورد في لسان العرب: «النَّغْمَةُ: جَرَسُ الْكَلِمَةِ؛ حُسْنُ الصَّوْتِ فِي الْقِرَاءَةِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ حُسْنُ النَّغْمَةِ»¹

ب/ اصطلاحاً:

يُعرّف بأنه «ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام»²؛ فالتنعيم هو «تنوع في الارتفاع والانخفاض في طبقات الصوت، وهذا الارتفاع لا يكون إلا لمعنى»³؛ وذلك كأن تقول: انتهى الدرس بنغمة صوتية معينة، فإنك تُخبر عن وقت انتهائه، وعندما تنطق الجملة بنغمة مختلفة تتحوّل من جملة خبرية إلى جملة استفهامية؛ بغرض السؤال عن انتهاء الدرس من عدمه، «والتنعيم والنغم Intonation and Melody مصطلحان متماثلان في الدلالة على المنحى اللحني في سلسلة أحداث الكلام»⁴، كما أن الصلة بينه وبين النّبر تبدو وطيدة؛ إذ العلاقة بينهما «تلازمية»⁵؛ فكلا من النّبر والتنعيم يستعملان في عملية التعبير الصوتي، كما أنّ التنوع في ارتفاع الصوت وانخفاضه يلازمه دائماً الضّغط على جزء معيّن من الكلمة أو الجملة، وتفاعلهما معاً يؤدي إلى إيصال المقصود وتوضيح المعنى المراد، فالعلاقة بين النّبر والتنعيم تلازمية تكاملية.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، مج6، ص4490، مادة (نغم)

² - مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو، مصر، 1989م، ص164

³ - الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجدد، ص157

⁴ - الصوتيات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص256

⁵ - المرجع نفسه، ص256

أشار الجاحظ إلى أهمية التنغيم في السياقات الكلامية؛ فقال: «والصّوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصّوت ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس، ومن تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكونع الإشارة من الدّل والشكل والتفُّل والتثني»¹؛ فبيّن الجاحظ أن الصّوت هو الأداة التي يتمّ بها التعبير عن المعنى المراد، وهو عنصر أساسي يقوم عليه اللفظ، ولا بدّ من توقّر شرطي التقطيع والتأليف؛ حتى يتشكّل الصوت؛ فبواسطتهما يتشكل المعنى، كما يشير الجاحظ إلى حسن استخدام التعبير الصّوتي الصّحيح والنّبرة المناسبة للمقصود، بالإضافة إلى حسن اختيار الإشارة المناسبة بالرأس أو اليد وغيرهما.

استخدم الفارابي مصطلح النغم (Ton) دلالة على التنغيم؛ فقال: «والنغم، الأصوات المختلفة في الحدة والنقل التي تتخيل أنّها ممتدة»²؛ فالنغم يتنوّع بتنوّع الأصوات التي تترك انطباعاً بالاستمرارية أو الامتداد لدى السامع.

2/ وظيفة التنغيم:

يرى تمام حسان أن: «التنغيم في الكلام؛ يقوم بوظيفة التّزجيم في الكتابة، غير أن التنغيم أوضح من التّزجيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة»³؛ أي: أننا عندما ننطق كلاماً معيّناً بنغمة معيّنة؛ فذلك النطق يقوم مقام علامات الاستفهام والتّعجب وغيرهما من علامات التّزجيم.

فالتنغيم والتّزجيم إذا؛ يساهمان في فهم معنى الكلام؛ «وهما ضروريان للتعبير (...) والتنغيم لا يكون إلا في الأداء (...) والتّزجيم يكون في الكتابة، فنحن عندما نقول جملة، نقولها بأداء معيّن، ويستطيع السامع أن يعرف أنه سمع إخباراً، أو استفهاماً أو تعجباً، أو استنكاراً»⁴، ونجد التنغيم عند علمائنا القدماء في نثرهم وشعرهم، كما نجده في القرآن الكريم؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي

¹ - البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عثمان: عمرو بن بحر)، تح: عبد السلام مُحمّد هارون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ج 1، ص 84

² - الموسيقى الكبير، الفارابي (أبو نصر مُحمّد بن مُحمّد)، تح: غطاس عبد الملك خشبة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 109

³ - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص 226

⁴ - الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُحمّد، ص 158

فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ^ط [الأنعام، 77] فالتنغيم في الآية؛ واضح (هذا ربي)؛ حذفت الهمزة (أهذا ربي) ودل عليه التنغيم.

ومن شواهد التنغيم في الشعر : قول عمر بن أبي ربيعة:

ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا، قُلْتُ بِهِرًا ... عَدَدَ التُّجُومِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ¹

فإن جملة (تحبها)؛ جملة استفهامية؛ رغم عدم وجود علامة الاستفهام، والتقدير: أتحبها، فحذفت الهمزة، وعوّضت بالتنغيم الدال على الاستفهام.

وقول الشاعر:

فَوَ اللَّهُ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لِحَاسِبٍ ... بِسَبْعِ رَمِيَتْ الْجُمَرُ أَمْ بِثَمَانٍ²

والتقدير أبسبع، فحذف الهمزة؛ ودل عليها التنغيم.

ومنه قول الكميت:

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ ... وَلَا لِعِبَاءٍ مِنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ³

أراد (أذو الشيب يلعب)؛ بحذف الهمزة.

وعليه؛ تُعدّ ظاهرة التنغيم من الظواهر الصوتية البارزة في التراث اللغوي العربي؛ وهي تؤدي وظيفة تركيبية ودلالية؛ حيث اهتم بها العلماء واللغويون منذ القدم، وأدركوا أهميتها في إبراز المعنى الوظيفي للجملة وتوضيح مقاصد المتكلم، وقد بينوا أثرها في التمييز بين أسلوب الخبر والإنشاء، وفي تحديد الانفعالات النفسية، وفي إظهار العلاقات بين أجزاء الكلام؛ مما يجعلها أداة أساسية لفهم النصوص، وإدراك دلالاتها.

3/ ظاهرة التنغيم في التراث اللغوي العربي:

¹ - ديوان عمر بن أبي ربيعة، عمر بن أبي ربيعة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1416هـ / 1996م، ص73

² - ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص209.

³ - شرح هاشميات الكميت، ابن زيد الأسدي، تح: داود سلوم ونوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، مصر، ط2، 1406هـ / 1982م،

أشار علماء العربية القدماء إلى التنعيم، وبيّنوا آثاره في الكلام، فلو حاولنا أن نبحث في كتب التراث اللغوي العربي عن بذور التنعيم لوجدناه ماثلاً في الجمل المنطوقة؛ وهو ما يعكس إدراكهم الشّدِيد لقيمتها من خلال إشاراتهم هنا وهناك، كما يكشف عن عمق تفكيرهم وبعد نظرهم، وحسهم الجمالي حيال هذه الظاهرة، ومن البذور الأولى لهذه الظاهرة ما أشار إليه سيبويه في إدراك العلاقات بين الوحدات اللغوية في سياق الكلام، ودورها في اختلاف المعاني مشيراً بذلك إلى أهميّة التنعيم.

يقول جرير¹:

أَعْبَدًا حَلَّ فِي شُعْبَى غَرِيبًا ... أَلْوَمًا لَا أَبَا لَكَ اغْتَرَابًا

يقول سيبويه في تحليله لهذا البيت: «وأما عبداً فيكون على ضربين: إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: أتفتخر عبداً، ثم حذف الفعل»²؛ أي: أن التنعيم ينقل المعنى من النداء إلى الاستفهام أو العكس. ويقول: «وقد تقول (تالله!) وفيها معنى التعجب»³، فالمعروف أن تركيب هذه الجملة دال على القسم، لكن التنعيم نقله إلى التعجب - كما ذكر سيبويه -

تحدث سيبويه في باب الندبة عن مد الصوت ورفع الدال على التنعيم؛ إذ يرى أن (وا) تختص بباب الندبة؛ لأنّ الندبة نوح وتفجع وغم وحزن؛ يلحق النادب على المندوب، ولا بد حينها من رفع الصوت؛ ومده لإسماع الحاضرين⁴.

وهو ما نجده عند الجرجاني حين تحدث عن أسلوب الاستفهام؛ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا يَا ابْنُ هِمْ﴾ [الأنبياء، 62]، ففيها استفهام تقريرى يدل على توبيخ الفاعل، كما يدل على الإقرار في طلب الجواب، لأنهم لا يعملون على وجه الحقيقة من الفاعل⁵.

¹ - ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1406هـ / 1986م، ص 64

² - الكتاب، سيبويه، ج 1، ص 339

³ - الكتاب، سيبويه، ج 1، ص 339

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 220

⁵ - ينظر: دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُجَدِّ الجرجاني، تعليق: محمود مُجَدِّ شاكِر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 1413هـ / 1992م، ص 111-112

إنَّ التَّنْغِيمَ شأنه شأن الظواهر الصوتية التي تُؤخذ مشافهة عن أهل الضبط والإتقان في القراءة، جاء في كتاب: "التمهيد في التجويد" قوله: «وأما اللحن الخفي؛ فهو الذي لا يقف على حقيقته إلا نحرير القراء ومشاهير العلماء¹، وهو على ضربين²: أحدهما: لا تعرف كلفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية؛ وذلك نحو: مقادير المدات، وحدود الممالات، والمشبعات والمختلصات، والفرق بين النفي والإثبات، والخبر والاستفهام، والإظهار والإدغام، والحذف والإتمام، والروم والإشمام، إلى ما سوى ذلك من الأسرار التي لا تتقيد بالخط، واللطائف التي لا تؤخذ إلا من أهل الإتقان والضبط.

فكل هذا من شأنه أن يدخل في صلب التنغيم؛ من حذف وإثبات وخبر وإنشاء وإظهار وإدغام ومختلف الظواهر، فالتنغيم له أثر جلي في تحديد طبيعة التراكيب النحوية، والمعاني المصاحبة لها؛ فهو يؤدي وظيفة نحوية ودلالية؛ إذ يتغير «معناها النحوي والدلالي مع كل نغمة بين الاستفهام والتوكيد، والإثبات لمعان؛ مثل: الحزن، والفرح، والشك والتأنيب والاعتراض والتحقيق؛ حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تسبب عنه تباين هذه المعاني؛ لأنّ هذه الجمل لم تتعرض لتغير في بنيتها، ولم يُصَفَ إليها، أو يُستخرج منها شيء، ولم يتغير فيها إلا التنغيم وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم»³.

إن هذه الإشارات؛ تدل على حضور ظاهرة التنغيم في أذهان العرب القدماء، وإدراكهم لوظيفتها في بيان معاني الجمل؛ فقد جعل القدماء التنغيم «ملحظا وصفيا في تحديد الدلالات التي تتضمنها الجملة الواحدة»⁴، فالتنغيم إذا؛ عُرف عند العرب القدماء؛ وإن لم يُفرد له باب خاص به؛ إلا أنهم أدركوا قيمته الوظيفية؛ ودوره الأساسي في توجيه الدلالة.

3/ ظاهرة التنغيم عند المحدثين العرب

من أبرز اللسانيين العرب المحدثين الذين تناولوا ظاهرة التنغيم:

1/ تمام حسان: الذي جعل هذه الظاهرة من قرائن التعليق اللفظية في السياق، ورأى أن الجملة العربية تقع في صيغ تنغيمية سماها (هياكل من الأنساق التنغيمية)؛ فلكل جملة هيكل تنغيمي خاص بها؛ إذ تتغير الجملة من

¹ - التمهيد في التجويد، مخطوط، أبو بكر محمد المستغفري، نقلا عن الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، ص 476

² - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، ص 476

³ - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 228

⁴ - المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، نوزاد حسن أحمد، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط 1، 1906، ص 263

استفهام وإثبات وإخبار، فالتنغيم يؤدي وظيفة دلالية من جهة الإثبات والنفي، ولهذا أقر بأنه (التنغيم) يقوم مقام الترقيم، كما قسم تمام حسان النظام التنغيمي من وجهتي نظر مختلفتين¹:

لـالأولى: شكل نغمة آخر مقطع وقع عليه النّبر في الكلام.

لـوالثانية: المدى بين أعلى نغمة وأخفضها في الصوت سعة وضيقا.

ثم قسم شكل النغمة إلى قسمين؛ كل قسم يسمى لحنا وهما:

اللحن الأول: وينتهي بنغمة هابطة.

اللحن الثاني: وينتهي بنغمة صاعدة، أو ثابتة أعلى مما قبلها.

وأما الثانية؛ فيرى أنها تقسم إلى ثلاثة أقسام؛ هي: الواسع والمتوسط، والضيق، أو الإيجابي، والنسبي والسلبي، وكلها تتصل باصطلاحات علو الصوت وانخفاضه.

أما نماذج التنغيم وأوصلها؛ فقسمها إلى ستة وهي²:

- الإيجابي الهابط

- النسبي الهابط

- النسبي الصاعد

- السلبي الهابط

- السلبي الصاعد

2/ سعد مصلوح

تحدث عن وظائف التنغيم وأنماطه، أما وظائف التنغيم؛ فيرى أنها تختلف باختلاف اللغات، ووفق ذلك قسم اللغات إلى : لغات نغمية، ولغات تنغيمية؛ ويرى أن اللغات النغمية؛ تُعنى بنظام من النغمات

¹ - ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص164

² - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص229-230

بالاستخدام الفعلي للكلمة في الجملة، وأما اللغات التنغيمية- ومنها العربية- التي يكون التنغيم فيها على مستوى الجملة، وليس الكلمة، ودور التنغيم في تغيير دلالات الجمل، ومثل بجملة "ظهر الحق"، إذا تم نطقها بتنغيم هابط؛ فتدل على التقرير، وإذا نطقت بنغمة صاعدة دلت على الاستفهام، في حين أن الزاوية الثانية خاصة بالأنماط التنغيمية؛ إذ ميز بين هذه الأنماط من خلال الاختلاف في النغمة بين الرجل والمرأة¹.

3/ أحمد مختار عمر:

التنغيم -عنده- عبارة عن تتابعات مطّردة من مختلف الدّرجات الصّوتية، ويرى أن معظم اللّغات يمكن أن تسمى لغات تنغيمية، وسبب ذلك أنّها تستخدم التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني، كما يفرق أحمد مختار عمر بين نوعين من التنغيم باختلاف درجات الصوت؛ نوع يسمى بالنغمة أو النون، وهي الخاصة بالكلمة؛ وتسمى نونات الكلمة، ونوع آخر يسمى بالتنغيم، وتكون خاصة بالجملة². كما بيّن أن النغمات مختلفة؛ فمنها:

- النغمة العادية المستعملة في معظم الكلام؛ وهي (المتوسطة).

- النغمة العالية.

- النغمة العالية جدا، وتدل عادة على التعجب أو الأمر.

- النغمة الهابطة، وتوجد عادة في نهاية الجملة.

في السياق ذاته؛ تحدث عن اختلاف النّغمات، فتسمى مستوية؛ إذا كانت ثابتة، وصاعدة؛ إذا اتجهت نحو الصّعود، وتسمى هابطة؛ إذا اتجهت نحو الهبوط، وصاعدة هابطة؛ إذا غيّرت نوعها في اتجاهين إلى أعلى ثم إلى أسفل، وهابطة صاعدة؛ إذا كانت العكس³.

نشير إلى أنّ هناك الكثير من المحدثين ممن تكلموا عن هذه الظاهرة واهتموا بدراساتها من زوايا مختلفة، كما يعدّ المحدثون العرب التنغيم عنصرا دلاليا وظيفيا أساسيا في اللغة العربية، يُسهم في تحديد نوع الجملة

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجد، ص 164-165

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 165-166

³ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 226-230

ومعناها، وقد يقوم مقام علامات الترقيم؛ إذ إن اللغة العربية لغة تنغيمية؛ يرتبط فيها التنغيم بالجملة لا بالكلمة، و مع اتفاق المحدثين على هذا إلا أنهم اختلفوا في طرائق تصنيفه (التنغيم) ومعايره الصوتية.

المبحث الثاني: القوانين الفونولوجية

يتم توزيع الأصوات داخل اللغة وفقا لمجموعة من القواعد والقوانين، أبرزها قانونا المماثلة والمخالفة، بالإضافة إلى القلب المكاني، وذلك في إطار سياقات صوتية معينة، مما يؤدي إلى تشكيل أنماط صوتية أخرى.

المطلب الأول: المماثلة:

تتمثل القوانين الصوتية العامة في قانونين أساسيين؛ أولهما: القانون الأقوى (Law of the strong)، وثانيهما قانون الاقتصاد في الجهد (Law of Economy of effect)، وتعدّ ظاهرة المماثلة وليدة عمل هذين القانونين معا، في حين أن قانون الاقتصاد في الجهد ينفرد بالعمل في ظواهر صوتية كثيرة منها ظاهرة المخالفة¹؛ حيث يتأثر الصوت أثناء التركيب بالأصوات اللاحقة كما يتأثر بالأصوات السابقة، وهنا تنتج لنا قوانين صوتية منها قانوني المماثلة والمخالفة.

1/ تعريف المماثلة وأسبابها والهدف منها

المماثلة مردّها إلى تتابع بعض الأصوات في سياقات صوتية معيّنة؛ مما يؤدي إلى تقريب بعضها من بعض؛ لتحقيق نوع من الانسجام في الكلمة؛ سواء كان ذلك الانسجام متعلّقا بذات الحرف (مخرجه) أو بصفاته، وهي ظاهرة «صوتية تنجم عن مقارنة صوت لصوت، فكلما اقترب صوت من صوت آخر، اقترب كيفية أو مخرج، حدثت مماثلة، سواء ماثل أحدهما الآخر أو لم يماثله»²؛ فكلما اقترب صوت من صوت آخر سواء في المخرج أو الصفة حدثت المماثلة.

ويصفها دانيال جونز (D. Johnes) بأنّها: «عملية استبدال صوت بآخر، تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو في الجملة»³؛ أي: أن تأثير صوت معيّن في صوت آخر ينتج عنه صوت ثالث سواء كان ذلك في الكلمة أو الجملة، ويذكر أحمد مختار عمر: أن «التعديلات الكيفية للصوت بسبب مجاورته-

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، فوزي الشايب، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط 1425هـ/2004م، ص189

² - الأصوات اللغوية، عاطف فضل نوح، ص80

³ - التطور اللغوي مظاهره وعلمه وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ/1997م، ص30

ولا تقول ملاصقته-لأصوات أخرى؛ أو: هي تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة، إما تماثلا جزئيا أو كليا¹؛ فمجاورة الأصوات لبعضها البعض يسبب في هذا التأثير.

يشترط لحدوث التماثل أن تتناسق الحروف فيما بينها؛ بحيث إذا أدى تجاور حرفين في نطقهما إلى ثقل في الكلمة، وتعسر في النطق، فلا بد من تغيير أحدهما؛ لتسهيل النطق وتخفيفه، كما يشترط أن يكون الصوت المؤثر أقوى من الصوت المتأثر.

إنّ صفة القوة في الصوت تتأتى من الصفات التي يحملها؛ فهي تكون «بالجهر، والشدة، والإطباق والتفخيم، والتكرار والاستعلاء، وبالصفير والاستطالة وبالغنة بالتفشي»²، ويرى ابن الجزري أن الحرف الساكن أضعف من المتحرك؛ يقول في ذلك: «إن هذه الحروف سميت بذلك؛ لأنها إذا سكنت ضعفت»³. هذه القوة تتحقق في صورتين⁴:

1- قوة ذاتية في الصوت المؤثر، ناشئة عن اشتماله على عناصر صوتية أكثر من الصوت المتأثر.

2- قوة موقعية، حين يكون الصوت المؤثر بداية مقطع، في حين يحتل الصوت المتأثر نهاية المقطع السابق.

إنّ الهدف من المماثلة؛ هو: تحقيق نوع من الانسجام والتماثل؛ نتيجة التقارب في ذات الحرف وصفته، ومن ثم الاقتصاد في الجهد العضلي المبذول، والسر في وجود هذه الظاهرة يرجع إلى عدة أسباب منها⁵: أن اللغات نشأت شفوية، ولم تتقيد بقيود الكتابة، و اعتماد الناطقين بها - في أول الأمر- على السماع والنطق، مما يتيح للمتكلم أن يتحدث عن طبيعته دون التقيد بما يفرضه نظام الكتابة العربية.

¹ - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص378

² - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب، تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1404هـ/1984م، ج1، ص137

³ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص203

⁴ - أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، عبد الصبور شاهين، ص238

⁵ - ينظر: اللهجات العربية في التراث القسم الأول في النظامين الصوتي والصرفي، علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط1934م،

تنبه علماءنا العرب القدماء إلى هذه الظاهرة وضمّنها في ثنايا كتبهم؛ فقد ذكرها سيبويه في باب: "هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف، وليس من موضعه"¹، وذكرها ابن جني أثناء حديثه عن الإدغام².

يقول ابن يعيش في هذا الصدد: «أبدلت الطاء من التاء إبدالاً مطرداً، وذلك إذا كانت فاء افتعل أحد حروف الإطباق، وهي أربعة: الصاد، والطاء، والضاد، والظاء نحو: اضطرب واضطرب، واطظلم، والأصل فيها: اصتبر، واضترب، واطترد، واطتلم»³، والعلة في هذا الإبدال هو أن الحروف المستعلية تتميز بصفة الإطباق، بينما التاء حرف مهموس وغير مستعل، فكروا أن يأتي بعد التاء حرف يناقضها؛ لذلك استبدلوا التاء بالطاء؛ لأنهما يشتركان في المخرج، ولو لم يكن في الطاء إطباق، لكانت دالاً، ولو لم تكن الدال جهرية، لكانت تاء، كما أن الطاء مطبقة مستعلية؛ تتناسب مع الحرف الذي قبلها؛ مما يجعل الصوت أكثر تجانساً ويسهل بذلك النطق؛ والهدف من هذا كله؛ هو: تقارب الأصوات؛ لتسهيل النطق أو الخفة⁴.

تناولها إبراهيم أنيس؛ حين وضح أن أصوات الكلمات تؤثر في بعضها البعض، كما يظهر هذا التأثير في الكلمات المتصلة أثناء النطق، وأن بعض الأصوات تندمج بسرعة أكبر من غيرها، ويعود السبب في ذلك إلى مجاورة الأصوات مع بعضها في الكلام المتتابع، مما يؤدي إلى تأثير متبادل بينها، بهدف تحقيق نوع من التشابه أو المماثلة في صفاتها أو مخارجها، ويمكن تسمية هذا التأثير بالانسجام الصوتي، وهي ظاهرة موجودة في جميع اللغات⁵، فبين إبراهيم أنيس بذلك أن هذه الظاهرة عامة في كل اللغات، وليست خاصة بلغة معينة.

2/ أنواع المماثلة:

يبرز التأثير الصوتي لظاهرة المماثلة في أنواع مختلفة؛ فقد يقع بين الصوامت، أو بين الحركات أو نتيجة تداخل بين الأصوات والحركات، وذلك وفق التفصيل الآتي:

1/ المماثلة بين الصوامت:

¹ - الكتاب، سيبويه، مج5، ص765

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص399

³ - شرح المفصل، ابن يعيش، ج5، ص406

⁴ - المرجع نفسه، ص406-407

⁵ - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 1975م، ص179

يؤثر فيها صوت في صوت آخر؛ فينتج لنا صوت ثالث؛ فإذا تطابقا الصوتان تمام المطابقة؛ بأن يُقلب أحدهما إلى الصوت الآخر، فإن المماثلة في مثل هذه الحالة تسمى كلية "total"، أما عندما لا تتم المطابقة بين الصوتين: بأن يقرب أحدهما من الآخر مع وجود بعض الفروق بينهما، فإن المماثلة تسمى في مثل هذه الحالة جزئية "partial"، كذلك إذا كان الصوت المؤثر سابقا للصوت المتأثر؛ فالمماثلة تدعى مقبلة "Progressive"، أما إذا كان المؤثر لاحقا للمتأثر؛ فالمماثلة تدعى مدبرة "Regressive"، أما إذا كان الصوتان: المؤثر والمتأثر متصلين في السياق اتصالا مباشرا، فالمماثلة تدعى في مثل هذه الحالة متصلة "Contact Assimilation"، أما إذا كان الصوتان منفصلين، فإن المماثلة تسمى عندئذ منفصلة "Distant or Dilation Assimilation"¹.

ينتج لنا - بناء على ذلك - نوعان رئيسان من المماثلة (مماثلة كلية ومماثلة جزئية)، تندرج تحتها ثمانية أنواع أخرى؛ وهي: المماثلة الكلية (المقبلة المتصلة)، والمماثلة الكلية (المقبلة المنفصلة)، والمماثلة الكلية (المدبرة المتصلة)، والمماثلة الكلية (المدبرة المنفصلة)، والمماثلة الجزئية (المقبلة المتصلة)، والمماثلة الجزئية (المقبلة المنفصلة)، والمماثلة الجزئية (المدبرة المتصلة)، والمماثلة الجزئية (المدبرة المنفصلة).

- المماثلة الكلية * المقبلة ** المتصلة *** : يتجلى هذا النوع في مماثلة التاء لما قبلها، كما أن التاء؛ إما أن تكون تاء الفاعل وإما أن تكون غير ذلك؛ وذلك وفق ما يلي²:

1- مماثلة تاء الفاعل للصوت المطبق قبلها؛ حيث تتأثر التاء في "فعلت" بالطاء قبلها فتصبح طاء، نحو: أَحَطْتُ ← أَحَطُّ، جاء في التنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿أَحَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل، 22] فأحطت هنا تنطق أَحَطُّ³، ومثلها حبطت ← حَبُطُّ، وربطت ← رَبُطُّ، فالتاء متى اتصلت في النطق بالطاء اتصالا مباشرا وجب نطقها طاء؛ وذلك لأنه لا يمكن الجمع بين المطبق المستعلي (الطاء)، ونظيره المرقق (التاء).

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 190-191

* - والمماثلة الكلية: هي تأثير صوت في صوت آخر يخالفه في المخرج والصفة، أو في أحدهما فقط، فيتحول الصوت الثاني إلى صوت مماثل للصوت الأول في الصفة والمخرج معا، ما يؤدي إلى إدغام الصوت المؤثر في الصوت المتأثر. ينظر: المرجع نفسه، ص 191

** - المماثلة المقبلة: وفيها يتأثر الصوت الأول بالثاني وتسمى مماثلة تقديمية، ينظر: المرجع نفسه، 191

*** - المماثلة المتصلة: وفيها لا يوجد فاصل بين الصوتين المؤثر والمتأثر ينظر: المرجع نفسه، 191

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 193-195

³ - وذلك لبقاء صفتي الاستعلاء والإطباق؛ وتنطق تاء فعند سماعنا للصوت وكأنها طاء

في حين أن السلف ذهبوا إلى أن الأقيس في تاء فعلت عدم الإطباق، يقول سيبويه: «وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها طاء، لأن هذه علامة الإضممار، وإنما تحيء للمعنى»¹.

2- مماثلة تاء غير الفاعل لما قبلها:

ونجدها في²:

أ/ **مماثلة التاء للصاد**؛ مثال ذلك: لصّ أصلها لصت، والذي حصل في هذه اللفظة؛ أنها خضعت لسنة التطور؛ إذ تتأثر التاء بالصاد قبلها، فأصبحت مطبقة "لصط"، ثم تتأثر الطاء بالصاد قبلها؛ فتصبح صادًا، ثم تدغم الصاد الأولى في الثانية؛ فتصبح "لصّ".

ب/ **مماثلة التاء للسين**؛ وذلك نحو مماثلة التاء للسين في "طست"؛ فصارت "طس"، وذلك بسبب صفة الصفيّر في السين.

- **المماثلة الكلية المقابلة المنفصلة*** : وهذا النوع قليل في اللغة العربية؛ إذ لا نعثر على أمثلة كافية على هذا النوع من المماثلة، فمن ذلك أن اللام بدل من النون في كلمة "أصيلال" المتطورة عن "أصيلان" التي هي تصغير لـ "أصلان"، يقول سيبويه: «وقد أبدلوا اللام من النون، وذلك قليل جدا، قالوا: أصيلال، وإنما هو أصيلان»³، ومثل ذلك أيضا مماثلة الفاء للتاء قبلها **الأثافي** ← **الأثافي**، أيضا بل وب، ورغم أن الفصحى لا تقدم لنا أمثلة كثيرة على هذا النوع من المماثلة إلا إن اللهجات العربية الدارجة قديما وحديثا تزودنا بكثير من الكلمات في هذا الجانب؛ وذلك نحو ما ورد في مماثلة النون للكاف قبلها: ومنها أن العامة في الأندلس كانت تقول لبائع السكاكين: **سكاك** بدلا من **سكان**، وفي اللهجات الحديثة تقول العامة في تونس وليبيا "زوز" بدلا من "زوج"، كما أن العامة في تونس تقول: شهر "إبرير" بدل من أبريل للشهر المعروف⁴.

¹ - الكتاب، سيبويه، ج4، ص471، أما في النطق الفعلي فإنه لا يأتي لأحد بحال من الأحوال إظهار التاء مع الطاء في "فعلت" إلا في حالة واحدة وهي الوقوف على الطاء قليلا، ولا يكون ذلك الا تكلفا، أما أن يأتي ذلك في الكلام العادي، فلا. ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص193

² - ينظر: الكتاب، سيبويه، ج4، ص198

* - المماثلة المنفصلة: فيها يوجد فاصل بين الصوتين المؤثر والمتأثر

³ - الكتاب، سيبويه، ج4، ص240

⁴ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص199

- المماثلة الكلية المدبرة* المتصلة: وهذا النوع هو الأكثر شيوعاً في جميع اللغات، فقد ذكر بلوم فيلد (L.Bloomfield) أن «المماثلة المدبرة هي الأكثر شيوعاً في عالم اللغات»¹، وأكد ذلك فندريس (J.Vendryes) حين ذكر أن الصوت المشبه يسبق في أغلب الأحيان الصوت المشبه به؛ إذ العقل باشتغاله ينطق صوت ما داخل مجموعة صوتية يجعله يصدره قبل أوانه، وينتج مرتين متتابعتين الحركات الصوتية التي يقتضيها هذا الصوت²، وهو ما ذهب إليه إبراهيم أنيس الذي رأى أن العربية يغلب عليها تأثر الصوت الأول بالثاني³.

تتجلى صور المماثلة الكلية المدبرة المتصلة في النقاط التالية:

أولاً: في الأصل التاريخي لـ "افتعل"؛ أي: "اتفعل"

1- مماثلة تاء الافتعال لما بعدها ويتضح ذلك فيما يلي⁴:

أ/ تتأثر تاء الافتعال بالطاء بعدها فتصبح طاء مثلها، ثم تدغم فيها، فمثلاً الأصل في "طلب" هو "اتطلب" في بناء "افتعل"؛ لأنّ هذه الأخيرة هي مقلوب من "اتفعل"؛ إذ تأثرت التاء الضعيفة؛ لكونها تشكل نهاية المقطع، بالطاء القوية، لأنّها تشكّل بداية مقطع؛ وهي منبورة أيضاً، فصفتي الموقعية والنبر اكتسبتا الطاء صفة القوة م جعلها تؤثر على التاء، بالإضافة إلى صفات القوة التي تحملها الطاء: من إطباق واستعلاء وتفخيم وجهر، وبالمقابل الصفات الضعيفة التي تتصف بها التاء: من انفتاح واستفال وترقيق وهمس وغيرها وفق ما يلي: اتطلب ← اطلب ← اطلب.

ب/ تتأثر تاء الافتعال بالذال بعدها؛ نحو: اذّان، ادّعى: اذدان، ادّعى.

ج/ تتأثر التاء بالتاء بعدها؛ فتصبح تاء نحو بناء "افتعل" من ثرد؛ فنقول: اثرد، والأصل: اثرد؛ إذ تأثرت التاء بالتاء؛ فقلبت تاء ثم أدغمت التاء في التاء في اسم الفاعل "مَثَرْد"، يقول سيبويه في هذا الصدد: «وقال ناس كثير مَثَرْد في مَثَرْد، إذ كانا من حيز واحد، وفي حرف واحد»¹.

* المماثلة المدبرة: وفيها يتأثر الصوت الأول بالثاني؛ أي الصوت السابق باللاحق، وتسمى أيضاً المماثلة الكلية الرجعية

¹ - L.Bloomfield نقلًا عن فوزي الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص 199

² - ينظر: اللغة، فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، وفُجِد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، د.ت، ص 93-94

³ - في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 8، 1992، 132

⁴ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 201-202

د/ تتأثر التاء بالذال؛ فتصبح ذالا؛ وذلك نحو اذكر والأصل اذكرك، وعلى هذا الوجه تفسر قراءة الحسن قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف، 45]، وهو مذكر، قال سيبويه: «ومن قال مطّعن قال مذكر، وقد سمعناهم يقولون ذلك»².

هـ/ تتأثر التاء بالسين بعدها؛ فتصبح سينا، وذلك نحو بناء "افتعل" من "سمع" فنقول استمع بدلا من اتسمع؛ إذ تأثرت التاء الضعيفة بالسين القوية بموقعها وبكونها منبورة، فصارت التاء سينا استمع ثم إدغام السين في السين فأصبحت استمع وهو مستمع، يقول سيبويه: «وتقول في مستمع مستمع»³.

2- تأثر الدال بالزاي بعدها: تتأثر الدال بالزاي بعدها؛ فتصبح زايا يقول سيبويه: «ومن قال مصبر قال مزّان»⁴.

3- تأثر الذال بالبدال بعدها: حيث تتأثر الذال بالبدال بعدها فتصير دالا؛ ثم يتم إدغام الدال في الدال؛ إذ دنا—إدنا.

4- تأثر الطاء بما بعدها: وتكون على النحو الآتي⁵:

أ/ تأثر الطاء بالصاد: وذلك نحو: اتصبر—اطصبر—اصبر ص؛ يقول سيبويه: «وزاد بعضهم الإدغام؛ حيث اجتمعت الصاد والطاء، فلما امتنعت الصاد أن تدخل في الطاء قلبوا الطاء صادًا، فقالوا: مصبر»⁶.

ب/ تأثر الطاء بالصاد بعدها: تتأثر الطاء بالصاد التي بعدها؛ فتصير صادًا ثم تدغم الصاد في مثلتها، نحو "اضّجه" والأصل انضجع—اطضجع—اضّجع، وهو مضّجع، قال سيبويه: «ومن ذلك مضطجع وإن شئت قلت: مضّجع»⁷.

¹ - أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 468

² - المرجع نفسه، ص 469

³ - أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 468

⁴ - المرجع نفسه، ص 468

⁵ - ينظر: فوزي الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص 204

⁶ - الكتاب، سيبويه، ج 4، ص 467

⁷ - المرجع نفسه، ص 467

ج/ تأثّر الطاء بالطاء بعدها: حيث تتأثّر الطاء بالطاء بعدها فتصبح طاء ثم تدغم الطاء نحو: مطّعن، ومظلم، واظّعن واظلم، والأصل في الصيغة قبل القلب وقبل التأثر: اظعن←اظطن←اظعن، اظلم←اظطم←اظلم

ثانيا: في صيغة افتعل: وتكون وفق ما يلي¹:

أ/ تتأثّر التاء في "افتعل" بالتاء بعدها؛ فتقلب تاء نحو: اثترد←أترد، وهو متمدّد؛ قال سيبويه: «والقياس متمدّد؛ لأن أصل الإدغام أن يدغم الأول في الآخر»².

ب/ تتأثّر الطاء في افتعل بالطاء بعدها؛ فتكون طاء، وذلك نحو: اظطم←اظلم، ومظطن←مطّعن، ويقارن سيبويه بين مطعن، ومظلم، ومظطن فيقول: «وأقيسهما مطّعن ومظلم، لأن الأصل في الإدغام أن يتبع الأول الآخر»³.

ج/ تتأثّر الضاد بالطاء بعدها فتصبح طاء، وذلك نحو: مضطجع←مطجع، قال سيبويه: «وقد قال بعضهم مطّجع»⁴.

د/ تتأثّر الذال بالذال فتصبح دالا نحو: اذكرك←أذكر؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر، 15]

ثالثا: التاء

1/ التاء في صيغتي تنفعل وتفاعل:

تنفعل←تُفعل/تتفاعل←تتفاعل؛ فإذا جاء بعد التاء صوت صفيري أو أسناني، حدثت مماثلة كلية بين التاء وبين الصوت الصفيري أو الأسناني، وهو ما توضحه الأمثلة الآتية⁵:

أ/ في الفعل المضارع يتفعل

¹- ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 205-207

²- الكتاب، سيبويه، ج 4، ص 467

³- المرجع نفسه، ص 470

⁴- الكتاب، سيبويه، ج 4، ص 469

⁵- ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 207-211

1/ يتطهر←يتطهر←يطهر؛ والأمر منه، اَطَّهْر←اَطَّهْر قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف 81]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة، 6].

2/ يتصدق←يتصدق←يصدق ﴿فَأَصَدِّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون، 10]، ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء، 92].

3/ يتضرع←يتضرع←يضرع؛ قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف، 94].

4/ تتظهر←تتظهر←تظهر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْزُوجَكُمْ إِلَيْهِ تَظْهَرُونَ﴾ [الأحزاب، 4].

5/ يتذكر←يتذكر←يذكر قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة، 268].

6/ يتسمع←يتسمع←يسمع.

7/ يترزين←يترزين←يدززين←يززين.

ب/ في المضارع "يتفاعل"

1/ يتدارك←يتدارك←يدارك، تداركه؛ قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ نَدْرَكَهُ نِعْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم، 49].

2/ يتناقل←يتناقل←يتناقل.

3/ يتسامح←يتسامح←يسامح.

4/ يتصاعد←يتصاعد←يصاعد؛ قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام، 126].

5/ تتظاهرون←تتظاهرون←تظاهرون □ قال تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة، 84]

6/ يطاير←يطاير←يطاير.

ج/ في الماضي "تفعّل"¹

¹- ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 209-210

1/ تطير ← المضارع تطير ← تنطير ← ماضي تطير ← بهمزة وصل اتطير ← بالمماثلة اطير؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ﴾ [النمل، 47].

2/ تزين المضارع تزين ← بتسكين الثاني ← تزين ← ماضي ← تزين ← بهمزة وصل ← اترين ← بالمماثلة (ارين) قال تعالى: ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس، 24]. قال سيبويه: «وازينت؛ إنما هي تزينت»¹.

3/ تدرب ← مضارعه ← يتدرب ← بتسكين الثاني ← يتدرب ← الماضي ← تدرب ← بهمزة وصل ← ادرّب ← بالمماثلة ← ادرّب.

د/ في الماضي تفاعل²:

1/ تدارك ← يتدارك ← يُتدارك ← تدارك ← اِتدارك، قال تعالى: ﴿كَلَّمَا دَخَلْتُ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْتَهَا حَتَّى إِذَا إِذَا رَكُوا﴾ [الأعراف، 36]، تتأكل ← اتأكلتم؛ قال تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ افِرُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة، 38]، ومماثلة التاء للأصوات الصّفيرية والأسنانة في بنائي "يتفعل" و"يتفاعل"؛ هو المسؤول عن تطورها إلى "يفعل" و"يفاعل"؛ وعن تطور الماضي منهما إلى "افعل" و"افاعل"³.

2/ التاء في صيغتي "يفعل" و"يفاعل"، وذلك في⁴:

أ/ تتأثر التاء بالدال بعدها فتصبح دالا مثل ذلك يَهْدِي؛ وأصلها: يهتدي من الهدى؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس، 35]

ب/ تأثر التاء بالطاء بعدها فأطبقت قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف، 14]. فالتاء في "أمنت" و"كفرت" تطبق تحت تأثير الطاء بعدها، وتدغم فيها وتصبح طاءا مشددة، ومثلها التاء في "همت" ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ [آل عمران، 122].

¹ - الكتاب، سيبويه، ج4، ص475

² - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص211

³ - الكتاب، سيبويه، ج4، ص475

⁴ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 211-212

وفيما يلي طائفة من صور المماثلة الكلية المدبرة المتصلة لمختلف الأصوات¹:

1/ في "فعلت"

أ/ تتأثر الدال في " فعلت " بالتاء بعدها فتهمس، أي تصبح تاء نحو وجدت ← وجئت، أردت ← أرت، قعدت ← قعت، عبت ← عبت ← عبت في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون، 4] تنطق عبتم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة، 117] تنطق لقتاب. ﴿وَقَدْ تَغْلُمُونَ﴾ [الصف، 5]، تنطق وتعلمون. والدال أقوى من التاء بالجهر، ولكن التاء تغلبت على الدال هنا نظرا لكونها بداية مقطع والدال في نهاية مقطع.

ب/ تتأثر الدال في فعلت بالتاء بعدها فتصبح تاء: أخذت ← أخت، اتخذت ← تحت قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ﴾ [البقرة، 51]، وذلك بمماثلة الدال للتاء؛ إذ إنهما متناسبتان في قرب المخرج²، بالإضافة إلى أن التاء في بداية مقطع، والدال في نهاية مقطع. وهو جمع بين السببين؛ سبب يتعلق بالمخرج، وسبب متعلق بالموقعية.

ج/ تتأثر التاء في "فعلت" بالتاء بعدها فتصبح تاء بعثت ← بعث، لبثت ← لبث؛ قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا لَبِثْنَا مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة، 259]

د/ تتأثر الضاد في "فعلت" بالطاء بعدها فتصبح طاء

قبضت ← قبضط ← قبط.

هـ/ تتأثر الظاء في "فعلت" بالطاء بعدها فتصبح طاء مثلها، وذلك نحو: حفظت ← حفظط ← حفظ

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 212-216

² - ينظر: معاني القرآن، الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد)، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ/1983م، ج1، ص172

2/ من صور المماثلة الكلية المدبرة المتصلة، مماثلة لام التعريف للثلاثة عشر صوتا المقاربة لها في المخرج، وتعرف هذه اللام في الاصطلاح بـ"اللام الشمسية"؛ وهذه الحروف؛ هي: الضاد، السين، الطاء، الظاء، النون¹.

ذكر سيوييه أن لام المعرفة تدغم في ثلاثة عشر حرفا؛ وذلك لكثرة لام المعرفة في الكلام، وكثرة موافقتها لهذه الحروف؛ فاللام من طرف اللسان، وهذه الحروف منها حروف طرف اللسان، وحرفان يخالطان طرف اللسان؛ هما: الضاد لاستطالتها والشين؛ لتفشيها²، وهو ما أكده مكّي بن أبي طالب القيسي حين قال: «وعلة إدغام لام التعريف في هذه الحروف أن مخارجها من مخارج هذه الحروف (...) فأدغمت فيها لذلك»³؛ فمماثلة لام التعريف لهذه الأصوات كما قال مكّي بن أبي طالب يعود إلى التقارب في المخرج.

ذكر سيوييه في باب إدغام المتقاربين: "اسلخ غنمك" ← اسلغنمك؛ حيث تغلبت الغين على الخاء، ليس لكونها مجهورة، وإنما لكونها في بداية مقطع، وغيرها من الأمثلة التي تطرق إليها⁴.

5/ من صور المماثلة الكلية المدبرة المتصلة مماثلة التّون الساكنة لكلّ من اللام والميم والراء والواو والياء عندما تتصل بها؛ وهو ما يعرف في الاصطلاح بـ"إدغام النون" وأيضا في عمّ؛ قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا، 1]. قال سيوييه: «فإنما هي "أن" ضمت إليها ما، وهي ما التوكيد»⁵.

رابعا/ المماثلة الكلية المدبرة المنفصلة:

لا تقدّم لنا الفصحى أية أمثلة على هذا النوع من المماثلة، إلا في كلمة "نابن" على اعتبار أنها آتية من "الابل"، أما اللهجات الدارجة فتزوّدنا ببعض الأمثلة؛ نحو: الشيتل ← التيتل؛ بمماثلة الثاء للراء، ونجد في اللهجات التونسية والليبية جعل الجيم السابقة للزاي زايا؛ مثل: عجوز ← عزوز، وعند المصريين راءر أصلها الآخر موثلت اللام للراء بعدها، وفي بعض اللهجات الفلسطينية بلطلون بدل بنطلون⁶.

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 214

² - ينظر: الكتاب، سيوييه، ج 4، ص 457

³ - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، القيسي مكّي بن أبي طالب، ج 1، ص 141

⁴ - الكتاب، سيوييه، ج 1، ص 451-452

⁵ - المرجع نفسه، ص 293

⁶ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 218-219

خامسا: المماثلة الجزئية* المقابلة المتصلة: أبرز مثال تقدّمه العربية على هذا النوع من المماثلة هو مماثلة التاء لما قبلها في "فعلت"؛ وذلك على النحو الآتي¹:

1- تتأثر التاء في "فعلت" من فحص؛ نقول: فحست، وتنطق: فحسط.

2- تتأثر التاء في "فعلت" عند بعض العرب بالبدال قبلها؛ فتجهر: فزت ← فزد.

سادسا: المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة:

أ/ التاء في الصيغة الأصلية لـ "افتعل" أي "اتفعل" وتفصيلها كما يلي²:

1/ تتأثر التاء في "افتعل" المنقلبة عن "اتفعل" بالصوت المفخّم بعدها؛ فتفخّم صبر ← اتصبر ← بالمماثلة الجزئية ← اطصبر ← القلب المكاني ← اصطبر، ضرب ← اتضرب ← بالمماثلة الجزئية ← اطضرب ← بالقلب المكاني ← اضطرب، ظلم ← اتظلم ← بالمماثلة الجزئية ← اظلم ← بالقلب المكاني ← اظلم.

تدرج هذه الحالات في المماثلة مدبرة؛ ويرجع السبب في ذلك هو أن تتابع التاء المرققة والصوت المفخّم بعدها مستثقل مكروه في النطق؛ لأنّه يجمع بين صوتين متّحدين أو متقاربين في المخرج ومختلفين في الصّفة؛ لذلك أطبقت التاء على سبيل المماثلة الجزئية. وقد علل ابن عصفور في الممتع سبب إطباق التاء لما ذكر أن التباعد بين التاء وهذه الحروف أن التاء مفتوحة، مستقلة، وهذه الحروف مطبقة مستعلية، فأبدلوا من التاء أختها في المخرج وأخت هذه الحروف في صفتي الاستعلاء والإطباق وهي الطاء³.

2/ تتأثر التاء في "افتعل" بالزاي والذال والذال بعدها أصلا وقبلها حاليا فتجهر؛ أي: تتحول إلى دال

زهر ← ازهر ← ازدهر، ذكر ← اذكر ← اذكر ← اذكر، زجر ← ازدرج ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾ [القمر، 9].

* - والمماثلة جزئية: أي أن التأثير بين الصوتين لم يكن كاملا، وإنما يتعلق بالصفة دون المخرج أو المخرج دون الصفة، أو أنه حدث تماثل بين صوتين في المخرج والصفة ولكنهما لم يدغما، وهذا يؤدي إلى الإبدال دون الإدغام؛ وذلك نحو: اصتبر ← اصطبر ينظر: الأصوات اللغوية، عاطف فضل مجّد، ص 84-86

¹ - ينظر: شرح الشافية، الاسترادي، ج 3، ص 228

² - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 222-226

³ - ينظر: الممتع في التصريف، ابن عصفور، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 1، 1407هـ/1987م، ج 1، ص 360

وقد جهزت التاء في صيغة "افتعل" تحت تأثير الجيم، وذلك نحو قول بعضهم اجدمع في اجتمع، واجدز في اجتز¹.

ب/ المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة في غير "افتعل" وتتجلى في النقاط التالية²:

أ- وأبرز مظاهر المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة: هو ما يعرف بظاهرة الإقلاب؛ أي: قلب النون الساكنة أو نون التنوين ميمًا إذا جاء بعدهما حرف الباء؛ نحو: عنبر ← عمبر، أنبئهم ← أمبئهم، منبر ← ممبر.

تعليل هذه الظاهرة هو التباعد في المخرج؛ إذ إن النون تخرج من اللثة والباء من الشفتين، بالإضافة إلى اختلاف الصفات التي تحملها كل منهما فالنون بوصفها خيشومية تقتضي انخفاض الحنك اللين، في حين أن الباء بوصفها وقفة (انفجارية)؛ فتقتضي ارتفاع الحنك اللين، ولصعوبة تتابع هذين الصوتين، بسبب التباعد في المخارج والصفات كان الحل التسوية هو المجيء بصوت يجمع في خصائصه ما تفرق بين هذين الصوتين، فكان ذلك الصوت هو الميم، فهو يلتقي مع النون الخيشومية، ويلتقي مع الباء في الشفوية أي المخرج؛ فهو إذا؛ يلتقي مع النون في الصفة ومع الباء في المخرج³ ذلك

وهكذا؛ يمكن القول أن حدوث ظاهرة المماثلة؛ يرجع إلى بُعد في المخرج والصفات.

عالج السلف هذه الظاهرة الصوتية وعللوا تعليلًا صوتيًا سليماً، قال سيبويه: «وإذا كان مع الباء لم تتبين، وذلك قولك شباء والعمبر لأنك لا تدغم النون إنما تحولها ميمًا»⁴، وإقلاب النون ميمًا لا يحدث لبساً بين الكلمات؛ وذلك لأن من خصائص العربية أن الميم الساكنة لا تقع قال الباء قال سيبويه: «والميم لا تقع ساكنة قبل الباء في كلمة»⁵.

ب- تتأثر السين بالصوت المفخم وذلك؛ نحو: اصطبلى، فهذه الكلمة واحدة من اللاتينية (Stabulum).

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 224

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 228-233

³ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 227

⁴ - الكتاب، سيبويه، ص 455

⁵ - المرجع نفسه، ص 455

ج- تأثر السين بالدال بعدها فتجهر؛ أي/ تصبح زايا في النطق ذكر أوليري أنها «قاعدة عامة في العربية والآرامية أن السين الصغيرية تصبح زايا قبل ساكن مجهور، وصادا قبل المفخم»¹، نحو: أسدل←أزدل، التسدير←التزدير.

د- تتأثر الصاد بالدال بعدها فتجهر، وذلك؛ نحو: أصدق←أزدق، التصدير←التزدير، الفصد←الفزد، قال سيبويه: «وسمعا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة كما جعلوا الإطباق ذاهبا في الإدغام»²، وعلل جهر الصاد بأن يكون «عملهم من وجه واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد»³. هـ- تتأثر الشين بالدال بعدها فتجهر فتتطرق من ثم جيما سورية، وذلك كما في أشدق ينطقها بعض العرب أزدق (azdak).

و- تتأثر التاء في اللهجة الفلسطينية والأردنية الدارجة بالجيم بعدها فتجهر؛ نحو: متجر←مدجر.

ز- تجهر كل من الطاء والكاف في المصرية الدارجة؛ إذا اتصلت كل منهما بالباء اتصالا مباشرة كبر (agbar←) أو منفصلة يكذب (yigdib←)

ج- تجهر التاء في المصرية الدارجة قبل الباء أيضا، فأتبعوهم وأتباعهم تنطق أدبعوهم وأدباعهم.

ثامنا: المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة:

أ/ تتأثر السين بالأصوات المفخمة بعدها، فتفخم؛ أي: تصبح صادا

ب/ تتأثر السين بالقاف بعدها فتجهر، وذلك نحو: سقر←زقر←مس سقر

د/ تتأثر التاء بالخاء بعدها فتفخم⁴.

2/ المماثلة بين الحركات (Vowel -Harmony)

ومن مظاهر المماثلة بين الحركات¹:

¹ - Leary comp Gr p750 نقلا عن ينظر: فوزي الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص231

² - الكتاب، سيبويه، ص478

³ - المرجع نفسه، ص478

⁴ - الإبدال، أبو الطيب اللغوي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ج1، ص131

1- تحوّل ظرف الزمان "منذ" من مُنْذ إلى مُنْذُ فأصل هذا الظرف كما ذهب الفراء هو: من+ذو.

2- تحريك هاء الغائب بالكسر بدل الضمة في مثل: **يَهُـ** ← **يِهـ**؛ فأصل حركة هاء الغائب هي الضمة، ولكن تتابع الكسرة والضمة ثقيل مكروه، لذا تخلّصت منه العربية عن طريق المماثلة بين حركة حرف الجر وهاء الضمير، وعمّم على ضمائر الغائب كلها.

3- **الوهم**: الوهم هو كسر هاء الضمير في مثل: **منْهُمْ** ← **منْهِم**، منه ← منه، وينسبها اللغويون إلى ربيعة، قال سيبويه: «واعلم أن قوما من ربيعة يقولون منهم: اتبعوها الكسرة، ولم يكن المسكن حاجزا حصينا عندهم»².

حكم سيبويه على هذه اللغة بالرداءة؛ لوجود الفاصل؛ لأنّها قد تجري على الأصل، ولا حاجز بينهما، فإذا تراخت وكان بينهما حاجز لم تلتق المشابهة³.

على الرغم من حكم سيبويه على هذه اللهجة بالرداءة، إلا أن المبرّد أجازها بناء على ما وصفه بخفاء الهاء؛ حيث قال: «وإنما جاز هذا في الهاء؛ لخفائها»⁴.

4- **الوكم**: والوكم لهجة لبعض بني بكر بن وائل، يعاملون كاف المخاطبة معاملة هاء الغائب، فيكسرونها للكسرة قبلها **بِكم**، وعليكم⁵. ووُصفت بالـ « رديئة جدا »⁶

3/ المماثلة بين الصّوامت والحركات:

لا يعني هذا تحويل الصّامت إلى الحركة، والحركة إلى الصامت، وإنما المقصود هو: تأثير الصوامت في الحركات، عن طريق تحويلها إلى حركات مماثلة لطبيعتها، وتأثير الحركات في الصوامت عن طريق تغيير مخارجها، والتعديل في صفاتها، ويتم توضيح ذلك كما يلي¹.

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 241-243

² - الكتاب، سيبويه، ص 194

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 194

⁴ - المقتضب، المبرّد، ج 1، ص 269

⁵ - الكتاب، سيبويه، ص 197

⁶ - المرجع نفسه، ص 197

أولاً: أثر الحركات في الصّوامت

تؤثر الحركات في الصّوامت المتّصلة بها، فتعدل عن مخرجها، أو من صفتها، أو من مخرجها وصفتها معا.

لقانون الأصوات الحنكية: (platalisation)

ذكر سيبويه أن ناسا من تميم، وناسا من أسد يجعلون مكان الكاف للمخاطب المؤنث الشين نحو: انشِ ذاهبة، وما لش²، فرغم أن الشين والكاف لا يوجد بينهما علاقة في المخرج لكن تم الإبدال. وقال سيبويه: «واعلم أن ناسا من العرب يلحقون الكاف السين لبيّنوا كسرة التأنيث»³

تُعَدّ هذه الظاهرة جزءاً من مجموعة الظواهر اللهجية العربية القديمة؛ كالكشكشة والكسكسة والشنشنة، والتي تتقاطع جميعها في وظيفتها المتمثلة في تعزيز التّمايز الدّلالي عبر آليات صوتية غير مطّردة، وهي في مجموعها تكشف عن خصائص نطقية، ولهجية ارتبطت بقبائل محددة، كتميم وأسد.

ومن مظاهر مماثلة الصوامت للحركات: التّريق والتّفخيم في بعض الصّوامت؛ وذلك بحسب الحركات التي تكتنفها؛ ومثل ذلك اللام والراء⁴، يقول ابن الجزري: «إن الحروف المستقلة كلّها مرقّقة، لا يجوز تفخيم شيء منها إلا اللام من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعاً، أو بعد حروف الإطباق في بعض الروايات، وإلا الراء المضمومة أو المفتوحة مطلقاً في أكثر الروايات، والساكنة في بعض الروايات»⁵.

ثانياً: أثر الصّوامت في الحركات: للصوامت أثر كبير في الحركات المجاورة، فهي تؤثر في مخرجها؛ وقد تعيّرنا إلى نوع يناسب طبيعتها، يشير بروكلمان (C.Bockelmann) إلى الحركات «الثلاث الأصلية: الفتحة والكسرة والضمة في كل اللغات السامية، وعلى الأخص في العربية بما حولها من الأصوات الصامتة، وكذلك كان الحال في السامية القديمة»⁶.

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 245-262

² - ينظر: الكتاب، سيبويه، ص 199

³ - المرجع نفسه، ص 199

⁴ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 256

⁵ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص 487

⁶ - فقه اللغات السامية، بروكلمان، ص 72

ويكون تأثير الصّوامت في الحركات على النحو الآتي¹:

أ- إذا تفحصنا الضّمة في كلّ من: مُد، وجُد، وعُد، فإننا سنجد أن مخرج الضمة في مُد أكثر أمامية منه في جُد، ولكنها في عُد أكثر خلفية من جُد، وكذلك فإن الكسرة في: مِن أكثر أمامية منها في: جَد، فمخرج الصامت يؤثّر في مخرج الحركة، فيتقدّم أو يتأخّر على حسب الصامت الذي يتبعه.

ب- وكما تؤثر الصّوامت في مخارج الحركات، فإنها تؤثر في صفاتها أيضا؛ فصوت الفتحة مثلا يفحّم بعد الأصوات المفخّمة؛ وهي الصاد والضاد والطاء والظاء، وتكون بين التفخيم والترقيق مع القاف والحاء والغين، وتكون مرققة مع بقية الأصوات، فالفتحة في صبر مفخّمة تحت تأثير الصاد؛ وهي بين التفخيم والترقيق في: "قبر"، ومرتقة في: "نهر"، وينسحب هذا الحكم على الفتحة الطويلة أيضا نحو: طار.

وعليه؛ فالتفخيم في الفتحة قصيرة، أو طويلة ليس شيئا ذاتيا فيها، وإنما تكتسب ذلك من السياق، فهي إذا ظاهرة سياقية (contextual).

وهذا يدل على أن درجة تفخيم وترقيق الحركات في العربية تختلف باختلاف طبيعة الحروف؛ فهي تكون في أعلى درجات التفخيم عند اتصالها بحروف الإطباق الأربعة؛ وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، وتظهر بدرجة أقل مع بقية حروف الاستعلاء غير المطبقة؛ وهي: القاف والحاء والغين، بينما تُنطق مرققة مع سائر الحروف الأخرى التي لا تحمل صفة الاستعلاء، ومن ثمّ فإن الحركات لا تمتلك صفة التفخيم أو الترقيق ذاتيا، بل تكتسبها من السياق الصوتي الذي ترد فيه، مما يجعلها ظاهرة سياقية متحوّلة وليست ثابتة.

ج- بالإضافة إلى تأثير الصوامت في الحركات؛ من حيث مخارجها، وصفاتها، فإنها تعتمد إلى تغيير الحركة كلية إلى حركة أخرى تناسب طبيعتها، وخصائصها النطقية؛ فلكل نوع من الصوامت نوع من الحركات يناسبها، فالأصوات المرققة الصغيرية والأسنانة تُؤثر الكسرة، أي الحركة الأمامية على غيرها.

د- أما الأصوات الخنجرية والحلقية والطبقية، وهي التي جمعها السلف تحت عنوان "الحلقية" فإنها تنحو بأجراس الحركات المجاورة لها نحو الفتحة.

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 258-268

كما فطن علماء العربية القدماء إلى هذه الظاهرة، فلاحظوا العلاقة بين الحنجريات والحلقيات وبين الفتحة؛ فقد علّلوا الفتح معها بما يمكن أن نسميه إثثار الحنجريات والحلقيات للفتحة؛ قال سيبويه: «وإنما فتحو هذه الحروف لأنها سفلت في الحلق، فكروها أن يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف، فجعلوا حركتها من الحرف الذي في حيزها وهو الألف»¹. وقد تنبهوا إلى أن التحريك بالفتح مع هذه الأصوات؛ الغرض منه تحقيق نوع من الانسجام بين الصامت والحركة، وأنه لا بدّ للحنجريات والحلقيات من المجيء بالفتحة؛ قال ابن جني: «فحروف الحلق لا تحرك ساكنًا، ولا تسكن متحركًا، بل لعمري أنه يراد بها الاتباع، وتجانس الصّوت، فأما تسكين متحرك أو تحرك ساكن، فلا يجب لها»².

هـ - **فَعَلَ يَفْعَلُ**: أشار ابن جني إلى أن «العين أقوى من الفاء واللام؛ وذلك لأنّها واسطة لهما»³.

و- أن مماثلة الحركة للصامت بعدها، وبالتحديد مماثلة الحركة شبه الحركة بعدها، وذلك في كثير من مفردات العربية هي المسؤولة عن نشأة بعض المفردات اللفظية؛ نحو: سُرورة سُروة.

ح- ومن ظواهر المماثلة بين الحركة وشبه الحركة كسر هاء ضمير الغائب؛ إذا ما سبق بياء؛ نحو: عليهم ← عليهم.

ولا شك أن كسر الهاء في مثل عليهم؛ يمثل تطوّرًا صوتيًا قوامه المماثلة بين الحركات، قال سيبويه: «وأهل الحجاز يقولون: مررت بهو قبل، ولديهو مال، ويقولون فخشفنا بهو وبدار هو الأرض»⁴.

نخلص مما تقدم ذكره؛ أنّ قانون المماثلة في اللغة العربية كان له دور في تحقيق الانسجام الصوتي والتقليل أو الاقتصاد في الجهد، وهو ما أدركه المتقدمون من خلال تلك الإشارات والعبارات التي تدل على ذلك، والتي تعكس وعيًا منهجيًا عميقًا بتجاور الأصوات، وما ينتج عنها من تغييرات.

المطلب الثاني: المخالفة (Dissimilation)

1/ تعريفها:

¹ - الكتاب، ج4، ص 101

² - المنصف، ابن جني، ج2، ص 307

³ - الخصائص، ابن جني، ص 155

⁴ - الكتاب، سيبويه، ج4، ص 195

المخالفة ضدّها المماثلة؛ فإذا كانت المماثلة تؤدّي إلى تماثل الأصوات المتجاورة بسبب التقارب، فإنّ المخالفة تؤدّي إلى التباعد والتفريق بين الحروف المتقاربة، وهي «تعديل الصّوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور»¹، ولكنه تعديل عكسي؛ حيث «يؤدي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصّوتين»²، وهي ظاهرة «تحدث بصورة أقلّ من حدوث المماثلة، وهي ضرورية لتحقيق التوازن، فعامل المخالفة يستخدم لإعادة الخلافات التي لا غنى عنه، ولإبراز الفونيمات في صورة أكثر استقلالية»³؛ فإذا «اجتمع في الكلمة صوتان من جنس واحد، ووجد المتكلم عسرا في تحقيقها، أبدل من أحدهما صوتا آخر إيثارا للسهولة»⁴؛ فاجتماع الصوتين المتماثلين يسبب الثقل والعسر في النطق، لذلك نسعى إلى التخلص من هذا العسر بإبدال أحدهما بصوت آخر يختلف عنه.

وقد تطرق علماؤنا العرب القدماء إلى هذه الظاهرة تحت مسميات مختلفة؛ منها: "كراهية التضعيف"، و "استثقال التضعيف"، و "كراهية اجتماع حرفين حرفين من جنس واحد أو اجتماع الأمثال مكروه"، و "استثقلوا اجتماع المثليين" وغيرها؛ إذ عقد سيبويه لذلك بابا في كتابه بعنوان "هذا باب ما شذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف وليس بمطرّد" ذكر فيه -على سبيل المثال- تسريت وتظنيت وتقصّيت من القصة وأملت⁵، ويشير المبرد إلى أن الدليل على هذا إنما أبدل لاستثقال التضعيف؛ وذلك نحو: دينار، وقيراط، والأصل: دنّار، قرّاط، فأبدلت الياء للكسرة، فلما فرّقت بين المضاعفين رجع الأصل، فقلت: دنانير وقراريط وقريريط⁶، كما أطلق النحاة على ظاهري التماثل والتخالف مصطلح الإبدال⁷.

2/ أنواع المخالفة وصورها:

المخالفة شأنها شأن المماثلة؛ تقع بين الصوامت، أو بين الحركات، أو بين الصوامت والحركات معا، وذلك غلى النحو الآتي:

¹ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، مُجد الأنطاكي، ص23

² - المرجع نفسه، ص23

³ - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص374

⁴ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، مُجد الأنطاكي ، ص23

⁵ - الكتاب، سيبويه، ج2، ص401

⁶ - ينظر: المقتضب، المبرد، ج1، ص246

⁷ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، مُجد الأنطاكي، ص23

أولاً: المخالفة بين الصّوامت:

تتم المخالفة بين الصّوامت بإحدى طريقتين: الحذف أو الزيادة.

الحذف نوعان: الحذف بدون تعويض، والحذف مع التعويض.

1/ الحذف بدون تعويض: ويكون: بين المتماثلين، كما يكون بين المتقاربين.

1.1- المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين:

يكون في بداية الكلمة ووسطها ونهايتها يقول بروكلمان: «إذا توالى مقطعان أصواتهما الصامتة متماثلة أو متشابهة جداً، الواحد بعد الآخر، في أولى الكلمة، فإنه يُكتفى بواحد منها بسبب الارتباط الذهني بينهما»¹، ومن صور هذا النوع من المخالفة²:

أ/ في بداية الكلمة:

من أبرز صور المخالفة الصّوتية في العربية؛ حذف أحد المثليين إذا تتابعا، خاصة في أوائل الكلمات، كما في حذف إحدى الهمزتين في الفعل المضارع من صيغة **أفعل**، نحو: **أكرم وأخرج**، حيث تُحذف همزة **أفعل** وتبقى همزة المضارعة، اقتصاداً في الجهد العضلي، ثم جاء القياس ليعمم هذه الظاهرة على صيغ أخرى لا تحتوي همزتين، مثل: **يكرم ويُعد**.

أكد النحاة كالفراء وسيبويه على هذا الحذف بعده قاعدة صوتية، لأنّ العرب تستثقل التكرار الصّوتي، وخاصة تكرار الهمزات أو الحروف المتماثلة، وهو ما يفسّر تجنبهم للصّيغ الرباعية أو الخماسية التي تحتوي على حرفين أصليين متماثلين؛ فعلى سبيل الحصر يقول سيبويه في هذا السياق: «ليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا»³.

مثال آخر على المخالفة يظهر في حذف التاء من بدايات صيغ مثل: **تتفعل**، فتُصبح **تلظى** بدلاً من **تتلظى**، و**تصدى** بدلاً من **تتصدى**، و**تنهى** من **تنهى**، وذلك للتخفيف والتقليل من ثقل تتابع التاءين.

¹ - فقه اللغات السامية، بروكلمان، ص 79

² - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص 299-328

³ - الكتاب، سيبويه، ج 4، ص 549

ب/ في وسط الكلمة:

يُعد الحذف الصّوتي في العربية من الظواهر الفونولوجية التي تعكس سعي النظام الصوتي العربي إلى تحقيق خفة النطق وتيسير الأداء الكلامي، وذلك من خلال حذف أحد الصوامت المتماثلة عند تتابعها في بنية الكلمة، وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في عدد من الأفعال الثنائية المضاعفة، مثل: ظلت (الأصل: ظللت)، وأحسن (الأصل: أحسست)، واستحيت (الأصل: استحيت)؛ حيث يُستغنى عن الصامت الأوسط المكرر لثقل التكرار الصّوتي.

كما يظهر الحذف في السياقات التركيبية التي تلتقي فيها لام الجر على مع لام التعريف، كما في قولهم علفرس بدلا من على الفرس، تجنبا لتتابع مقطع صوتي ثقيل من نوع (ص ح ح ص)، ويتّسع نطاق هذه الظاهرة ليشمل اختزال الصّوامت المشدّدة، إذ يُنظر إليها - وفق المنظور الفونولوجي الحديث - على أنها صوامت طويلة لا صامتان متراكبان، وهو ما يفسر اختزالها في كلمات مثل: ميت وهين وسيد، وغيرها، وتُظهر هذه الظاهرة الفونولوجية التوتر الحاصل بين البنية النحوية والبنية الصوتية في اللغة، حيث يتغلب العامل الإيقاعي والصوتي أحيانا على البنية القواعدية تحقيقا للسهولة والاقتصاد اللغوي في السلسلة الكلامية.

ج/ المخالفة بين المتماثلين في آخر الكلمة:

يُفضي تكرار المثليين المتتابعين في نهاية الكلمة إلى حذف أحدها طلبا للخفة وتجنبا للثقل الصّوتي، ومن أبرز مظاهر هذا التّغيير: حذف نون الأفعال الخمسة أو نون الإناث عند التقاءها بنون الوقاية، كما في الأفعال تحوفيني وتريني، فيُستغنى عن إحدى النونين تجنبا لتكرار نفس الصّوت، وهو ما يُعرف بتنافر الأمثال.

اختلف النّحاة في تحديد التّون المحذوفة، أمي نون الوقاية أم نون الإناث، فرجّح بعضهم (كالمبرد وابن جني) أنها نون الوقاية، فيما ذهب سيبويه وابن مالك إلى أنها نون الإناث، وعموما هناك رأيان فصلهما السيوطي في مع الهوامع؛ إذ قال: «واختلف أي النونين المحذوفة، فقال المبرد: هي نون الوقاية؛ لأنّ الأولى ضمير فاعل فلا يحذف، وهذا هو المختار عندي ورجحه ابن جني والخضراوي وأبو حيان وغيرهم، وحكى صاحب البسيط الاتفاق عليه»¹، وأضاف قائلا: «وقال سيبويه: هي نون الإناث، واختاره ابن مالك

¹ - مع الهوامع، السيوطي، ج 1، ص 75

قياسا على تأمروني»¹، بيد أن المهم في هذه الظاهرة هنا ليس تحديد النون المحذوفة، بل إدراك أن الحذف كان نتيجة لمخالفة بين صوتين متماثلين متتاليين، وهو ما تكرهه العربية.

ولم تقتصر هذه الظاهرة على الشعر، بل وردت في النثر، كما في قولهم: "أترهنوني أبناءكم"، وقول أبي جندل: "يفتنوني في ديني"، وهو ما يدحض فكرة قصر هذا الحذف على الضرورات الشعرية، وهي أمثلة توضح إثثار العربية للحذف عند التقاء المثلين.²

أما في مجال الأفعال، فإن توكيد الأفعال الخمسة بنون التوكيد يؤدي إلى حذف نون الرفع، كما في: "لتضربان" عند توكيدها فتصبح: "لتضربن"، ويؤدي هذا الحذف إلى تخفيف البنية الصوتية وتجنب تراكم ثلاث نونات متتالية، وقد علّل سيبويه هذا الحذف بأنه ناشئ عن ثقل تتابع النونات، وتُلاحظ الظاهرة أيضا عند توكيد الفعلين تفعّلون وتفعّلين، حيث تُحذف نون الرفع أيضا، كما في لتفعّلن ولتفعّلن.

وتتسع هذه الظاهرة لتشمل أدوات النصب مثل: إن ولكن ولعل، حيث يُحذف منها نون الوقاية طلبا للخفة، كما في: إني، ولكني، ولعلي، وقد علّل سيبويه هذا الحذف بأن هذه التراكيب شائعة في الاستعمال العربي.³

ومن صور المخالفة أيضا، اختزال الحروف المشددة في نهاية الكلمة، كما في قراءة نافع: ﴿قَالَ أَتَحْجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِينِي﴾ [الأنعام، 80]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر، 64]؛ حيث تم حذف إحدى النونين المشدّتين تخفيفا، ويُعزى هذا إلى اعتبار المشدّد صوتين من الناحية الوظيفية، وبالتالي فإن تتابعهما يُستثقل.

وتُشير الدراسة إلى أن هذا النوع من الحذف ليس خاصا بالعربية، بل هو ظاهرة لغوية عامّة، عرفت لها لغات عدة؛ ففي الآرامية مثلا نجد كلمة (aryaya) تُختزل إلى (arya)، وفي العبرية تتحول (karkar) إلى (karka)، وفي الألمانية نجد أصل (Beamte) هو (Beamtete)؛ حيث تم حذف أحد المقاطع المتماثلة، ومثل ذلك في اللاتينية (stipendium) التي اختزلت إلى (stipendium)، وكذلك كلمة (probably) في الإنجليزية، التي نشأت من (probablely) عبر حذف إحدى اللامين المتماثلتين؛ حيث

¹ - مع الهوامع، السيوطي، ج1، ص75

² ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص318

³ - ينظر: الكتاب، سيبويه، ج4، ص550

تدلّ هذه الأمثلة جميعها على أن الحذف الصوتي بين المثلين ظاهرة كونية لغوية، تستند إلى مبدأ الاقتصاد في الجهد والنطق، وتسعى إلى تحقيق التوازن الصوتي في بنية الكلمة.

2.1- المخالفة بالحذف بين المتقاربن دون تعويض:

تتسم اللغة العربية بحرصها الشديد على تجنب تنابع الأصوات التي تتطلب جهداً، سواء أكان ناتجاً عن تماثل الأصوات أو تقارب مخارجها، ويعلّل علماء العربية ذلك بأن تقارب مخارج الحروف يشكّل ثقلاً على أجهزة النطق، ممّا يؤدي إلى نفور اللغة من مثل هذا التتابع، وقد أشار الفارسي إلى أن العرب تنفر من اجتماع الأصوات المتقاربة كما تنفر من اجتماع المتماثلة، فتتخذ إزاء ذلك طرق التخفيف المتمثلة في الإدغام والإبدال والحذف؛ حيث قال: «وقد كرهوا من اجتماع المتقاربة ما كرهوا من اجتماع الأمثال ألا ترى أنهم يدغمون المتقاربة، كما يدغمون الأمثال؟ فالقبيلان من الأمثلة والمتقاربة إذا اجتمعت؛ حُففت تارة بالإدغام وتارة بالقلب وتارة بالحذف»¹.

تتحقق المخالفة بالحذف إمّا بالحذف وحده، أو بالحذف مع التعويض؛ فحين يكون السياق واضحاً ومألوفاً، قد يكفي بالحذف فقط؛ لأنّ كثرة الاستعمال تبين المحذوف، أما إذا أدى الحذف إلى إحداث لبس في المعنى أو البناء، لجأت العربية إلى التعويض لإبراز وجود المحذوف.

أ/ الحذف بين المتقاربن في "استطاع" وأمثالها

من أبرز صور المخالفة بين الأصوات المتقاربة بالحذف، حذف التاء من "استطاع" عند اقترانها بالطاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا إِسْطَعُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ﴾ [الكهف، 93]؛ إذ حُذفت التاء تخفيفاً؛ لكونها تشترك مع الطاء في نفس المخرج. وقد أشار الأخفش إلى هذا التعليل، مبيناً أن اجتماع التاء والطاء يجهد النطق لكون مخرجهما حلقياً واحداً²، وتكررت هذه الظاهرة في الشعر العربي، حيث ظهرت تسطيع بدلاً من تستطيع؛ كما في قول طرفة بن العبد³:

¹ - الحجة للقرء السبعة ، أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، تح: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني، دار المأمون للتراث، سوريا، ج1،

ص208

² - ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ج2، ص399

³ - ديوان طرفة بن العبد، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، در الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 1423هـ/ 2002م، ص25

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي... فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

نجد في بعض اللهجات العكس، حيث تُحذف الطاء بدلا من التاء، كما في: استاع ويستيع، وهو ما رُوي عن بعض العرب، وقد علّق سيبويه على هذا: بأنّ بعضهم قد يُبدل التاء مكان الطاء؛ لتوحيد الصفات الصوتية، لكنه رجّح حذف الطاء كأقرب للتفسير اللغوي المنطقي¹.

ب/ الحذف بين المتقاربين في أسماء القبائل (حذف النون)

ظهر نمط مشابه في حذف النون من بني عند الإضافة إلى أسماء تبدأ بلام، مثل: بلعبر وبلعجلان بدلا من بني العبر وبني العجلان، وقد نسب اللّغويون هذه الظاهرة إلى لهجات قبيلتي زبيد وخنعم، وعلّلوا الحذف بكثرة الاستعمال، إضافة إلى التشابه الصّوتي بين النون واللام؛ إذ يصعب النطق بالنون الساكنة تليها لام، وهو ما أكدّه سيبويه حين أشار إلى استحالة وقوع نون ساكنة قبل لام أو راء في الفصحى².

يُعلل بعض النّحاة مثل ابن الشجري هذه الظاهرة برغبة المتكلمين في تجنّب تتابع المتقاربين، وهو ما دفعهم إلى حذف النون تخفيفا، أما في كلمات مثل: بني النجار، فلم يحدث الحذف لأن ذلك سيؤدّي إلى جمع بين حذف النون وإدغام اللام، مما يعدّ إجحافا بالحروف، كما بيّن ابن حني وابن الشجري³.

ج/ التطور الحديث للظاهرة

تبرز بقايا هذه الظاهرة في لهجات بعض مناطق الجزيرة العربية حتى اليوم، مثل منطقة أبها، حيث تُقال: بلسمر وبلحمر بتشديد اللام، ويُلاحظ هنا أن النون قد إمّا حُذفت، أو ماثلت الحرف التالي لها، في محاولة لتجاوز النطق بنون ساكنة قبل اللّام، وهو أمر يتماشى مع القواعد الصوتية التقليدية للغة العربية.

وخلاصة القول أن هذه الظواهر تؤكّد أن العربية تتبنى قوانين صوتية دقيقة لتسهيل النطق وتقليل الجهد العضلي على المتكلم، من خلال الحذف أو الإدغام أو الإبدال، وهو ما يعكس وعيا لغويا فطريا راقيا عند المتحدثين بها.

¹ - ينظر: ينظر : الكتاب، سيبويه، ج4، ص552

² - ينظر: المرجع نفسه، ص456

³ - ينظر: أمالي ابن الشجري، ابن الشجري، محمود مُحمّد الطناحي، مكتبة الخانجي، مصر، ط1991، ج1، ص386.

1-3/ المخالفة بالحذف والتعويض:

تعتمد العربية إلى المخالفة بالحذف دون تعويض؛ لتجنّب تتابع الأمثال والمتقاربات - كما سبق- أو بالحذف مع التعويض، ومن أنواع التعويض عن المحذوف ما ورد في¹:

لـتحقيق حركة المحذوف: ويظهر ذلك عندما تلتقي واوان في أول الكلمة، فتحذف الأولى وتُحقّق حركتها، مما يؤدّي إلى نشوء الهمزة (مثل: وواق ← أواق)، وقد أشار العلماء إلى أن هذا ليس إبدالا صوتيا بين الواو والهمزة، بل تحقيق للحركة؛ لأنّ الواو والهمزة متباعدتان في الصّفات والمخارج.

لـمد حركة الصامت السّابق: وتعرف هذه الظاهرة بالإطالة التعويضية (Compensatory Lengthening)، وتحدث مثلا عند التقاء همزتين في أوّل الكلمة مثل: (أأدم ← آدم، أأخذ ← أخذ)؛ حيث تُحذف الثانية وتمدّ حركة الأولى، وتعدّ ظاهرة صوتية مشتركة في اللغات السامية.

لـمد الصامت التّالي: يكون نادرا، ولكنه يظهر في حالات تُركّب فيها الكلمة من عناصر متقاربة، كما في أنا أصله ← أنا ← أنا، حيث تم حذف همزة وعوض عنها بمد حركتها.

لـإحلال صامت آخر: لا يظهر كثيرا في هذا السياق، ولكنه مذكور ضمن الاحتمالات الصوتية العامة في اللغة؛ فمن أمثلة هذا النوع:

لـفي اللهجات كالفلسطينية والأردنية: إحنا ← نحن، وإجر ← رجل، حيث يحدث الحذف وتحقيق للحركة تعويضا.

لـفي صيغ مثل: أأثار ← آثار، وأأداب ← آداب، نلاحظ حذف الهمزة الثانية وتعويضا بمد الأولى.

يمكن القول؛ أن المخالفة بالحذف والتعويض في العربية ليست وسيلة تخفيف صوتي فحسب، بل تعد نظاما صوتيا دقيقا تحكمه قواعد الاستعمال والشيوع وتراكيب السّياق، وهي ظاهرة مشتركة في اللغات السامية، وتعكس مرونة العربية في التفاعل مع بنيتها الصوتية والصرفية دون الإخلال بالمعنى أو الفهم.

ثانيا/ المخالفة بين الحركات:

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص 339-373

تمثل **المخالفة بين الحركات** أحد الأسس الصوتية المهمة التي تميز البنية الإيقاعية في اللغة العربية، وتقوم هذه الظاهرة على مبدأ تجنّب التماثل الصوتي بين الحركات المتتالية، سواء في الكلمات الأصلية أو المعربة، وذلك لتحقيق خفة النطق ووضوح السمع، وتتجلى بعض صور المخالفة بين الحركات فيما يلي¹:

1/ المخالفة بين الفعل ومصدره:

تظهر المخالفة في مصادر الأفعال الرباعية؛ مثل: **أكرم** الذي يأتي مصدره على **إكرام**، حيث نجد أن الكسرة في أول المصدر تخالف الفتحة الطويلة في الجذر الصوتي، وكذلك في مصدر **فاعل** مثل: **جاهد**، **مجاهدة** (بضم الميم)، و **"جهاد"** (بكسرها)، مما يحقق تباينا صوتيا مقصودا مع الحركات التالية.

2/ المخالفة في النسب

عند النسبة إلى كلمات على أوزان؛ مثل: **فعل** و**فعلة** و**فعية**، نجد أن حركات العين تُفتح رغم كونها مكسورة في الأصل، فمثلا: **إبل** تصبح **إبلي**، و**مدينة** تصبح **مدني**، تحقيقا لمخالفة صوتية بين الحركات القصيرة المتشابهة والمتتالية (الكسرة والياء المشددة).

3/ المخالفة في الإعراب

تظهر المخالفة الصوتية كذلك في إعراب جمع المؤنث السالم؛ إذ يُعرب في النصب بالكسرة بدلا من الفتحة (مثلا: إن الطالبات مجتهدات)؛ وذلك لتجنّب التماثل بين الفتحتين المتتاليتين.

4/ نون المثني وجمع المذكر السالم

تُحرك نون المثني بالكسر دائما في الرفع والنصب والجرّ (الطالبان، الطالبين)، رغم أن الأصل فيها الفتح؛ ويُعلّل ذلك بتحقيق المخالفة بين فتحتين متتاليتين، أما نون جمع المذكر السالم فتحرك بالفتح لتخالف الضمة أو الكسرة الطويلتين قبلها.

5/ نون الأفعال الخمسة

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 386-401

في مثل: يفعلان وتفعلان، تُكسر نون الأفعال الخمسة بعد الفتحة الطويلة، بينما تبقى مفتوحة في مثل: يفعلون وتفعّلون لوقوعها بعد ضمة أو كسرة طويلة، حيث تتحقق المخالفة ضمناً.

6/ في القراءات القرآنية

يتجلى أثر المخالفة الصوتية في بعض القراءات القرآنية، مثل: قراءة عبد الله بن مسعود لكلمات: عُنِيَا وَصُلِيَا من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم، 8]، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم، 70] بفتح العين والصاد على التوالي؛ وذلك لتجنّب التماثل بين الحركات المتقاربة (الكسرات والياءات)، وقد فسّرت هذه القراءات كاستجابة صوتية وليست شذوذا صرفياً.¹

7/ المخالفة في الكلمات المعربة:

يبرز أثر المخالفة الصوتية في تعريب بعض الكلمات الأجنبية، حيث تمّ تعديل الحركات فيها؛ لتنسجم مع النظام الصوتي العربي، وكل هذه الكلمات خضعت لتغييرات صوتية؛ تهدف إلى تجنّب التماثل بين الفتحتين المتتابعين، ومن هذه الكلمات:²

- مُصَحَّفٌ أصلها (mashaf): مَصَحَفٌ بفتح الميم لمخالفة الحركات.

- مَشْكَاةٌ أصلها (maskot): مَشْكَاةٌ تم كسر الميم؛ لتمييزها عن الحركات التالية.

- مَنَبَرٌ أصلها (manber): مَنَبَرٌ فُعل بما مثل السابقتين.

- إِبْرَاهِيمُ أصلها (أَبْرَاهَام): حُولت الفتحة الأولى والثالثة إلى كسرة.

- شَيْطَانٌ أَصْلُهَا (شَاطَان): حُولت الفتحة الأولى إلى مركب صوتي (ay).

نخلص مما سبق ذكره؛ أن المخالفة بين الحركات ظاهرة مقصودة تحكمها قواعد صوتية دقيقة، تهدف هذه الظاهرة إلى تحقيق تنوع موسيقي صوتي، وتسهيل النطق، وتفادي التماثل الصوتي المثلث للسامع والمتكلم، وهذا يثبت أن العربية تُراعي الأداء السمعي والإيقاعي بقدر ما تراعي القواعد النحوية والصرفية.

¹ - أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 392

² - المرجع نفسه، ص 393-394

ثالثاً/ المخالفة بين الصوامت والحركات:

ظاهرة المخالفة بين الحركات وأشباه الحركات (الصوامت الشبيهة بالحركات أو semivowels) في اللغة العربية، عبر دراسة المزدوجات (diphthongs): والمزدوجات الصوتية عبارة عن وحدات صوتية تتكوّن من حركة وشبه حركة في مقطع صوتي واحد، مثل: "ay" و "aw"¹، وتنقسم هذه المزدوجات إلى ²:

لمزدوجات هابطة (Falling): تبدأ بحركة قوية وتنتهي بشبه حركة أضعف، نحو: "ay" و "aw".

لمزدوجات صاعدة (Rising): تبدأ بشبه حركة ثم تنتهي بحركة، نحو: "ya" و "wa".

تُظهر العربية نماذج من كلا النوعين (الهابطة والصاعدة)، لكنها تميل إلى الحفاظ فقط على المزدوجات الهابطة (ay و aw)، بينما تتجنّب باقي المزدوجات بسبب ظاهرة "تتابع الأمثال".

تقوم اللغة العربية في المخالفة — غالباً — بالتّضحية بشبه الحركة (الواو أو الياء)، وإطالة الحركة السابقة، لتكوين حركة طويلة أكثر وضوحاً وأقلّ جهداً في النّطق، ويُعزى هذا إلى قانون الاقتصاد في الجهد؛ إذ الحركات الحرة أسهل وأوضح من أشباه الحركات، وأسلوب العربية في المخالفة بين الحركات وأشباه الحركات وفق ما يلي ³:

أ/ المزدوجات الهابطة (uy, iw, iy, uw):

لمزدوجان (iy و uw) تحولا إلى كسرة طويلة وضمة طويلة على التّوالي؛ وذلك لأنّ تتابع كسرة تليها ياء أو ضمة تليها واو يعدّ من قبيل تتابع الأمثال الذي ترفضه العربية، وهناك ظواهر صرفية توضح الظاهرة مثل:

– تحول صيغة فعلن إلى فعين أو فعون في حالة إسناد الأفعال الناقصة إلى نون النسوة (مثل: بقيْنَ ← بقين).

– في بناء الجمع من الصفات نحو: أعور إلى عور، وأبيض إلى بيض، تم التخلص من المزدوجات بتبديل شبه الحركة إلى حركة طويلة (uy → ī, uw → ū).

للمتجاهات التطورية للمزدوج (uy)، وهناك:

¹ – ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 408

² – ينظر: المرجع نفسه، ص 408

³ – ينظر: المرجع نفسه، ص 409-431

- اتجاه شائع: يتحوّل مباشرة إلى ضمة طويلة (uy → ū).

- اتجاه نادر قليل الورد: يتحوّل إلى كسرة طويلة عبر مرحلتين: مماثلة ثم مخالفة (uy → iy → ī)، وقد تم ذلك لتمييز الجمع الأجوف الواوي عن اليائي.

ومن أمثلة ذلك:

- في بناء صيغة اسم الفاعل أو المصدر من المثال الواوي أو اليائي؛ نحو: (مِيعَاد من وَعَد، وإِيقَان من أَيْقَن)، يتم التخلص من المزدوج بالتعويض بحركة طويلة.

- في بناء الأفعال للمجهول على لهجة إخلاص الكسر أو الضم؛ نحو: قال ← قيل، باع ← بُوع، يُلاحظ سير تطوري منتظم قائم على الإعلال والمخالفة الصوتية.

ب/ المخالفة بين عنصري المزدوج الصّاعد:

تُعدّ ظاهرة المخالفة الصوتية بين عنصري المزدوج الصّاعد إحدى السّمات البارزة في النظام الصّرفي العربي، وتظهر بجلاء في تصريف الأفعال من الأجوف والناقص؛ إذ تؤدّي الحركات والبنى الصرفية إلى تباين صوتي بين المقطعين، أو بين عنصري الجذر في سياقات معينة، فالفعل الأجوف الثلاثي، نحو: قال وباع، يشهد اختلافاً في العنصر الثاني من المزدوج الصّاعد عند تصريفه في صيغ نحو: يقول ويبيع، حيث تُبدل الواو أو الياء بحسب السياق الصوتي الصّرفي، محققة نوعاً من المخالفة الصوتية ذات وظيفة تيسيرية (الخفة).

تكون هذه الظاهرة في أشكال مثل: مبيع ومقول، المشتقتين من باع وقال؛ إذ تُعَيَّر بنية الجذر الداخلي؛ ليتناسب مع الوزن والوظيفة الصّرفية، مما يبرز آلية المخالفة بين العنصرين في المزدوج، ويمتدّ هذا التّباين إلى الناقص، كما في: سعى ← يسعى ← اسع؛ فيحدث حذف أو تغيير في العنصر النهائي بما يحقق المخالفة الصوتية الضرورية للانسجام الإيقاعي، خصوصاً في سياقات الجزم أو الأمر.¹

كما أن بناء الأوزان المشتقة، نحو: تفعيل ومفعول، يبيّن كيف تسهم البنية الصّرفية في إعادة تشكيل المزدوج الصّاعد بما يُحدث مخالفة صوتية متكررة في الأبنية المختلفة، وهذا يشير إلى فاعلية هذه الظاهرة في توليد الصّيغ داخل النّظام الصّرفي العربي، سواء على مستوى الفعل أو الاسم، كما

¹ -أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص415.

في: دعا ← يدعو ← ادع ← دعاء ← مدعو، حيث تستمر عملية المخالفة الصوتية لتحقيق التوازن بين الجذر والصيغة.

تبرز هذه الظاهرة كذلك في لهجات عربية معاصرة؛ إذ تحتفظ بعض اللهجات بصيغ أقدم تظهر فيها المخالفة بوضوح، بينما تميل لهجات أخرى إلى تسوية الأصوات أو تبسيطها، مما يعكس تدرجا صوتيا صرفيا له أبعاده التطورية، وعليه فإن المخالفة بين عنصري المزدوج الصاعد تمثل آلية صوتية صرفية جوهرية تسهم في تحقيق الانسجام الصوتي وتيسير النطق داخل بنية الكلمة العربية.

هذا بالنسبة لأنواع المخالفة وصورها عموما، أما من حيث الاتصال من عدمه فالتخالف نوعان¹:

منفصل ومتصل؛ فالمنفصل ما كان بين حرفيه فارق، نحو كلمة: اخضر، أصلها اخضر، من أخضر، فأبدلت الراء الأولى واوا لجوار مثلها، وهذا النوع هو الغالب، والمتصل ما تجاور فيه الحرفان، وهو على الأخص في الحروف المشددة.

وتخالف الحروف المشددة له «علة نفسية أيضا مختلفة قليلا عن علة التخالف المنفصل، وهي أن المتكلم يرجو أن يؤثر في نفس السامع تأثيرا زائدا، فلا يكتفي بالضغط على الحرف وتشديده، بل يضيف إليه حرفا آخر لزيادة ذلك التأثير»²؛ الواضح من هذه العبارة أن الدافع وراء هذه الظاهرة هو نفسي محض، متمثل في رغبة المتكلم في تقوية الأثر السمعي والدلالي في نفس السامع، وفي رأينا أن الأثر النفسي للتشديد قائم بالفعل بيد أنه ليس بالضرورة نتيجة قصد واع بل هو أثر طبيعي للبنية الصوتية.

3/ علة المخالفة الصوتية

والسبب في المخالفة من الناحية الصوتية هو أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي في النطق بهما، ولتيسير هذا النطق نلتمس أيسر الأصوات التي لا تحتاج إلى جهد عضلي كبير؛ وذلك بقلب أحد الصوتين إلى صوت من تلك الأصوات التي لا تتطلب جهدا عضليا مثل: أشباه أصوات العلة (الواو والياء) وبعض الأصوات المتوسطة كاللام والنون والراء، ويعد ذلك مظهرا من مظاهر قانون التيسير اللغوي³، ويعمل

¹ - ينظر: التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، ص34

² - المرجع نفسه، ص35

³ - ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ص46

أحمد مختار عمر ظاهري المماثلة والمخالفة بأن المماثلة تهدف إلى تيسير جانب اللفظ عن طريق تيسير النطق، كما أنّها لا تلقى بالا إلى الجانب الدلالي الذي قد يتأثر نتيجة تقارب أو تطابق الصوتين، في حين أن المخالفة يُنظر إليها- عكس ذلك- على أنّها تهدف إلى تيسير جانب الدلالة عن طريق المخالفة بين الأصوات، ولا تلقى بالا إلى العامل النطقي الذي قد يؤثر نتيجة تباعد أو تخالف الصوتين¹؛ فظاهري المماثلة والمخالفة إذا يمثلان مسريين تعاكسي الاتجاه في المنظور اللغوي، يجذب كل واحد منها التركيب صوب النهاية التي يحقق من خلالها هدفه وغايته، ذلك الجذب يحقق السمة التوازنية اللغوية التي يحكم بنيتها قانونا اختزال الجهد العضلي والجهد الأقوى².

يرى برجستراسر أن العلة في التخالف علة نفسية محضة؛ وذلك كالخطأ في النطق، فإننا نرى الناس كثيرا ما يخطئون في النطق، ويلفظون بشيء غير الذي أرادوه، وأكثر ما يكون هذا إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض؛ لأنّ النفس يوجد فيها قبل النطق بكلمة، تصوّرات الحركات اللازمة على ترتيبها، ويصعب عليها إعادة تصور بعينه بعد حصوله بمدة قصيرة، ومن هنا ينشأ الخطأ، إذا أسرع الإنسان في نطق جملة محتوية على كلمات، تتكرّر وتتابع فيها حروف متشابهة. وكثيرا ما يتسامر الصبيان بالتسابق إلى نطق أمثال هذه الجمل بسرعة وبدون خطأ³.

المطلب الثالث: القلب المكاني (Metathesis)

القلب المكاني ظاهرة لغوية نالت حظا وافرا من البحث قديما وحديثا، تعكس قدرة اللغة العربية على التنوع في بنية الكلمة دون المساس بمعناها.

1/ تعريفه

أ/ لغة: ويدل في اللغة على معنى: التحويل والتغيير والتقلب، جاء في لسان العرب: «الْقَلْبُ: تَحْوِيلُ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ. قَلْبُهُ يَقْلِبُهُ قَلْبًا، وَأَقْلَبَهُ»⁴

¹ - دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 386

² - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص 292

³ - ينظر: التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، ص 34

⁴ - لسان العرب، ابن منظور، ج 1، ص 685، مادة (ق.ل.ب)

ب/ اصطلاحا

ويُقصد به: «تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض؛ نتيجة صعوبة تتابعها الأصلي على اللسان وهو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة والتيسير»¹، وأكثر ما يقع في المعتل والمهموز، وقد جاء في غيرهما قليلا نحو: امضحلّ مقلوب اضمحلّ وكرهفّ مقلوب اكفهّر. وأكثر ما يكون بتقديم آخر حرف على سابقه؛ نحو: رأى←راء، ونأى←ناء، . وقد يتقدم ما قبل الآخر على سابقه نحو: طمأن←طأمن. وقد تقدم العين على الفاء نحو: يئس←أيس، أو اللام على الفاء نحو: شيثان←أشياء، وقد تؤخر الفاء عن اللام نحو: الواحد←الحادي².

2/ طرق الكشف عن القلب المكاني:

يُعرف القلب -عادة- بما يلي³:

1- بالأصل: فإذا اختلف الأصل عن فرعه في الترتيب؛ عدّ ترتيب الأصل أصلا، وترتيب الفرع المخالف مقلوبا، مثل: النأي←ناء؛ فالأول هو المصدر؛ وهو الأصل فوزنه "فعل"، والثاني فعل مشتق منه مخالف له في الترتيب، فوزنه إذن "فَلَع".

2- بالشّقيقات في الاشتقاق: يحدث ذلك عند عدم وجود الأصل الاشتقاقي للكلمة، فينظر إلى شقيقاتها اللائي هن من نفس المادة الاشتقاقية، فإن خالفنها في الترتيب، عدّ ترتيبهن أصلا، وترتيب المخالفة لهن مقلوبا؛ مثل: توجه←واجه←وجاهة←وجه←جاه؛ فكلمة جاه؛ وأصل ألفها واو "جوه" قد خالفت شقيقاتها في موضع الواو، فعّد ترتيبها مقلوبا، وكان وزنها "عفل".

3- بعدم الإعلال مع وجود سببه: وذلك كما في: "أيس"؛ إذ يقضي القانون الإعلالي بتحويل الياء إلى ألف لتحركها وانفتاح ما قبلها، فلما لم يعمل هذا القانون الإعلالي عمله في الكلمة، دل ذلك على أنها مقلوبة عن "يئس"، وكان وزنها إذن "عفل".

¹ - ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلمه وقوانينه، رمضان عبد التواب، 57

² - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، مُجد الأنطاكي، ص 147

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 147-148

4- بقلة الاستعمال: إذا كانت كلمتان بمعنى واحد، وحروف واحدة، ولا فرق بينهما إلا في ترتيب الحروف، فكثيرة الاستعمال منها هي ذات الترتيب الأصلي، وقليلة الاستعمال هي صاحبة الترتيب المقلوب مثل "آرام" ← "آرام" فميزان الأولى "أفعال"، وميزان الثانية "أعفال".

5- يمنع الصرف لغير علة: وهذا الكاشف خاص بكلمة "أشياء"؛ فهذه الكلمة ممنوعة من الصرف، ولو اعتبرنا ترتيبها طبيعياً لكان ميزانها "أفعال"، لكن وزن "أفعال" لا يمنع الكلمة من الصرف، لهذا اضطررنا إلى جعل ترتيبها مقلوباً، وأنها على زنة "لفعاء"، فهذه الزنة تكون همزتها المتطرفة محولة عن ألف التأنيث التي تمنع الأسماء من الصرف¹.

6- بعدم اجتماع المهمزتين: وهذا الكاشف يشبه الكاشف الثالث، ويتضح ذلك بالمثال الآتي: هناك قانون يقضي بتحويل الواو والياء همزة إذا وقعتا عينا في اسم الفاعل مثل: "قول" ← "قاول" ← "قائل"، بيع ← بايع ← بائع"، فلو طبقنا هذا القانون على فعل مهموز اللام مثل "جاء" لكانت السلسلة كالآتي:

"جياً" ← "جايئ" ← "جائي" لكننا لا نرى اسم الفاعل من "جاء" على شكل "جائي"، لنراه على شكل "الجائي"؛ فنستدل من ذلك على أنهم أخروا الياء التي هي عين الكلمة إلى ما بعد الهمزة التي هي لامها، لكي يمنعوا القانون الإعلالي من عمله، لأن عمله سيؤدي لو تم إلى اجتماع همزتين، وهو شيء مستكره في الكلام العربي، وعلى هذا تكون زنة "الجائي" هي "الفاعل" لا "الفاعل"².

تبقى طريقة معرفة الأصل الاشتقاقي أو التصريفي للكلمة المراد وزنها الأنجع؛ فالقلب الذي في "الجاه" يكشفه أصله الاشتقاقي الذي هو الوجه، والقلب في "أيس" يكشفه أصله الاشتقاقي الذي هو "اليأس"، والقلب الذي في "آرام" يكشفه أصله التصريفي الذي هو المفرد "رئم" وهكذا³.

¹ - هذا مذهب سيبويه الذي عليه أكثر النحاة؛ ودعواهم تقوم على أن "شيء" تقدمت لامة التي هي الهمزة على فائه التي هي الشين؛ فصارت الكلمة "أشي" = "لفع"، ثم زيدت على الكلمة ألف التأنيث الممدودة فصارت "أشياء" = "لفعاء"، وعلى هذا فالكلمة عندهم ليست جمعا لشيء، بل هي مقلوبة شيء مع زيادة ألف التأنيث؛ والذي اضطهرهم على هذا الزعم هو منع الكلمة من الصرف. إلا أن الكسائي لا يأبه بهذا، ويقول أشياء هي جمع شيء وزنتها "أفعال"، فأما منعها من الصرف فشاذ، وهذا مذهب لا تكلف فيه. ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ص 148

² - وهذا مذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي، لكن سيبويه يخالفه؛ ويرى أن ترتيب "الجائي" ترتيب طبيعي، وإن زنته هي "الفاعل"، ويعلل عدم وجود المهمزتين فيه بأن القانون الصوتي بعد أن طبق على الكلمة فحول عينها إلى همزة "جائي" طبق قانون صوتي آخر يقضي بتحويل الهمزة الثانية إلى ياء لتصير الكلمة على شكل "الجائي". ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ص 149

³ - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ص 149

3/ علة القلب المكاني:

علة القلب المكاني؛ أنّ تبديل مواقع الحركات في التصورات الذهنية يكون أسهل من التبديل الذي يفضي إلى المخالفة الصوتية؛ إذ إن ترتيب العناصر في الوعي غالبا ما يكون عرضة للتقديم والتأخير، ويلاحظ هذا النمط في ممارسات الكتابة على الآلة الكاتبة؛ إذ قد تُكتب الحروف المطلوبة كاملة، ولكن بترتيب مخالف لما هو مقصود، نتيجة لغياب التركيز اللحظي. وتُعرف هذه الظاهرة في اللغة بالتقديم والتأخير، وتظهر في عدد من الألفاظ التي تتبادل مواقع الحروف دون أن يطرأ تغيير جوهري على المعنى، ومن أمثلتها في اللغة العربية: "غضروف وغرضوف"، و"مبهوت ومهبوت"، و"صفحة وصحفة"، و"جذب وجذب" "جدث وجث"¹.

بعد أن تناولنا في الجانب النظري مختلف الظواهر الفونولوجية من حيث تعريفها، وتصنيفها، وتحليلها، وبيان آليات عملها، يصبح من الضروري الانتقال إلى الجانب التطبيقي للكشف عن حضور هذه الظواهر في التراث اللغوي العربي؛ حيث يُعدّ ابن جني من أبرز اللغويين الذين أولوا عناية خاصة بالجانب الصوتي، ولا سيما في مؤلفاته الكبرى التي تضمّنت إشارات دقيقة وتحليلات عميقة لمختلف الظواهر الفونولوجية، وعليه، تهدف هذه الدراسة إلى تتبّع هذه الظواهر في كتب ابن جني، وبيان تصوّره لها، ومقارنتها بالتصورات الفونولوجية الحديثة، بما يُبرز قيمة جهوده وأثرها في الدرس الصوتي العربي.

¹ - ينظر: التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، ص36

الفصل الثالث:

الظواهر الفونولوجية

(الفونيمات القطعية وفوق قطعية) وتغيراتها عند ابن جني

تميل اللغة العربية إلى السهولة واليسر في نطقها، مُبتعدة في ذلك عن كل ما هو ثَقِيل على لسانها، ومفهوم الخفة والثقل تتضح من خلال وصف القدماء لأصوات العربية؛ ومن ذلك ما ذكره ابن جني أن: «حروف المعجم تنقسم على ضربين: ضرب خفيف، وضرب ثَقِيل، وتختلف أحوال الخفيف منهما، فيكون بعضه أخفّ من بعض، وتختلف أيضا أحوال الثَقِيل منهما، فيكون بعضه أثقل من بعض»¹، ثم ذكر أخفّ الحروف، وهي «الحروف التي زادوها على أصول كلامهم، وتلك الحروف العشرة المسماة حروف الزيادة»²، والجموعة في قولهم: سألتهمونيها، كما أن المخرج له دور في تحديد ثقل وخفة الصوت؛ إذ الحروف الحلقية لها مخرج عميق أثقل من حروف الهجاء الأخرى، وحروف أقصى اللسان؛ وهي القاف والكاف تأتي بعد حروف الحلق في الثقل³.

ذكر أبو الفتح أثناء حديثه عن مبدئي الاستثقال والاستخفاف: أن سبب إهمال ما أهمل؛ إنما هو لضرب من ضروب الاستخفاف⁴، فالخفيف السهل يكثر استعماله على الألسنة والثَقِيل يقلّ استعماله أو يهمل، وهذا ما ذكره علماؤنا العرب القدماء -أمثال الخليل في معجمه العين- حيث عدوا أن اتحاد المخارج يؤدّي إلى التنافر وعدم إمكانية اجتماع هذين الصوتين في بناء وتكوين الكلمة؛ يقول ابن جني: «وأحسن التّأليف ما بُوعِد فيه بين الحروف، فمتى تجاوز مخرج الحرفين فالقياس ألا يأتلفا، وإن تجشّما ذلك بدأوا بالأقوى من الحرفين»⁵.

وفي السياق ذاته؛ أورد ابن جني أن اللغة تتطوّر نتيجة ميل المتكلّمين إلى الخفة وترك الثقل؛ ويتّضح ذلك من خلال قوله على سبيل المثال: «ومنه إسكانهم؛ نحو: رُسُل، وعَجُز، وعَضُد، وظَرْف، وكرم، وعلم، وكتِف، وكبد، وعَصِر، واستمرار ذلك في المضموم والمكسور دون المفتوح (...)» -بفصلهم بين الفتحة وأختيها- على ذوقهم الحركات، واستثاقهم بعضا واستخفافهم الآخر»⁶.

¹ - سر صناعة الإعراب، أبي الفتح عثمان بن جني، ص 427

² - المصدر نفسه، ص 427

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 427-429

⁴ - ينظر: الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، ص 81

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 429

⁶ - الخصائص، ابن جني، ص 94

وإن كان ولا بدّ من اجتماع المتقاربين في بناء الكلمة يُقدّم الأقوى منهما، وذلك لأمرين¹:

أحدهما: أن رتبة الأقوى أسبق وأعلى.

والآخر: أنّهم إنّما يقدّمون الأثقل، ويؤخّرون الأخفّ من قبل أنّ المتكلّم في أوّل نطقه أقوى نفساً، وأظهر نشاطاً، فقدّم أثقل الحرفين وهو على أجمل الحالين.

فأبنية لغتنا العربية قد صيغت بما يتّفق وهذا المبدأ، فحروفها وكلماؤها المكونة منذ نشأتها؛ وهي تميل إلى التّخفيف، وتتخذ طابعاً من النّطق السّهل، وتبتعد عن الاستثقال بأيّ لون من ألوانه، والبناء العربي بذلك يسير وفق هذه الطّبيعة، فإذا وجدت الحفّة في الحروف المتباعدة اتّبعها، وإذا لم تتحقّق في ذلك لجأ إلى تقريب الحروف للوصول إلى المبدأ المذكور².

يشير ابن جني إلى أنّهم لا يبلغون بالحرف المقرّب من الآخر أن يصيروه إلى أن يكون من مخرجه، لئلا يحصلوا من ذلك بين أمرين كلاهما مكروه³:

لـأما أحدهما: فإن يدغموا مع بعض الأصلين وهذا بعيد.

لـوأما الآخر: فإن يقربوه منه؛ حتى يجعلوه من مخرجه، ثمّ لا يدغموه، وهذا كلّه -في رأي أبو الفتح- انتكاس وتراجع؛ وذلك لأنّه إذا بلغ من قربه إلى أن يصير من مخرجه وجب إدغامه، فإن لم يدغموه حرموه المطلب المروم فيه.

أكد ابن جني-في موضع آخر- على أنّه إذا «كان الحرفان جميعاً من مخرج واحد؛ فسلكت هذه الطريق فليس إلا أن تقلب أحدهما إلى لفظ الآخر البتّة، ثمّ تدغم لا غير، وذلك نحو: اطعن القوم، أبدلت تاء "اطعن" طاء البتّة ثمّ أدغمتها فيها لا غير»⁴؛ وذلك أن الحروف «إذا كانت من مخرج واحد ضاقت مساحتها أن تدنى بالتّقريب منها، لأنّها إذا كانت معها من مخرجها فهي الغاية في قربها، فإن زدت

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 81

² - ينظر: الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص 223

³ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 457

⁴ - المصدر نفسه، ص 459

على ذلك شيئاً؛ فإمّا هو أن تخلص الحرف إلى لفظ أخيه ألبتة، فتدغمه فيه لا محالة فهذا وجه التقريب مع إيثارهم الإبعاد»¹.

استناداً إلى هذين المبدئين التداولين (الحقّة والثقل)؛ تناول ابن جني مختلف الظواهر الفولجية وتغيرات الصوتية كالإبدال، والإدغام، والإعلال، وغيرها، ونظر إلى هذه الظواهر بوصفها ناتجة عن ميل المتكلم إلى السهولة والتيسير في النطق، مبتعداً بذلك عن كل ما هو ثقیل على اللسان؛ وهذا ييسج مع طبيعة اللغة، وغرضها التواصل.

المبحث الأول: الفونيمات القطعية

وترتبط الفونيمات القطعية بالأصوات التي تتتابع في السلسلة الكلامية ، وتظهر ثارها في عدد من الظواهر الصوتية، ويضم هذا المبحث المطالب الآتية:

المطلب الأول: الإبدال

تناول ابن جني في مؤلفاته الحروف العربية مفردة ومركبة؛ حيث ذكر مخارجها وصفاتها، وبحث في مسألة كون الحرف أصلياً أو زائداً أو مبدلاً، كما وضّح العلاقة بين الحروف وحركاتها، وما يطرأ عليها من تغيّرات في اللهجات العربيّة المختلفة، كما تحدث عن وظائف الحروف وأثرها في بناء الكلمة، وما يطرأ عليها من ظواهر صوتيّة كالإبدال وغيره من الظواهر الصوتية الأخرى، وقد ناقش ابن جني هذه الظاهرة (الإبدال) في مواضع متفرقة من كتبه، بيد أنه عالجها في كتاب سر صناعة الإعراب بصورة مستفيضة؛ وذلك من خلال وقوفه على جميع الحروف وذكر أحوالها من الأصالة والفرعية، والحروف المبدلة والمبدلة منها. فكيف درس أبو الفتح هذه الظاهرة وما هي التعليلات التي قدّمها في دراسته لها؟

ذكر ابن جني أن حروف البديل أحد عشر حرفاً؛ وهي الهمزة، والألف، والياء، والواو، والميم، والنون، والتاء، والهاء، والطاء، والدال، والتاء²؛ فمنها ثمانية من أحرف الزيادة وثلاثة من غيرها، مضافاً إلى أن المراد هو البديل في غير الإدغام، وليس البديل الذي يحدث مع الإدغام³، والبديل الذي يحدث مع الإدغام هو ما أسماه

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 459

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ج 1، ص 77

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 77

ابن جني "بالإدغام الأصغر"؛ وقد عرفه (البديل) بقوله: «أن يُقام حرف مقام حرف، إما ضرورة، وإما استحساناً وصنعة»¹؛ فهو إحلال صوت مكان صوت آخر، وينقسم إلى قسمين؛ ما يكون ضروري، وهو الإبدال الخاضع لقواعد وقوانين معينة تحكمه، وإبدال آخر لا تمليه الضرورة؛ وإنما هو اختيار؛ كالإبدال الشاذ والإبدال اللّهجي مثلاً.

يرى ابن جني أنه لا بدّ من وجوب توافر علاقة صوتية بين المتبادلين؛ لحدوث ظاهرة الإبدال؛ وتتمثّل في القرابة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه؛ أي: تقارب الحرفين في المخرج أو الصّفات، وقد عقد باباً اسمه "باب الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه" في كتابه "الخصائص"²، يربط فيه ابن جني الإبدال بالتقارب المخرجي، ويجعل هذا الباب تابعا لما سبقه من حديث عن القلب؛ حيث يقول: «اعلم أن هذا الباب لاحق بما قبله وتال له»³.

ذهب ابن جني إلى أن الإبدال يقع بين الأصوات المتقاربة في المخرج، أو التي تشترك في مخرج واحد، ويقول في معرض حديثه عن كلمة "حثثوا" المراد بها: حثّثوا بإبدال الناء الوسطى حاء مستنكراً هذا الإبدال بسبب بعد المخرج بين الصّوتين؛ قال: «والعلة في فساده، إن أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها، وذلك الدال، والطاء، والتاء، والذال، والظاء، والهاء، والهمزة، والميم والنون، وغير ذلك مما تدانت مخارجه، فأما الحاء فبعيدة من الناء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها»⁴. ثم وضّح أن «حثث أصل رباعي، وحثّث من مضاعفة الثلاثة، فلما تضارعا بالتضعيف الذي فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما، وهذا هو حقيقة مذهبنا»⁵؛ ومن هذا النصّ يتبيّن أن ابن جني يربط ظاهرة الإبدال أو القلب — خصوصاً حين يصحبها إدغام — بالتقارب المخرجي تحديداً، كما يرى في هذا النصّ أن للقلب والإبدال معنى واحد.

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 83

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 360

* - الباب السابق لهذا الباب عنوانه: "باب في الأصلين يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير، وقد عرض فيه ابن جني للقلب وهو إبدال الحرفين في الكلمة أحدهما من الآخر بتقديم أحدهما على الآخر، بحذف أحدهما وإقامة الآخر مقامه. ينظر الخصائص، ص 352-360.

³ - الخصائص، ابن جني، ص 360

⁴ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 193

⁵ - المصدر نفسه، ص 193

فالإبدال إذا؛ هو عبارة عن تحويل صوت إلى صوت آخر، وهذا التحويل قد يصحبه إدغام، أو يحدث دون إدغام، ويعتمد ذلك على طبيعة الصوتين المبدل والمبدل منه.

1/ أقسام الإبدال عند ابن جني:

يقسم الإبدال —عنده— من حيث الإدغام من عدمه إلى قسمين:

لـ إبدال يصحبه إدغام:

أمثلة ذلك ما ورد في إبدال الدال: "أذكر" من "أذكر"، "وتد" و"ود"¹؛ حيث قال ابن جني: «فأما أذكر وأذكر فإبدال إدغام (...)»، وكذلك قولهم في: وتد: ودّ، وهو أيضا إبدال إدغام من جنس أذكر»².

من أمثلة هذا النوع من الإبدال (إبدال للإدغام) ما أورده ابن جني في إبدال التاء سينا في قولهم في العدد: «ست»، وأصلها سدس؛ لأنها من التسديس، كما أن خمسة من التخميس، ولذلك قالوا في تحقيرها سُديسة»³، ويرى أن الإبدال هنا مردّه إلى التقارب في المخرج؛ حيث أبدلت السين تاء لتقاربها من الدال التي قبلها، يقول في ذلك: «قلبو السين الآخرة تاء؛ لتقرب من الدال التي قبلها، وهي مع ذلك حرف مهموس، كما أن السين مهموسة، فصار التقدير: سدت، فلما اجتمعت الدال والتاء وتقاربتا في المخرج، أبدلوا الدال تاء لتوافقها في الهمس، ثم أدغمت التاء في التاء فصارت: ست»⁴، وقد استعمل ابن جني هنا مصطلح القلب مرادفا للإبدال، ويذكر أن أصل القلب في الحروف «إنما هو فيما تقارب منها»⁵، وأن الحروف المتقاربة تتمثل في: «الدال والطاء والتاء، والذال والظاء والتاء، والهاء والهمزة، والميم، والنون، وغير ذلك مما تدانت مخارجه»⁶.

مثال آخر عن إبدال التاء سينا؛ قولهم في طس: طست، فأنشد أبو علي قال: أنشدنا أبو عثمان¹:

¹ - ينظر: التصريف الملوكي، ابن جني، ص 40

² - المصدر نفسه، ص 40

³ - المصدر نفسه، ص 40

⁴ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 165

⁵ - المصدر نفسه، ص 193

⁶ - المصدر نفسه، ص 193

* - الطس: لغة في الطست والتاء فيه مبدلة من السين، وقيل هي لغة طيء، ينظر: سر صناعة الإعراب، ج 1، ص 166

لَوْ عَرَضْتُ لِأَيْبُلِي قَسْرَ

أَشْعَثَ فِي هَيْكَلِهِ مُنْدَسِرَ

حَنْ إِلَى كَحْنِ الطَّسْرِ

بيّن ابن جني علّة الإبدال فقال: «فأبدلت السين تاء لموافقتها إياها في الهمس، والزيادة وتجاوز المخارج» ؛ إذ إن مخرج التاء من طرف اللسان، وما يحاذيه من أصول الثنايا العليا، ومخرج السين من طرف اللسان، وما بين الثنايا العليا والسفلى، فهما مخرجان متجاوران، كما أنّهما يشتركان في صفات عدّة (كالرخاوة، والاستفال وغيرهما) ومنها صفة الهمس، كما أن كلاهما من حروف الزيادة.

كما أبدلت التاء من الصاد في قولهم لصّ : لصت ، وأثبتوها أيضا في الجمع، قال الشاعر²:

فَتَرَكَن نَهْدًا عُيْلًا أَبْنَاؤُهَا... وَبَنِي كَنَانَهُ كَاللُّصُوتِ الْمُرْدِ*

لـ إبدال لا يصحبه إدغام: وهو أنواع:

أ/ إبدال شاذّ:

ومن أمثله ما ورد في إبدال الضاد لاما في: (الطجع ← اضطجع) من قول الراجز³:

لَمَّا رَأَى أَنَّ لَا دَعَا وَلَا شَبَعَ مَالَ إِلَى أَرْطَاةٍ حِفْيفٍ فَالْطَّجَعِ

أي «فاضطجع، فأبدل الضاد لاما، وهو شاذّ، وقد روي: فاضطجع، ويروى أيضا: فاطجع، ويروى أيضا: فاضّجع»¹، وكذلك إبدال «اللام من التّون في أصيلان، فقالوا أصيلا»².

¹ - الأيلي : الراهب، القس: رئيس النصارى، مهندس: مدفون. (لسان العرب، ج 11، ص 7/ 6 ص 174) سر صناعة الإعراب، ج 1، ص 165-166

² - هذا البت منسوب إلى عبد الأسود بن عامر بن جوين الطائي. سر صناعة الإعراب، ج 1، ص 166

* - نخدا: اسم قبيلة من قبائل اليمن، عيلا: يتامى فقراء. المرء: ومُردّ: جمع مارد، من مَرَدَ من باب نصر، إذا خبت وعتا ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 166

³ - الراجز: هو منظور بن مرثد الأسدي. دعة: لين العيش، أرطاة: واحدة الأرطي؛ وهو نبات شجري. ينظر: لسان العرب، ج 14، ص 325، حقف: حقف الشيء حقوفاً؛ أي: استطال في اعوجاج. فالطجع: أي: وضع جنبه على الأرض ونحوها القاموس المحيط "3/ 129". ، سر صناعة الإعراب، ج 2، ص 5

ب/ إبدال شائع في بعض لغات العرب:

مثاله إبدال الياء جيما: نحو: "علج" بدلا من "علي"، و"العشج" بدلا من "العشي" يقول الشاعر³:

عَمِّي عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجٍ

المُطْعَمَانِ اللَّحْمَ الْعَشِجَّ

وبالغداة فَلَقَ الْبَرْنَجَ

تُقْلَعُ بِالوَدِّ وبالصَّيْصِجِّ

علّق ابن جني على الأبيات قائلا: «يريد: أبو علي، وبالعشي، والبرني، وبالصيصية، وهي: قرن البقرة»⁴؛ ف«بعض العرب إذا شدد الياء جعلها جيما»⁵؛ وأورد أبو الفتح في هذا السياق قول عمرو بن العلاء حين سأل رجل من بني حنظلة قائلا: «من أنت؟ فقال فقيمج. قال قلت: من أيهم؟ قال: مُرَجّ، يريد: فُقيمي، ومُرّي»⁶

__ مثال ذلك ما قاله أبو النجم العجلي⁷:

كَأَنَّ فِي أَدْنَاهِنَّ الشُّوْلَ... مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونِ الْإِجْلِ

يقصد: الإيّل⁸.

¹ - سر صناعة الإعراب، ج2، ص5

² - المصدر نفسه، ص5

³ - الأبيات لرجل من بني سعد، وكانوا يبدلون الياء المشددة أو المخففة جيما في الوقف. المصدر نفسه، ج1، ص187، والمحتسب، ابن

جني، ج1، ص75

⁴ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص187

⁵ - المصدر نفسه، ص187

⁶ - المصدر نفسه، ص188

⁷ - الشوّل: جمع شائلة، تقول شالت الناقة بذبمها وأشالته: رفعته، غبس: ما يبس على الذنب من بول أو بعر، الإجل: الذكر من الأوعال. ديوان

أبي النجم العجلي، شرحه محمد أديب عبد الواحد، مجمع اللغة العربية، دمشق، 2006. سر صناعة الإعراب، ابن جني ص 350، ص188،

والمحتسب، ابن جني، ج1، ص76

⁸ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص188

وأنشد الفراء¹:

لَاهُمْ إِنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حُجَّتِي

فَلَا يَزَالُ شَاحِجٌ يَأْتِيكَ بَجْ

أَقْمَرُ نَهَاتٍ يُنْزِي وَفَرْتَجْ*

يمكن تعليل إبدال الياء جيما على نحو ما أسماه ابن جني بالتقارب الصوتي؛ إذ إن كلا الصوتين يُخرج من وسط اللسان مع وسط الحنك الأعلى، كما يشتركان في عدّة صفات منها صفة الجهر، وهذا ما يسوّغ هذا الإبدال.

من العرب من يبدل كاف المؤنث في الوقف شيئا، وهو ما يُعرف بظاهرة الكشكشة²؛ وذلك - حسب ابن جني - بغرض الحرص على «البيان؛ لأنّ الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفي في الوقف، فاحتاطوا للبيان بأن أبدلوها شيئا (...).»، ومنهم من يُجري الوصل مجرى الوقف، فيبدل فيه أيضا³، يقول المجنون⁴:

فَعَيْنَاشَ عَيْنَاهَا وَجِيدُشَ جِيدُهَا... سَوَى أَنْ عَظُمَ السَّاقِ مِنْشَ دَقِيقُ

والأصل: عيناك، جيدك، منك

وقول بعضهم⁵:

عَلَيَّ فِيمَا ابْتَغَيْ ابْغِيشَ

بَبَضَاءِ تُرْضِينِي وَلَا تُرْضِيشَ

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص189، والمختسب، ابن جني، ج1، ص75

* - المقصود: اللهم إن تقبل حجتي هذه فسوف أستمّر في الحج على حماري أو بغلتي. ينظر: سر صناعة الإعراب، ج1، ص189. أبدلت الياء جيما في: حجتي، بج، وفرتج، وأصلها: حجتي، وب، وفرتي.

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص218

³ - المصدر نفسه، ج1، ص218

⁴ - ديوان قيسين الملوّح مجنون ليلي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1420هـ/1999م، ص45

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص219

إِذَا دَنَوْتَ جَعَلَتْ تُنْشِشِ

وَإِنْ نَأَيْتَ جَعَلَتْ تُدْشِشِ

وَإِنْ تَكَلَّمْتَ حَثَّ فِي فِشِ

حَتَّى تَنْقَى كَنْقِيقِ الدِّشِ*

ج/ إبدال صرفي:

ذكر ابن جني أن حروف الإبدال من غير إدغام أحد عشر حرفاً؛ تنقسم إلى¹:

لـ حروف الزيادة الثمانية وهي: الألف، الواو، الياء، الهمزة، النون، الميم، التاء، الهاء.

لـ ومن غير حروف الزيادة: الطاء، الدال، الجيم.

تطرق أبو الفتح إلى مواضع وقوع هذا النوع من الإبدال، والحروف التي يشملها، مبيناً أوجه استخدامها ودلالاتها الصوتية والصرفية، ولذلك؛ سنعرض فيما يلي أمثلة أوردها ابن جني أثناء معالجته لبعض هذه الحروف:

1/ الواو: أبدلت من الحروف التالية:

أ/ من الهمزة: مثل في تخفيف جُؤن؛ وفي تخفيف مؤمن؛ فتصبح: جون ومومن².

ب/ من الألف: أبدلت منها في أوزان محدّدة عند التّصغير أو جمع التّكسير في اللّغة العربيّة، وهذه الأوزان: فاعِل، فاعِل، فاعول، فاعال، كما في: ضاربٍ، خاتمٍ، عقولٍ، وساباطٍ؛ فعند تصغير هذه الكلمات، تُقلب الألف إلى واو، فتصبح: ضَوِّرب، خَوِّيتم، عَوِّقيل، وسَوِّبيط، ويجري الأمر نفسه في جموع التّكسير، مثل:

* - شبه كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث. سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، 219

¹ - ينظر: ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص77

² - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص223

ضَوَارِب، حَوَاتِم، عَوَاقِل، وَسَوَائِبُ¹. ويُعزى هذا القلب الصَّوتي إلى القاعدة الصرفية التي تقضي بقلب الألف واوا إذا سُبقت بضمٍّ؛ إذ إن الضَّمة لا تناسب الألف، مما يؤدي إلى استبدالها بالواو تحقيقاً للانسجام الصَّوتي.

ذكر ابن جني أن التَّكسير محمول في ذلك على التَّحْقِير؛ وذلك أنك إذا قلت: حواتم، وضَوَارِبُ، فلا ضَمَّة في أول الحرف، ولكنَّك لما تقول في التَّحْقِير: حُوَيْتُم قلت في التَّكسير: حَوَاتِمُ²، فحمل بذلك ابن جني جمع التَّكسير على التَّحْقِير، معللاً ذلك بأن «علم التَّحْقِير ياء ثالثة ساكنة قبلها فتحة، وعلم التَّكسير ألف ثالثة ساكنة قبلها فتحة، والياء أخت الألف من الوجوه التي تقدم ذكرها، وما بعدها ياء التَّحْقِير حرف مكسور كما أن ما بعد ألف التَّكسير حرف مكسور، فلما تناسبا من هذه الوجوه حُمِل التَّكسير على التَّحْقِير»³. كما يُحمل التَّحْقِير على التَّكسير نحو قول من قال في التَّحْقِير: أسود وجدول: أُسيود وجُديول؛ فأظهر الواو ولم يعللها؛ وذلك لوقوع الياء الساكنة قبلها؛ وذلك لأنَّه كان يُقال في التَّكسير: أساود وجداول، فقال في التَّحْقِير: أُسيود وجُديول، فأجرى الواو في الصَّحَّة بعد ياء التَّحْقِير مجراها فيها بعد ألف التَّكسير، فكما جاز تشبيه ضوارب ب: ضويرب، وإن لم تكن في ضاد ضوارب ضَمَّة كضَمَّة ضويرب، جاز أن يشبَّه أُسيود ب: أساود⁴.

ج/ من الياء: تُبدل الواو من الياء الساكنة إذا سبقها ضم، شريطة أن تكون الياء غير مدغمة، كما في نحو: موسر وموقن، وأصلهما: ميسر وميقن، لكون الكلمتين مشتقتين من: اليسر واليقين. وعند تصغيرهما يُقال: ميسِر وميِقِن، مما يدلّ على الأصل اليائي للكلمتين⁵.

2/ الهمزة *

أ/ قلب ألف التَّأْنِيث همزة: وذلك؛ مثل: حمراء، وصفراء، وصحراء، وأربعاء؛ فالهمزة في ذلك ونحوه بدل من ألف التَّأْنِيث كالتّي في: حُبْلَى، وسَكْرَى، وبُشْرَى، وجُمَادَى¹.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص230

² - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص231

³ - المصدر نفسه، ج1، ص231

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص223

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص223

* - أبدلت الهمزة من خمسة أحرف هي: الألف، والياء، والواو، والهاء والعين.

أما إبدالها من العين ذكر ابن جني إذا قلنا أن الهمزة بدل من العين فهو وجه، لكنه ليس قوي. ينظر: المصدر نفسه، ص119

ب/ من الواو المضمومة ضمّا لازما: نحو قولنا في وجوه: أوجه، وعد: أعد، وقّيت: أقّيت².

ج/ من الواو والياء إذا وقعتا طرفين بعد ألف زائدة؛ مثل: كساء وسقاء، وقضاء، وأصل ذلك: كساو، سقاي، قضاي فانقلبت الواو والياء همزتين؛ لأنّها من كسوت، وسقيت، وقضيت³.

بيّن ابن جني أن قلب الواو والياء ألفا، كما في نحو: عصا، ورحى مردّه إلى تحرّكهما ووقوعهما بعد فتحة، وهو ما ينطبق على قلب الألف المتطرفة همزة في نحو: كساء ورداء؛ حيث إنّ الألف زائدة وضعيفة، وجاءت بعد فعل أجوف كـ"قضى" و"سقى"، فتقدير الكلمة يكون: قضا وسقا وما شابه، ولما التقت ألفان ساكنتان كُره حذف إحدهما؛ لأنّه يؤدّي إلى قصر الممدود، فحرّكت الثانية وقُلبت همزة، فصارت قضاء، وسقاء ونحوهما؛ فهذه الهمزة ليست مبدلة عن واو أو ياء مباشرة، وإنّما هي في الأصل بدل من ألف، وهذه الألف نفسها مبدلة من حرف علة (ياء أو واو)، غير أن التحويين درجوا على القول بأن الهمزة منقلبة عن الواو أو الياء مباشرة، وهو اصطلاح تجوّزي، تيسيرا للدرس، بينما الرأي الأصوب هو ما ذهب إليه المحققون من أهل النظر، وهو أن الهمزة مبدلة عن ألف، وهذه الألف بدورها عن أصل حرف العلة⁴.

د/ من الهاء: نحو قولهم: ماء وأصله: مَوّة، لقولهم أمواه، فقلبت الواو ألفا، وقلبت الهاء همزة، فصارت الكلمة: ماء، وفي الجمع أمواء بدل من أمواه، ومن ذلك أيضا قولهم آل وأصله أهل، فأبدلت الهاء همزة فصارت أأل ثم أُبدلت الهمزة الثانية ألفا فصارت آل⁵.

3/ التاء: أُبدلت من ستة أحرف هن: الواو، والياء، والسين، والصاد، والطاء، والذال، ومن الأمثلة التي ذكرها ابن جني في إبدال التاء من حروف أخرى ما يلي⁶:

أ/ من الواو:

- في فاء الكلمة: تجاه (فُعال) ← من الوجه، تُراث ← من ورث، تقيّة (فعيلة) ← من وقيت.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 97-98

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 106

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 107

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 107

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 112-113

⁶ - المصدر نفسه، ص 155-167

- وكذلك في لام الكلمة: فقالوا : أخت، وبنّت، وهنّت، وكلّتا، وأصل ذلك: أخوا، ووبنّوة، وهنّوة وكلّوا، فنقلوا أخوا وبنّوة ووزنهما فَعَلَ إلى فَعْلُوْفَعَلَ، وألحقوها بالتاء المبدلة من لامها بوزن فُعْلُ وِجْلَسَ، فقالوا: أخت وبنّت.

ب/ من الباء: ثنتان ← من ثنيت، زيت وكيّت ← من ذيّة وكيّة.

ج/ من السين: ست ← من سدس.

د/ من الصاد: لصّ ← لصّت.

هـ/ من الطاء: فسطاق ← فستاط.

و/ من الدال: تربّوت ← دربوت.

2/ مظاهر الإبدال القياسي وقوانينه عند ابن جني

يمكن حصر بعض مظاهر الإبدال الصّرفي (القياسي) وقوانينه عند ابن جني في صيغة (افتعل) ومشتقاتها على النحو الآتي:

1- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته تاء؛ إذا كانت فاء الكلمة تاء، ثم تُدغم فيها: وذلك نحو: اتّرد وهو متّرد، وهي افتعل من التّريد، وعلة ذلك أنّ «الثاء أخت التاء في الهمس، فلما تجاوزتا في المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد، فقلبوها تاء، وأدغموها في التاء بعدها»¹؛ فمخرج التاء من طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا، والثاء من طرف اللسان مع ما يحاذيه من أطراف الثنايا، فهما مخرجان متجاوران، وكلا من التاء والثاء يندرجان تحت الأصوات المهموسة، فلما تجاوزا في المخرج واشتركا في صفة الهمس تمّ إبدال الثاء تاء، ثم إدغام تاء افتعل في التاء المبدلة على النحو الآتي: اتّرد ← اتّرد ← اتّرد، وذلك لتسهيل عملية النطق وتحقيق التماثل بين الأصوات المتجاورة.

وكذلك الحال في (افتعل): من ثني: اتّنى².

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 183

² - ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 183

جاء في هذا السياق؛ قول ليبد بن ربيعة¹:

والتَّيْبُ إِنْ تَعُرُّ مَيِّ رَمَّةً خَلَقًا... بعد المماتِ فإني كنتُ أَتَّيْرُ*

فأبدلت التاء تاء ثمّ تمّ الإدغام للأسباب السابقة في كلمة اتّرد كما يلي: اتّأر ← اتّأر ← اتّرد

ومنهم من يجعل تاء افتعل تاء؛ يقول ابن جني في ذلك: «ومنهم من يقلب تاء افتعل تاء، فيجعلها من لفظ الفاء قبلها، فيقول: اتّرد واتّار»².

2- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته ومصدره طاء؛ إذا كانت الفاء أحد حروف الإطباق (ص، ض، ط، ظ)؛ يقول في ذلك ابن جني: «وأما البديل فإن تاء افتعل إذا كانت فاءه صادًا أو ضادًا أو طاءً أو ظاءً، يقلب طاء البتة، لا بد من ذلك (...)»، وذلك قولك من الصّبر اصطبر، ومن الضّرب اضطرب، ومن الطّرد اطّرد، ومن الظّهر اظّهر بحاجتي»³؛ وأصل هذه الكلمات هو: اصتبر، وواضترب، واطترد، واظتهر، وعلة الإبدال أنّ «التاء مهموسة، وهذه الأحرف مطبقة (...) الطاء أخت التاء في المخرج، وأخت هؤلاء الأحرف في الإطباق والاستعلاء»⁴، فكلاً من الطاء والتاء يخرجان من طرف اللسان مع أصول التنايا العليا، والتاء تحمل عدّة صفات منها: الهمس والاستفال والانفتاح، في حين هاته الحروف تحمل صفات الجهر والاستعلاء والإطباق، والطاء تشترك مع هؤلاء في هاته الصفات فقربوا التاء من «لفظ الصاد والضاد والطاء، بأن قلبوها إلى أقرب الحروف منهن، وهو الطاء»⁵؛ وذلك ليكون «الصّوت متفقاً»⁶؛ أي لتحقيق نوع من الانسجام بين الأصوات.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 183

* - والتَّيْب جمع ناب وهي الناقة المسنة، والمعنى: إن تخلص مني ومن إيتابي بعد مماتي، فإني كنت في حياتي أثار منها. أو إنّا إن أعطيت عظامي لتتضمها فإني كنت أثار منها في حياتي، أو أنّا إن كانت تأكل رمتي بعد مماتي، فإني كنت أثار منها في حياتي بنحرها للضيغان، واختلاف معنى الجملة هنا باختلاف معنى عبارة "نعر مني". ديوان ليبد بن ربيعة العامري، اعتنى به حمدو طمّاس، دار المعرفة، لبنان، ص 38. ينظر المصدر نفسه، ج 1 ص 183

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 184

³ - المصدر نفسه، ص 229

⁴ - المصدر نفسه، ص 229

⁵ - المصدر نفسه، ص 229

⁶ - المصدر نفسه، ص 184

قال ابن جني: أن بعضهم قرأ «أن يصِّلِحا، وعلى هذا قالوا: اصَّبِر في: اصطبر»¹ [النساء، 128] قال تعالى: ﴿وَإِنْ إِمْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا يُشْوِزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء، 128].

3- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته دالا؛ إذا كان فاء الكلمة أحد هذه الحروف (د- ذ- ز)، قال ابن جني: «ومن ذلك أن تقع فاء افتعل زايًا أو دالا أو ذالا، فتقلب تأؤه لها دالا»²؛ فذكر ابن جني الأصوات التي تُبدل معها تاء الافتعال دالا؛ وهي: الزاي والذال والذال، ويكون ذلك على النحو الآتي:

أ- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته دالا؛ إذا كان فاء الكلمة زايًا؛ وذلك نحو: ازدجر، وازدهى، وازدار، وازدان، وازدلف، وازدهف وغيرها من الأمثلة، وأصل ذلك كله: ازتجر، وازتهى، وازتار، وازتان، وازتلف، وازتلف³، فهذه الكلمات على وزن افتعل من الزجر والزّهو، والزّور، والزّين، والزّلف، والزّهف، فأوها زاي فأبدلت تاء، وعلة الإبدال - كما ذكر ابن جني - أن الزاي لما كانت مجهورة، وكانت التاء مهموسة، وكانت الدال أخت التاء في المخرج، وأخت الزاي في الجهر، قرّبوا بعض الصوت من بعض، فأبدلوا التاء أشبه الحروف من موضعها بالزاي، وهي الدال، فقالوا: ازدجر، وازدار⁴. قال الشاعر:

إِلَّا كَعَهْدِكُمْ بِذِي بَقَرٍ الْحِمَى ... هَيْهَاتَ ذُو بَقَرٍ الْمُزْدَارِ⁵.

والشاهد: ورود كلمة "المزدار" فقد أبدلت فيها التاء دالا؛ لأن مخرجهما واحدا.

ب- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته دالا إذا كان فاء الكلمة دالا، يقول ابن جني: «قُلِبَت تاء ادّعى دالا، كقلبها في ازدان»⁶؛ فحمل ابن جني إبدال فاء افتعل دالا مع الدال على الصيغة ذاتها مع الزاي.

ج- إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته دالا إذا كان فاء الكلمة ذالا؛ وذلك نحو: ادّكر، وادّكر¹، يقول ابن جني: «وأما ادّكر فمنزلة بين ازدان وادّعى»²؛ ويقول في موضع آخر: «وقد قلبوا تاء افتعل أيضا مع

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 184

² - الخصائص، ابن جني، ص 400

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 197

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 197

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 197

⁶ - الخصائص، ابن جني، ص 400

الذال لغير إدغام دالا؛ حكى أبو عمرو عنهم : اذذكر، وهو مذذكر³؛ وعلة ذلك أنه لما أُبدلت التاء دالا بسبب وقوع الذال قبلها، تحوّل اللفظ إلى اذذكر، وهذا وجهٌ معتبر من وجوه التصريف اللغوي، وقد ثبت عن أبي عمرو قبوله له وذكره، بيد أن الذال، لقربها الصوّتي من الدال من جهة الجهر، أُجريت مجرى الدال، فأوثر الإدغام نظراً لاشتغال الحرفين على صفة الجهر، مما أدّى إلى إدغام أحدهما في الآخر، فبذلك أصبح اذذكر في منزلة وسطى بين ازدان التي لم يحدث فيها إدغام، و"ادّعى" التي وقع فيها إدغام تام، وأما "اذكر" من حيث التطق، فهي ك: اسمع واصبر، حيث يجري الإدغام⁴.

يؤكد المحدثون على أن كلمة (اذكر) مرت بمرحلتين من التطور⁵:

لمفهي في الأصل (اذنكر) (الذال)، اجتمع فيها صوت مجهور (الذال) بصوت مهموس (التاء)، فتأثّر الثاني بالأوّل، فأبدل بصوت يحمل صفة الجهر فصارت بذلك التاء دالا (اذذكر).

ثم أصاب الكلمة تطوّر آخر؛ إذ صارت في بعض الأحيان (اذكر)؛ إذ فني الصّوت الثاني في الأوّل، وأصبحت حرفاً واحداً مشدّداً من جنس الأوّل، غير أن الشائع الكثير الاستعمال في اذكر هو اذكر؛ أي أن الصّوت الأوّل قد فني في الصّوت الثاني.

يرى النعيمي أن تعليل ابن جني إبدال تاء الافتعال إلى طاء عند اقترانها مع حروف الإطباق، أو دال عند اقترانها مع (الدال والذال والزاي) لا يكفي وحده لتفسير الظاهرة؛ إذ توجد حالات أخرى تقتزن فيها حروف مهموسة مثل: الفاء والحاء والهاء بحروف الإطباق ورغم ذلك لا يحدث الإبدال، ويقدم في المقابل تفسيراً بديلاً قائماً على تفاعل العوامل الفيزيولوجية والصوتية معاً؛ إذ يضيف صفة الشدّة في ذلك الصامت المهموس وهو ما عبّر عنه المحدثون بصفة الانفجارية⁶؛ فتجتمع صفتي الهمس والشدّة في الحرف (التاء هنا) حيث يكون حبس الهواء فيها أشدّ إحكاماً منها في حالة الانفجارية المجهورة⁷؛ فالانفجارية التي تتسم بها

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص400، وسر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص199، 202

² - المصدر نفسه، ص400

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص199

⁴ - ينظر: الخصائص، ص400

⁵ - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص181

⁶ - ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ط1980م، ص348-349

⁷ - ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، 161

التاء (مع حروف الإطباق) تُنتج بجهد عضلي مكثف نتيجة لحبس الهواء بين أقصى اللسان والحنك الأعلى، فيؤدّي إلى بذل جهد عضلي ولا سيما في حالة السكون، ويُضاعف من هذا الجهد والصّعوبة غياب الصّوائت؛ إذ لا يوجد صوت فاصل يتيح للسان الانتقال بسلاسة من وضعيّة النطق بحرف الإطباق إلى التّاء، ما يفرض على المتكلّم جهداً عضلياً إضافياً لتحرير الهواء المحبوس بشكل مفاجئ، ولما كانت التّاء حرفاً شديداً مهموساً، فإن نطقها - في هذا السّياق - يتطلب طاقة نطقية أعلى من تلك اللازمة لنطق حرف مجهور انفجاري كالذال أو الطاء، ومن ثمّ فقد لجأت العربيّة، بدافع من مبدأ الاقتصاد في الجهد الصّوتي، إلى إبدال التّاء بحرف آخر مجهور من المخرج نفسه أو قريب منه؛ يتيح للمتكلّم النطق بسلاسة أكبر ويقلّل من الجهد العضلي المطلوب¹.

وعليه؛ فإنّ تفسير الظّاهرة يجب أن يُنظر إليه بوصفه نتيجة لتداخل مجموعة من العوامل الصّوتية والفسولوجية، تتمثل في: الشّدّة (الانفجارية)، وقرب المخرج، وسكون الحرف السابق، وغياب صائت فاصل بين المبدل والمبدل منه، فتبدل العرب الصّوت المهموس الانفجاري إلى صوت مجهور انفجاري يكون من مخرج الصوت الأول؛ وبذلك أُبدلت التّاء طاء.

أما إبدال التّاء ذالاً بعد (الذال والذال والزاي)؛ فعلته لا تكمن في الهمس والانفجارية وحدهما، إذ يرد المهموس بعدها في الحشو دون إبدال، مما يرجّح أن السبب يعود إلى اجتماع صفة الهمس مع قرب المخرج، مع احتمالية اختلاف الدّوق اللّغوي في هذه الحالة عن اتفاهه الواضح مع حروف الإطباق؛ حيث أن الحروف القريبة من مخرج التّاء تسعة: ثلاثة منها بين أسنانية، هي التّاء والذال والطاء، وستة أسنانية، هي النون والسين والزاي والصاد والذال والطاء، وقد أُبدلت التّاء بحروف الإطباق (الطاء والطاء والصاد) في مواضع تم تناولها سابقاً، أما التّاء والسين، فهما مهموستان كالتّاء، وقد أبقت العرب التّاء مع السين في صيغة "استفعل"، أما التّاء، فذكر ابن جني أنّها تُقلب تاء وتُدغم فيها في صيغة "افتعل"؛ لكونهما مهموستين ومتجاورتين في المخرج، فرأى العرب توحيد العمل الصّوتي بقلب التّاء تاء وإدغامها، ليصدر الصوت من مخرج واحد وبصفة صوتية واحدة².

¹ - ينظر: الدراسات اللّهجية والصّوتية عند ابن جني، النعيمي، ص 349

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 349-350

4- إبدال تاء تفاعل ومشتقاتها حرفا من جنس الفاء ثم تدغم فيه، فتجلبب للكلمة همزة الوصل بسبب سكون أولها التاجم عن الإدغام؛ ومن ذلك ما ذكره ابن جني عن ما روى عن أبي عمرو: "حَتَّى إِذَا اِدَارَكُوا" من قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلْتُ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْتَهَا حَتَّى إِذَا اِدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أَخْرِيَهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَأَتَيْهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف، 36]، وروى عنه: "حتى إذا يقف ثم يقول: (تَدَارَكُوا) ، وظهور التاء؛ فيتداركوا قراءة ابن مسعود والأعمش، وقراءة أخرى: « إذا اداركوا ، قرأ بها مجاهد، وحמיד، ويحيى وإبراهيم¹ .

ومن ذلك قراءة السلمي: "وَادَّارَسُوا مافيه" من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف، 169]، وقرأ الأعمش "واذكروا مافيه" من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقر، 63]، وعلق أبو الفتح على ذلك موضحاً أن "ادَّارَسُوا- تدارسوا؛ كقوله اِدَارَكُوا، والعمل في الكلمتين واحد، وأما وادَّارُوا فأراد تذكروا، وهو ككلمة اَطَّيرْنَا من قوله تعالى: ﴿قَالُوا اِطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل، 48]².

6- قلب النون ميما، وذلك إذا وقعت النون ساكنة قبل الميم أو الباء، فإن كانت الميم هي التي بعدها قلبت لفظا وخطا وأدغمت؛ نحو: عنبر، وامرأة شنباء، وقنبر، وقنبلة، من مَعَكَ³، فتصبح: شنباء، وقمبر، وممعك بعد القلب.

7- تقلب الواو في كلمة "فو" ميما وجوبا في حالة الإفراد "الفم": يقول ابن جني: «فقد أبدلت الميم من أربعة أحرف، وهي: الواو، والنون، واللام والباء. أما إبدالها من الواو فقولهم فَمَ وأصله فَوْهٌ بوزن سَوَط، فحذفت الهاء تخفيفا (...) فصار التقدير فَوْ، فلما بقي الاسم على حرفين الثاني منهما حرف لين كرهوا حذفه للتبوين، فجحفوا به، فأبدلوا من الوا ميما لقرب الميم من الواو، لأنهما شفهيّتان، وفي الميم هَوِيٌّ في الفم يُضَارِع امتداد الواو»⁴.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج1، ص247

² - ينظر: المصدر نفسه، ص381

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ج2، ص96

⁴ - المصدر نفسه، ص89-90

نلاحظ أن الميم تُبدل من حروف محددة، منها: إبدال الميم من الواو في كلمة "فم" الناتجة عن علل صوتية وصرفية دقيقة؛ فالكلمة أصلها "فوه"، فبعد حذف الهاء للتخفيف صارت الكلمة على حرفين ثانيهما واو "فو"، وهو ما لا يلائم البنية الصرفية العربية، فاستُعيض عن الواو بالميم، وعلة ذلك هي قرب المخرج بين الميم والواو (كلاهما شفوي)، كذلك أنّ الميم تحمل امتدادا صوتيا يشبه الواو، فاستقرت الكلمة على صورة "فم".

8- إبدال فاء افتعل ومشتقاته تاء إذا كانت فاؤه واوا أو ياء؛ نحو: اتّزن، وأصله اؤتزن، أبدلت الواو تاء ثم أدغمت في تاء افتعل فأصبحت: اتّزن، وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة: اتّعد ، ووتعد، واتّلع واتّصف من الوصف¹.

يقول الأعشى²:

فإن تَتَعِدْنِي أَتَعِدْكَ بِمَثَلِهَا... وسوف أزيد الباقيات القوارصا

قصد الشاعر: إن هددتني هددتك وأزيد على ذلك هجائي لك. فالشاهد: "تتعديني" فقد أبدلت الواو تاء.

وقال طرفة³:

فإنَّ القَوافي يَتَلَجَّنَ مَوَالِجًا... تضايقُ عنها أن تَوَلَّجَهَا الإبر

قصد الشاعر أن القوافي والأشعار تتلمس اللطيف من المعاني والغائر؛ حتى لو كانت تلك المعاني طرفا ومداخلا لما دخلتها الإبر من لطفها وضيقها، فالشاهد: "يتلجن" فأبدلت الواو تاء.

وقال سحيم⁴:

وَمَا دُمِيَّةٌ مِنْ دُمَى مَيْسِنَا... نَ مُعْجَبَةٌ نَظَرًا وَاتِّصَافًا

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ج1، ص157

² - ديوان الأعشى الكبير، تح: محمود إبراهيم مُجَدِّ الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2010م، ص100

³ - يتلجن: يدخلن. موالجا: مداخلا. ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي مُجَدِّ ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3،

1423هـ/2002م، ص37

⁴ - ميسان: تقع بين البصرة وواسط. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1969هـ/

1950م، ص43

والشاهد في قوله "اتصافا"؛ فقلبت الواو تاء.

إن العلة في إبدال الواو تاء في هذا الموضع تعود إلى أنها لو لم تُقلب الواو تاء، لوجب عند تغير حركة ما قبلها أن تُقلب الواو إلى حروف مختلفة بحسب السياق الصوتي؛ فإذا انكسر ما قبلها، قُلبت الواو ياء فيقال: ايزن، ايتعد، ايتلج، وإذا انضم ما قبلها، رُدَّت إلى أصلها الواوي؛ فقل: موتعد، موتزن، موتلج، أما إذا انفتح ما قبلها، فكان ينبغي أن تُقلب ألفاً؛ فيقال: ياتعد، ياتزن، ياتلج. ولما كانت هذه التغيرات تؤدي إلى اضطراب في أبنية الكلمة، اختاروا إبدال الواو بحرف "جلد" (أي يحتمل الحركة) لا يتغير بتغير حركة ما قبله، فاستقر الرأي على التاء؛ لقرب مخرجها من مخرج الواو، إذ إن التاء تخرج من أصول الثنايا، بينما الواو من الشفتين، فحصل بينهما تقارب في المخارج، لذا أُبدلت الواو تاء، وأدغمت هذه التاء في التاء التالية لها في الكلمة، فقل: اتعد، اتزن¹.

أجروا (العرب) الياء مجرى الواو، فقالوا في "افتعل" من: "اليس" و"اليسر": "اتيس" و"اتسر"، وذلك فراراً من انقلاب الياء واوا عند انضمام ما قبلها، كما في: مُوتيس، أو قلب الفاء ياء في "ياتيس"، فاستقروا على إجراء الياء مجرى الواو فقالوا: "اتيس" و"اتسر"؛ أي: أنهم قلبوا الياء تاء اتباعاً لهذا النمط الصوتي، إلا أن بعض العرب لم يتبعوا هذا الإبدال، واحتفظوا بالياء على حالها في جميع التصريفات، فقالوا مثلاً: "ايتعد"، "ايتزن"، و"ايتيس"، مقابل "يوتعد"، "ياتعد"، "يوتزن"، "ياتزن"، "موتعد"، و"موتيس"، وفي لهجات أخرى وردت تعابير مثل: "ياتسق" و"ياتسع"، بمعنى "يتسق" و"يتسع"، وهي من الاستخدامات الدالة على هذه الظاهرة².

أشار الكسائي إلى أن اللغة الأولى — أي التي تُجري الياء مجرى الواو وتبدلها تاء في صيغ "افتعل" — هي الأكثر شيوعاً، والأقيس في القياس اللغوي، وهي لغة أهل الحجاز، وهي التي نزل بها القرآن الكريم³.

ومن منظور علم الأصوات الحديث، فإنَّ الإبدال لا يتحقق إلا بوجود تقارب صوتي بين العنصرين المبدل والمبدل منه، سواء في المخرج أو الصفة؛ وبهذا يلتقي المحدثون مع ما ذهب إليه ابن جني في تفسير ظاهرة

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 158

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 158-159

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 159

الإبدال الصوتي؛ بيد أنهم عبّروا عنها بمصطلحات مختلفة تشير إلى العملية ذاتها؛ مثل: التأثر، والتشابه، والتماثل، والمماثلة، ومن بين هؤلاء العلماء المحدثين: برجستراسر، وإبراهيم أنيس، ومالمبرج، ورمضان عبد التواب¹.

يتبيّن من تحليل ابن جني ومن وافقه من علماء العربية؛ أنّ الإبدال ظاهرة لغوية خاضعة لقوانين صوتية دقيقة، وأن معيار التقارب في المخارج والصفات في تعليل ظاهرة الإبدال كان معتمداً عند ابن جني على نحو ينسجم مع التفسيرات الصوتية الحديثة.

المطلب الثاني: الإعلال

قسّم ابن جني الحروف إلى حروف علّة وصحيحة؛ فقال: «وللحرف قسمة أخرى إلى الصّحة والاعتلال، فجميع الحروف صحيح، إلاّ الألف والياء والواو»².

فالإعلال إذا؛ أخصّ من الإبدال، فهو إبدال في حروف العلة.

ساق ابن جني مصطلح الإعلال عند حديثه عن الإمالة في كلمة مذعور، والمراد بالإعلال هنا هو «إشمام الواو رائحة الياء، وليس قلبها ياء خالصة»³؛ وعلّل امتناع إعلال الواو في هذه الكلمة، وتركها واوا خالصة؛ لأنّ الحركة التي قبل الواو لم تتمكّن في الإعلال والإشمام كما اعتلّت الألف في نحو: عالم وقام، والكسرة في نحو: قيل، ولما كان الإشمام في: مذعور يتمّ بطريقة خفيّة غير ظاهرة، لم يكن كافياً لإحداث الإعلال في الواو، بخلاف ما يحدث في الألف والكسرة في هذه الأمثلة⁴؛ أي أن الحركة السابقة للواو في هذا السياق لم تبلغ من القوّة ما يؤهلّها للإعلال أو الإشمام على نحو ما تبلغه الفتحة مثل ما جاء في ألفاظ نحو: عالم وقام أو الكسرة في قيل.

وعليه؛ يكون الإعلال متعلقاً بحروف العلة؛ إذ يقلب فيها (حرف العلة) إلى همزة أو حرف من جنسه، أو يحذف تماماً، أو يسكّن. وأنواع الإعلال عبارة عن أمثلة موزعة في ثنايا كتب ابن جني، نذكر منها ما يلي:

أولاً/الإعلال بالقلب:

¹ - ينظر: التطور النحوي، برجستراسر، ص29، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص181، وعلم الأصوات، مالمبرج، ص147، والتطور اللغوي مظاهره علله وقوانينه، رمضان عبد التواب، ص135

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص76

³ - المصدر نفسه، تعليق المحقق، ص69

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص69

يقول ابن جني: «اعلم أن كل لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير أن يكونا جميعاً أصليين ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه؛ فهو القياس الذي لا يجوز غيره، وإن لم يمكن ذلك حكمت بأن أحدهما مقلوب عن صاحبه (...). فآني مقلوب عن أني»¹، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ لِإِنِّيهِ﴾ [الأحزاب، 53]. ومن ثمة؛ يكون الإعلال بالقلب بقلب حرف العلة إلى حرف علة آخر، أو إلى همزة أو العكس.

1/ قلب حروف العلة إلى حرف علة آخر:

نستعرض فيه: قلب الألف واوا أو ياء، وقلب الواو والياء ألفاً، وقلب الواو ياءاً، وقلب الياء واواً.

ذكر ابن جني أن اجتماع حروف العلة مع حركات لا تناسبها يؤدي إلى الصعوبة في النطق؛ إذ الألف لا تسبق بكسرة أو ضمة، كما تستقل الكسرة قبل الواو والضمة قبل الياء، وهو ما يدفع المتكلم إلى قلب هذه الحروف لتناسب مع الحركات التي تسبقها؛ إذ «الحركات أبعاض حروف المدّ واللّين، وهي الألف والواو والياء، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو»²، ويُستدل على ذلك بقولهم: قيل وطيل، والأصل فيهما قول وطول، إلا أن استتقال الواو بعد الكسرة أدّى إلى قلبها ياء، وهذا النوع من الإعلال نجده كذلك في كلمات، مثل: ميزان، وميعاد، وميقات، وهي من وزن، ووعد، ووقت، وقد حصل فيها إبدال الواو ياء للسبب ذاته، وكذلك ما نجده في: موسر وموقن، الذي أصلهما مُيسر ومُيقن، فاستتقلت الياء بعد الضمة، مما أدّى إلى إبدالها واواً، كما أن وقوع الألف بعد كسر أو ضمّ يُعدّ غير ممكن في النظام الصوتي العربي، ولذلك تُستبدل الألف بحرف يناسب الحركة السابقة: ياء بعد الكسرة، وواو بعد الضمة، ومن أمثلة ذلك: قراطيس التي أصلها قرطاس؛ حيث قلبت الألف ياء، وضُوبِرَ التي أصلها ضارب، فقلبت الألف واواً.

ويعلّل هذا القلب الصوتي بأنّ النطق بالكسرة يوحى ببداية النطق بالياء، فإذا تراجع المتكلم فجأة إلى نطق الواو، بدا ذلك مناقضاً للبنية الصوتية المنتظرة، وكذلك، فإن النطق بالضمة يوحى بتوقع مجيء الواو، فإن أتبعت بياء بدلاً منها، وقع نوع من التضاد بين الصوتين، ومع أن هذا التضاد مستثقل سمعياً، إلّا أنّه ليس

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 352-353

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 33

مستحيلا من الناحية النطقية، بخلاف مجيء الألف بعد الكسرة أو الضمة، الذي يُعد غير ممكن مطلقا في البنية الصوتية العربية¹.

أ/ قلب الواو والياء ألفا؛

وذلك نحو: قام، خاف، طال، باع، هاب، والأصل في هذا كله: قَوْم، خَوْف، طَوْل، بَيْع، هَيْب، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة، وهي الفتحة، والواو أو الياء، وحركة الواو والياء، كُره بذلك اجتماع ثلاثة أشياء متقاربة، فهربوا من الياء والواو إلى لفظ تُؤمن فيه الحركة، وهو الألف؛ وذلك بسبب الفتحة التي قبلها²، ما يُلاحظ أن الواو والياء متحركتين، مفتوح ما قبلهما.

ومن أمثلة الإعلال بالقلب أيضا: رَمَى، وَسَعَى، ودَعَا، وعدَا، لقولك: الرمي، والسعي، والعدو، والدعوى، تُقلب الياء أو الواو المتحركة المسبوقه بفتح ألفا، وهو ما يعكس القاعدة الصوتية القائلة: بأن الواو والياء إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما قُلبتا ألفا إلا أن يضطر أمر إلى ترك قلبهما؛ كما في قولهم للثنتين: قَصِيَا، ورَمِيَا، وخَلَوْا، ودَعَوْا، فهذه الأفعال لم تُقلب فيها الواو أو الياء رغم توفّر شروط القلب؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى التقاء ألفين (الألف المبدلة وألف التثنية)، أي: ساكنين مما يستوجب الحذف، وهو ما يؤدي إلى الإخلال بدلالة التثنية فيلبس المفرد بالثنى، لذلك تُرك القلب.

ومن هذا القبيل: النَّفَيَان، والعَلَيَان، والصَّمَيَان، والعدوان، والنزوان، والكروان، فلو تم القلب لالتقت ألفان ثمّ لوجب حذف أحدهما لالتقاء الساكنين فتصبح: نфан، علان، صمان، عدان، نزان، کران، فيلبس بذلك وزن فعالان الذي أصله معتلّ اللام، وفعال الذي لامه نون³، لذلك تُرك القلب هنا حفاظا على التمييز الصّري والدلالي.

كما أن ترك القلب في بعض المواضع لم يأت عبثا بل لمراعاة قواعد صرفية، كما في: الصّيد، والحيد، والجيد، والقود، والأود، والحوكة، والخونة، جمع حائك وخائن، فكلها وردت على الأصل دون قلب⁴.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص35

² - ينظر: المصدر نفسه، ص37

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص307

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص308

أما في بعض الأفعال نحو: يئس على وزن يائس ويؤوجل على وزن ياءجل؛ فتقلب الواو والياء رغم اختلال شرط تحركهما؛ فهما هنا ساكنتان؛ وذلك طلبا للتخفيف، ذلك أن العرب كانوا يرون أنّ الجمع بين الياء والألف أخف وأيسر نطقا من الجمع بين اليائين، أو بين الواو والياء¹.

وردت بعض الأمثلة في قلب الياء الساكنة المفتوح ما قبلها ألفا، ومن ذلك قولهم: حاري في: الحيرة وفي طائي في طيء، ومنه قول طفيل الغنوي²:

فهي أحوى من الربيعي خاذلة... والعين بالإنشد الحاري مكحول

يصف الشاعر الظبية بأنها جميلة اللون تنتج أفضل النتائج وكحيلة العينين. والشاهد فيه: "الحاري"؛ إذ أبدلت الياء ألفا تخفيفا.

ذكر في تصغير دابة، دوابة يريد: دويبة، فأبدلت من ياء التصغير الساكنة المفتوح ما قبلها ألفا.

ومنه؛ قول الراجز³:

تُبْتُ إِلَيْكَ فَتَقَبَّلْ تَابِي ... وَصُمْتُ رَبِّي فَتَقَبَّلْ صَامِي

يريد: توبتي وصومتي، فهنا قلبت الواو ألفا، ومنه قوله -ﷺ-: "فَارْجِعْنَ مَارْؤُرَاتٍ غَيْرَ مَاجُورَاتٍ"⁴، وأصله موزورات، فُلبت الواو تخفيفا، رغم أن الواو ساكنة.

ومن هذا النوع من الإعلال (قلب الياء ألفا) تم توجيه هذان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ [طه، 63] بتشديد إنَّ، وهذان اسم إنَّ.

ب/ قلب الألف واوا أو ياء:

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص307

² - الأحوى: أسود ليس بشديد السواد. الحاري: نسبة إلى الحيرة بالكسر بلد بجانب الكوفة. ينظر: لسان العرب، ج4، مادة (ح و ي)، ص225. ديوان طفيل الغنوي، تح: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968م، ص55

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص309

⁴ - ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز -باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، رقم الحديث 1578، (تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ج2، ص502)

ذكر ابن جني أن الإعلال بالقلب يكون بين الألف والواو والياء في الأسماء عند الإضافة، فتبدل الواو من الألف المبدلة من واو الأصل؛ وذلك عند إضافة أسماء محتومة بألف أصلها واو نحو: عصا، قطا، وقنا، تُردّ الألف إلى أصلها الواوي فيقال: عَصَوِي، قَطَوِي، قَنَوِي؛ فالألف في عصا مثلاً؛ أصلها واو بدليل الجمع عُصَيّ، وعند الإضافة تُعاد إلى أصلها الواوي لتأخذ حركة الإضافة، والأمر ذاته ينطبق على قنوات، وقطوات¹.

أما إبدال الواو من الألف المبدلة من ياء الأصل، ينطبق هذا على أسماء؛ نحو: فتى، ورحى، وسرى، حيث الأصل فيها يائي، وتظهر في الجمع نحو: فتيان، ورحيئ، وسريئ، وعند الإضافة تُردّ الألف إلى أصلها الواوي لسهولة نطقها مع ياء النسبة، فيقال: فتوي، رحوي، سروي²، فالألف المبدلة من ياء تُقلب واوا حتى تلاءم حركة الإضافة.

سبب القلب إلى واو دون غيرها، أن عند إضافة الألف الساكنة إلى ياء النسبة الساكنة، تتعذر الحركة، فيحتاج إلى حرف يحتمل الحركة وهو الواو؛ فتم اختيار الواو دون الياء لتجنب التقاء ثلاث ياءات مع كسرة نحو: فتوي، ولذا قالوا: فتوي بدلا من فتويي. ولم تُبدل الألف همزة كما في: كساء وقضاء؛ لأن الألف هنا ليست في نهاية الكلمة، وإنما في الوسط، فليست موضعا لتضعيفها وتحويلها إلى همزة³.

يرى قطرب أن بعض أهل اليمن؛ يقولون: الصلوة، والزكوة، والحياة، بالواو بدل الألف، في إشارة إلى أن هذه الواو بدل من الألف في صلاة، زكاة، وحياة، وهي ليست من لام الفعل من صلوت، وزكوت، بل من المصدر المؤنث المعتل الآخر، ويلاحظ قولهم: "الحياة" بدل "الحياة"، حيث قلبت الألف إلى واو⁴.

نستنتج؛ أنه حتى يتم القلب لابد من مراعاة الأصل الاشتقاقي للكلمة، والموضع الذي تقع فيه الحروف، والتغيرات التي تطرأ في سياق الإضافة أو التصريف.

يشير ابن جني إلى قلب الألف الزائدة واوا في التصغير وجمع التكسير، وتُعزى هذه الظاهرة إلى تأثير الضمة السابقة للألف، مما يفرض قلبها إلى واو تحقيقا للانسجام الصوتي، كما في: خويتم وعويقل،

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص329

² - ينظر: المصدر نفسه، ص329

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص230

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص230

يظهر هذا القلب بوضوح في التّصغير، ويُقاس عليه في جمع التّكسير نظراً للتّقارب بين الصّيعتين - من واد واحد كما ذكر ابن جني-، مثل: خواتم وعواقيل¹.

يرى بعض النّحاة أن هذا القلب يتم على مرحلتين²:

لـقلب الألف إلى واو.

لـ ثم الواو إلى ياء إذا تلتها ياء ساكنة، كما في: كُتِبَ، وقد يُمنع القلب في بعض المواضع بسبب وجود الكسرة قبل الألف، كما في: مفاتيح، في حين لا يمنعه وجود ياء ساكنة، كما في: أسود³، ومنه؛ فقلب الألف الزائدة واوا في التّصغير وجمع التّكسير تحكمه قواعد دقيقة أبرزها تأثير الضّمة السّابقة.

قُلِبَتِ الألف ياء؛ نحو قول القائل في حملاق: حُمِليق وحماليق، وفي مفتاح: مفيتيح ومفاتيح، ويُفهم من ذلك أن هذا الإبدال لا يُقاس على الأصل والفرع في الاشتقاق (كمصدر وفعل)، وإنما يُقاس على وحدة البنية الصّرفية، إذ إنّ أبنية الأفعال والمصادر تُعامل معاملة المثال الواحد، فإذا طرأ تغيير أو تعويض صوتي على أحدها أُسقط على باقي الصّيغ، ويُبرّر هذا بأنّ التّغيّر الصّوتي الذي يطرأ في أحد المشتقات (كالإعلال أو الإبدال) يُنظر إليه بوصفه متعلّقاً بالبنية الكلّية، لا بالفرع أو الأصل وحده، مما يفسّر التّعويض بالحركات أو الحروف في بعض المواضع عند حذفها في مواضع أخرى، نحو: أكرم، وإكرام، ونكرم، وتنطبق القاعدة ذاتها في التّصغير؛ حيث تقلب الألف ياء إذا وقعت بعد كسرة أو قبل ياء تصغير، مثل كُتِبَ وحُسِبَ⁴.

وعليه؛ تقلب الألف ياء إذا وقعت بعد:

لـ كسرة نحو: مفاتيح ومُفيتيح.

لـ ياء التّصغير نحو: كُتِبَ تصغير كتاب.

ج/ قلب الواو ياء:

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص230-233

² - ينظر: المصدر نفسه، ص230-233

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص230-233

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص363-364

يقول ابن جني: «كل واو سكنت غير مدغمة، وانكسر ما قبلها قُلبت ياء»¹؛ ويظهر ذلك في كلمات؛ مثل: ميقات التي أصلها: موقات، ميعاد من: موعاد، ميران من: موران. أما إذا تحركت الواو أو زالت الكسرة التي قبلها، فإن الواو تبقى على حالها، نحو: مَويزين ومَوازين ومَوِيقيت ومَوَاقيت، وحَوَل، وعَوَض².

أما في صيغ الجمع، فتتضافر عدّة شروط تؤدّي إلى قلب الواو ياء، ومنها: كون الكلمة جمعا، وكون واو المفرد ساكنة وضعيفة، وانكسار ما قبل الواو، ووقوع ألف بعدها، وصحة حرف اللام؛ ويتجلى ذلك في: ثياب من: ثوب، وحياض من: حوض، ورياض من: روضة. ولكن إذا اختلّ أحد هذه الشروط، فإن الإعلال لا يتمّ، كما في: طوال جمع: طويل³؛ حيث تحركت الواو في المفرد، فاختلف أحد شروط الإعلال.

لكن توجد حالات لم تُعل فيها الواو؛ ويتّضح ذلك في بعض الكلمات؛ نحو: زَوْج، وزَوْجة، عَوْد، التي تجمع إلى: زَوجات، زَوجات، عودات، وسبب عدم وقوع الإعلال أن بعض الشروط لم تكتمل، كغياب الألف بعد الواو أو كون العين متحركة أو ثقيلة، أما ثبرة، فقد أعلت على وجه الشذوذ للتمييز بين ثور الحيوان وثورة بمعنى القطعة من الأقط، كما ذكر أبو العباس⁴.

كما قُلبت الواو في كلمات؛ نحو: غازوة ومَحْنوة رغم تحركها؛ لأنّها وقعت في موضع اللام (في الطرف)، فضعفت، ما أدى إلى قلبها، أما في كلمات؛ مثل حِنْدُوّة، فقد بقيت الواو لصعوبة التمييز إن قُلبت؛ ولأن الواو تقع في نهاية الكلمة، مما يجعلها عرضة للتغيير الشاذ، لكن امتنع ذلك للمحافظة على المعنى⁵.

أما إذا كانت الواو مدغمة، فإن الإدغام يمنع إعلالها؛ ولو كانت الكسرة موجودة قبلها، كما في: أجليواذ ودِيوان (أصله: دَوّان)، ويدلّ على ذلك أن بعضهم قال: دواوين؛ إذ أقّرّ الياء مع زوال الكسرة، وعدّ الياء غير لازمة، مما دفعه لعدم الإعلال في مواضع أخرى⁶.

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 364

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 364

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 364

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 364

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 365

⁶ - ينظر: المصدر نفسه، ص 365

في أبنية الأفعال مثل: **فَعِلَ** من **فاعل**، لا تُقلب الواو ياء؛ لأنّ الواو غير لازمة؛ وذلك نحو: بُويعَ (من: بايع)، سُويرَ (من: سار)، ولو قُلبت الواو لالتبس اللفظ بصيغ أخرى مثل **فُعِلَ**، ما يؤدي إلى اضطراب في المعنى والتّصريف¹.

تُبدل الياء من الواو إذا كانت لام الكلمة (فُعِلَ)، كما في: **العليا، الدنيا، الفُصيا**، وقد شدّت بعض الألفاظ مثل: الحلوى، المرى².

أثّرت الكسرة المتأخّرة في قلب الواو في بعض المواضع، رغم وجود فاصل ساكن ضعيف، مثل في: **صبية، وصبيان، والأصل صبوة وصبوان** (من صبوت صبوا)، قنية (من: قنوت)؛ وذلك أنّ الساكن الضعيف لم يُعدّ فاصلاً كافياً، فاعتُبرت الكسرة مباشرة للواو³.

كما تُقلب الواو ياء؛ إذا وقعت في **موضع رابع** أو أكثر ضمن **بنية الكلمة**، كما في: **أغزيت، استغزيت**، وتقصّيت، وأدّعت، ومغزيان، وملهيان، ومستغزيان⁴، فالواو تُعل في الأبنية الطويلة وسبب ذلك ثقل الصيغة الناتجة عن طول البنية، مما يدفع إلى التخفيف بالإعلال.

يلاحظ أنه في كلمات مثل: **علية (من: علوة)، قدية (من: قدوة)، عليانة (من: علوت)**، بلوانة (من: بلوت)، تم قلب الواو ياء؛ لتسهيل النطق، لا سيما إذا تبعت الياء ساكنة أو سُبقت بياء؛ ويظهر ذلك في نحو: **ميت، سيد (الواو قبلها ياء ساكنة)، لية، طية (الواو ساكنة قبل ياء)**⁵.

عرض ابن جني عدداً من الحالات التي يحدث فيها قلب الواو ياء، ويمكن تلخيص هذه الحالات على النحو الآتي:

لـ **وقوع كسر قبل الواو** نحو: **مِوقات ← مِقات**.

لـ **سكون الواو وقبلها مكسور**، نحو: **مِوزان ← ميزان**.

¹- ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص366

²- ينظر: المصدر نفسه، ص366

³- ينظر: المصدر نفسه، ص366-367

⁴- ينظر: المصدر نفسه، ص367-368

⁵- ينظر: المصدر نفسه، ص367

لموقع الواو والياء متّصلتين في كلمة واحدة، شريطة كون أولهما أصلاً ساكناً، نحو: سيود—سيد.

لموقع الواو لاما في صيغة فُعلى نحو: دنوت—دنيا

لموقع الواو متطرفة رابعة فصاعداً ومسبوقة بفتحة، نحو: أغروت—أغريت، واستغروت—استغريت.

إن قلب الواو ياء يخضع لمجموعة من الشروط الصوتية والصرفية أولها الكسرة، كما لا يُكتفى بوجود الكسرة وحدها، بل يُنظر في سكون الواو، وصحة اللام، وطبيعة البنية، ومدى ثقل الصيغة (طول الصيغة يؤدي إلى الثقل)؛ لذلك يُعد القلب من مظاهر التيسير النطقي في العربية.

د/ قلب الياء واوا

حدد ابن جني أهمّ شروط قلب الواو ياء؛ وذلك أن تكون الواو ساكنة ومسبوقة بكسرة صريحة، نحو: قيل من قَوْل، وميزان من مِوزان؛ إذ اجتمعت الكسرة قبل الواو الساكنة، ما دعا إلى قلبها ياء؛ لمناسبة الكسرة للياء من جهة المخرج والصّفات الصّوتية، وقد يظهر هذا القلب في حالات الإدغام، حيث يُطلب التّخفيف وتوحيد الصّوت، كما في: سيّد من سيّود، وميّت من ميّوت. وقد سوّغ هذا الإبدال بقصد التّخلص من الثّقل النّاتج عن التّقاء مثلين في اللفظ، فجاء الإبدال تمهيداً للإدغام وتحقيقاً للسهولة التّطقية¹.

تُشير الشّواهد إلى أن الحركة لها دور بارز في هذا الإبدال؛ إذ تقوى الواو أو الياء؛ إذا كانتا متحركتين، فتمنعان الإعلال، كما في: غيور وبيوض، بقيت الواو على أصلها لكونها متحركة بعد كسرة، وهو ما يوضّح أن الحرف المتحرّك أقوى من الحرف الساكن وأقلّ خضوعاً للتّغيير².

بالمقابل، نجد أن الياء تُقلب واوا عند زوال الكسرة التي سبقتها، كما في حالات التصغير، نحو: صُوَيْرِب تصغير ضيراب، وقُوَيْمة تصغير قيمة، فأصل الياء مبدلة من ألف فاعل، ثم قُلبت واواً عند التصغير لزوال الكسرة وقوة الضمة³.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص233

² - ينظر: المصدر نفسه، ص235

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص240

أما في الأسماء؛ مثل: ميقات وميعاد، تم قلب الواو ياء؛ لوقوعها بعد كسرة وسكونها، وهو ما يؤكد أن الكسرة وحدها تكفي في تحريك القلب إذا ما اجتمعت مع سكون الحرف المعتل¹.

تتضح مرونة هذا الإبدال في بعض المواضع التي لم يُقلب فيها الحرف رغم تحقق الشروط، لأسباب دلالية أو سياقية، مثل: سائل وسيل، وعائل وعيل، فاحتُفظ بالياء منعا للبس بين الاسم والصفة أو بين المفرد والجمع، وهو ما نجده في الفرق بين الحيوان والحيوات؛ إذ قلبت الياء واوا؛ للتوسع الصوتي وكراهة تكرار الأمثال².

ومن الأمثلة الدالة على إبدال الياء واوا دون سبب صوتي مباشر، ما نراه في كلمات مثل: الحيوان من الحيان، والفتوى من الفثيا، والتقوى من الوقية، تم الإبدال لأغراض صرفية أو بلاغية تتعلق بالهيئة الصرفية للكلمة أو الفصل بين الاسم والصفة، وهو ما وضّحته الأمثلة: الشروى، الرعوى، الثنوى وغيرها.

تجدر الإشارة إلى أنّ بعض النحاة، كأبي عثمان، ذهب إلى أن الواو في الحيوان ليست بدلا عن ياء، بل أصل، خلافا للخليل وسيبويه، الذين أثبتوا أن الأصل حية وأن قلب الياء واوا؛ إنما جاء لاعتبارات صرفية تتعلق بالعلمية أو التوسع الصوتي³.

يتّضح أن قلب الواو ياء، أو قلب الياء واوا، يستند إلى ضوابط، يحكمها موقع الحرف في الكلمة، وحركته، والحركة التي تسبقه؛ فتُقلب الياء واوا إذا كانت ساكنة وسبقها ضم، لأنّ الضمة تناسب الواو صوتيا كما تناسب الكسرة الياء، ويشترط أن تكون الياء أصلية أو مبدلة عن ألف، لا زائدة طارئة، كما في: قُوْمَة تصغير قيمة، وضُوَيْرِب تصغير ضيراب، حيث زالت الكسرة التي سبقت الياء فخفت قوة الياء، فقلبت واوا لمناسبة الضمة، وكذلك في بعض الأبنية كباب "فعلى" مثل: التقوى من الوقية، والفتوى من الفثيا، طلبا للتخفيف أو للفصل بين الاسم والصفة، وقد يُراعى في هذا القلب أيضا التوسع أو كراهة توالي الأمثال، كما في الحيوان من الحيان.

علّل ابن جني قلب الواو والياء بغدها صوتا واحدا أو حركة واحدة حين قال: «وإنا كان الأصل في: قَامَ قَوْمَ، وفي باع بَيَعَ... فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة، وهي الفتحة، والواو أو الياء، وحركة الواو

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص234

² - المصدر نفسه، ص238

³ - المصدر نفسه، ص237

والياء-كُره اجتماع ثلاثة أشياء متقاربة؛ فهربوا من الواو والياء إلى لفظ تُؤمن فيه الحركة، وهو الألف، وسوغها أيضا انفتاح ما قبلها»¹.

نشير إلى أن؛ القدماء والمحدثين اختلفوا في تفسير التغيرات الطارئة على هذه الظاهرة؛ بيد أنهم يتفقون على أن سببها هو كراهية تتابع الحركات، لما فيها من مشقة النطق يقول ابن جني: «وإنما قلبت - يعني الواو الساكنة المكسور ما قبلهما -؛ لأنك إذا بدأت بالكسرة، فقد جئت ببعض الياء، وآذنت بتمامها، فإذا تراجعت عنها إلى الواو فقد نقضت أول قولك بآخره، وخالفت بين طرفيه، وكذلك إذا بدأت بالضممة ثم جئت بعدها بالياء فقد جئت بأمر غيره المتوقع؛ لأنك لما جئت بالضممة تُوقعت الواو، فإذا عدلت إلى الياء فقد نقضت بآخر لفظك أوله»².

رغم ثقل التتابع؛ إلا أنه وردت أمثلة في اللغة العربية ضمن مواضع محددة «إن كان مستثقلا فليس بمستحيل في الطاقة والطوع»³.

2/ قلب حروف العلة همزة:

يكون إبدالها من الألف؛ نحو قراءة السخيتاني قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاحة، 7] بالهمز؛ أي: همز ألف كلمة "الضالين"، وعلة الإبدال هنا أنه كره اجتماع الساكنين الألف واللام الأولى؛ إذ الأصل في الكلمة هو "الضاللين"، وهي صيغة جمع فاعل من الفعل "ضلّ يضلّ"، أي: "الضالون" أي الفاعلون، ونظرا لاستثقال التقاء حرفين متحركين متماثلين، تم تسكين اللام الأولى وإدغامها في الثانية، فتتج عن ذلك التقاء ساكنين: الألف واللام الأولى المدغمة، فحُرِّك الألف لالتقائهما، فانقلبت همزة⁴؛ وذلك لأن «الألف حرف ضعيف واسع المخرج، لا يتحمل الحركة (...)، فإذا اضطرّوا إلى تحريكه قلبوه إلى أقرب الحروف منه وهو الهمزة»⁵؛ فالألف صوت "هاوي واسع المخرج" - كما ذكر ابن جني - لا يعتمد على مخرج محدد لا تحمل

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 37

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 35

³ - المصدر نفسه، ص 35

⁴ - المصدر نفسه، ج 1، ص 86، والمحتسب، ابن جني، ج 1، ص 124

⁵ - المصدر نفسه، ج 1، ص 86

الحركة؛ فهي تأتي ساكنة دائماً، وعند التقاء ساكنين في كلمة واحدة يُضطر إلى تحريك تلك الألف وتُقلب همزة لقرب الألف من الهمزة في المخرج- كما ذكر من مخرج الحلق-، أما الهمزة فحرف شديد يتحمل الحركة.

ولمعالجة هذا الالتقاء- كما ذكر ابن جني في المحتسب- أنه زيد في مدّ الألف واعتمد على هذا الامتداد الصوتي ليقوم مقام التحريك، إذ إن الحروف تزداد وضوحاً بالصوت عندما تُحرَّك، كما أن الألف يزداد صوته بامتداد المدّ، فيصبح المدّ بمثابة تعويض صوتي عن الحركة، والهمزة بدل من المدة¹.

روى أبو العباس مُحمَّد بن يزيد عن أبي عثمان عن أبي زيد قال: "سمعت عمرو بن عبيد يقرأ قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن، 39] بهمز كلمة جان؛ أي: جان، قال أبو زيد: فظنته قد لحن، إلى أن سمعت العرب تقول: شأبة ودأبة"²، وقال الشاعر³:

وَبَعْدَ انْتِهَاضِ الشَّيْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... عَلَى لَمَّيْ حَتَّى اشْعَالَ بِهَيْمِهَا

يقصد الشاعر: أن شعره امتلأ بالشيب وكثر فيه الشعر الأبيض. والشاهد في قوله: "اشْعَالَ" فحرك الألف؛ لالتقاء ساكنين فانقلبت همزة؛ لأن الألف حرف ضعيف واسع المخرج، لا يحتمل الحركة.

والمقصود: اشْعَالَ من قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم، 4] وهذا لا همز فيه.

يشير اللحياني إلى إبدال الألف همزة في كلمة الباز لتصير البَاز، ويُعزى هذا الإبدال إلى مجاورة الألف الساكنة لفتحة الباء التي قبلها، ما يجعلها قابلة للمعاملة كأنها متحركة؛ حيث أن الحرف الساكن إذا جاور الحركة فقد تُنزله العرب منزلة المتحرَّك بها⁴، وفي هذا السياق يقول جرير⁵:

لَحَبَّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَى مُوسَى

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 124

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 87

³ - اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن، "ج" "لم" مادة "ل م م". اللسان "5/ 4087. المصدر نفسه، ج 1، ص 87

⁴ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 125-126

⁵ - حيث يقول في ديوانه: لَحَبَّ الْوَا فِدَانٍ إِلَى مُوسَى وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَ هَمَا الْوَقُودُ. ديوان جرير، جرير، نعمان مُحمَّد أمين طه، دار المعارف، مصر، ج 1، ص 288

همز الشاعر الواو في كلمتي: **المؤقدان** ومؤسى؛ لأن الواوين جاورتا ضمة الميم، ممّا أضفى عليهما حكما صوتيًا مشابها، ومثل ذلك **أَقَّتت في وُقَّتت، وأجوه في وُجوه**. وغيرها من الأمثلة¹؛ فهمز الواو بسبب مجاورتها لضمة الميم التي قبلها، وهو ما يتماشى مع قاعدة جواز همز الواو المضمومة ضمًا لازماً، ولذلك فإن الفتحة التي تسبق الألف في باز تُعامل معاملة الحركة الكامنة في الألف، وهو ما يبرّر همز الألف بعد تحريكها، والأمر كذلك في كلمتي: **الصّالين وجانّ**.

وهناك من جمع باز على **بثزان ك: رثل ورثلان**، ويرى ابن جني أن هذا لا يرقى إلى مرتبة اللغة المتداولة، وإنما هو نقل لم يسمع إلا في رواية واحدة، في حين أن الصيغة الأصلية "باز" بالواو هي الشائعة المستفيضة، وقد أورد في ذلك شواهد لغوية إضافية تؤيد الأصل الواوي، مثل تصارييف الكلمة: **بَرا فلانٌ يَبْزُوا إذا "غلب"**، كما يُقال: **بَاز وأبواز وبيزان**، كما بيّن أن كلمة "البازي" اشتقت من اسم الفاعل "بَاز"، ثم حُصّ بها هذا الطائر الجارح، على غرار **صاحب المشتقّ من صحب، ووالد من ولد**، كما أثبتت الهمزة في مواضع أخرى في التصغير مثل: **قويم من قائم، وسئيل من سائل**، وهو ما يدل على جواز الإبدال واستمراره في الهمزة لقوّتها مقارنة بحروف المد، التي لا يُعتد بها لصوتيتها الضعيفة².

يتّضح مما سبق ذكره؛ أن إبدال الألف همزة مرتبط بالتجاور الصوتي؛ فهو ناتج عن تأثر الألف الساكنة بالحركة التي قبلها، ممّا يجعلها متحركة؛ وهذا يتيح قلبها إلى همزة؛ خاصة مع ضعف الألف المدية مقارنة بقوة الهمزة، فهناك علاقة صوتية بين الهمزة والألف بالإضافة إلى أنهما يشتركان في كثرة التغيّر، فاعتماد ابن جني على التقارب الصوتي والصفات في تحليله يعكس فهما عميقا للبنية الداخلية للكلمة العربية، وهو بذلك يراعي طبيعة الأصوات ووظائفها في السياق اللغوي الذي ترد فيه.

بينما يذهب الدارسون المحدثون إلى نفي تلك العلاقة القائمة بين الهمزة وحروف العلة، استنادا إلى اختلافهما في المخرج والصفات، ومن ثم يرفضون إمكانية الإبدال بينهما ويفسّرون التغيّر الذي يحدث (سواء

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص94، والمختسب، ابن جني، ج1، ص126

² - ينظر: المختسب، ابن جني، ج1، ص126-127

في ظاهرة الإبدال عموماً أو الإعلال على وجه الخصوص؛ نتيجة سقوط هاته الأحرف، ثم إحلال الهمزة محلها من باب التعويض¹.

هذا بالنسبة لقلب الألف همزة، أما بالنسبة لقب الواو والياء همزة، فقد بيّن ابن جني أن إبدال الهمزة منهما يكون على ضربين: حيث «تُبدل الهمزة منهما؛ وهما أصلان، وتُبدل منهما؛ وهما زائدتان»².

ففي النوع الأوّل تُبدل الواو أو الياء همزة في حالات معيّنة؛ نحو: وجوه — أجوه، وعد — أعد، وقُتت — أُقُتت.

أقرّ بعض التّحويين هذا الإبدال خاصّة عندما تكون الواو مضمومة ضمّاً لازماً، أو عندما تقع بعد ألف زائدة، كما تُبدل الواو المكسورة والمفتوحة؛ نحو: وسادة — إِسادة، وحد — أحد، كما يظهر الإبدال في الياء نحو: يلل — أَلل³.

كما استدل ابن جني بشواهد أخرى؛ توضّح قلب الواو والياء همزة؛ وذلك حين تقعا طرفاً بعد ألف زائدة، قالوا: قضاء، وسقاء، وشفاء، وكساء، وشقاء، وعلاء، وأصل هذا قضاي، وسقاي، وشفاي، وكساو، وشقاو، وأصل الهمزة هنا ياء؛ لأنّها من قضيت، وسقيت، وشفيت، وأصلها الواو لأنّها من كسوت، وعلاو تقول: كسا يكسو، وعلا يعلو، أما في شقاي فأصلها ياء تقول: شقى يشقى، فالباء مقلوبة عن واو لقولهم: الشقاوة⁴.

علّة هذا القلب عند ابن جني أنّها لما وقعت الياء والواو متطرفتين بعد ألف زائدة ضعفتا؛ وذلك بسبب تطرفهما، ووقوعهما بعد الألف الزائدة المشبهة للفتحة في زيادتهما، فكما قلبت الواو والياء ألفاً؛ لتحركهما ووقوعهما بعد الفتحة في نحو: رحي وعصى، كذلك قلبتا ألفاً؛ لتطرفهما وضعفهما، وكون الألف زائدة قبلهما في نحو: كساء، ورداء، فصار التّقدير: قضاء، وسقاء، وشقاء، وكساء، وعلا⁵.

¹ - ينظر: المنهج الصوتي للبنية العربية - رؤية جديدة في الصرف العربية، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،

1400هـ / 1980م، ص 182-183

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 106

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 106

⁴ - المصدر نفسه، ص 107

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 107

بيّن ابن جني المراحل التي مرت عليها هذه الظاهرة الصوتية؛ قائلا: «فلما التقى ساكنان كرهوا حذف أحدهما، فيعود الممدود مقصورا، فحركوا الألف الآخرة لاتقائهما؛ فانقلبت همزة فصارت: قضاء، وسقاء، وشفاء، وكساء، وشقاء، وعلاء؛ فالهمزة في الحقيقة؛ إنما هي بدل من الألف، والألف التي أبدلت الهمزة عنها بدل من الياء والواو»¹.

لكن النّحاة «اعتادوا هنا أن يقولوا: أنّ الهمزة منقلبة من ياء أو واو، ولم يقولوا من ألف»²، وهذا في نظر ابن جني «تجاوزا منهم في ذلك؛ ولأن تلك الألف التي انقلبت عنها الهمزة هي بدل من الياء أو الواو، فلما كانت بدلا منهما؛ جاز أن يُقال: أن الهمزة منقلبة عنهما»³؛ فابن جني يرى خلاف هذه القاعدة؛ إذ يقول: «فأما الحقيقة فإن الهمزة بدلا من الألف المبدلة عن الياء أو الواو، وهذا مذهب أهل النّظر الصحيح في هذه الصّناعة، وعليه حدّاق أصحابنا»⁴.

أنكر بعض المحدثين - كعبد الصبور شاهين - أن تكون الهمزة في نحو: بناء، كساء، حمراء أن تكون بدلا من ياء أو واو أو ألف، وأن ما حدث في هذه الكلمات ليس إعلالا بالمعنى المعروف، بل هو ظاهرة صوتية ترتبط بإغلاق المقطع المفتوح في نهاية الكلمة؛ إذ كانت الأصول الصوتية لهذه الكلمات على النّحو التالي: بناء، كساو، حمراى، فتنتهي بصوت لين، وبما أن الوقف في العربية يكون على السّكون، فإن الوقوف على مقطع مفتوح (ي) غير مستساغ سمعيا لدى العربيّ، ممّا يدفع إلى العمل على إغلاقه، وقد تحقّق هذا الإغلاق من خلال إحلال الهمزة محل صوت اللّين، وهذا ليس على سبيل التّعويض الصّرفي، وإنما لأداء وظيفة نطقية؛ تهدف إلى قفل المقطع، الذي ينسجم مع الوقف في العربية، وعليه؛ فإنّ الهمزة هنا لا تُعدّ بدلا، بل وسيلة صوتية لتحقيق الإغلاق المقطعي الضروري في نهاية الكلمة⁵.

في السياق ذاته؛ ذكر النّعيمى أن من المحدثين من أنكر أن تكون الهمزة في كلمات؛ نحو: كساء، بناء، وحمراء بدلا من أصوات المدّ الأصليّة، كالياء أو الواو أو الألف، ففي رأيهم أن ما وقع ليس من قبيل الإبدال، بل هو إجراء صوتي؛ هدفه إغلاق المقطع المفتوح، وذلك بإحلال الهمزة محل صوت اللّين بغرض تصحيح

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 93

² - المصدر نفسه، ص 93

³ - المصدر نفسه، ص 93-94

⁴ - المصدر نفسه، ص 94

⁵ - ينظر: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، عبد الصبور شاهين، ص 81

البنية الصوتية لنهاية الكلمة، ويُشير - في هذا الصدد - إلى رأي الباحث شاهين، وهو رأي فيه نظر، فهو من جهة؛ يوافق القدماء في أن الأصل هو بناي، كساو، حمري، غير أنه، رغم تسليمه بهذه الأصول، ومن جهة أخرى؛ يرفض وصف ما جرى بالإبدال، مصرّاً على أن الهمزة هنا تؤدّي وظيفة صوتية، ولا تحلّ محلّ حرف سابق، فهذا التفسير لا يبتعد في مضمونه عما ذهب إليه القدماء، إذ إنّ الواقع الصّوتي يشير بوضوح إلى أن الهمزة جاءت في موضع صوت مدّ، وأدّت دوره، ولا تختلف في طبيعتها الصّوتية عن الهمزة الأصلية في نحو: إنشاء، التي لا خلاف في أصلتها، وبالتالي فإن إحلال صوت مكان صوت آخر يندرج تحت مفهوم الإبدال، بغض النظر عن محاولة تأويله بوظيفة صوتية مغايرة، فالمعطى الصّوتي الثّابت يظلّ هو المرجع في التّوصيف¹.

هذا بالنسبة لإبدال الواو والياء همزة وهما أصلان، أما إبدالها منهما وهما زائدتان؛ فنحو: قلب الياء همزة في مثل علباء وحرباء؛ إذ يرى ابن جني أن أصل ذلك: علباي وحرباي وقعت الياء طرفاً بعد ألف زائدة فقلبت ألفاً، ثم قلبت الألف همزة، على نحو ما تقدم في: كساء ورداء²، والدليل على الأصل اليائي ما ذكره ابن جني حين قال: «أن العرب لما أنثت هذا الضرب بالهاء، فأظهرت الحرف المنقلب لم تظهره إلا ياء (...) فظهر الياء في المؤنث بالهاء دلالة على أن الهمزة؛ إنّما قلبت في حرباء وعلباء عن ياء لا محالة»³.

أما «الواو الزائدة التي قلبت عنها همزة فلم تأت مسموعة عنهم إلا أنّ التّحويين قاسوا ذلك على الياء؛ لأنّها أختها»⁴، فعند التّسبب إلى تلك الكلمات؛ نحو قولنا: صحراوي، وخنفساوي، ثم إذا جُعِلت أسماء أعلام ورُحِّمت، تُحذف ياء النسب، ثم تُقلب الواو ألفاً، ثم تُبدل الألف الأخيرة همزة، لالتقاء الساكنين وعلل ابن جني هذا القلب على نحو ما أورده في كساء⁵، ورداء (صحراء، خنفساء ← صحراوي، خنفساوي ← صحرا، خنفسا ← صحراء خنفساء).

ثانياً/ الإعلال بالنقل: ومن ذلك ما أورده ابن جني في أصل (يقول) و(يبيع)، وأصل (يخاف) و(يهاب): يخوّف ويهيّب، وأصل يطول: يطول، وهذه الصّيغ لا توجب إعلالاً لأن الواو والياء إذا سكن ما قبلهما جرتا مجرى الصحيح، وإعلال المضارع بسبب إعلال الماضي؛ ففسر علة الإعلال بالتسكين بقوله: «فأما

¹ - ينظر: الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي، ص 358-359

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 111

³ - المصدر نفسه، ص 111

⁴ - المصدر نفسه، ص 111

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 112

من ذهب إلى أن يقول، ويبيع، ونحوهما؛ إنما استثقلت الحركة فيهما في الواو والياء؛ فنقلت إلى ما قبلهما فسكتنا، فغير معبوء بقوله؛ لأنّ الواو والياء إذا سكن ما قبلهما جرتا مجرى الصحيح، فلم تستثقل فيهما الحركة¹.

نلاحظ أنّ ابن جني يدحض الرأي القائل: بأن الإعلال في هذين الكلمتين ناتج عن نقل الحركة من حرفي العلة (الواو والياء) إلى الحرف الصحيح قبلهما؛ بسبب ثقل الحركة عليهما، فالنقل هنا بسبب إعلال الفعل ماضي، وإلا فالواو والياء إذا كانتا قبلهما ساكن عوملتا معاملة الصحيح، ويشترط في نقل حركة حرف العلة (الواو أو الياء) إلى الحرف الصحيح الذي قبله؛ أن يكون هذا الحرف متحرك، ويكون عين الفعل؛ نحو: يَقُولُ على وزن يُفْعَلْ؛ فالواو هنا عين الفعل؛ وهو متحرك بالضم فنُقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح الذي قبلها وهو القاف؛ وبقي حرف العلة (الواو) ساكناً، فأصبحت يَقُولُ (لذلك سمي إعلالا بالتسكين).

يرى بعض الباحثين المعاصرين كعبد الصبور شاهين أن ظاهرة الإعلال بالنقل في الأفعال التي على وزن: يُفْعَلُ وَيُفْعَلْ؛ نحو: يَقُولُ وَيَبِيعُ يمكن تفسيرها من منظور آخر؛ ألا وهو: أن الإعلال لم يحدث عن طريق نقل حركة حرف العلة إلى الحرف الصحيح الذي يسبقه، بل يرجع إلى أسباب صوتية أخرى؛ فوجود حرف العلة (الواو أو الياء) مع حركة الضمة أو الكسرة على الحرف الذي يسبقه يُحدث ثقلًا صوتيًا، ولتفادي هذا الثقل، حُذفت الواو أو الياء، وبقيت الحركة، ولتعويض الحرف المحذوف، أُشبعَت الحركة ليُحدث تطويلا في النطق، وهو ما يفسر عدم وجود نقل للحركة، بناء على هذا التعليل، تكون الأفعال: يَقُولُ على وزن يُفْعَلُ، وَيَبِيعُ على وزن يُفْعِلُ (محذوف عين الكلمة) وليس يُفْعَلُ أو يُفْعِلُ. وُطبّق هذا الأمر على أمثلة أخرى؛ نحو: أَقَامَ وَفَقِيمٌ، إذ يُعتقد أن ما حدث هو حذف حرف العلة (الياء أو الواو) وليس نقل حركته².

يقول فوزي الشايب: «وأما الإعلال بالنقل فقط، والذي يمثلون له عادة بـ (يقول، ويبيع) ونظائرها، فهذان يعتقد القدماء أن أصلهما: يَقُولُ، وَيَبِيعُ، ثم نقلت حركة حرف العلة إلى الصحيح الساكن قبله، وبقيت العين على حالها، والقول بأن الأصل في هذين الفعلين ونظائرها هو سكون الفاء مرفوض، والقول بنقل الحركة من أصل لآخر مرفوض أيضا، وما قلناه عن الأفعال السابقة نقوله هنا، أي: أن الأصل فيها تتابع أربعة مقاطع قصيرة، وقعت فيهما الياء والواو بين حركتين فضعف مركزهما،

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 824

² - ينظر: المنهج الصوتي للبنية العربية، عبد الصبور شاهين، ص 199

فسقطتا، فتشكل من الحركتين اللتين تكتنفانها حركة طويلة، فمن يَقُول إلى يَقُول، ومن يَبِيع إلى يَبِيع¹، فذهب فوزي الشايب إلى أن القاف مضمومة والباء مكسورة من الفعلين، مع أنهما في الماضي مفتوحتان قال، وباع، والسؤال المطروح على رأي فوزي الشايب ما الذي جعل القاف مضموما والباء مكسورة مع أنهما في مفتوحتان؟

يُرَجَّح أن يكون للفعل المعتل وزنٌ صرفيٌّ خاصٌّ به، وعليه؛ يمكن اعتماد أوزان من قبيل (يَفْعُل، يَفْعِل) لأفعال نحو: يقوم ويبيع، بحيث تُعدّ العين ساكنة في الميزان الصرفي، دون الحاجة إلى افتراض حركات تُزال لاحقا، كأن نقول إن العين كانت متحركة ثم سُكنت أو حُذفت، يُستدل لهذا الترجيح أيضا بأن اسم المفعول من هذه الأفعال يأتي بعد الإعلال على وزن (مَفْعُول)، مما ينسجم مع هذا الوزن المقترح دون اضطرار إلى تأويلات إضافية².

ومن مظاهر الإعلال بالنقل ما أورده ابن جني في الأفعال المزيدة التي يظهر فيها هذا النوع من الإعلال، مشيرا في هذا السياق إلى قاعدة منهجية في التعامل مع الظواهر الصوتية غير المألوفة، إذ يقول: «واعلم أن الشيء إذا اطرّد في الاستعمال وشدّ عن القياس، فلا بد من اتّباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتّخذ أصلاً يقاس عليه غيره»³، وهو ما يدلّ على تبني ابن جني لمعيار سماعي يُراعى فيه شيوع الاستعمال، ولو تعارض مع القياس. ويُفهم من ذلك أن المعيار السماعي، وإن تم اعتماده في تفسير بعض الظواهر اللغوية، لا يُعمم ولا يُجعل قاعدة قياسية يُقاس عليها سواها من الظواهر؛ وبناء عليه، يقرّر ابن جني أن الأفعال المزيدة التي يظهر فيها الإعلال بالنقل، مثل: استصوب، واستحوذ، فيقال: استصوبت الشيء ولا يُقال استصبت، إنما تُقبل كما وردت في الاستعمال، دون أن يُستنتج من ورودها قاعدة عامة يُقاس عليها⁴.

من صور الإعلال بالنقل؛ ما ذكره ابن جني في الإعلال بالقلب المترتب على نقل الحركة؛ وذلك من أجل معرفة البنية الأصلية فقال: «الأصل في قام، قَوْمَ وفي باعَ بيعَ، وفي طَالَ طُولَ، وفي خاف ونام وهاب خَوْفَ ونَوْمَ وهَيْبَ، وفي شدَّ شدَّدَ، وفي استقام استَقْوَمَ، وفي يستعين يَسْتَعُونُ، وفي يَسْتَعِدُّ

¹ - من مظاهر المعيارية في الصرف العربي، فوزي الشايب، ص 89 - 90.

² - ينظر: الإعلال والإبدال والإدغام في ضوء القراءات القرآنية واللهجات العربية، أنجب غلام نبي بن غلام مُجَدّ، ص 263

³ - الخصائص، ابن جني، ص 110

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 110

يَسْتَعِدُّ¹، فذكر ابن جني أن هذا يوهم أن هذه الألفاظ، وما كان نحوها مما يُدعى أن له أصلاً يخالف ظاهر لفظه قد كان يقال مرة؛ بمعنى أنهم كانوا يقولون في موضع : قام زيد: قوم زيد، وكذلك نوم جعفر، وشَدَدَ أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوه، وطوّل مُجَدَّ، وليس الأمر كذلك بل بضدّه؛ وذلك لأنّه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه².

فابن جني يرجع مختلف الأفعال الثلاثية والرباعية والمزيدة المعتلة العين إلى أصولها الصرفية على نحو ما يلي: استقام ← استقوم، يستعين ← يستعون، يستعدّ يستعدد، قام ← قوم، نام ← نوم، شدّ ← شدد، استعدّ ← استعدد، طال ← طوّل، فبين بذلك أن الأفعال المعتلة قد تكون لها أصول صحيحة تظهر في بعض الأبنية أثناء التصريف، لكنها في نظره أصول افتراضية ليست موجودة في الاستعمال. فهذه الصور من الإعلال قائمة على أمرين³: أولهما حذف حرف العلة، وثانيها نقل حرف العلة.

ثالثاً: الإعلال بالحذف:

له صور؛ منها:

لـ قال ابن جني: «وقد حُذفت الواو فاء، نحو: يعدّ وعدة»⁴؛ فهنا فعل ثلاثي فاؤه واو، عينه مفتوحة في الماضي (وعدّ) مكسورة في المضارع (يعدّ)، فحُذفت (الواو) في المضارع: يعدّ والأمر: عدّ، والمصدر: عدة، والتاء في المصدر تعويضاً عن الواو المحذوفة.

لـ ومن صور الإعلال بالحذف التقاء الساكنين؛ بشرط أن يكون أحدهما حرف علة (مد)؛ أي أن يلتقي حرف المدّ مع ساكن بعده، فينتج عن ذلك حذف حرف العلة؛ وفي هذا السياق أورد ابن جني مسألة دارت بين الفراء وأبي عمر الجرمي؛ إذ سأل أبو عمر أبا زكرياء عن أصل قُم، فقال: "أَقُوم، قال: فصنعوا ماذا؟ قال: استثقلوا الضّمة على الواو، فأسكنوها، ونقلوها إلى القاف، فقال له أبو عمر: (هذا خطأ)؛ الواو إذا سكن ما

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 213-214

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 214

³ - ينظر: علم الصرف الصوتي، عبد القادر عبد الجليل، ص 416

⁴ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 294

قبلها جرت مجرى الصحيح، ولم تستثقل الحركات فيها"¹؛ فالحركة على حرف العلة ليست ثقيلة إلا إذا سُبقت بمتحرك.

يعلل ابن جني صحّة قول أبي عمر بـ: "إسكانهم إياها وهي مفتوحة في نحو: يخاف وينا، ألا ترى أن أصلهما: يخوّف، ويَنوّم، وإنما اعتلال المضارع هنا محمول على اعتلال الماضي"².
ومنه؛ فالأصل في قُم من:

قَامَ ← يَقُومُ ← قُومُ ← قُمُ؛ التقى ساكنان، الأول هو حرف العلة، والثاني هو سكون الميم، فيحذف الساكن الأول.

لـ كما تم حذف الهمزة في المضارع واسم الفاعل واسم المفعول من الفعل الماضي المزيد بهمزة وذلك نحو: الفعل: أكرم ← يُكرم ← مكرم ← مكرم، كما أن حذف الهمزة في هذه الصيغة يستوجب إثباتها في المصدر الإكرام.³

لـ ومن ذلك حذف الواو في فعل الأمر من قام؛ فتصبح قُم، ويشير - هنا - ابن جني إلى ظاهرة صوتية تُعرف بـ: هجوم الحركة الثانية الحادثة على الحركة الأولى الراجعة؛ إذ تُنقل حركة حرف معين إلى ما قبله، فعلى سبيل المثال، عند إسناد الفعل رمى إلى واو الجماعة، تنتج الصيغة يَرْمُونَ، وذلك نتيجة نقل حركة الياء وهي الضمة إلى الحرف الذي قبلها وهو الميم، مما أدى إلى زوال كسرة الميم وحلول الضمة محلها، ثم تُحذف الياء، لتفادي التقاء الساكنين⁴، وذلك على النحو الآتي: رَمَى ← يرمي ← رَمِيُو ← رَمِيُو (يرميون) ← رَمُو ← يرمون.

لـ ومن ذلك حذف آخر الفعل المعتل، يقول ابن جني: «والعين أقوى من الفاء واللام؛ وذلك لأنّها واسطة لهما، ومكنوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها»⁵، فابن جني يرجع درجة تأثر الصوت بالتغيرات الصرفية المختلفة إلى موقعه في الكلمة، حيث

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 834

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 834

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 120

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 724

⁵ - المصدر نفسه، ص 409

يعد طرفي الكلمة أكثر عرضة لهذا التغيير؛ فعين الكلمة أقوى من فائها ولامها كونها واسطة لهما محاطة ومحصنة بهما من التغيرات أو الإعلاّلات.

إنّ اتّصال الإعلاّلات بأصوات اللّين؛ خلق لدى المحدثين صعوبة كبيرة في دراستهم لهذه الظاهرة؛ وذلك من جانبين¹:

- الجانب الأول: خلط القدماء بين أصوات المد وأصوات اللين، ودمجهم النوعين برمزٍ اثنين.

- والجانب الثاني خلط المحدثين بين الأصوات الإنزلاقية وأصوات اللين (الصامتة).

فالعربية تحتوي على ثلاثة أنواع من الأصوات تتفق جميعها في الرمز²:

لـ النوع الأول صوتا اللين الصامتين؛ وهما الواو والياء في مثل: وعد يعد.

لـ والنوع الثاني صوت المصوتين، وهما الواو والياء في مثل: ثوم وعيد.

لـ والنوع الثالث حركات مزدوجة وهما الواو والياء في مثل: يوم وبيت، ولذلك فإن الإعلاّلات يتناول الواو والياء في هذه الأنواع الثلاثة.

ومعلوم أنّ الكلمة إذا كثر استعمالها جاز تخفيفها، وهو ما نصّ عليه الرضي الاستربادي عندما ذهب إلى أنّ تغيير أحرف العلة الثلاثة (الألف والواو والياء) يعود بالإضافة إلى طلب الحفّة إلى «كثرتها في الكلام؛ لأنّه إن خلت كلمة من أحدها فخلّوها من أبعاضها - أعني الحركات - محال، وكل كثير مستثقل وإن خفّ»³.

يبدو أنّ التبادل بين حروف العلة لم يقتصر على اللغة العربية فحسب؛ بل تؤكّد دراسات المحدثين أنّ «تناوب أصوات اللّين لم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية»⁴، ولم يختلف غرض الإعلاّلات عند المحدثين

¹ - ينظر: الدرس الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصبيغ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1428-2007م، ص252

² - ينظر: المرجع نفسه، ص252-253

³ - شرح الشافية، الاستربادي، ج3، ص68، وينظر: الخصائص، ابن جني، ص756-757

⁴ - علم اللغة، عبد الواحد وافي، ص308

عنه عند القدماء؛ إذ إن الإعلال يعود إلى «سبب رئيس هو ثقل النطق بالواو والياء إذا تبعها بحركة من جنسهما (ضمة بعد الواو أو كسرة بعد الياء)، أو بعيدة عنهما (كسرة بعد الواو أو ضمة بعد الياء)»¹.

لكن وُجد تباين بين القدماء والمحدثين في توجيهه، وتفسير ما يحدث لهذه الظاهرة الصوتية من تغييرات؛ حيث ذهب المتقدمون إلى أنّ تغيير حروف العلة يتخذ أحد أشكال ثلاثة؛ فإما الإبدال بالقلب، الإعلال بالنقل أو الإسكان، أو أن يُسقط حرف العلة بكامله وقد اصطلحوا عليه الإعلال بالحذف، في حين لم يسلم المحدثون بهذه التعليلات ولا سيما قول القدماء بنقل الحركة؛ في حين نظر المحدثون إلى «الحركات على أنها الركن الأساسي الآخر الذي يعدّ قسيما للأصوات الصامتة، في عملية التطق، ولا يقل شأنه عن هذه الأخيرة»²؛ لأنها تقوم بوظائف عدّة في مختلف الصيغ؛ وكذا تعدّ «مناطاً لتقليب صيغ الاشتقاق المختلفة في حدود المادة الواحدة، فالفرق بين قَتَلَ وقَتِلَ وقتل وقَتول وهلم جرا، من مشتقات (ق ت ل) فرق يأتي عن تنوّع حروف العلة، لا الحروف الصّحيحة»³، فنظروا إلى الحركات على أنها أصوات ثانوية بالمقارنة بالأصوات الصّامتة⁴؛ فالحركة القصيرة عند ابن جني تابعة للحرف ومحتاجة إليه، ولا يجوز وجودها قبل وجوده، إذ الحرف يعدّ كالحل للحركة؛ وهي كالعرض فيه، والحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف⁵، لذلك قالوا بجواز نقلها أو حذفها أو قلبها.

المطلب الثالث: الإدغام:

أولاً/ مفهومه عند ابن جني:

قدّم ابن جني فهما عميقاً لظاهرة الإدغام من منظور صوتي، وأطلق عليه اسم التّقريب معرّفاً إياه بقوله: «تقريب صوت من صوت»⁶، وهو تعريف يكشف عن مدى إدراكه الدّقيق للعمليات الصوتيّة المصاحبة لهذه الظّاهرة.

تناول ابن جني الإدغام في مواضع عدة من مؤلفاته، مؤكّداً على أنه يقوم على أساس تقارب الأصوات في مخرجها أو صفاتها؛ مما يسهل عملية التّطق.

¹ - التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992، ص61

² - الأصوات اللغوية وظواهرها عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب، مصطفى عبد كاظم الحسناوي، ص214

³ - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص72

⁴ - ينظر: الأصوات اللغوية وظواهرها عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب، مصطفى عبد كاظم الحسناوي، ص212

⁵ - ينظر: سر صناعة الاعراب، ابن جني، ج1، ص46

⁶ - الخصائص، ابن جني، ص399

إنّ الإدغام -عند ابن جني- له مفهوم واسع وشامل لا يمسّ فقط الصّوتين المتماثلين؛ وإنما يشمل فكرة التّقريب ككلّ، وهو يشمل الصّامت والصّائت، وسواء أكان التّأثير كاملاً أم جزئياً، وهو ما يتوافق مع تعريف المماثلة عند المحدثين؛ فهو عندهم ضرب من ضروب المماثلة الصوتية؛ وهي المماثلة التامة الرجعية، حيث يؤثّر الصوت الأول في الصوت الثاني تأثيراً كاملاً¹.

ثانياً/ أقسامه:

قسّم ابن جني الإدغام في كتابه الخصائص إلى: إدغام أكبر، وإدغام أصغر؛ والأكبر؛ وهو ما أطلق عليه اسم الإدغام المألوف المعتاد، وهو على ضربين²:

لأحدهما: أن يلتقي المتماثلان في الأحكام التي يكون عنها الإدغام، فيدغم الأول في الآخر، كما أنّ الأول من الحرفين يكون على ضربين: ساكن ومتحرّك؛ فالساكن نحو: طاء؛ كقطع والأصل: قَطَطَع، والمتحرّك نحو: دال؛ كشدّ والأصل: شدَدَ، ولام: معتلّ، وأصلها: معتلّ.

لآخر: أن يلتقي المتقاربان في الأحكام التي يسوغ معها الإدغام؛ فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغمه فيه، وذلك مثل: ودّ في اللغة التميمية، وامحى، وامتاز، واصبر، واثقل عنه؛ وذلك لتقريب الصوت من الصوت؛ وأصل ذلك كله: وتدّ، امتحى، امتاز، اصبر، اثناقل.

وضّح ابن جني كيفيّة حصول الإدغام؛ فقال: «ألا ترى أنك في قطع ونحوه، قد أخفيت الساكن الأول في الثاني حتى نبا اللسان عنهما نبوة واحدة، وزالت الوقفة التي كانت تكون في الأول لو لم تدغمه في الآخر؛ ألا ترى أنك لو تكلفت ترك ادغام* الطاء الأولى؛ لتجشمت لها وقفة عليها تمتاز من شدة مازجتها للثانية بها؛ كقولك قَطَطَع وسُكَّكِر، وهذا إنما تحكمه المشافهة به. فإن أنت أزلت تلك الوقفة والفترة على الأوّل خلطته بالثاني؛ فكان قرينه منه، وادغامه فيه أشدّ لجذبه إليه وإلحاقه بحكمه»³.

¹ - ينظر: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ص 236

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 399

* - والإدغام بتشديد الدال هو مصطلح البصريين على وزن افعل؛ أي ادغم، ويسكونها (الإدغام) هو مصطلح الكوفيين مشتق من أفعل أي ادغم ومصدره الإدغام (الإفعال)، ولا ضير في المصطلح ففي كليهما الدلالة المنشودة، إذ الفائدة متحققة في كلا الضبطين. ينظر: الإدغام الأصغر عند ابن

جني، كريمة أبو القاسم خليفة، إنجد، مجلة جامعة صبراتة العلمية، المجاهد 7، العدد 14، (ديسمبر، 2023م)، ص 137-138

³ - الخصائص، ابن جني، ص 399

أما الإدغام الأصغر؛ فقد عرّفه بقوله: هو «تقريب الحرف من الحرف، وإدناؤه منه من غير ادغام»¹، وهو على ضربين؛ فمن ذلك^{2**}:

لـ الإمالة نحو: نطق كلمة عالم بتقريب فتحة العين من كسرة اللام أي إمالة الألف نحو الياء.

لـ قلب تاء افتعل طاء؛ إذا كانت فاءه صاداً أو ضاداً، أو طاءاً أو ظاءاً؛ نحو: اضطرب واضطرب، واطّرد، واطظلم.

لـ قلب تاء افتعل دالاً؛ إذا كانت فاءه زايًا أو ذالاً أو دالاً؛ نحو: ازدان، وادّعى، وادّكر، أصلها: اذتان، ادتعى، ادتكر؛ قربت التاء من الدال والذال والزاي فأقلبت دالاً:

لـ قلب السين صاداً؛ إذا كانت قبل الحرف المستعلي؛ نحو: قولهم في سقت: صُقت، وفي السوق: الصّوق، وفي سقر: صقر.

لـ تقريب السين من الدال في كلمة ست التي أصلها سدس؛ فأقلبت تاءاً.

لـ تقريب الصوت من الصوت مع حروف الخلق،: شعير، وبِعِير، ورغيف، وهو تكييف حركة الحرف؛ لتتماشى مع الحرف المجاور له؛ وهو ما يُعرف بالاتباع الحركي، فكل من الشين والباء والراء تُنطق مكسورة تبعاً لكسرة العين والغين في هاتيه الكلمات .

لـ قولهم: فَعَلَ يَفْعَلُ مما عينه أو لامه حرف حلقي؛ نحو: سأل يسأل، وقرأ يقرأ، وسعر يسعر، وسحل يسحل، وسبح يسبح.

لـ ومنه التقريب؛ قولهم: الحمد لله، والحمد لله؛ ضُمت لام لفظ الجلالة لضمة الدال في "الحمد، وكُسرت الدال في العبارة الثانية تبعاً لكسرة لام لفظ الجلالة.

ذكر ابن جني في المحتسب ورود روايات عن بعض القراء من أهل البادية بضم الدال واللام، وأخرى بكسرها في: الحمد لله، وهي قراءات شاذة؛ من حيث القياس اللغوي، لكنّها تستند إلى كثرة الاستعمال في

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 399

^{**} - كل هذا يأتي مفصلاً عند التطرق إلى ظاهري الإمالة والمماثلة

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 399-402

اللغة المحكية، مما يرر بعض التغيير الصوتي، ويشير إلى أن كثرة الاستعمال تؤدي إلى تسهيل النطق عبر الإتياع الحركي؛ أي أن الصوت الثاني يتبع الأول في الحركة، كما في أمثلة؛ مثل: عُثْقَ وطُنْب، وإِبل وإِطْل، حيث يُعامل التركيب "الحمد لله" كأنه وحدة صوتية واحدة، لا كمبتدأ وخبر منفصلين¹.

لـ ومنه تقريب الحرف من الحرف ، نحو مصدر ومزدر.

لـ ومن ذلك إضعاف الحركة؛ لتقريبها من السكون.

ما يلاحظ أن ابن جني ربط الإدغام الأصغر بظواهر صوتية أخرى، من باب مفهوم التقريب عنده، فهو شامل لمختلف أشكال تقريب الأصوات بعضها من بعض؛ من حيث الصفات والمخارج دون دمج كلي، فكل من الإمالة والإبدال، والتسهيل وغيرها من الظواهر الصوتية تمثل أنماطاً مختلفة من التقارب الصوتي؛ فالصوت يتحقق في سياقه التركيبي والصوتي، ومفهوم التقريب يعرف في الصوتيات الحديثة باسم التجانس الصوتي أو المماثلة (Assimilation).

ختم ابن جني كلامه عن هذا الإدغام بقوله: «وجميع ما هذه حاله مما قُرب فيه الصوت من الصوت جار مجرى الإدغام بما ذكرناه من التقريب، وإنما احتطنا له بهذه السمة التي هي الإدغام الصغير؛ لأن في هذا إيداناً بأن التقريب شامل للموضوعين، وأنه هو المراد المبغى في كلتا الجهتين»²؛ فكل ما فيه تقارب صوتي يعدّ ضمن باب الإدغام - وإن لم يدمج الصوتان - بصورة كاملة، مادام حضور علّة التقريب، سواء أكان الإدغام كبيراً أم صغيراً، وقد ميّز ابن جني بين درجات الإدغام، فأطلق على النوع الذي لا يتحقق فيه الإدغام الكامل مصطلح الإدغام الصغير، تمييزاً له عن الإدغام الكبير، ومن ثمة؛ أكد ابن جني على أن كل حرفين تقارباً مخرجاً أو صفة؛ يمكن إدغامهما ادغاماً صغيراً، ويهدف هذا الإدغام أياً كان نوعه إلى تيسير، وتسهيل عملية النطق.

ثالثاً: الغرض منه:

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 110-111

² - الخصائص، ابن جني، ص 402-403

الغرض التداولي من الإدغام هو التّخفيف والتّيسير؛ وهو ما تؤيّده الدّراسات اللّغويّة الحديثة؛ حيث تميل اللغة إلى الإدغام عند توالي صوتين متماثلين أو متقاربين؛ لتحقيق الانسجام الصوتي والاقتصاد في الجهد العضلي عن طريق تجنب الحركات التّطقيّة التي يمكن الاستغناء عنها¹.

المطلب الرابع: الإمالة في كتب ابن جني

أولا/ تعريفها وأنواعها

تناول ابن جني هذه الظاهرة بالتّحليل والتّأصيل والتّعليل، وضبط قواعدها وحدّد مواضعها وأسبابها وموانعها، فكيف نظر ابن جني للإمالة؟ وما حقيقتها؟ وما العوامل التي أدّت إلى حدوثها؟ وما الموانع التي تحول دون تحقّقها؟ وكيف يمكن تفسيرها في ضوء الدّرس الصّوتي الحديث؟

أفرد ابن جني في كتابه اللّمع بابا لهذه الظاهرة معرّفا إيّاها، ومبيّنا أسبابها، وما يمال وما لا يمال²؛ فعرفها بقوله: «أنتنحو بالفتحة إلى الكسرة، فتميل الألف نحو الياء لضرب من تجانس الصّوت، وذلك قولك في عالم: عالم وفي سالم: سالم، وفي جالس: جالس، وفي رمى: رمى، وفي سعى: سعى، ونحو ذلك»³، أمّا في كتابه سر صناعة الإعراب فقد تحدث عن هذه الظاهرة في مواضع متفرّقة فعالجها ضمن قضايا عدّة؛ مثلاً في سياق حديثه عن مجموعة الحروف الحسنة⁴، وعرف ألف الإمالة فقال: «وأما ألف الإمالة فهي التي تجدها بين الألف والياء؛ نحو: قولك في عالم وخاتم عالم وخاتم»⁵، كما أشار ابن جني أنّه بالإضافة إلى الحركات الأصلية التي تتمثّل في الفتحة والضّمة والكسرة، توجد حركات فرعيّة؛ وهي⁶:

لـالفتحة المشوبة بالكسرة؛ فقال: «وأما الفتحة المشوبة بالكسرة؛ فالفتحة التي قبل الإمالة نحو: فتحة عين عابد وعارف»⁷، ثم عرّفها قائلاً: «أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة؛ فتميل الألف التي بعدها نحو الياء؛

¹ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص332

² - اللّمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: سميح أبو مُغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 1988م، ص157

³ - اللّمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، ص156

⁴ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص59

⁵ - المصدر نفسه، ص64

⁶ - ينظر: المصدر نفسه، ص67-68

⁷ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص67

لضرب من تجانس الصّوت»¹، وهنا الحركة ليست فتحة محضة بل هي مشوبة، وكذلك الألف التي تليها ليست ألفا محضة؛ إذ الألف تابعة للفتحة، والإمالة هنا في ضوء الدرس الصوتي الحديث إمالة رجعية؛ وذلك لتأثر الألف بما بعده²؛ أي أن الكسرة وهي الصّوت اللاحق أثّرت في الألف وهو الصّوت السابق لها.

كما ذكر ابن جني من أوجه الفتحة المشوبة بالكسرة قولهم: مَنْ عَمِرُو فِي: من عَمِرُو، وقرأ بعضهم: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ بإمالة الفاء من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام، 33]، كما قرئ: وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ: بإمالة الواو من قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة، 155]، وفي رأى القمر: ورأى القمر: بإمالة الراء.

لـ والفتحة المشوبة بالضمة؛ إذ ذكر الفتحة المحالة نحو الضمة؛ هي التي تكون قبل ألف التفخيم؛ نحو: الصلاة والزكاة، وقَام وصَاغ، والفتحة هنا ليست محضة، بل هي مشوبة بشيء من الضمة، فكذا الحرف الذي بعدها وهو الألف ليست ألفا محضة.

لـ وأما الكسرة المشوبة بالضمة فنحو: بُيِع، وَغِيض، والكسرة ليست محضة بل هي مشوبة بالضمة، فكذاك الياء مشوبة بروائح الواو.

لـ وأما الضمة المشوبة بالكسرة، فنحو قولنا في الإمالة: مَرَّتْ بِمَدْعُورٍ، نحونا بضمة العين نحو كسرة الراء، فأشتمناها شيئاً من الكسرة، والحركة التي قبل الواو ليست ضمة محضة، ولا كسرة محضة، فذلك الواو فهي مشوبة بروائح الياء.

نستشفّ مما سبق ذكره؛ أن الحروف تتأثر بالحركات السابقة عليها؛ فكما أن الحركة تكون مشوبة بحركة أخرى وغير خالصة (ليست محضة) في مواضع معينة، فكذاك الصّوت اللاحق لها يكون مشوباً بصوت آخر، كما تبين أن الفتحة يُنحى بها نحو الضمة والكسرة، في حين، الكسرة يُنحى بها نحو الضمة فقط والعكس صحيح، أي أن الضمة يُنحى بها نحو الكسرة فقط، ولا يجوز أن ينحى بهما نحو الفتحة.

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 67

² - ينظر: التعليل الصوتي عند العرب في ضوء علم الصوت الحديث - قراءة في كتاب سيبويه-، عادل نذير بيرى الحسني، ديوان الوقف السني، بغداد، ط 1، 1430هـ/2009م، ص 220

أرجع ابن جني ذلك أن الفتحة تُعدّ الحركة الأصليّة والأولى، ومخرجها من أقصى الحلق، وهي سابقة لمخرج الكسرة والضمة، وعند نطق الفتحة، يتحرّك الصّوت صعوداً نحو مقدّمة الفم، ماراً بمخرجي الياء والواو، مما يسمح بإشتمامها شيئاً من صفات الكسرة أو الضمة، أما في حال محاولة تقريب الضمة أو الكسرة من الفتحة، فإن ذلك يتطلب رجوع الصوت إلى الحلق، وهو ما يتعارض مع المسار الطبيعي للتصعيد الصوتي ويُحدث اضطراباً في النطق، لذا امتنع هذا النوع من الإشمام¹؛ لعلّة فيزيولوجيّة نطقية.

والتوجه بالفتحة نحو الضمة أو بالألف نحو الواو؛ هو ما يطلق عليه "التفخيم" الذي دون الاستعلاء؛ يقول ابن جني في ذلك: «وأما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو، نحو قولهم: سلام عليك، وفام زيد، وعلى هذا كتبوا: الصلوة والزكوة والحيوة بالواو؛ لأنّ الألف مالت نحو الواو»²، مضيفاً أنّهم «كتبوا إحداهما وسوّاهن بالياء لمكان إمالة الفتحة قبل الألف إلى الكسرة»³؛ فالألف في التفخيم هي التي تُمال نحو الواو، أما في الإمالة فالفتحة التي قبل الألف تُمال نحو الكسرة.

قال في باب "الهمزة": «أن الحركة المجاورة للحرف الساكن كأنها فيه في قولهم: مصباح، ومقلات فأجاز فيهما الإمالة، والفتح جميعاً»⁴، وذكر أن حروف الاستعلاء من موانع الإمالة حين قال: «أما الفتح؛ فلأن الصاد والقاف قد جاورتا الفتحة التي بعدهما؛ وهما ساكنتان؛ فكانتا كأنهما مفتوحتان؛ فصارتا كأنهما صَباح وفَلات»⁵، أما تعليله إمالتها؛ فلأنهما «قد جاورتا الميم؛ وهي مكسورة، فصارتا كأنهما صَباح وفَلات»⁶، فصار فيهما الوجهان .

تحدث أبو الفتح عن الإمالة في كتاب الخصائص أثناء حديثه عن الإدغام الأصغر؛ فأطلق عليها مصطلح التقريب حين قال: «وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصّوت من الصّوت (...) ألا تراك قرّبت فتحة

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 68

² - المصدر نفسه، ص 64

³ - المصدر نفسه، ص 64

⁴ - المصدر نفسه، ص 93

⁵ - المصدر نفسه، ص 93

⁶ - المصدر نفسه، ص 93

العين من عالم إلى كسرة اللام منه، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الألف نحو الياء، وكذلك سعى وقضى نحوت بالألف نحو الياء التي انقلبت عنها»¹.

فالإمالة- عنده- نوع من أنواع الإدغام الذي يحدث فيه تقارب الصّوتين من غير دمج كلّيهما. وتقريب الصّوت من الصّوت يؤدّي إلى الانسجام والتّجانس بين الأصوات؛ فالإمالة تتم لغرض تجانس الأصوات، فهي أن ينحو المتكلّم بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء لغرض تقارب وتجانس الأصوات؛ تسهيلاً لعملية النطق

ينكر المحدثون وجود فتحة قبل الألف؛ لأن في- في نظرهم- الألف هي فتحة طويلة؛ وذلك لأنّ الحركة التي قبل الألف لا وجود لها في الإمالة ولا في غير الإمالة².

إن مسألة أن الحركات تكون قبل الحروف أو معها أو بعدها مسألة خلافيّة بين علماء العربية، وكلّ مذهب استند في توجّهه إلى أدلّة؛ لخصّ ابن جني في كتابه الخصائص هذه الآراء في "باب محل الحركات من الحروف أمعها أن قبلها أم بعدها"³؛ إذ اختلف التّحويون في ذلك على ثلاثة آراء؛ فرأى سيبويه بأن الحركة تحدث بعد الحرف لا قبله، ورأى آخرون بأنّها ملازمة للحرف فهي تحدث معه، ورأى آخر يراها تحدث قبله لا معه ولا بعده، ولكل فريق حجّة استند إليها.

يرى سيبويه أن الحركة تحدث بعد الحرف؛ ويستدلّ ابن جني لهذا الرأي بمنع الإدغام بين المثلين إذا فصلت بينهما حركة، نحو: الملل، والضّقف، والمشش؛ كما تفصل الألف بعدها كالملال والضفاف والمشاش؛ فالحركة تمنع إدغام المثلين، مما يدلّ على أنّها لاحقة للحرف، لا سابقة له، وعلق أبو علي الفارسي أن الخلاف في هذه الآراء سببه لطف المسألة وغموض حالها⁴؛ فإذا فصلت حركة بين حرفين متماثلين، فإنّها تمنع الإدغام، ولو كانت الحركة قبل الحرف، فلا تؤثر في منع الإدغام، مما يدلّ على أنّها لاحقة له، ففي مثال: الملل الحركة أتت بعد الحرف الأول؛ ففصلت بينه وبين الحرف الثاني؛ مما سبب في منع الإدغام بين هذين المتماثلين.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 399

² - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 38، والدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، سلسلة دراسات، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1980م، ص 202

* - أم

³ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 519

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 519

من الأدلة التي ساقها ابن جني؛ لتبرير ما ذهب إليه أبو علي في ظاهري الإعلال والإبدال في كلمتي: ميزان، وميعاد؛ أنه تم قلب الواو إلى ياء؛ بسبب الكسرة السابقة للواو؛ فلو كانت الكسرة قبل الميم في: ميزان، لما أثرت على الواو، مما يدل على أن الكسرة لم تسبق الحرف بل وقعت بعده، وهو شرط القلب.

وفي نحو: اطواوجل (من الطي والوجل)، تم قلب الواو الثانية ياء؛ بسبب الكسرة؛ فأصبحت: اطوايجل، فلو كانت الكسرة قبل الواو الأولى، لكانت الواو الأولى حاجزا بينها وبين الثانية، وهو ما يمنع القلب، فيؤكد ابن جني أن الكسرة أدنى إلى الواو الثانية، ومن ثمة؛ وقعت بعدها، وهذا إسقاط لمذهب من قال أن الحركة تحدث مع الحرف، كما رفض ابن جني الاستدلال القائل بأن النون الساكنة تخرج من الأنف، بينما النون المتحركة تخرج من الفم.

يُستنتج من ذلك أن الحركة تؤثر في مخرج الحرف، مما يضعف القول بأن الحركة تحدث قبل أو مع الحرف، من جهة التركيب البنيوي إذ إن الحركة بعض الحرف؛ أي جزء منه، فالفتحة جزء من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو؛ قال ابن جني: «متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفا من جنسها»¹؛ إذ «الحركات أبعاد للحروف»²، وبما أن الحرف لا يمكن أن يحدث مع حرف آخر في اللحظة نفسها، فإن بعضه كذلك لا يمكن أن يحدث مع حرف آخر، وعليه، لا يمكن للحركة - وهي جزء لا يتجزأ من الحرف - أن تتزامن أو تسبق حرفا آخر، كما أن الحرف الناشئ عن الحركة يظهر بعد الحرف المحرك بتلك الحركة، فتكون بعده لا قبله، فلو كانت قبله لكانت الألف في نحو: ضارب ليست تابعة للفتحة، لمجيء الضاد بينهما، والحس يمنع به بأن تنسب إليه قبول اعتراض معترض بين الفتحة والألف التابعة لها، وكذلك القول في الكسرة والياء، والضمة والواو إذا تبعتهما³؛ وتطبيقا فالتسلسل الزمني للنطق بكلمة ضارب مثلا ننطق الضاد ثم الفتحة ثم الألف ثم الباء.

يمكن القول؛ أنّ الحركة تحدث بعد الحرف؛ فهي تابعة له، لا قبله ولا معه، وهو رأي تؤيده الأدلة التي ساقها ابن جني؛ بالإضافة إلى تحقق بعض الظواهر الصوتية؛ نتيجة كون الحركة بعد الحرف، كما نتلمس ذلك في الجانب النطقي لهاته الظواهر؛ على سبيل المثال ظاهرة الإمالة في الأداء الصوتي الصحيح (التجويد)؛ فإننا

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 514

² - المصدر نفسه، ص 514

³ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 519-522

ننطق الحرف ثم نميل؛ فلو كانت الحركة قبل الحرف لأملنا، ثم نطقنا الحرف، وهذا غير ممكن، كما يُبدأ في تعلم التجويد بالحروف ومخارجها أولا، ثم ذكر حركاتها وصفاتها، كما تؤثر الحركة في الحكم التجويدي من إدغام وغيره؛ نحو: (الملل) امتنع الإدغام بسبب الحركة الفاصلة بين المتماثلين، كذلك في المد، نحو: قائل؛ ننطق القاف ثم الفتحة ثم نمدّ.

وقد اتفق القدماء والمحدثون على أن الفرق بين الكسرة والياء اللينة، وبين الفتحة والألف اللينة لا يعدو أن يكون فرقا في الكمية، فالألف اللينة هي فتحة طويلة، والياء اللينة هي كسرة طويلة كذلك؛¹ وهو ما يؤكد ابن جني بقوله: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والواو والياء»².

ثانيا/ مخرجها

حدّد القدماء مخرج الصوت الممال تحديدا دقيقا يضاهي ما أثبتته الدراسات المخبرية التشريحية وأجهزة التصوير والآلات الحديثة؛ فهو عندهم يكون بينيا؛ إذ الفتحة الممالة «ليست فتحة محضة»³ كما أن الألف الممالة «ليست ألفا محضة»⁴، وبصورة أدقّ قالوا: إن مخرج الألف الممالة «بين مخرج الألف المفخمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء؛ تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفتها»⁵؛ وهو ما يعكس أن الإمالة ظاهرة صوتية بينية "بين بين" موقعها بين الألف والياء؛ من حيث الصفات الصوتية، كما أن درجة الإمالة تتعلّق بمدى ميل الصوت نحو الياء، فكلما كان الصوت قريبا منها كانت الإمالة أشدّ.

في هذا السياق؛ ذكر بعض المحدثين أن الإمالة صوت مدّ؛ يحدث من ارتفاع مقدّم اللسان نحو منطقة الغار، ارتفاعا يزيد على ارتفاعه مع الفتحة المرفقة، ويقلّ عن ارتفاعه مع الكسرة، ويكون وضع الشفتين مع الإمالة وضع انفراج إلا أنّه دون الانفراج الذي يكون مع الكسرة⁶.

بيّن دانيال جونز كيفية نشوء صوت الإمالة، وأن اللسان والشفتين يسهمان في تكوين الحركات؛

فنظر إلى اللسان من ناحيتين¹:

¹ - ينظر: الإمالة في القراءات واللهجات العربية، عبد الفتاح إسماعيل شلي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2008، ص73

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص33-34

³ - المصدر نفسه، ص67

⁴ - المصدر نفسه، ص67

⁵ - شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ج5، ص188

⁶ - ينظر: المحيط في أصوات العربية، محمد الأنطاكي، ج1، ص42

لـ الأولى بحسب وضعه بالنسبة إلى الحنك الأعلى (سقف الفم)؛ من حيث الارتفاع تجاهه أو الانخفاض عنه.

لـ والأخرى بالنسبة للجزء المعين للسان الذي يرتفع باتجاه الحنك أو ينخفض عنه.

أما الشفتان؛ نظر إليهما من حيث ضمّهما؛ وانفراجهما، فأقصى نقطة يمكن أن يصلها مقدّم اللسان بارتفاعه نحو الحنك الأعلى هي موضع المصوّت الذي رمز له بالرمز (i)، وتكون الشفتان أثناء نطقه منفرجتين، أما لما يكون مقدّم اللسان مستويا في قاع الفم مع وجود انحراف قليل في مؤخّر اللسان نحو الحنك الأعلى في موضع للمصوّت الذي رمز له بالرمز (a)، والشفّتان فيه تتّخذان وضعاً محايداً؛ إذ يكونان غير مضمومتين أثناء النطق. أما مارمز له بالرمز (e)؛ فيكون مقدّم اللسان أخفض من موضع (i) بنسبة الثلث والشفّتان تنفرجان أثناء نطقه، أما ما رمز له بالرمز (ε)؛ فيكون مقدّم اللسان أثناء نطقه أخفض من نطق (e) بنسبة الثلث أيضاً، وتنفرج معه الشفتان، وهذه الحركات (i، e، ε، a) تسمى بالحركات الأمامية نسبة إلى مقدّم اللسان (الجزء الأمامي)².

أما أقصى نقطة يصل إليها مؤخّر اللسان (أقصاه) بارتفاعه نحو الحنك الأعلى؛ فهي للمصوّت الذي رمز له بالرمز (u)، والشفّتان فيه مستديرتان، أما عندما ينخفض مؤخّر اللسان إلى أقصى نقطة ممكنة نحو قاع الفم؛ فينتج الصوت الذي رمز له بالرمز (a)، وتتّخذ الشفتان فيه وضعاً محايداً، أما مارمز له بالرمز (o) فيكون مؤخّر اللسان معه أخفض من المصوت (u) بمقدار الثلث، وأعلى من المقياس (a) بمقدار الثلثين، والشفّتان أثناء نطقه مستديرة تقريباً، أما ما رمز له بالرمز (ə)، ويكون مؤخّر اللسان أثناء نطقه أخفض من سابقه بمقدار الثلث، وتكون الشفتان حينها مدورتين³.

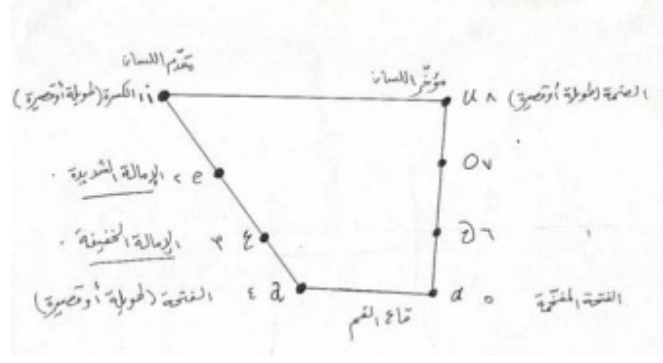
يوضح المبيان هذه المصوّتات⁴:

¹ - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 31-40

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 31-40

³ - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص 40

⁴ - ينظر: الأصوات اللغوية وظواهرها عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب، مصطفى عبد كاظم الحسناوي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1433هـ/2012م، ص 253



إنَّ المصوَّت (i) في اللغة العربيَّة يقابله الكسرة، أما المصوت (a)؛ فهو قريب الشبه من الفتحة، وأما المصوت (e) فهو قريب الشبه من الإمالة الشديدة، في حين المصوت (ع) شبيه الإمالة الخفيفة¹.

نستنتج من هذا المبيان؛ أن الإمالة عبارة عن صوت يحدث من «ارتفاع مقدّم اللسان نحو منطقة الغار، ارتفاعاً يزيد على ارتفاعه مع الفتحة المرققة، ويقلّ عن ارتفاعه مع الكسرة، ويكون وضع الشفتين مع الإمالة وضع انفراج، إلا أنه دون الانفراج الذي يكون مع الكسرة»².

ثالثاً/ أسباب الإمالة وموانعها عند ابن جني:

ذكر ابن جني الأسباب التي تسوّغ الإمالة في كتاب اللّمع في العربية؛ وهي ستة أسباب هي: الكسر، وأن تكون الألف منقلبة عن الياء أو بمنزلة المنقلبة عن والياء، الياء، الكسر الذي قبل الألف، أو الإمالة لأجل الإمالة، وهي وفق التفصيل الآتي³:

1/ الكسرة؛ نحو: في حائد : حائد ، وفي حامد : حامد، أميلت الألف بسبب كسرة الهمزة بعدها، وكذلك : واعد، وعالم.

2/ الياء؛ نحو: شيبان شيبان، وفي قيس عيلان : قيس عيلان.

3/ الألف المنقلبة عن الياء؛ كقولنا في: سعى : سعى، وفي: يرعى : يرعى، وفي: يشقى : يشقى، لقولك : سعيت، ويرعيان، ويشقيان.

¹ - ينظر الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص43

² - المحيط في أصوات العربية ونحوها وصفها، مجّد الأنطاكي، ج1، ص42

³ - ينظر: اللّمع في العربية، ابن جني، ص157-158

4/ الألف التي بمنزلة المنقلبة عن الياء؛ نحو: حَبَلِي، سَكْرِي، حَبَارِي: حَبَلِي، سَكْرِي، حَبَارِي؛ لأنها لو اشتقت منه فعلا بالزيادة لقلت: حَبَلَيْتُ وَسَكَرَيْتُ وَحَبَّرَيْتُ، وكذلك كل ألف تجاوزت الثلاثة .

5/ الألف التي تكسر ما قبلها في بعض الأحوال نحو قولك في: خاف : خاف، وفي هاب: هاب وفي صار: صار، وهي من: خَفْتُ، وهَبْتُ، وصَرْتُ .

6/ الإِمالة للإِمالة؛ مثالها: رأيت عمادا؛ حيث أُمِيلَت فتحة الميم لكسرة العين، ثم أُمِيلَت فتحة الدال للإِمالة قبلها، وكذلك كتبت كتابا، وعملت حسابا .

كما حدد ابن جني الحروف التي تمنع الإِمالة؛ وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والحاء، والغين، والقاف¹، وهي حروف الاستعلاء.

يُشْتَرَطُ لمنع الإِمالة وجود أحد هذه الحروف؛ إما قبل الألف أو بعدها، شريطة أن تكون هذه الأحرف مفتوحة أو مضمومة، وذلك نحو: صالح، ضامن، طالب، ظالم، غالب، خالد، قاسم، فإن فلا يُقال مثلا: خالد أو قاسم بإِمالة الألف، بل يُعد ذلك لحنا وخطأ لغويا، كما في التعبير العامي: فلان قاعد بإِمالة، وهو استعمال غير فصيح، وكذلك إذا وقعت حروف الاستعلاء بعد الألف، في مواضع مثل: حاصل، فاضل، عاطل، متعاضم، شاغل، ساح، منافق، وكذا في الأفعال: تواصل، توافق، تنافق، فإن الإِمالة تُمنع كذلك ما دامت هذه الحروف غير مكسورة².

أما إذا كان أحد حروف الاستعلاء الواقع قبل الألف مكسورا، فإن الإِمالة تجوز، كما في الكلمات: ضعاف، قفاف، خفاف، طلاب، غلاب، كما تجوز الإِمالة؛ إذا جاءت راء مكسورة بعد الألف، حتى وإن سبقت الألف حروف استعلاء غير مكسورة، ومن ذلك: ضارب، صارم؛ إذ تسمح الكسرة الواقعة بعد الألف بحدوث الإِمالة، فإن كانت الراء مضمومة أو مفتوحة مُنعت الإِمالة نحو: رأيت فَراشا، وهذا سراج، وإن كانت قبل الألف راء مفتوحة وبعده راء مكسورة غلبت المكسورة المفتوحة فجازت الإِمالة نحو: جئتكَ في سرار

¹ - ينظر: اللمع في العربية، ابن جني، ص 158، وسر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 221

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 158

الشهر، وهذا من شرار الناس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَلَاخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْأَفْرَاطِ﴾ [غافر، 39]¹.

تطرد الإمالة في الفعل؛ ولو وجد فيه حرف استعلاء نحو: سقى، غزا، قضى، دعا؛ وذلك لتمكّن
الفعل في الاعتلال، ومن ناحية أخرى لا تمال الحروف لبعدها عن الاشتقاق، لكنهم قالوا: بلى؛ فقويت لما
قامت بنفسها، كما قالوا: يا زيد، فأمالوا؛ لأنها قويت لما نابت عن الفعل، فيقال: أدعو زيدا، وأنادي زيدا،
وكذلك الأسماء الموهلة في شبه الحرف، مثل: إذا، على، لدى، وأيا، كما أمالوا متى وأنى وذا قياسا على
تصرف الأسماء، كما أمالوا: عندي ناس على غير قياس، والعجاج، والحجاج، ماداما علمين وذلك بسبب
كثرة الاستعمال².

رابعا/ الغاية من الإمالة عند ابن جني:

تؤدي الإمالة إلى تحقيق التجانس الصوتي، أو «لضرب من تجانس الصوت»³، وهذا التماثل لا
يقتصر على الأصوات بل يحدث بين المصوتات، ويكون بتقريب صوت من صوت آخر، وهو ما يؤكده ابن
جني بقوله: «إنك كما تجد هذه المضارعة، وهذا التقريب بين الحروف - فقد تجده أيضا بين الحركات، حتى
إنك تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة، أو الضمة مَنُحُوا بها إليهما، وتجد الكسرة أيضا مشوبة بشيء
من الضمة، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة»⁴.

يندرج الغرض من الإمالة في كنف علم اللغة الحديث ضمن نظرية الجهد الأقل⁵؛ وذلك أن صوت
الإمالة يتطلب جهدا قليلا في نطقه مقارنة بصوت الفتحة، ولا سيما أن الخصائص الفيزيائية للمصوتات
الثلاث أثبتت أن الكسرة أشد قصرا من الفتحة، والأخيرة أقصر من الضمة⁶.

¹ - ينظر، اللمع في العربية، ابن جني، ص 158-159

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 158-159

³ - سر الصناعة، ابن جني، ج 1، ص 67

⁴ - المصدر نفسه، ج 1، ص 67

⁵ - ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 319

⁶ - علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، بسام بركة، ص 135

لكن ابن جني لا يؤمن بتطور الأصوات، وانتقالها من حال إلى حال؛ وأن: هذا الموضوع كثير الإبهام، لا حقيقة تحته؛ وذلك قول القائل: «الأصل في قام قوم، وفي باع بيع، وفي طال طول، وفي خاف، ونام، وهاب خوف، ونوم، وهيب، وفي شد شدد، وفي استام استقوم، وفي يستعين يستعون، وفي يستعد يستعدد، فهذا يوهم أن هذه الألفاظ، وما كان نحوها ما يدعي أن له أصلاً، يخالف ظاهر لفظه، قد كان مرة يُقال: حتى أنهم كانوا يقولون في موضع قام زيد: قوم زيد، وكذلك: نوم جعفر، وطول مُجَّد، وشدد أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوه، وليس الأمر كذلك، بل بضده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه، ومعنى قوله أنه كان أصله كذا: أنه لو جاء مجي الصحيح ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكر، فأما أن يكون استعمل وقتاً من الزمان كذلك، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ؛ فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر»¹.

حكم ابن جني هذا؛ صالح بعد عصر تهذيب اللغة، ونزول القرآن الكريم بها؛ إذ التطور عمل عمله في اللغة حتى هذا العصر، فهي (اللغة) خاضعة لناموس التطور².

المبحث الثاني: الظواهر التطريزية عند ابن جني في ضوء الدرس الصوتي الحديث

يعدّ ابن جني من العلماء الأوائل الذين أشاروا إلى الظواهر الصوتية التي تجاوزت الصوت المفرد، وهو ما يسمى بالظواهر التطريزية أو الفونيمات فوق التركيبية؛ كالتبر والتنغيم وغيرهما؛ فقد أدرك أن المعنى في اللغة العربية لا يتشكّل من الأصوات وحدها مفردة، بل بصفاتها المصاحبة لها أثناء التركيب كالشدة والطول والارتفاع، ورأى ابن جني أن هذه الملامح تُسهم في التمييز الدلالي للكلام. فيلّي أي حد يمكن اعتبار معالجة ابن جني لهذه الملامح المميّزة تأسيساً حقيقياً لمفهوم الفونيمات فوق التركيبية في الدرس الصوتي الحديث؟

المطلب الأول: نظرية الفونيم

كان لابن جني دور بارز في الدرس اللغوي العربي؛ وذلك في جميع مستويات اللّغة؛ وخاصّة المستوى الصوتي، وقد مهّدت جهوده اللّغوية الشّاملة لتطوّر الدرس الصوتي الحديث؛ فقدّم مباحثاً وأسساً أوليّة يمكن

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص37

² - ينظر: ينظر: الصوتيات اللغوية دراسة تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص412

عدها لبنات أساسية لما يُعرف بالفونولوجيا العربية؛ حيث تناول أفكارا تقابل ما اصطلح عليه اسم الفونيم، ويعدّ هذا الأخير أصغر وحدة صوتية وظيفية تُسهم في تمييز المعاني داخل اللغة.

أشار أبو الفتح في الخصائص إلى هذا المفهوم -وإن اختلف المصطلح- حين بيّن أن اختلاف الأصوات يؤدي إلى اختلاف المعاني، وهو ما يظهر وعيه المبكر بوظيفة الصوت في توليد المعنى، ويُعدّ ذلك إدراكا مبكرا لفكرة الفونيم من الناحية الوظيفية قبل ظهورها في اللسانيات الحديثة. فكيف تجلّى مفهوم الفونيم عند ابن جني؟

1/ تجليات الفونيم في كتب ابن جني:

تناول ابن جني مفهوم الفونيم، وسلّط الضّوء على الوظيفة البنيوية للحرف والحركة؛ وذلك للتمييز بين دلالة الكلمات، وتتجلّى هذه الرؤية في مقارنته للعلاقات بين الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية تجلّى ذلك في باب "الدلالة اللفظية و الصناعية والمعنوية"¹، ومن ذلك إبرازه الدور الوظيفي الذي تؤديه الحركات في توليد الفروق الدلالية بين مختلف الكلمات، وتّضح هذه الفكرة أكثر من خلال قوله: «قولهم للّسلم: مرّقة، وللدرّجة مرّقة؛ فنفس اللفظ يدل على حدث هو الرّقي، وكسر الميم يدل على أنّها مما يُنقل، ويُعتمل عليه وبه كالمطرقة، والمئزر، والمنجل، وفتح ميم مرّقة تدل على أنه مستقرّ في موضعه كالمئارة والمثابة»².

يُستنتج من هذا النص أن ابن جني يعدّ الحركة عنصرا صوتيا يؤدي وظيفة تمييزية تسهم في تحديد المعنى وتوجيه الدلالة، وهذا المنظور يقترب من المفهوم اللساني الحديث لـ الفونيم كأصغر وحدة صوتية تمييزية³، وبذلك فقد تناول ابن جني في تحليله الدلالي الوظيفة، مما يجعله رائدا في استشراف طبيعة العلاقة بين الصوت ووظيفته المعنوية.

يتّضح من آراء ابن جني إدراكه للدور الوظيفي للحرف (مفهوم الفونيم)؛ أي الوحدة الصوتية المميزة داخل بنية الكلمة؛ إذ يسهم في تغيير معناها؛ من ذلك حديثه عن وظيفة الروم في باب "السّاكن والمتحرّك"

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 697

² - المصدر نفسه، ص 699

³ - مبادئ علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا)، أتروبتزكوي، تر: عبد القادر قيني، دار قرطبة، المغرب، 1994، ص 36-37

حيث يقول: «فأما الإشمام* فإنه للعين دون الأذن، لكن روم الحركة** يكاد الحرف يكون به متحركاً، ألا تراك تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك في الوقف: أنت وأنتِ، فلولا أن هناك صوتاً لما وجدت فصلاً¹؛ فالإشمام إذا؛ يؤدي معنى وظيفياً في التفريق بين المذكر والمؤنث.

كما تطرّق ابن جني إلى الدور الذي يؤدّيه الصّوت في تغيير المعنى، يتّضح ذلك جلياً في بابين رئيسين: -الأول هو "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" ومفاده: أن التقارب بين الألفاظ يقابله تقارب المعاني، وهذا التصاقب يشمل أصولاً ثلاثية ورباعية وخماسية، كما لا يقتصر على الحروف المتجاورة فقط بل يشمل تقديم وتأخير الحروف؛ ويلاحظ من ذلك بعض الحروف ذات القوة الدلالية تُستخدم لتمييز معانٍ أكثر تأثيراً ومناسبة للسياق²، وقد مثّل ابن جني لهذا التصاقب بأثلة من القرآن الكريم والعربية الفصحى، ومن ذلك ما ذكره في علاقة الهمزة بالهاء، والعين بالهمزة، والزاء باللام، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَرَّوْهُمْ أَرَاءَ﴾ [مريم 83] قال ابن جني «أي: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تَهْزِهِمْ هَزّاً»³ وسبب هذا التقارب أن «الهمزة أخت الهاء؛ فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنّها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد هَزَّ ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة، ونحو ذلك»⁴؛ والهمزة أقوى من الهاء فرغم أن كلاهما صوت حلقي (من أقصى الحلق) إلا أن الهمزة صوت شديد مجهور، والهاء صوت مهموز رخو؛ لذلك استخدمت الهمزة في التعبير عن معاني فيها قوة وأكثر تأثيراً في النفس، والهاء لمعان فيها لين وضعف؛ لذلك تناسب لفظ "الأزّ" في مناسبة الشدة والإزعاج والعنف والقوة في إغواء الشياطين للكافرين، كما تناسب لفظ "الهزّ" بمعنى التحريك بلين، والدفع برفق من قوله تعالى: ﴿وَهَزَّزْنِي إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم، 25] مع حالة الضعف لمريم عليها السلام في هذا الموقف؛ إذ تناسبت صفة الحرف مع المعنى المراد، فالكلمتان "أزّ" و"هزّ" تفيدان الدفع بيد أن الفرق بينهما يكمن في قوّة الفعل ومقصده.

* - الإشمام هو ضم الشفتين بعد تسكين الحرف الأخير وقفاً، ويكون في المضموم دون المفتوح والمكسور. الميزان في أحكام تجويد القرآن، فريال زكريا العبد، دار الإيمان، مصر، ص 219

** - الروم هو الإتيان ببعض الحركة يكون في المضموم والمكسور. المرجع نفسه، ص 219.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 523

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 523، ص 403

³ - المصدر نفسه، ص 403

⁴ - المصدر نفسه، ص 403

الأمر ذاته ينطبق على لفظي: "العسف"، و"الأسف"؛ إذ «العين أخت الهمزة (...) والهمزة أقوى من العين»¹، وأن معنى العسف يعسف النفس، وينال منها، أما لفظ الأسف أغلظ²، واللفظان متقاربان في اللفظ لتقارب معانيهما.

تعكس هذه العلاقات الصوتية ترابطاً معنوياً دقيقاً، كما بيّن أبو الفتح أنّ التّصاقب يؤدّي إلى ثراء دلالي، ما يفضي إلى تحسين الفهم اللغوي وإدراك الحكمة في اختيار الألفاظ، وفي ذلك تأكيد على أهمية دراسة هذا التصاقب في اللغة العربية؛ لفهم أسرار البلاغة، مع التشديد على دور العلماء الذين جسدوا هذا الفهم ودعوة للاستمرار في اكتشاف أسرار وأغواره، يقول ابن جني متحدثاً عن هذا الباب: «وإنما بقي من يثّره، ويبحث عن مكنونه»³.

لـأما الباب الثاني فهو "باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني"؛ يوضّح من خلاله ابن جني أن التّغيير في الحروف يؤدّي إلى تغيير المعنى؛ ومثال ذلك الفرق بين كلمتي "خَضِم" و"قَضِم" «فالحَضْم لأكل الرّطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرّطب، والقَضْم للصلب اليابس؛ نحو: قضمت الدّابة شعيرها»⁴، هذا بالنسبة للفرق الدّقيق بين اللفظين من النّاحية المعنويّة، أمّا الفرق بينهما من النّاحية الصوتيّة فيمكن في الفرق بين صوتي الخاء والقاف، وذلك من ناحية المخرج والصفات؛ إذ الخاء تخرج من أدنى الحلق، أمّا القاف فتخرج من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، كما أن الخاء صوت مهموس رخو، والقاف مجهور شديد، فالقاف أقوى من الخاء؛ لذلك يتناسب لفظ القضم لأكل اليابس والخضم لأكل الرّطب؛ وفي هذا السياق قال أبو الفتح في موضع سابق: «ألا تراهم قالوا: قَضِم في اليابس، وخَضِم في الرّطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»⁵.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 403

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 403

³ - المصدر نفسه، ص 407

⁴ - المصدر نفسه، ص 410-411

⁵ - المصدر نفسه، ص 77

ومن هذا القبيل؛ التفريق الدقيق بين لفظي "نضح و"نضخ"، و«والنّضخ أقوى من النّضح»¹ لقوة الحاء، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَضَاحَتَانِ﴾ [الرحمن، 66]، قال أبو الفتح: «فجعلوا الحاء لرقبتها للماء الضّعيف، والحاء لغلظتها لما هو أقوى منه»²؛ وذلك أن الحاء صوت من حروف الاستعلاء والتفخيم، وهما من صفات القوة، في حين الحاء صوت مستفل مرقق، وهما من صفات الضعف، فالفرق بين الصوتين ينعكس على الكلمة التي تضمهما.

فبيّن ابن جني من هذه الأمثلة وغيرها- في هذا الباب- أن اللفظ ليس مجرد وعاء اعتباطي للمعنى، بل إن هناك علاقة تواشج بين بنية الكلمة والمعنى الذي تحمله، وأن بعض الألفاظ تتشابه في أصواتها؛ لأنّها تتقارب في معانيها، ممّا يدلّ على أن اللغة ليست اعتباطية بالكامل، بل تتضمن نظاماً داخلياً يربط الصّوت بالمعنى.

لـ كما يشير في مواضع أخرى إلى أن التّغيير في المبنى يرافقه التّغيير في المعنى؛ كالزيادة تؤدّي إلى تغيير المعنى نجد ذلك في أبواب من كتبه؛ نحو: "باب في السلب" و"باب في قوة اللفظ لقوة المعنى"؛ ففي "باب السلب" يتناول ابن جني نفي أو إزالة المعنى الأصلي للجذر، بدلا من إثباته؛ فالفعل في هذه الحالة لا يحدث المعنى بل يسلب وجوده أو صفته عن المفعول به، خلافا للأصل؛ وذلك نحو الفعل "أَعْجَمْتُ" الذي يسلب صفة "العُجمة"؛ أي: الإبهام عن الشيء، فيصبح بيّنا، وهذه البنية تُغني عن استعمال أدوات النّفي الصريحة³، ومن ذلك الفرق بين مرض ومَرَض بتشديد الراء من عدمها؛ قال ابن جني: «ومنه تصريف مرض؛ وأنها لإثبات معنى المرض؛ أي: مرض يمرض وهو مريض، ومارض ومرضى ومراضى، ثم إنهم قالوا مَرَضَت الرجل: إذا داويته من مرضه؛ حتى أزلته عنه»⁴.

أما "باب في قوة اللفظ لقوة المعنى" فيوضح ابن جني فيه أن الكلمات التي تحمل معانٍ قويّة هي محمولة على ألفاظ ذات قوة نطقية، وأن الزيادة أو التكرار في بعض الحروف في بناء الكلمة تضيف إلى قوّة

¹ - الخصائص، ابن جني، ص411

² - المصدر نفسه، ص411

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص682-683

⁴ - المصدر نفسه، ص684

التعبير عن المعنى؛ فمن ذلك الفرق بين "حَشْن" و"اخشوشن"، فمعنى: حَشْن دون معنى اخشوشن؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو¹.

أسفر البحث من خلال دراسة آراء ابن جني -في مجال الصوتيات- إلى الكشف عن عدد من المفاهيم اللغوية التي توصل إليها استنادا إلى خصائص اللغة العربية، وتعدّ هذه المفاهيم من المسائل التي لم تُطرح في الدراسات الصوتية الحديثة إلا مع ظهور الفونولوجيا في مطلع القرن العشرين، وقد أبرزت الدراسة أنّ ابن جني كان له سبق في إدراك عدد من القضايا الجوهرية، أبرزها: وصفه للأصوات العربية وصفا دقيقا من الناحية النطقية، ثم بيان للوظيفة البنوية للصوت في النظام اللغوي، وهي ما يُعرف اليوم بمفهوم "الفونيم"، وتمييزه للدور الوظيفي الذي يؤديه كلٌّ من الحرف والحركة في بناء النظام الصوتي للغة، كما تجاوز هذا الطرح إلى إدراك وظيفة "الروم"، بوصفه جزءا دقيقا من الحركة له أثر مميز في البنية الصوتية².

معلوم أنّ مصطلح فونيم(Phoneme) من المصطلحات الأساسية في علم الفونولوجيا، ويُشتق من الكلمة الفرنسية (Phoneme) التي تعني "الصوت الكلامي"، وقد ظهر هذا المصطلح في الدراسات اللسانية منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث يُنسب استخدامه الأول إلى العالم البولندي بودوان دي كورتناي عام 1870م، وتشير مصادر أخرى إلى ديفريس ديجينت(Difriche des Gentes) عام 1873م، ويُعد لويس هافي(Louis Havet) ثاني من استخدمه، قبل أن ينتقل إلى أعمال دي سوسير. في حين أن مصطلح فون (Phone)، يشير إلى الصوت المفرد أو الصوت اللغوي البسيط، أو الصوت الموضوعي، ويُعد تجليا ملموسا للفونيم على المستوى النطقي، وقد تُرجم المصطلح إلى العربية بعدة مقابلات، منها: "صوتون"، "مستصوت"، "لافظ"، "صوت مجرد"، وغيرها، وهي تقابل ما كان يُعرف عند القدماء بـ: "الصوت" أو "الحرف"، أما الصور الفرعية للفونيم، فتُعرف بالألوفونات (Allophones)، وهي تمثيلات صوتية جزئية للفونيم الواحد، تختلف في صفاتها النطقية والسَمعية دون أن تؤثر في المعنى أو الوظيفة اللغوية³.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 810

² - ينظر: مفهوم الفونيم عند علماء الصوتيات العرب -ابن جني أمّودجا، مُجد نبيل بوعافية، وإسماعيل سبيوكر، المجلة الدولية لبحوث اللغة العربية وآدابها، الجزائر، العدد 8 (أفريل 2023)، المجلد 4، ص 73

³ - ينظر: David Odden, Introducing Phonology, Penultimate draft, Cambridge University Press 2003, P1-4

— مبادئ علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا)، أتروبتزكوي، ص 36-46.

2/ بين الفونيم والحرف والصوت

عرّف ابن جني الصّوت بقوله: «اعلم أن الصّوت عرض يخرج مع النّفس مستطيلا متّصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفّتين مقاطع تشّيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطّع أينما عرض له حرفا. وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»¹، وضّح ابن جني -في هذا القول- مصدر الصّوت وكيفيّة حدوثه، مبينا المخارج الرئيسة التي تشكّل الأصوات؛ أي: كيفيّة صدور الأصوات اللّغويّة، وأن اختلاف الأصوات اللّغويّة مرتبط باختلاف مخارجها (وهو ما يعرف في الدراسات الصوتية الحديثة بفكرة التمييز الفونيمي، وقد شبّه أبو الفتح:

لـ الحلق والفم بآلة النّاي، فيقول: «فإن الصّوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصّوت في الألف غُفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسُمع لكلّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قُطع الصّوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة»².

لـ ثمّ شبّه صدور الأصوات مرة ثانية بوتر العود، حيث يقول: «فإن الصّارِب إذا ضربه وهو مُرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يُسراه أدّى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا، سمعت غير الاثنين، ثمّ كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكّلت لك أصداً مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه غُفلا غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أدّاه وهو مضغوط محصور، أملس مهتزّا، ويختلف بقدر قوة الوتر وصلابته، وضعفه ورخاوته؛ فالوتر في هذا التّمثيل كالحلق، والخفقة بالمضرب عليه كأول الصّوت من أقصى الحلق، وجريان الصّوت فيه غُفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»³؛ نلاحظ من هذا التشبيه أن ابن جني حاول تفسير الظاهرة الصوتية تفسيرا علميا دقيقا، مشبها آلية إنتاج الأصوات بالموسيقى؛ والحلق بالوتر، فقد شبّه اهتزاز الوتر عند ضربه بالمضرب ببداية

— نظرية الفونيم في الدرس العربي والأوروبي، بنينة مصطفى، حلويات الآداب و اللغات، مجلة علمية دولية محكمة، المجلد 9، العدد 3-19، كلية الآداب واللغات، جامعة مُجّد بوضياف المسيلة، الجزائر، (أكتوبر 2021)، ص 237

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 19

² - المصدر نفسه، ج 1، ص 21-22

³ - المصدر نفسه، ص 22

الصَّوْتُ في أقصى الحلق، كما رأى أن جريان الصَّوْتِ في الوتر الحر يماثل جريان الصوت في الألف الساكنة، بينما مثّل ضغط الأصابع على ثقب الناي بالاعتراضات التي يواجهها الهواء عند مخارج الحروف؛ وعليه؛ فهذه التشبيهات تكشف إدراكا مبكرا للطبيعة الفيزيائية للصوت اللغوي وكذا إدراكا للعملية النطقية والفيزيولوجية المرتبطة بأعضاء النطق؛ وذلك في محاولة لتجسيد العملية الصوتية عبر أدوات محسوسة، وهو ما يعكس نزعة علمية دقيقة.

فرق ابن جني بين مصطلحي الصوت والحرف؛ إذ يرى أن الصوت «مصدر صات يصوت صوتا، فهو صائت، وصَوْت تصويتا فهو مصَوْت، وهو عام غير مختص، فيقال سمعت صوت الرجل، وصوت الحمار»¹؛ فالصوت عام يشمل جميع الكائنات، في حين يكون الحرف خاص بالأصوات البشرية لا غير (يحدث فيه التقطيع).

أما الحرف؛ فهو مشتق من مادة (ح ر ف)، «وأينما وقعت هذه المادة في الكلام دلت على حد الشيء وحدته، من ذلك حرف الشيء؛ أي: ناحيته؛ سميت حروف المعجم حروفاً، وذلك أن الحرف حدّ منقطع الصوت، وغايته وطره، كحرف الجبل ونحوه. ويجوز أن تكون سميت حروفاً؛ لأنها جهات للكلم ونواح كحروف الشيء وجهاته المحدقة به. ومن هذا قيل: فلان يقرأ بحرف أبي عمرو وغيره من القراء؛ وذلك لأنّ الحرف حدّ ما بين القراءتين وجهته وناحيته. ويجوز أيضا أن يكون قولهم "حرف فلان" يراد به حروفه التي يقرأ بها»².

يقدم ابن جني (ت 392هـ) تعريفاً يحصر فيه خصائص الصوت اللغوي دون غيره، ويتّضح ذلك من خلال تحديده للمقاطع الصوتية التي تحول دون امتداد الصوت واستطالته، فأطلق على لحظة توقّف الصوت عند الانثناء مصطلح المقطع بصياغة اصطلاحية دقيقة، كما أطلق على المقطع عند لحظة الانثناء اسم الحرف، ويميّز بين الجرس الصوتي لكل حرف معجمي تبعا لاختلاف المقاطع، إذ لكل حرف جرس خاص، ولكل جرس صوتٌ مميّز.

إنّ الحرف هو الصورة المجردة للفونيم، أما الصوت هو الصورة النطقية (الصوتية) للفونيم، لذلك فالصوت أعم من الحرف، يقول فندريس: «لسنا في حاجة إلى القول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 23

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 28-29

المستعملة في لغة ما بعدد الحروف الموجودة في أبجديتها، فكل لغة فيها من الأصوات أكثر مما في كتابتها من العلامات»¹، وقد فرّق تمام حسان بين الصوت والحرف قائلا: «والفرق بين الصوت والحرف هو الفرق ما بين العمل والنظر، أو بين المثال والباب، أو بين أحد المفردات والقسم الذي يقع فيه؛ إذالصّوت عمليّة نطقية تدخل في تجارب الحواس، وعلى الأخصّ السّمع والبصر، يؤدّيه الجهاز النطقي حركة، وتسمعه الأذن، وترى العين بعض حركات الجهاز النّطقي حين أدائه، أما الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات، يجمعها نسب معين، فهو فكرة عقلية لا عملية عضلية، وإذا كان الصّوت مما يوجد المتكلّم، فإنّ الحرف مما يوجد الباحث»². ويعرفه إبراهيم أنيس قائلا: «هو ككل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى الإنسان. فعند اندفاع النفس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم والأنف، تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن»³.

ويندرج مصطلح الفونيم تحت علم الفونولوجيا (phonology) أو علم وظائف الأصوات وتقسم الفونولوجيا بحسب المركّبات التي تكوّنّها إلى قسمين؛ هما⁴:

أ/ الفونولوجيا القطعية (segmental phonology)، ويقوم هذا النوع على تحليل الكلام إلى قطع متميّزة تسمى الفونيمات، ومن أمثلة ذلك في اللغة العربية الصوامت، والحركات.

ب- الفونولوجيا فوق القطعية (suprasegmental phonolog)، أو الفونولوجيا التطريزية (prosodic phonology)، وهي ظواهر صوتيّة تُنبئ عن خواص الكلام وتحدّد نوعياته، كصفات أدائه، وذلك مثل النبر والتنغيم والمفصل.

لـ أما تعريف مصطلح الفونيم:

ذكر العلماء تعريفات كثيرة له، وذلك بحسب توجه كل واحد منهم؛ يقول ماريوباي موضّحا خصائص الصّوت، ومختلف التّغيّرات التي تطرأ عليه- في معرض حديثه عن الفونولوجيا- بأنّه: «العلم الذي يعالج الخصائص الصوتية الوثيقة الصلة بلغة معينة من وجهة إحساس المتكلمين (...) وإذا كان من الممكن

¹ - اللغة، فندريس، تر: عبد الرحمن الدواخلي، ومُجّد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950م، ص62

² - اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، عالم الكتب، مصر، ط2001، ص129

³ - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص8

⁴ - مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990، ص111، وعلم الأصوات، كمال بشر، ص96-497

أن يشتمل الفونيم على صوت واحد: فون phone (أو صوت موضوعي)، وهو في الكثير الأعمّ يشتمل على مجموعة من الألفونات المتشابهة، أو التّنوّعات الصّوتية (hpoetic vqriqnts)، التي يتوقّف استعمال كلّ منها أساسا على موقعه في الكلمة (أولا - وسطا - آخرا) وعلى الأصوات المجاورة له¹.

وينقسم الفونيم كما سبق إلى قسمين رئيسين هما:

لـ الفونيم القطعي: (segmentgl phonem)

اختلفت وجهات نظر اللّغويين حول الفونيم، جاء في موجز تاريخ علم اللغة في الغرب بأنّه «وحدة لغوية أو بوصفه طائفة من الأصوات، محل جدال»²، ومن ثمة؛ تعددت الآراء ووجهات النظر كل مدرسة ونعني: المدرسة النفسية، والمدرسة الفيزيائية، والمدرسة الوظيفيّة، فكيف درست هذه المدارس الفونيم؟.

أولا: المدرسة النفسية: الفونيم في هذه المدرسة يعدّ «صوتا نموذجيا، يهدف المتكلم إلى نطقه ولكنه ينحرف عن هذا النموذج»³؛ وذلك لأنه «من الصعب أن ينتج صوتين مكررين متطابقين، أو لنفوذ الأصوات المجاورة»⁴، أو أنه يعد صوتا «مفردا، وله تجريد ذهني، أو صورة ذهنية، يستحضرها المتكلم إلى عقله بالإرادة، ويحاول بلا وعي أن ينطقها في الكلام فينجح في بعض الأحوال في تحقيق صورة الصوت بالنطق، ولكنه في أحوال يخفق فيستحضر أقرب الأصوات إلى هذه الصورة، وهذا شبيه بنظرية المثل عند أفلاطون»⁵.

ثانيا: المدرسة الفيزيائية: يقول دانييل جونز: أن الفونيم «أسرة من الأصوات في لغة معينة-متشابهة الخصائص، ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في السياق الصّوتي نفسه الذي يقع فيه الآخر»⁶؛ ويفهم من هذا التعريف⁷:

¹ - أسس علم اللغة، ماريوباي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998م، ص88

² - موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، زوبينز روبرت، تر: أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط3، 1997م، ص293

³ - دراسة الصّوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1997م، ص175

⁴ - المرجع نفسه، ص176

⁵ - مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص128-129

⁶ - في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1980م، ص132

⁷ - المرجع نفسه، ص119

1- أن الفونيم لابد أن يكون عنوان على مجموعة أصوات محكومة بالسياق.

2- أن أيًا من أفراد هذه العائلة لا يمكن أن يرد في السياق الصوتي الذي يرد فيه الآخر؛ ففونيم النون مثلاً ينضوي تحته، كم هائل من الألفونات؛ فصوت النون في: "منك" يختلف عنه في: "خنق"، والسياق هو الذي يحدد طبيعة العنصر الفونيمي المستعمل. فعلى الرغم من اختلاف الألفونين، إلا أنهما يعدان تابعين لفونيم واحد، وهو النون، ويطلق على مثل هذا التحديد مصطلح التوزيع التكاملي (Complementary Distribution)، وقد طبق جون ليونز هذا المصطلح على فونيم اللام، وخرج باستنتاج مفاده أن تلك الألفونات، أو الصور الصوتية للفونيم الواحد لا يمكن أن يحل أحدهما مكان الآخر أولاً وهذه الألفونات، لا تغير في معنى الكلمة أخيراً، وفي ذلك يقول: «وعموماً فما دامت كل أصوات (L) سواء منها المفخم [أم] المرقق [فإنها] تقع في توزيع تكاملي فلا يمكن أن تكون في تقابل وظيفي فهي تناسب الشروط المذكورة التي تحدد الوحدة الصوتية وتحدد التماثل الصوتي والتوزيع التكاملي لها وتخصّص على وجه العموم للوحدة الصوتية المفردة، كما تخصص لصورها الصوتية أي ما يميزها من الناحية الصوتية، وما يميز أشكالها المختلفة تبعاً للموضع، وهو ما يعدّ جوهر العناصر الفونولوجية التي يجب أن تكون في تقابل وظيفي في مكان ما على الأقل في النظام اللغوي»¹، وتعتمد هذه المدرسة لتعيين الألفونات على ما يعرف بالثنائيات الصغرى (Minimal pairs)، وتعني أقل تقابل ممكن تسمح به بنية اللغة وينتج عنه اختلاف في المعنى المعجمي²، وذلك كالاختلاف في المعنى بين "طال" و"قال" وبين "سار" و"صار".

ثالثاً: المدرسة الوظيفية: ويعتدّ ترويسكوي رائد هذه المدرسة، وهو يرى أنها «أصغر وحدة صوتية مميزة»³؛ أو «هي أصغر وحدات اللغة التي تستطيع -بطريقة التبادل أن تميز كلمة من كلمة أخرى»⁴. وهذه المدرسة «تدخل التفرقة بين المعاني في تعريف الفونيم، ومادام أن كل من (k) و(q) لا يفرقان بين المعاني

¹ - اللغة وعلم اللغة، ليونز جون، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1987م، ص121

² - في علم الأصوات الفيزيقي، مدخل إلى التصوير الطبقي للكلام، آرست بوجرام، تر: سعد مصلوح، ط1، 1977م، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ص257

³ - مبادئ علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا)، أتروبتزكوي، ص46.

⁴ - علم الأصوات، كمال بشر، ص488

في الإنجليزية، فلا يعتبران فونيمين مختلفين، ولكنهما يفرقان بين المعاني في العربية، لذا يجب اعتبارهما فونيمين مختلفين في العربية»¹.

لـ الفونيم فوق القطعي: (Suprasegmental phoneme): وهو «ملمح صوتي تتأثر به وحدات صوتية قد تشتمل على أكثر من صامت، أو حركة في المنطوق الكلامي»².

الفرق بين الفونيمات القطعية والفونيمات فوق القطعية أن: «الفونيمات الرئيسة عناصر تركيبية، أي: عناصر أساسية في تركيب الكلمة، ومواقعها محددة، يمكن قطعها أو فصلها بعضها عن بعض»³، أما الفونيمات فوق التركيبية فهي «ليس لها نصيب في تركيب الكلمة أو بنيتها، إنما فوق التركيب، أي تكسوه كله فلا يمكن قطع أو تمزيق امتدادها»⁴، أيضا الفونيم القطعي أكثر بقاء من العناصر القطعية التي تتعرض للزوال بحكم التطور اللغوي التاريخي⁵.

ومن هذا المنطلق؛ توصلَ البحث إلى أنّ علماء العربية الأوائل كان لهم سبق في تقديم دراسة منظّمة لبنية الصّوت اللغوي العربي، وأسهموا إسهاما فعليا في تأسيس قواعده الأولى، وقد مكّنهم ذلك من الإحاطة المبكرة بطبيعة الأصوات اللغوية، ويسّر لهم معالجة هذا الموضوع بكل ما يتضمّنه من تفاصيل دقيقة وتعقيدات متشابكة، وبذلك سجّل العرب سبقا علميا في الكشف عن الظواهر الصوتية والتوصل إلى نتائج تماثل ما استقرّت عليه اليوم الدراسات الصوتية العالمية، بعد تطور أدوات القياس والأجهزة الفسيولوجية الحديثة التي أكّدت صحة ما توصل إليه العلماء العرب من معطيات رائدة في هذا الحقل⁶.

يمكن النّظر إلى هذه التّصورات - في ضوء الدراسة الصّوتيّة الحديثة - بعدها إرهاسا أوليا لمفهوم الفونيم (Phoneme)، الذي يُعدّ أصغر وحدة صوتية مميّزة، فابن جني لما شبّه الاعتراضات في مجرى الهواء بالضّغط على ثقب التّاي، وكأنّه كان يلمّح - بصورة غير مباشرة - إلى فكرة أن اختلاف مواقع الاعتراضات في جهاز النطق يؤدّي إلى اختلاف الأصوات وتمييزها، وهو ما يشكّل جوهر الفونيم في الدراسة الصوتية الحديثة، ومن ثمّ

¹ - ينظر: فصول في علم الأصوات، النوري، ص 129

² - المرجع نفسه، ص 160

³ - علم الأصوات، بشر كمال، ص 497

⁴ - المرجع نفسه، ص 497

⁵ - ينظر: فصول في علم الاصوات، جواد النوري، ص 164

⁶ - ينظر: الصوت اللغوي في القرآن، مُحمّد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، ط 1، 1420هـ/200م، ص 15-16

فإن دراسة ابن جني في ضوء مفهوم الفونيم تتيح إعادة تقييم إسهاماته بوصفها خطوة تأسيسية في تاريخ الصوتيات العربية، وتؤكد أن التراث العربي أسهم في بلورة تصورات مبكرة حول البنية الصوتية للغة، قبل أن تبلور هذه المفاهيم في اللسانيات الغربية الحديثة.

كما تجاوز ابن جني في معالجته للقضايا الصوتية حدود النظر إلى مفهوم الفونيم بعده أصغر وحدة صوتية (حدود الأصوات المفردة)، إلى البنية الكلية للنظام الصوتي، إذ وسّع نطاق اهتمامه ليشمل ظواهر فونولوجية تصنّف في الدرس الصوتي الحديث ضمن الفونيمات فوق التركيبية، كالمقطع والنبر والتنغيم. فكيف تمكن أبو الفتح من توسيع مجال الدرس الصوتي العربي؟ وكيف نقله من مستوى الأصوات المفردة إلى مستوى البنية الدلالية ذات الصلة بـ (المقطع والنبر والتنغيم)؟ وما أهم تقاطعاته مع الدرس الصوتي الحديث؟

المطلب الثاني: المقطع

تناول ابن جني في كتاباته الصوتية مفهومًا قريبًا من المقطع الصوتي؛ فرأى أن الكلام يقوم على وحدات إيقاعية من الصوامت والصوائت تختلف من حيث الطول والشدة وغيرهما، وبحسب الحركات والسواكن، كما يظهر وعيه بالمقطع الصوتي في تحليل بنية الكلمة، وطول الصوت، وأثر الحركة والسكون، وتعليقه لبعض الصيغ الصرفية المرفوضة.

استخدم أبو الفتح مصطلح المقطع عند حديثه عن مخرج الصوت؛ حيث يقول: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلًا متّصلًا؛ حتى يعرض له في الحلق والفم والشفّتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفتّنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، ألا ترى أنك تبندئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ، به أيّ المقاطع شئت فتجد له جرسًا ما»¹؛ يتبين أن الصوت اللغوي - وفقًا لما ذكره القدماء - ينشأ نتيجة انقطاع أو تضيق في جريان الصوت، ولا يمكن إنتاجه نطقًا إلا مترافقًا مع حركة تسبقه أو تلحق به، وعليه يُعدّ هذا الصوت المقطعي الشكل الأوّل من أشكال المقاطع في اللغة العربية، شريطة ألا يليه صوت ساكن.

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 19

ويَتَّضح من التَّعريف أنَّ¹:

لـ ابن جني قد اهتم بالمَقْطع ويتمثل في المكان الذي ينحبس فيه الهواء انحباسا تاما أو غير تام، فالمقطع ما يثني النَّفْس عن امتداده، فهو مكان خروج الصوت.

لـ عبارة " فيُسمى المقطع أينما عرض له حرفاً " يُستفاد منها أن المقطع يعني به الصوت، ومن هنا نجد أن هذا المصطلح غير مستقر الاستعمال.

جاء في كتاب "الصوت اللغوي في القرآن" أن هذا التعريف (تعريف الصوت وكيفية حدوثه) يكشف لنا عن «مصطلح حديث عند الأوروبيين هو المقطع»².

عادة ما تتجمع الأصوات في وحدات صوتية أكبر من الصَّوت الواحد، نظرا لطبيعتها الزمنية الممتدة، فتتشكّل هذه الوحدات من أكثر من صوت، والمقطع الصَّوتي من أهم هذه الوحدات، كما أشار إلى ذلك ابن جني، إذ لاحظ فيه خاصيتين رئيسيتين³:

لـ الأولى: قدرته على تنظيم الكلام ومنع استطالته أو تقصيره بشكل عشوائي.

لـ أما الثانية: فتتمثّل في ما يُحدثه من صدى أو تأثير صوتي عند تغير أحد حروفه.

جرى بناء المقطع في اللغة العربية بالبدء بحرف صامت يليه صوت متحرك؛ بحيث لا يبدأ المقطع مطلقا بحركة، وهو ما يختلف عن بعض اللغات الأوروبية، كما أن من المبادئ الأساسية في اللغة العربية أن الكلمات تبدأ عادة بمتحرك واحد وتنتهي إمّا بحركة، فيصبح المقطع مفتوحا، أو بصامت؛ فيصبح بذلك المقطع مقفلا، بالإضافة إلى أن اللغة العربية لا تسمح بأن تبدأ الكلمة بسلسلة من الصوامت، أو أن تتخللها صوامت متجاورة بكثرة، ولا أن تحتم الكلمة بمجموعة من الأصوات الصامتة⁴.

وبناء عليه، يُمكن تمثيل المقطع القصير في العربية بالصيغة التالية: (حرف صامت + حركة)، وإذا أُضيف إلى هذا المقطع حرف صامت آخر أو حركة إضافية، يصبح المقطع طويلا؛ وذلك لأنّه تجاوز الحدَّ

¹ - ينظر: المقطع الصوتي في العربية، صباح عطوي عبود، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1435هـ - 2014م، ص29

² - الصوت اللغوي في القرآن، مُجّد حسين علي الصغير، ص63

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص63

⁴ - ينظر: الصوت اللغوي في القرآن، مُجّد حسين علي الصغير، ص64

الأدنى للتكوين الصوتي (الحرف + الحركة) إلى عنصر ثالث سواء كان حرفاً أم حركة، وغالبية كلمات العربية تتكون من ثلاثة مقاطع في صورتها الأصلية دون اشتقاق؛ مثال ذلك كلمة "ذَهَب" فهي تتكون من ثلاثة مقاطع صوتية: ذَا - هَ - بَ، حيث يتكون كل مقطع من حرف وحركة كما هو واضح¹.

أدرك العلماء العرب القدماء هذا التخطيط المقطعي من ذي قبل؛ فأكدوا عليه حتى في تقطيع الوزن العروضي للشعر عند الخليل في حدود؛ وهو ما أثبتته ابن جني في برمجته للمقاطع في تفصيله، ولقد أفاد الأوروبيون من هذا الملحظ إفادة تامة، فقد كان المقطع -تبعاً للتفكير التقليدي عند الغربيين - يتكون من حركة تعدد دعامة أو نواة يحوطها بعض الصوامت (Consonnes) وعليه بني اسم (Consonne)؛ أي الذي يصوت مع شيء آخر، وهو الذي لا يصوت وحده، وأطلق على الحركات اسم مصوتات (Sonnetes)؛ لأنها قادرة على التصويت دون الاعتماد على شيء آخر، ومن هنا كان المفهوم الوظيفي للمقطع، كما جاءت أفكار الحركات والصوامت².

قال ابن جني مستفيداً مما قدمه الفراهيدي: «إن الأصول ثلاثة : ثلاثي رباعي وخماسي، فأكثرها استعمالاً، وأعد لها تركيباً الثلاثي؛ والعلة في ذلك أنه حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه، وليس اعتدال الثلاثي لقلّة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه لأنه أقل حروفاً (...) فتمكن الثلاثي إنما هو لقلّة حروفه لعمري، ولشيء آخر هو حيز الحشو الذي هو عينه بين فائه ولامه، وذلك لتعادي حاليهما . ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركاً وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزاً بينهما لئلا يفجأوا والحس بضد ما كان آخذاً فيه»³؛ فابن جني وصف الثلاثي بوصفه الأصل الأكثر انتظاماً في اللغة، مؤكداً أنّ قوّته لا تكمن في قلّة حروفه فقط، بل في توازنهما الصوتي - وفق تحليله -، ويتألف الثلاثي من حرف أول متحرك يبدأ الكلام، وحرف وسط يعمل كحاجز بين الحروف المتحركة والساكنة لتنظيم النطق ومنع التصادم الصوتي، وحرف أخير ساكن يمكن الوقوف عليه.

¹ - ينظر: : الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير، ص 64

² - ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرج، ص 155

³ - الخصائص، ابن جني، ص 335-336

يقول ابن جني في موضع آخر: «ألا ترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي؛ لأنها المقاطع، وفي السجع كمثل ذلك»¹.

نلاحظ أن ابن جني استخدم كلمات؛ نحو: "مقطع" و"المقاطع"؛ لكن مفهومه غير الذي يعرفه ويفهمه العلماء المحدثون؛ إذ المقطع -عنده- يعني: المكان الذي يقطع أو ينحبس فيه الهواء عند خروجه من الرئتين ومروره بالحلق والفم والشفيتين، وربما هو يتقاطع مع التعريف اللغوي الذي مفاده أن المقطع يتمثل في آخر كل شيء، أو الموضع الذي يقطع فيه، فيمكن القول أن المقطع كمصطلح بمهومه الحديث لم يكن موجودا عنده بيد أنه كان حاضرا كمفهوم، ويتضح ذلك من الشواهد الموثقة في ثنايا كتب ابن جني.

يذكر ابن جني مثلا أثناء تعليله لبعض الصيغ المرفوضة بظواهر لغوية؛ كالإبدال والإدغام والإعلال تحت مبدئي الثقل والخفة، أن ياء نحو ميزان وميعاد انقلبت عن واو ساكنة، لثقل الواو الساكنة بعد الكسرة، وهذا أمر لا بأس في معرفته، ولا شك في قوة النطق به، ويضيف قلب الياء في موسر وموقن واوا، لسكونها وانضمام ما قبلها، ولا توقف في ثقل الياء الساكنة بعد الضمة؛ وذلك لأن حالها في ذلك حال الواو الساكنة بعد الكسرة، ثم يقول في ذلك - وهذا كما نراه - أمر يدعو الحسن إليه ويحدو طلب الاستخفاف عليه².

يرى ابن جني أن «العين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأنها واسطة لهما، ومكنوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها، ومبدولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها»³؛ فابن جني يشير إلى علاقة موقع الصوت في الكلمة ودرجة تأثره بالتغيرات الصرفية المختلفة - كالإعلال بالحذف مثلا؛ حيث يعدّ طرفي الكلمة أكثر عرضة لهذا التغيير؛ فعين الكلمة أقوى من فائها ولامها كونها واسطة لهما محصنة بهما من التغيرات.

يُشار إلى مفهوم المقطع الصوتي (Syllable) في الدرس الصوتي الحديث؛ حيث تمثل العين نواة المقطع الثاني، وهي موجودة بين صامتين (الفاء واللام) ونكون أكثر ثباتا أكبر أما الأصوات التي تكون في

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 100

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 78، سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 35

³ - الخصائص، ابن جني، ص 409

أطراف الكلمة. الأصوات في نواة المقطع (Vowels)؛ تكون عادة أكثر ثباتاً، ومقاومة للتغيرات الصوتية مقارنة بالأصوات في بداية المقطع (Onset) أو قفله (Coda)¹.

وهكذا؛ نقول أنّ مفهوم المقطع عند ابن جني قد ارتبط بمخارج الأصوات ، ويلتقي هذا المفهوم مع تعريفات المحدثين للمقطع؛ فهذا عبد الصبور شاهين يعرفه بقوله: إنه «مزيج من صامت وحركة، يتفق مع طريقة اللغة في تأليف بنيتها، ويعتمد على الإيقاع النفسي»² ويقول في موضع آخر: «ويأتي هذا الأخير عن ضغط من الحجاب الحاجز عن الرئتين؛ فينتج إيقاعاً يعبر عنه مقطع في أقل الأحوال من صامت وحركة»³، كما يتقاطع هذا المفهوم مع بعض التعريفات التي تتحدث عن كيفية نشوء المقطع؛ إذ ينشأ نتيجة «لحركة الرئتين واندفاع الهواء منهما دفعة واحدة، تسمح بخروج هذا القدر من الأصوات بهذه الكيفية التي يحس بها الناطق والسامع على سواء»⁴.

إنّ المقطع ليس مرادفاً للحرف عند ابن جني، ويؤكد ذلك ما جاء في قوله من أن جرس الصوت يتغير بتغير مخارجه؛ يقول: «وتختلف أجراس الأصوات باختلاف مقاطعها (...) ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإن انتقلت فيه راجعاً هنه، أو متجاوزاً له (...) سمعت هناك صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذنبك الأولين»⁵.

يمكن القول؛ أن ابن جني وإن لم يصرح بمفهوم المقطع بالمعنى الاصطلاحي الحديث، إلا أنه وضع أسساً صوتية واضحة تسمح باستنتاج فهمه المبكر للمقطع الصوتي بوصفه وحدة بنائية تلامس جوهر التحليل الصوتي والصرفي للكلمة.

المطلب الثالث: النبر عند ابن جني

¹ - المنهج الصوتي للبنية العربية، عبد الصبور شاهين، ص38

² - المرجع نفسه، ص38

³ - المرجع نفسه، ص171

⁴ - الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، ص260

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص19.

تعدّ ظاهرة النبر من الموضوعات المهمة في دراسة اللغة العربية، لها دور مهم في تحديد المعاني وتوضيحها، ويعدّ ابن جني، أحد أبرز اللغويين العرب الذين اهتموا بهذه الظاهرة، حيث قدّم إسهامات قيّمة في هذا المجال، ممّا يجعل دراسته للنبر ذات أهمية بالغة في ضوء الدرس الصوتي الحديث.

أدرك ابن جني بنظره الثاقب وحسّه المرفه هذه الظاهرة الفونولوجية؛ فذكر في: "باب القول على الفصل بين الكلام والقول" إكثار الشعراء من استعمال الكلام للدلالة على الجمل التامة؛ فقال: «ومما يؤنسك بأن الكلام إنما هو للجمل التوامّ دون الآحاد أنّ العرب لما أرادت الواحد من ذلك خصّته باسم له لا يقع إلا على الواحد، وهو قولهم: كلمة، وهي حجازية، وكلمة وهي تميمية»¹، وكما أن الكلمة المفردة لا تعد كلاماً عند ابن جني لافتقارها إلى تمام المعنى، فإن النبر لا يكتمل إلا داخل التركيب، قال كثير²:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا... خَرُّوا لِعِزَّةٍ زُكْعًا وَسُجُودًا

كما أن «الكلمة الواحدة لا تشجو، ولا تحزن، ولا تتملك قلب السامع، إنما ذلك فيما طال من الكلام، وأمتع سامعيه بعدوبة مستمعه، ورقة حواشيه»³.

كما يتجلى النبر من خلال رؤية ابن جني لبعض الأبيات الشعرية، وكيف كان النبر دليلاً على ما تحمله من معنى؛ يقول الشاعر⁴:

وَحَدِيثُهَا كَالْغَيْثِ يَسْمَعُهُ... رَاعِي سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدَبًا

فَأَصَاحَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَيًّا... وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ هِيَ رَبًّا

فيرى ابن جني أن هذه الأبيات دلّت على «حنين السحاب وسجره*، وهذا لا يكون عن نبرة واحدة بمعنى: حنين السحاب وسجره، وهذا لا يكون عن نبرة واحدة، ولا رزمة مُحْتَلَسَةٍ، إنما يكون مع البدء فيه والرجوع، وتثني الحنين على صفحات السمع»¹.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 63

² - ديوان كثير عزة، شرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط 1391هـ، 1971م، ص 63

³ - الخصائص، ابن جني، ص 64

⁴ - المصدر نفسه، ص 64

فسّر أحمد البايبي كلام جني أن المراد بالنبرة الواحدة الكلمة المنبورة، والرزمة المختلصة مجموعة من الكلمات ذات الأصوات المختلصة؛ أي ذهب فيها بعض الصوت وبقي بعضه نتيجة السرعة وعدم التأني في النطق².

وعليه؛ يمكن القول أن ابن جني لم يدرك النبر مصطلحا فحسب، وإنما استوعب مفهومه وأثره؛ إذ عدّه عمليّة تدرك بالسمع في صورة ضغط على جزء من الكلمة، ويتوالي النبرات في السلسلة الكلامية يحصل الإيقاع في شكل شجو وطرب، كما أن ما فات علماء العربية القدماء بصدد ظاهرة النبر هو عدم نصهم على أمكنة وقوعه، أما مسمى هذه الظاهرة وكنهها أو حقيقتها، وملاحمها، ودورها في اللغة فقد عرفوه تماما، ولا يختلف البحث الحديث معهم في شيء منها³.

أدرك ابن جني مفهوم النبر؛ فقد أشار إليه في ثنايا كتبه، ففي كتاب الخصائص؛ نجد " باب مطل في الحركات"، وجاء فيه: «وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها، فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة الياء، وبعد الضمة الواو»⁴ وهو النبر عن طريق مطل وإشباع الحركات، ثم يضيف قائلا عن إشباع الفتحة «وحكى الفراء عنهم: أكلت لحم شاة، أراد: لحم شاة، فمطل الفتحة فأنشأ عنها ألفا»⁵، ثم يذكر أبو الفتح إشباع الكسرة قائلا: «ومن إشباع الكسرة ومطلها ما جاء عنهم في الصياريف، والجلالعيد، والمطافيل»⁶، والمقصود: الصيارف، والجلالعيد، والمطافيل، ومن مطل الضمة؛ قول الشاعر⁷:

مَمْكُورَةٌ جُمَّ الْعِظَامِ غُطْبُولٌ.... كَأَنَّ فِي أَنْيَابِهَا الْقَرْنُفُولُ

* - والسجر في الأصل: هو صوت الناقة إذا مدت حنينا في إثر ولدها، وقد يستعمل في صوت الرعد، وهو المراد هنا. ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 64

¹ - المصدر نفسه، ص 64

² - ينظر: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصوتنة الإيقاعية، أحمد البايبي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط 1، 2012م، ج 1، ص 147

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 148

⁴ - الخصائص، ابن جني، ص 713

⁵ - المصدر نفسه، ص 714

⁶ - الخصائص، ابن جني، ص 715

⁷ - الممكورة المطوية الخلق الحسنة و"جم العظام" يُقرأ بضم الجيم جمع أجم، وقد جمع نظرا إلى المضاف إليه، والفصيح غير هذا، وقد يكون الأصل: جاه العظام فقصر الممدود، وحذفت الألف في الرسم، ويقال: عظم أجم: وافر اللحم. لسان العرب، ج 12، ص 108

الخصائص، ابن جني، ص 715

والمراد القرنفل.

يذكر في "باب مطل الحروف" أنّ «الحركات عند التذكر يملن؛ حتى يفين حروفا، فإذا صرّتها جرين مجرى الحروف المبتدأة تواءم، فيملن أيضا كما تمل الحروف وذلك؛ نحو قولهم عند التذكر مع الفتحة في قمت : قمتا: أي قمت يوم الجمعة، ونحو ذلك، ومع الكسرة أنتي، بمعنى أنت عاقلة، ونحو ذلك ومع الضمة قمتو في قمت إلى زيد، ونحو ذلك»¹ والغاية من المطل؛ أي: إشباع الحركات بما يناسبها والحروف بما يناسبها وزيادة الضغط على مقطع من المقاطع؛ إبرازه في السمع؛ لتحقيق غرض قصدي²، والحركات الطويلة تعمل على تمييز الكلمات وتوضيح معناها.

إن مطل الحركات والحروف يعدّ أحد المصطلحات المقابلة للنبر³، وهو عند ابن جني نبر التذكر قال: «إنما مُطِلت ومُدّت هذه الأحرف في الوقف وعند التذكر، من قبل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدّة فقلت: ضربا، وضربوا، واضربي، وما كانت هذه حاله، (...) لكنك لما وقفت ومطلت الحرف علم بذلك أنك متناول إلى كلام ثانٍ تالٍ للأول منوط به، معقود ما قبله على ما تضمّنه وخلطه بجملته»⁴.

يطرح ابن جني تصورا دقيقا للنبر بوصفه آلية صوتية ذات بعد تركيبى ودلالي، تتجلى وظيفتها في إطالة الحركات والضغط على الصوت، ويكشف هذا التصور عن منهج تكاملي يربط بين الصوت والمعنى. يتّضح مما سبق ذكره؛ أن النبر يعمل كأدوات التقييم الكتابية، يوضح المعنى الوظيفي للكلام المنطوق كالاستفهام والتوكيد والتذكر؛ وذلك باختلاف نبرة المتكلم من تغير ارتفاع الصوت وانخفاضه وتمديده بما يخدم المعنى المراد؛ فالسامع يفهم معاني التعجب أو الاستفهام أو الإنكار أو المدح أو الذم؛ انطلاقا من نبرة صوت المتكلم، وإن لم تُذكر الأداة، وبذلك يكون لابن جني فضل السبق في كثير من مفاهيم النبر في الدرس الصوتي الحديث.

المطلب الرابع: التنغيم عند ابن جني

أولا/ ملامح التنغيم عند ابن جني:

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص719

² - ينظر: الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، ص241

³ - من مصطلحات ابن جني المقابلة للنبر: الهمز؛ سرصناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص242، ينظر: المرجع نفسه، ص241

⁴ - الخصائص، ابن جني، ص718

أورد ابن جني ملمحا لطيفا عن التنغيم أثناء حديثه عن حذف الصفة في "باب شجاعة العربية"؛ قال: «وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، نحو قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة، لما دل من الحال على موضعها»¹.

بيّن ابن جني أن الصفة تُحذف، ويُستعاض عنها بما يدلّ عليها، فقد حُذفت صفة "طويل" وتم تعويضها بطريقة أداء المتكلم للجملة (التنغيم الصوتي) دون الحاجة إلى اللفظ الصريح، ويبرز ذلك في تمديد الياء في "سير" وتمطيطها، فحلّت محلّ الصفة، ويضيف مبينا لدلائل التنغيم، والتي لها دور في بيان وتوضيح المراد قائلا: «وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح، والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك»²، فرافق بذلك المتكلم كلامه سمات تدل على الصفة المحذوفة؛ وتفصح عن دلالة الجملة.

مثال ذلك ما ورد في سياق المدح والثناء، قال أبو الفتح: «وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول كان والله رجلا؟ فتزيد في قوة اللفظ ب(الله) هذه الكلمة، وتمكّن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك»³ ومثل ذلك قولهم: «سألناه فوجدناه أنسانا! وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه فيستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سما* أو جوادا أو نحو ذلك»⁴؛ فحذفت صفة الشجاعة والكرم والجود وعوّض عنها بقوة اللفظ وتمطيط اللام، وإطالة الصوت، وتمكين الصوت في: "إنسان" وتفخيمه.

لم يستعمل ابن جني مصطلح التنغيم، إلا أن في كلامه ما يدلّ عليه؛ وذلك في قوله: من قوة اللفظ وتمطيط اللام وإطالة الصوت وتمكنه و تفخيمه مع ما رسمه من دلالة، وبناء عليه، فإن «نغمة التطويح، والتمطيط، وإطالة الصوت التي طرز بها التركيب أغنت عن ذكر الصفة، وقامت مقامها، ومن ثمة فإنّ لهذه الظواهر التطريزية المتعلقة بالأداء الصوتي قيما دلالية إضافية؛ تبرز في السياق التغمي للمنطوق. وهكذا نلاحظ أن علمائنا كانوا على دراية بهذه الظاهرة الصوتية الفونولوجية التي تسهم في

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 551

² - المصدر نفسه، ص 551

³ - المصدر نفسه، ص 551

* - سمحا

⁴ - المصدر نفسه، ص 551

توجيه دلالة المنطوق»¹، وهذا يدل على إدراك ابن جني أن الصوت ليس وعاء للمعنى فقط، بل يسهم بشكل واضح في بنائه، كما أن فهم اللغة ليس مرهونا بالعناصر المكتوبة أو المسموعة الصريحة (المقاطع) فقط، بل يعتمد على كيفية أداء هذه العناصر صوتيا (كالتنغيم خاصة والظواهر التطريزية عامة).

كما أشار ابن جني إلى دور التعابير الإمائية في الوجه في توضيح مراد المتكلم؛ يقول: «وكذلك إذا ذمته ووصفته بالضيق؛ قلت: سألناه وكان إنسانا! وتزوي وجهك وتقطبه؛ فيغني ذلك عن قولك إنسانا ليما أو كزا أو مبخلا أو نحو ذلك، فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة»².

يقول ابن جني في "باب في نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها": «ومن ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب؛ استحال خبرا؛ وذلك قولك: مررت برجل؛ أي رجل، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهما، وكذلك مررت برجل أيما رجل، لأن ما زائدة وإنما كان كذلك لأن أصل الاستفهام الخبر، والتعجب ضرب من الخبر، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام إنما أعاده إلى أصله: من الخبرية»³؛ فأداة الاستفهام إذا خالطها معنى آخر فقدت معنى الاستفهام، فإذا طرأ التعجب على صيغة الاستفهام أعادها إلى أصلها الخبري؛ وذلك أن التعجب من ضروب الخبر (الإنشاء غير الطلبي)، فدلالة الجملة هنا لا يحددها شكلها النحوي؛ وإنما يحددها سياقها الصوتي والتنغمي، وهو ما أشار إليه ابن جني بقوله: إن التعجب يعيد الاستفهام إلى أصله الخبري، وهي إشارة منه تظهر عمق ودقة فهمه للعلاقة بين دلالة الجملة وطريقة أدائها.

نخلص مما ذكر؛ إلى أن ابن جني أدرك بذهنه المتوقع وظيفة التنغيم وفعالية في الحدث التواصلية ومدى تأثيره في إيصال المقاصد والتعبير عن الأغراض في نفوس المتكلمين.

ثانيا/ وظائف التنغيم عند ابن جني:

لا يقتصر دور التنغيم على تحسين جمالية الصوت فحسب بل يتعدى ذلك إلى القيام بوظائف دلالية أو بلاغية؛ كالتفريق بين أنواع الجمل (الخبرية والإنشائية)، والكشف عن حالة المتكلم وموقفه تجاه ما يقوله،

¹ - ظاهرة التنغيم ودورها المعنوي في توجيه الدلالة - نماذج مختارة من القرآن الكريم، نور الدين بوزناشة، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، جامعة

ميلة، العدد 2 (ديسمبر، 2022م)، المجلد 8، ص 101

² - الخصائص، ابن جني، ص 551

³ - المصدر نفسه، ص 814

فيسهم بذلك في توجيه الدلالة، وتحقيق التواصل الفعال بين المتكلم والمستمع. فكيف تجلّى ذلك عند ابن جني؟

يقول ابن جني في المحتسب: «وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوّة المعاني المعبر بها عنها وضعفها ما يحكى أن رجلاً ضرب ابناً له، فقالت له أمّه: لا تضربه، ليس هو ابنك؛ فرفعها إلى القاضي، فقال: هذا ابني عندي، وهذه أمّه تذكر أنه ليس مني. فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنما أخذ يضرب ابنه فقلت له: لا تضربه ليس هو ابنك، ومدت فتحة التّون جدّاً، فقال الرّجل: والله ما كان فيه هذا الطّويل الطّويل»¹؛ فجملة "لا تضربه، ليس هو ابنك" تختلف عن جملة "لا تضربه، ليس هو ابنك"، فإطالة زمن التّطرق على التّون من كلمة "ابنك" أحدث فرقاً بين المعنى المقصود والمعنى المفهوم، فالمد هنا عنصر دلالي يندرج تحت التّنغيم الصّوتي، فابن جني يشير هنا إلى أن الأصوات تتبع معانيها؛ فمتى قويت هاته المعاني قويت الأصوات ومتى ضعفت تبعها الأصوات في الضّعف².

من ذلك قراءة من قرأ " يا حسرة" بسكون الهاء " على العباد" من قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس، 30]، وقراءة ابن عباس والضّحّاك وعلي بن الحسين ومجاهد وأبيّ بن كعب: «يا حسرة العباد» بالإضافة، ويرى أبو الفتح أن الوقف على صيغة "يا حسرة" بإسكان الهاء غير مُستحسن؛ لأنّ قوله "على العباد" متعلق بما لا يُفصل عنها، إذ يُعدّ إمّا وصفاً لها أو جزءاً من معناها، ويُعلّل ابن جني ذلك بأن العرب إذا نطقت بكلمة لا تعتمد عليها ولا تُعنى بإتمامها، أسرع في لفظها وخففتها³، وذلك مثل الاقتصار على حرف من الكلمة في بيت الوليد بن عقبة⁴:

قُلْنَا لَهَا قَفِي لَنَا قَالَتْ قَافُ

معناه: وقفت، فاقتصرت من جملة الكلمة على حرف منها؛ تماهونا بالحال، وتثاقلاً عن الإجابة؛ ومما يُستشهد به أيضاً ألفاظ اللغو في الأيمان من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة، 225] كقولهم: "لا والله" و"بلى والله"، وهي مما يُسرّع فيه اللفظ بخلاف القسم المؤكّد الذي يطول فيه الصوت

¹ - المحتسب، ابن جني، ج2، ص255

² - ينظر: المصدر نفسه، ص255

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص255

⁴ - ينظر: ديوان الوليد بن عقبة، الديوان <https://www.aldiwan.net/poem152234.html> . المصدر نفسه، ج2، ص255

ويتكامل الأداء، كما في قول الهذلي عند ذكر يمينه المؤكدة وما يعقبه من رجوع: حيث يطول نُطقه بـ«فوالله» و«بلى» لإظهار التوكيد والتحقيق. قال الهذلي¹:

فَوَالله لَا أَنْسى قَتِيلًا رَزَيْتُهُ... بِجَانِبِ قَوْسى مَا مَشَيْتَ عَلَى الْأَرْضِ

يقول في موضع آخر: «علمت أن قراءة من قرأ "يا حسرة على العباد" بالهاء ساكنة؛ إنما هو لتقوية المعنى، وذلك أنه في موضع وعظ وتنبيه، وتحذير، فطال الوقوف على الهاء، كما يفعله المستعظم للأمر، المتعجب منه، الدال على أنه قد بهره، وملك عليه لفظه وخاطره»²؛ فالوقوف على الهاء الساكنة عوضاً عن تاء التأنيث سببه تقوية المعنى وبيان دلالة الوعظ والتنبيه والتحذير في سياقات التعجب والاستعظام.

إن امتداد الصوت وعلوه في أصوات اللين يؤدي دلالة وظيفية؛ وهو ما يؤكد أبو الفتح بقوله «وذلك مدة الإنكار؛ نحو قولك في جواب من قال: رأيت بكرة أبكرني، وفي جاءني محمد: المجدني وفي مررت على قاسم: أقاسمني! وذلك أنك ألحقت مدة الإنكار، وهي لاحالة ساكنة (...) فإن قيل: أفتنص في هذه المدّة على حرف معيّن: الألف أو الياء أو الواو؟ قيل: لم تظهر في شيء من الإنكار على صورة مخصوصة؛ فيقطع بها عليها دون أختيها، وإنما تأتي تابعة لما قبلها؛ ألا تراك تقول في قام عمر: أعمره، وفي رأيت أحمد: أحمده، وفي مررت بالرجل الرجلية»³.

ولما كان مطل الصوت ومدة تراخيه غاية الإنكار، فالألف أحق به دون أختيها الواو والياء؛ لأنها أمدن صوتاً، وأنداهن، وأشدّهن إبعاداً، وأنداهن، أما مجيئها تارة واوا، وأخرى ياء؛ فذلك لوقوع الكسرة والضمة قبلها، ولولا ذلك لما كانت إلا ألفاً، كما أن الدلالة على الوعيد والإغلاظ تقتضي تنغيماً خاصاً تمثل في الإشباع⁴.

كما دل التنعيم على الاستهزاء، لمن قرأ: "إذا مُتْنَا وَكُنَّا تَرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" على الخبر كلاهما بلا استفهام من قوله تعالى: ﴿وَكَاثِبُونَ يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة، 47] يقول ابن جني في هذا السياق: «مخرج هذا منهم على الهزء، وهذا كما تقول لمن تهزأ به: إذا نظرت إلي مُت ملك فَرَقاً،

¹ - ينظر: ديوان الهذليين، ج2، 157

² - المحتسب، ابن جني، ج2، ص256

³ - الخصائص، ابن جني، ص736

⁴ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص737

وإذا سألتك: جَمَمْتُ لى بحراً، أي أن : الأمر بخلاف ذلك، وإنما أقول هازئاً. ويدل على هذا شاهد الحال حينئذ، ولولا شهود الحال لكان حقيقة لا عبثاً فكأنه قال: إذا متنا، وكنا تراباً بعثنا»¹.

إن المدّ والتّنعيم ليسا مجرد زينة صوتية، بل عناصر تطريزية تؤثر في توجيه دلالة الجملة، كما تكشف عن الحس الصوتي في التراث العربي، وأن الدرس الصوتي عند ابن جني يمتد إلى ما يسمى اليوم بـ: الفونولوجية التداولية (pragmatic phonology)

يقول ابن جني: «ألا ترى أن الألف والياء والواو اللّوآتي هن حروف نوام كوامل، قد تجدهن في بعض الأحيان أطول وأتمّ منهن في بعض (...) فإذا وقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً»²، فهذه الحروف تزداد طولاً وامتداداً إذا جاءت بعدها همزة أو سكون، ويذكر ابن الجزري أن الأسباب المقتضية لزيادة المد قسمان: معنوي ولفظي؛ فالمعنوي هو قصد المبالغة في التّقي في مثل لا ريب فيه وعليه، مد التعظيم في نحو: لا إله إلا الله، واللفظي: هو ما مد من أجل الهمزة والسكون³، وقد أفرد ابن جني للمطل بابان:

لـ الأول: "باب في مطل الحركات" جاء فيه: «وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها، فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الضمة الواو، وبعد الكسرة الياء»⁴.

لـ الثاني: "باب في مطل الحروف" يقول فيها: «والحروف الممتولة هي الحروف الثلاثة اللينة، وهي الألف والياء والواو، اعلم أن هذه الحروف أينما وقعت، وكيف وجدت بعد أن تكون سواكن يتبعن بعضهن غير مدغمات ففيها امتداد ولين؛ نحو قام، وسير به، وكتاب وحوث وسعيد، إلا أن الأماكن التي يطول فيها صوتهما، وتتمكن مدّها ثلاثة؛ وهي: أن تقع بعدها، وهي سواكن توابع لما هو منهن وهو الحركات من جنسهن الهمزة أو الحرف المشدد، وأن يوقف عليها عند التذكر»⁵.

¹ - المحتسب، ابن جني، ج2، ص360

² - نوام كوامل: الحروف نوام إذا كانت أتم وأطول في بعض أحوالها. كوامل؛ أي: تامات. لسان العرب ج5، مادة (ن و م)، ص3930. سر

صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص33

³ - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص344.

⁴ - الخصائص، ابن جني، ص713

⁵ - المصدر نفسه، ص215-216

أشار ابن جني إلى أهمية المدّ في التمييز بين الجمل، يتضح ذلك عندما علّق على قراءة الحسن البصري: "آن جاءه الأعمى" بالمد من قوله تعالى: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس، 2] ف"أن" معلقة بفعل محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس، 1]، والتقدير: أنّ جاءه الأعمى أعرض عنه، وتولى بوجهه؟ فالوقف إذا على (الأعمى)؛ فكان لفظ الاستفهام منكراً للحال؛ فكأنه قال: ألأن جاءه الأعمى كان ذلك منه؟¹.

وهكذا؛ فإنّ التنعيم الناتج عن مطل الألف وإشباعها له دور بارز في بيان دلالة الآية القرآنية والكشف عن المعاني الخفية.

يعد التنعيم عنصراً صوتياً يؤدي وظيفة دلالية ونحوية مهمة؛ إذ قد يقوم أحياناً بدور بعض المقولات التركيبية المحذوفة، كحذف الصفات، ويوجّه المعنى عبر التحكم في طول الصوت وارتفاعه أثناء النطق، مما يتيح له أداء وظائف نحوية متنوعة؛ مثل: الاستفهام، والتوكيد، الإثبات، النفي؛ كما يسهم التنعيم كذلك في كشف البنية العميقة للجملة، وتحديد المقصود الحقيقي للمتكلّم، وبذلك يُعدّ التنعيم ظاهرة فونولوجية تطريزية؛ تُبرز المعاني بدقّة.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص416

الفصل الرابع:

القوانين الفونولوجية

(المماثلة والمخالفة والقلب) عند ابن جني

أولى ابن جني ظاهرة المماثلة اهتماما بالغاً؛ وذلك في إطار دراسته للعلاقات الصوتية بين أصوات اللغة العربية، مستنداً إلى مبدأ التقارب بين الأصوات؛ من حيث المخارج والصفات، وهو ما يظهر إدراكه العميق لمختلف القوانين التي تحكم الظواهر الصوتية، وملاحظته الدقيقة لأثر الأصوات بعضها ببعض، فقدّم بذلك ابن جني إسهامات بارزة تبين إلمامه الواسع بهاته الظاهرة، وقد عبّر عنها بعدة مصطلحات كالتقريب، والتجانس، والإدغام، وهو ما يعكس وعيه المبكر بالقوانين الصوتية التي تحكم بنية اللغة، كما أن معالجته لهذه الظاهرة يفصح عن كثير من الرؤى اللغوية التي توازي أو تفوق ما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث في كثير من جوانبه.

عالج ابن جني هذه الظاهرة في أبواب متفرقة من مؤلفاته؛ ولا سيما في كتابه الخصائص؛ في باب الإدغام الأصغر؛ إذ وصفها بإحدى ضروب الإدغام؛ فهي صورة من صور التقريب الصوتي، وتعني تأثر صوت بصوت آخر؛ فيؤدي إلى تقريب أحدهما من الآخر وإدناؤه منه، وتحدث بين الصوامت وبين الحركات كما تحدث بين الصوامت والحركات، وهذا لتحقيق نوع من الانسجام، والاقتصاد في الجهد الذي يبذله المتكلم، وقد لخص المحدثون هذا المعنى بقولهم: «تيسير النطق عن طريق تقريب الفونيمات بعضها من بعض، أو إدغامها بعضها في بعض لتحقيق الانسجام الصوتي»¹.

يمكن تصنيف أنواع المماثلة في ضوء ما أورده ابن جني من أمثلة وشواهد إلى: المماثلة بين الصوامت، وبين الحركات، وبين الصوامت والحركات

أولاً/ المماثلة بين الصوامت:

لم يستخدم ابن جني مصطلحات الفونولوجيا الحديثة؛ ولكنه من حيث الإجراء؛ فرق بين المماثلة التامة (التي تؤدي إلى الإدغام الكامل)، والمماثلة الجزئية التي يُحتفظ فيها ببعض خصائص الصوت الأصلي، وهذا في ظل دراسته للإدغام.

من أمثلة المماثلة بين الصوامت عند ابن جني ما يلي:

1/ المماثلة الكلية المقابلة المتصلة، فمن صورها :

¹ - تهذيب اللغة، الأزهري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418هـ/1998م، ص89

لـمماثلة تاء الفاعل لصوت الطاء السابق لها: تناول ابن جني قضية إبدال التاء طاء في: خبطت، وعلق عليها من زاوية صوتية؛ فقال معلقا على قول علقمة بن عبدة التميمي¹:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَ بِنِعْمَةٍ ... فَحَقَّ لِشَاشٍ مِّنْ نَّدَاكَ ذُنُوبُ

«فإنه أراد خَبَطْتُ، ولو قال خبطت لكان أقيس اللغتين؛ لأنّ هذه التاء ليست متصلة بما قبلها اتصال تاء افتعل بمثلها، ولكنه شبه تاء خبطت بتاء افتعل، فقلبها طاء لوقوع الطاء قبلها»²؛ وخبطت على وزن فعلت، وقد أثّرت الطاء (الصوت السابق أو الأول) المطبقة المستعلية في التاء (الصوت اللاحق أو الثاني) المفتحة المستفلة وهما من مخرج طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا العليا، ولا يوجد فاصل بينهما، فأبدلت التاء طاء ثم تم الإدغام كما يلي: خَبَطْتُ ← خَبَطْتُ ← خَبَطْتُ، فهنا المماثلة كلية بسبب الإدغام، ومقبلة لأن الصوت الأول (الطاء) أثر في الثاني (التاء)، ومتصلة؛ لأنه لا يوجد فاصل بين الطاء والتاء، بل هما متصلان بيغضهما البعض، ومنه فالمماثلة كلية مقبلة متصلة.

مثال ذلك: اطلع، واطرّد³، وأصلهما: اطلع واطرّد على وزن افتعل؛ أثّرت الطاء المطبقة المستعلية في التاء المستفلة المفتحة؛ وهما من المخرج نفسه، فأبدلت التاء طاء، ثم أدغمت الطاء الأولى في الطاء الثانية كما يلي: اطلع، اطرّد ← اَطْطَلْع، اَطْطَرَّد ← اَطْطَلْع، اطرّد، وذلك على أساس المماثلة الكلية المقبلة المتصلة.

لـمماثلة التاء للسين

ورد إبدال في الكلمة الدالة على العدد ست، وأصلها اللغوي هو سدس، وأصلها من التسديس، كما هو الحال في خمسة المأخوذة من التخميس، وتأكيدا لهذا الأصل، جاء تصغير ستّة على وزن سُدَيْسَة، مما يدل على بقاء حرف السين في أصل الكلمة، بيد أن تطور الكلمة خضع لجملة من التغيرات الصوتية، ابتدأت بإبدال السين الأخيرة تاء، وذلك لتقاربها من حيث الصفات الصوتية مع الدال التي تسبقها؛ فكلاهما من الحروف المهموسة، الأمر الذي أدّى إلى تقارب صوتي بينهما، وعليه فقد نتج عن هذا القلب الصوتي شكل

¹ - خبطت بنعمة: أي أنعمت بنعمة وتفضلت بها. ينظر: اللسان، ابن منظور، ج2، مادة (خ ب ط)، ص1094، الذنوب: الدلو، والمراد هنا النصيب من النعمة. ينظر: المرجع نفسه، ص1520، وشأس: أخوه. ينظر: المرجع نفسه، ج4، مادة (ش أ س)، ص2176. ديوان علقمة بن عبدة، تحق: سعيد نسيب مكارم، دار صابر، بيروت، ط1، 1996، ص29

² - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص230

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص231

سدت، حيث اجتمعت الدال والتاء - وهما صوتان متقاربان في المخرج - فحصل الإبدال الثاني، حيث أبدلت الدال تاء لتجانسها مع التاء التالية في الهمس والمخرج، ثم أدغمت التاء في التاء، فاستقرت الصورة النهائية للكلمة على ست¹، حيث أثرت الدال المجهورة في السين المهموسة؛ فأبدلت صوتا يشترك مع الدال في المخرج هو التاء، غير أن التاء تحمل صفة الهمس، ثم تم إبدال الدال تاء، فهنا أثر الصوت المهموس في الصوت المجهور، بعدها تم إدغام التاء الأولى في الثانية كما يلي: سدس ← سدت ← ست ← ست.

من شواهد هذا الإبدال؛ ما ورد في قول بعضهم: طس: طست، وهو ما يعضده الشاهد الشعري الذي أورده أبو علي، عن أبي عثمان²:

لو عَرَضْتُ لِأَيُّبَيِّ قَسِّ

أَشَعْتَ فِي هَيْكَلِهِ مُنْدَسِّ

حَنَّ إِلَيْهَا كَحَنِينِ الطَّسِّ

جاءت كلمة الطَّسِّ بمعنى: الطَّسْتُ؛ حيث أثرت السين التي تتميز بصفة الصفير في التاء، وهما متقاربتان في المخرج، فأصبحت طس، ثم أدغمت السين الأولى في الثانية، فأصبحت طس على سبيل المماثلة الكلية المقبلة المتصلة.

لـ مماثلة التاء للصاد: لم يقتصر هذا الإبدال الصوتي على السين فحسب، بل شمل كذلك الصاد، حيث قيل في لص: لصت، وأبقيت التاء في صيغة الجمع، كما في قول الشاعر³:

فَتَرَكْنَا نَهْدًا عَيْلًا أَبْنَاؤُهَا... وَبَنِي كِنَانَةَ كَاللُّصُوتِ الْمُرْدِّ

الشاهد فيه إبدال الصاد تاء، في "اللصوت" فالأصل "اللصوص"؛ إذ أثرت الصاد المفخمة المهموسة في التاء المرققة المهموسة بعدها فأبدلت صادًا ثم تم الإدغام (لصت ← لصص ← لص) وذلك على سبيل المماثلة الكلية المقبلة المتصلة.

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 165

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 165 - 166

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 166

من صور هذا النوع من المماثلة؛ ما جاء في المحتسب في قراءة عاصم الجحدري "أَنْ يَصْلَحًا" من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء، 128].

علّل ابن جني ذلك؛ بقوله: «أراد يصطلحا أى يفتعلا، فأثر الإدغام فأبدل الطاء صادًا، ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاء، فصارت يَصْلَحًا»¹، ثم أضاف أنه لم يجوز إبدال الصاد طاء لما فيها من امتداد الصغير؛ وذلك لأن كل واحد من الطاء وأختيها والطاء وأختيها يدغمن في الصاد وأختيها، وبالمقابل لا يتم إدغام واحدة منهن في واحدة منهن؟ فلذلك لم يجوز إلا أن يطلحا، وجاز يصلحا²، فهنا أثر صوت الصاد في صوت الطاء؛ فأبدلت الطاء صادًا، ثم أدغمت فيها (يَصْطَلَحًا ← يَصْصَلَحًا ← يَصْلَحًا) على سبيل المماثلة الكلية المقبلة المتصلة.

2/ المماثلة الكلية المقبلة المنفصلة: من ذلك إبدال الثاء فاء؛ أي: مماثلة الثاء للفاء، قال ابن جني: «فأما قولهم في أثافٍ أثاث بالثاء (...) فالثاء بدل من الفاء»³.

تحدث ابن جني عن الاشتقاق الصوتي والإبدال في أصل كلمة أثافٍ، محاولاً تفسير وجود حرف الثاء بدلا من الفاء أو العكس؛ فمن كانت عنده أَثْفِيَّةٌ أَفْعُولَةٌ، فإن أصل أثافٍ من ثفاهيثفوه، لكنه يرى أن هذا اشتقاق غير دقيق (وكلمة أثاث جاءت من أفاف؛ أي أن الثاء الثانية في: أثاث؛ هي بدلٌ من الفاء الأصلية في: يثفوه)، ويقبل ابن جني الرأي القائل أنه يجوز أن تكون الثاء بدلا من الفاء؛ أي من المحتمل أن يكون في: أثافٍ إبدال صوتي؛ فتحوّلت الفاء إلى ثاء، ويستشهد بقول الشاعر:

وَإِنْ الْأَعْدَاءُ بِالرِّفْدِ⁴

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 306

² - ينظر: المصدر نفسه ج 1، ص 306

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 186

⁴ - ديوان النابغة الذبياني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 2، 1426هـ - 2005م، ص 37

فالفعل **تَأَثَّفَكَ**؛ يحمل دلالة الثبات والإقامة، ويحتجّ به ابن جني على إمكان أن يكون أصل **أَثَافٍ** من الفعل **أَثَّ يَثُّ**؛ بمعنى: ثبت واطمأن، وهو ما يناسب وصف الأثافي بالثبات والركود؛ إذ توصف بالركود؛ لأنّها حجارة توضع حول القدر ولا تتحرك، فكأن المعنى متعلق بالثبات أو الرسوخ¹، وبهذا فإن ابن جني يرجح أن أصل كلمة **أَثَافٍ** من مادة فيها فاء، ولكن حدث فيها إبدال صوتي، فصارت التاء بدلا من الفاء، وذلك بغياب صيغة أثّية في اللغة، وبذلك يرى أن الإبدال بين **الفاء والتاء** هو الأرجح.

يرجع المحدثون سبب هذا الإبدال إلى الوضوح في السمع؛ إذ التاء أوضح في السمع من الفاء رغم أن كلاهما مهموس².

3/ المماثلة الكلية المدبرة المتصلة: ومن صورها ما جاء في:

لـمماثلة تاء الافتعال للصوت التالي لها: ومن ذلك:

- ما ورد في إبدال تاء (افتعل) ومشتقاته تاء؛ إذا كانت فاء الكلمة تاء، ثم يتم الإدغام، نحو: **أَتَرَدَ**، واثني³؛ أي: **أَتَتَرَدَ** ← **أَتَرَدَ** ← **أَتَرَدَ**، فكل من التاء والتاء تحمّلان صفة الهمس؛ وهما متجاورتان في المخرج، فأثرت التاء في التاء من باب المماثلة الكلية المدبرة المتصلة.

ومن ذلك؛ ما ورد في افتعل من ثني: **أَتْنَى**⁴، **ثَنَى** ← **أَتْنَى** ← **أَتْنَى** ← **أَتْنَى**، على سبيل المماثلة الكلية المدبرة المتصلة

من صورها؛ ما حكاه الفراء عن بعض القراء فيما ذكر ابن مجاهد "يَخْطَفُ"⁵؛ بفتح الياء والخاء والتشديد في الطاء، إذ ذكر أبو الفتح أنّ أصله: يَخْتَطِفُ، فأثر إدغام التاء في الطاء؛ وعلّة ذلك أنّهما من مخرج واحدة ولأن التاء مهموسة والطاء مجهورة، والمجهور أقوى صوتا من المهموس، ومتى كان الإدغام يقوّي الحرف المدغم حسن ذلك⁶، وعلّل ابن جني ذلك «أن الحرف إذا أدغم خفي فضعف، فإذا أدغم في حرف أقوى

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص185

² - ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992م، ص115

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص183

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص183

⁵ - قال تعالى: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْئُورٌ فِيهِ [البقرة، 20]

⁶ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج1، ص140

منه، استحال لفظ المدغم إلى لفظ المدغم فيه فقوى لقوته؛ فكان في ذلك تدارك وتلاف لما جنى على الحرف المدغم، فأسكن التاء؛ لإدغامها والحاء قبلها ساكنة، فنقلت الحركة إليها، وقلبت التاء طاء وأدغمت في الطاء، فصارت يَخْطَفُ¹.

ومن هذا القبيل؛ ما ورد في المحتسب في قراءة الحسن: "يَخْصِفَان" [الأعراف، 22] فإنه أراد بها: يَخْصِفَان يفتعلان، ومن ثمة، أثر إدغام التاء في الصاد، فأسكنها كما أن الحاء قبلها ساكنة، فكسرها لالتقاء الساكنين، فصارت يَخْصِفَان، في حين أن من قرأها يَخْصِفَان، فإنه أراد إدغام التاء في الصاد، ثم نقل الفتحة إلى الحاء؛ فصارت يَخْصِفَان، كما يجوز يَخْصِفَان بالياء المكسورة وكُسرت الحاء اتباعاً²، وذلك نحو قول الشاعر:

تُدَافِعُ الشَّيْبَ وَلَمْ تَقْتُلْ

والمراد تقتل، وأما من قرأ يَخْصِفَان فهو يَفْعِلَان كيقطعان ويكسران³.

وفي قراءة: يَعْدُونَ في السَّبْتِ من قوله تعالى: ﴿وَسَلُّهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف، 163]، أي: إنهم أرادوا قول: يعتدون، فأسكن التاء؛ ليدغمها في الدال، كما نقل فتحها إلى العين، فصار يَعْدُونَ، ومثله أيضاً في: يَخْصِفُ⁴. (يَعْتَدُونَ ← يَعْدُونَ ← يَعْدُونَ).

جاء في قراءة رجل من أهل مكة: مُرْدِّفِينَ وقال آخر أنه قرأ: مُرْدِّفِينَ، وقال آخر مُرْدِّفِينَ من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ أَلَيْسَ مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِّفِينَ﴾ [الأنفال، 9] قال أبو الفتح: «أصله مرتدفين مفتعين من الرَّدْف، فأثر إدغام التاء في الدال، فلما التقى ساكنان وهما الراء والدال حرك الراء لالتقاء الساكنين: فتارة ضمها اتباعاً لضمه الميم، وأخرى كسرها اتباعاً لكسرة الدال»⁵.

له تتأثر تاء افتعل المنقلبة عن اتفعل بالصوت المفتح بعدها فتفخم:

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 140

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 355-356

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 356

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 377

⁵ - المصدر نفسه، ص 387

قال ابن جني: «والعلة في أن لم ينطق بتاء افتعل على الأصل؛ إذا كانت الفاء أحد الحروف التي ذكرها؛ وهي حروف الإطباق - أنهم أرادوا تجنيس الصوت، وأن يكون العمل من وجه واحد بتقريب حرف من حرف»¹؛ ورد ذلك في قراءة الحسن (لا يَحْطِمَنَّكُمْ) بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء والنون، كما ورد عنه: (يَحْطِمَنَّكُمْ) بفتح الياء وكسر الحاء مع تشديدها وتشديد النون، ذكر أبو الفتح قراءة "يَحْطِمَنَّكُمْ" بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء، وأصل الكلمة: فَيَحْطِطَنَّكُمْ، يفتعل من "الحطم"، أي: الكسر، وتدلّ على القتل أو الإهلاك، نتج هذا اللفظ عن إدغام التاء في الطاء لقرب مخرجيهما، فأبدلت التاء طاء وأدغمت، ونُقلت حركة الفتحة إلى الحاء، فقال: يَحْطِمَنَّكُمْ. أما من كسر الحاء فعل ذلك؛ للتخلص من التقاء الساكنين (الحاء والتاء المدغمة)، كما كُسرت الياء تبعاً لكسرة الحاء، فيقال: يَحْطِمَنَّكُمْ، ومثل قول الشاعر²:

تُدَافِعُ الشَّيْبَ وَلَمْ تَقْتُلْ

أي: "تقتل"، ومنه فصيغة الفعل تختلف حسب ضبطه؛ فمن قال: يَحْطِمُ قال في الماضي: حَطَّم، ومن قال: يَحْطِمُ قال: حِطَّم، ويقاس على ذلك في اسم الفاعل: مُحْطَمٌ أو مُحِطَّم، وفي المصدر: حِطَامًا، ويُراعى في تشكيل هذه الألفاظ قواعد صرفية، منها أن أسماء الفاعلين والمفعولين لا تُكسر أوائلها اتباعاً، كما في: الْمُعَذِّرُونَ والمُرَدِّفِينَ، ولا يجوز قلب الألف ياءاً (حِطِيماً)؛ لأنّ الأصل لا يحتوي ألفاً قابلة للانقلاب، بخلاف ما لو وُجدت ألف صريحة³.

4/ المماثلة الجزئية المقابلة المتصلة: نحو ما روي عن الأعمش أنه قرأ: (فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفَهُمْ) بالذال بدلا من الدال من قوله ﴿فَلَمَّا تَتَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال، 57]، وقد علّق ابن جني على هذه القراءة بأنه لم يعرف في اللغة العربية الجذر الثلاثي (شرذ) مما يرجّح أن تكون الذال المعجمة في هذه القراءة بدلا من الدال المهملة، كما في قولهم: لحم خراذل وخراذل، حيث حدث الإبدال بين الدال والذال لكون الحرفين مجهورين ومتقاربين في المخرج⁴.

* - الضمير يعود إلى أبي عثمان المازني

¹ - المنصف، ابن جني، ج2، ص324

² - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص181-182

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص396

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص396

5/المماثلة الجزئية المقابلة المنفصلة: يقول ابن جني: «يقال: تركته وقيدا ووقيظا»¹، وأشار ابن جني إلى أن الذال أعم تصرفا من الطاء، لذلك قضى بأنها الأصل، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة، 3]²، فهنا أثر صوت القاف المفخم المستعلي في صوت الذال المرقق المستفل، والذي مخرجه من طرف اللسان مع ما يحاذيه من أطراف الثنايا العليا، رغم وجود فاصل بينهما وهو الياء، فأبدل الذال صوتا يكون من مخرجه ويحمل الصفات القوية التي يحتويها صوت القاف (التفخيم والاستعلاء) وهو صوت الطاء؛ أي: أثر الصوت السابق في الصوت اللاحق مع وجود فاصل بينهما، ولم يتم الإدغام؛ لاختلاف مخرج الصوتين وهذا على سبيل المماثلة الجزئية المقابلة المنفصلة.

ومن الشواهد؛ كلمة: اصطبر³، حيث تأثرت التاء المرققة في صيغة افتعل (اصتبر) بالصاد المفخمة التي قبلها، فأبدلت صوتا يكون من مخرجها (مخرج التاء)، ويكون مستعليا مفخما، وهو الطاء على سبيل المماثلة الجزئية المقابلة المتصلة.

7.6/ المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة/ المتصلة: ومن صورها:

أ- تأثر السين بالأصوات المفخمة؛ أشار ابن جني إلى أن السين إذا جاورت أصواتا مستعلية (كالغين، أو الخاء، أو القاف، أو الطاء)، فإنها تُبدل صادًا. قال: «وإذا كان بعد السين غين أو خاء أو قاف أو طاء، جاز قلبها صادًا»⁴، ومن ذلك قوله تعالى: كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ [الأنفال، 6]، ﴿وَيُصَاقُونَ، دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر، 48]، وصقر، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد، 2]، وصخر، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان، 20]، وأصبغ، كما قالوا في: سُقَّتْ صُقَّتْ، وفي سويق صويق، وفي سبقت: صبقت⁵، ويعلل ابن جني هذا بقوله: «القاف حرف مستعل، والسين غير مستعل، إلا أنها أخت الصاد المستعلية، فقربوا السين من القاف بأن قلبوها إلى أقرب الحروف إلى القاف من مخرج السين، وهو

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص239

² - ينظر: المصدر نفسه، ص239

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص231

⁴ - المصدر نفسه، ص223

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص198، 223، والمحتسب، ابن جني، ج2، ص332

الصاد»¹؛ ففي كل هذه الأمثلة: سقر←صقر، سخر←صخر، سقت←صبقت، قد أثر القاف المستعمل في الحرف الذي قبله مباشرة وهو السين المستغلة(تأثر الصوت الأول بالثاني، أي السابق باللاحق)، فأبدلت السين صوتا يكون من مخرجها (من طرف اللسان وما بين الثنايا العليا والسفلى)، ويحمل صفة الاستعلاء وهو الصاد على سبيل المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة.

أما: يساقون← يصاقون، أسبغ←أصبغ، سويق←صويق، سبقت←صبقت، فقد فصل بين الصوتين المؤثر والمتأثر فاصل على سبيل المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة.

ومن صور المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة أيضا قراءة يحيى بن عُمارة وَأَصْبَغَ بالصاد من قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ [لقمان، 20] وأصلها بالسين، وعلة إبدالها صادًا هو الغين التي بعد الياء²؛ حيث أثرت الغين المستعلية على السين المستغلة رغم وجود فاصل بينهما وهو الياء، فأبدلت السين صادًا على سبيل المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة.

ج/ تأثر السين بالقاف فتتحول إلى زاي، وهو ما اعتبره ابن جني لغة خاصة لقبيلة كلب؛ إذ قال: «وكلب تقلب السين مع القاف خاصة زايًا، فيقولون في: سَقَر: زَقَر، وفي: مَسَّ سَقَر: مَسَّ زَقَر»³؛ فالزاي والسين يشتركان في نفس المخرج وهو طرف اللسان وما بين الثنايا العليا والسفلى، لكنهما يختلفان في بعض الصفات؛ إذ السين صوت مهموس في حين الزاي مجهور، ولجأوة السين لصوت القاف وهو صوت مجهور أُبدلت صوتا يحمل هذه الصفة ويكون من مخرجها(مخرج السين) وهو الزاي، فالسين اقترب من القاف في صفة الجهر إذ أصبح مجهورًا، واختلف عنه مخرجًا على سبيل المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة.

ج/ ومن صور المماثلة الجزئية المدبرة: قلب تاء افتعل دالا مع الجيم في بعض اللغاتقالوا : اجدمعوا في: اجتمعوا، واجدز في اجتز*، وأنشدوا⁴:

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص198

² - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص211

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص208

* - تأثرت تاء افتعل المهموسة بالجيم المجهورة قبلها، فأبدلت صوتا من مخرجها(طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا العليا)، ويحمل صفة الجهر وهو الدال على سبيل المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة

⁴ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص198

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : لَا تَحْسَبَنَّا بَنَزَعَ أُصُولِهِ وَاجْدَزَّ شَيْحَا

أكد ابن جني أن ذلك لا يقاس إلا أن يسمع؛ إذ لا تقول في اجترأ : اجدرأ ، ولا في اجترح : اجدرح¹.

من صور المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة أيضا قراءة رويت عن النبي ﷺ : «وَالنَّحْلُ بِاسِقَتٍ» [ق، 10] وباصِقَاتٍ، فالأصل هو السّين، والصّاد بدل منها؛ وذلك لاستعلاء القاف، فأبدلت السّين صادًا، لتقرب من القاف، لما في الصّاد من صفة الاستعلاء²، فأثّر صوت القاف المستعلي المجهور على السّين المستقلة المهموسة، فأبليت هذه الأخيرة حرفًا من مخرجها ويحمل صفتي الاستعلاء والجهر وهو الصاد، على سبيل المماثلة الجزئية المتصلة المدبرة.

يمكن القول أن ابن جني تناول ظاهرة المماثلة بين الصوامت بوصفها إحدى آليات التغير الصوتي ضمن البنية الفونولوجية في اللغة العربية، فبسط القول فيها شارحًا، ومحللاً، ومعللاً وقوعها في السياقات اللغوية المختلفة، ومستشهداً بأمثلة من القرآن الكريم، والشعر، واللغة المستعملة، وقد أوضح في تحليلاته أثر التجاور الصوتي في إحداث هذه الظاهرة الصوتية، كما فرّق بين أنماطها؛ من حيث الدرجة (كلية أو جزئية)، والاتجاه (مقبلة أو مدبرة)، والاتصال (متصلة أو منفصلة) وذلك بناء على علاقة الصوت المؤثر بالمتأثر (من السابق ومن اللاحق)، والانفصال بينهما من عدمه، والإدغام من عدمه، ويظهر هذا التناول بوضوح في مؤلفاته المختلفة، وهو ما يكشف عن وعي ابن جني العميق بمختلف القوانين الفوتولوجية التي تحكم اللغة العربية.

ذهب القدماء إلى أن جهر التاء في افتعل مما فاؤه جيم؛ هو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، قال ابن جني: «ولا يقاس ذلك إلا أن يسمع، لا تقول في "اجترأ" اجدرأ" ولا في اجترح اجدرح»³.

قول ابن جني بأن جهر التاء في مثل: اجتمع بأنه شاذّ صحيح تماماً، إذا اعتبرنا الصيغة الحالية، ولكنه يكون غير صحيح على اعتبار أنّ الجهر قد حصل قبل عملية القلب المكاني أي: اتّجمع ← ادجمع ← بالقلب المكاني اجتمع، ومن هنا يتبيّن لنا أيضاً أنّ ماذهب إليه بعض المحدثين من طرد هذه القاعدة على كل فعل فاؤه

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 198

² - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 2، ص 332

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 207

مجهور خطأ تماماً إذا أخذنا في الحسبان الصيغة الحالية أي "افتعل"، ولكنه يكون صحيحاً باعتبار الأصل أي "اتفعل"¹.

ثانياً/المماثلة بين الصّوائت (الحركات)

من صور المماثلة بين الحركات ما ورد في القراءة الشاذة لأهل البادية: الحمد لله بضمّ الدال واللام، وقراءة إبراهيم بن أبي عبلة: الحمد لله² بكسر الدال اتباعاً لكسرة اللام وكلاهما شاذ في القياس والاستعمال- كما ذكر ابن جني-وسبب ظهور هذه القراءات يرجع إلى كثرة استعمال اللفظ وشيوعه في كلام العرب، مما أدى إلى تغييره واختزاله، كظواهر لغوية أخرى نحو: لم يَلْكُ، ولا أدْرُ، وسا يسو بحذف همزتيهما، ويُفسر التغيير ب: إتياع أحد الصوتين (حركة الدال) للآخر (حركة اللام) أو العكس، مما جعل الجملة الاسمية (مبتدأ وخبر) "الحمد لله" تُعامل معاملة الجزء الواحد من الكلمة المفردة، مثل: عُثِقْ، طُنُبْ، إِبِلْ، إِطْلُ³، ويقول ابن جني في الخصائص: «الحمد لله هو الأصل»⁴؛ أي: بالضمّ.

من جهة أخرى؛ يرى ابن جني أن قراءة الضمّ أسهل من قراءة الكسر؛ لسببين رئيسين⁵:

أحدهما: الأسبقية الرتيبة: الإتياع الأقيس؛ هو أن يتبع السبب (المبتدأ: وهو الحمد) المسبب (الخبر: وهو الله)؛ أي أن يكون الثاني تابعا للأول، فتكون ضمة اللام تابعة لضمة الدال (على القياس في مثل: مُدَّ، شَمَّ، فَرَّ)، وهذا أولى من إتياع الأول للثاني.

والآخر: قوّة الإعراب؛ أي من حيث القوّة النحويّة: أنضمة الدال في: "الحمد" هي إعراب (حالة رفع)، وكسرة اللام في: "الله" هي بناء (حرف جر)، وحرمة الإعراب أقوى؛ لذا فمن الأقرب أن يغلب الأقوى (الإعراب) الأضعف (البناء)، فتنتقل الضمة إلى اللام.

يُستخدم هذا الإتياع الحركي دليلاً قوياً على شدة اتصال المبتدأ بخبره (الحمد بالله)، حتى نُزلت الجملة بأكملها منزلة الجزء الواحد، ويُعزز ذلك بأمثلة أخرى من القراءات الشاذة أو اللهجات، مثل: حذف جزء من

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 226-227

² - من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة، 1]

³ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 110-111

⁴ - الخصائص، ابن جني، ص 753

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 111-112

الاسم المركب، قراءة ابن كثير: "فإذا هي تَلَقَّفُ" (بتسكين حرف المضارعة) من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُورُ﴾ [الأعراف، 117] التي أدت إلى تصور الابتداء بالساكن¹.

تتضح من هذه الأمثلة الصلة الوطيدة بين الظواهر الصوتية الصرفية والدلالات النحوية التي تتضمنها، وأن ظاهرة الإتيان الحركي في: الحمد لله دليل على قوة الترابط بين أجزاء الجملة الاسمية وعدّها وحدة لفظية واحدة.

أشار اللسانيون في العصر الحديث إلى هذه الظاهرة (الاتباع الحركي)؛ فرأى إبراهيم أنيس أنها من ظواهر التطور في حركات الكلمات، وسببها يرجع إلى الاقتصاد في الجهد العضلي²، وسماها أحمد علم الدين الجندى بـ: المماثلة في الحركات (Vowel-Harmony)، كما سماها: التقريب أو الانسجام³، وأطلق عليها عبده الراجحي مصطلح الاتباع⁴.

هذا يدل على سير المحدثين وفق نهج المتقدمين في تفسير هذه الظاهرة الصوتية، بيد أن الفرق بينهم يكمن في طريقة العرض، والمصطلحات المستخدمة في التعبير عنها؛ إذ استعمل ابن جني مصطلحي التقريب والاتباع الحركي، أما المحدثون فقد استخدموا مصطلح المماثلة.

من نماذجها؛ كسر هاء الضمير وهو ما يسمى بـ: الوهم، ومن ذلك اختلاف القراء في قراءة كلمة عليهم من قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة، 6]؛ ذكر ابن جني أن فيها سبع أوجه؛ هي⁵:

- عَلَيْهِمُ بضم الميم مع إشباعها.

- وَعَلَيْهِمْ بضم الميم من غير إشباع إلى الواو.

- وَعَلَيْهِمْ بضم الهاء وسكون الميم.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 113

² - ينظر: في اللهجات العربي، إبراهيم أنيس، ص 86

³ - ينظر: اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندى، ص 273

⁴ - ينظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، ص 143

⁵ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 120

- وعليهم.

- وعليهم بكسر الهاء وسكون الميم.

- وعليهم بكسر الهاء وإشباع الميم.

- وعليهم بكسر الهاء وضم الميم دون إشباع.

- عليهم بضم الهاء وكسر الميم بعدها ياء.

- وعليهم بضم الهاء وكسر الميم من غير إشباع.

- وعليهم بكسر الهاء والميم بدون إشباع. فهذه عشرة أوجه، خمسة بضم الهاء، وخمسة بكسرها.

أكد ابن جني بأن القراءة الأصلية؛ هي: **عليهمو**؛ لثبات الواو كعلامة جمع، وأما **عليهمي** فكسرت الهاء لوقوع الياء قبلها، ومن كسر الميم وحذف الواو فقال: **عليهم** فلما كسر الهاء احتمل الضمة بعد الكسرة ، وحذف الواو تفاديا من ثقلها مع ثقل الضمة، أما من قرأ **عليهم** بضم الهاء والميم فإنه حذف الواو استخفافا، واحتمل الضمة قبلها لتدل عليها، ومن قال: **عليهمي** فقد كره ضمة الهاء وضمة الميم ووقوع الواو نحو قولهم: **دلو وحقو: أدل وأحقو** أصلهما: **أفعل أدلو وأحقو** فأبدلوا الضمة كسرة فصار **أدلو وأحقو** ثم قلبت الواو ياء لوقوع الكسرة قبلها فصار **أدلى وأحقى** فكذاك أبدلت ضمة الميم ن **عليهمو** كسرة **عليهمو**، فأبدلت الواو ياء بسبب كسرة الميم فصارت **عليهمي**، وأما **عليهم** فقد اكتفى بالكسر دون ياء استخفافا، وكذلك **عليهم** اكتفى بالضمة من الواو، أما من قال: **عليهم** فقد اكتفى بالكسرة دون الياء استخفافا¹؛ فقلب الحركات كالسر بدل الضم مثلا علته التخفيف أو تجاور الحروف المتقاربة في المخرج، كما أن حذف الواو والياء لتخفيف النطق ومنع الثقل.

من بين المحدثين الذين تناولوا ظاهرة المماثلة الصوتية بين الحركات، برجستراسر؛ إذ يشير إلى إبدال الضمة كسرة عند وقوعها بعد كسرة أو ياء، وقد مثل لذلك ببعض الضمائر، نحو: **بهو عليه**، التي يُفترض من حيث الأصل أن تُنطق بضمة، غير أن هذه الضمة تحولت إلى كسرة بسبب مجاورتها لكسرة أو ياء، وقد ذهب

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج1، ص121-122

إلى هذا الرأي أيضا كل من بروكلمان، ورمضان عبد التواب، وأحمد مختار عمر، مؤكدين أن هذا التغيير الصوتي يُعدّ من مظاهر التأثير السياقي في بنية الكلمة¹.

من صور المماثلة بين الحركات ما يُعرف بالثلاثة، وتُنسب إلى بهراء، وتمثّل في كسر أوائل الحروف نحو: قولهم: تَعْلَمُونَ، وَتَفْعَلُونَ، وَتَصْنَعُونَ²، وموقف ابن جني منها يتجلى في قوله: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع، وعجرفيّة ضبّة، وتلتلة بهراء»³، ومثال الثلاثة أيضا ما أورده ابن جني في قراءة يحيى فَإِنَّهُمْ يِلْمُونَ كَمَا تِلْمُونَ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْنُؤْا فِي إِبْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَالِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَالْمُونَ كَمَا تَالِمُونَ﴾ [النساء، 104] بكسر حرف المضارعة وهو ما يعرف باسم الثلاثة، قال ابن جني: «العرف في نحو هذا أن من قال: أنت تِئْمَن وتِئْلِف وإيلف، وكسر حرف المضارعة - إذ صار إلى الياء فتحها البتة، فقال: هو يَأْلَف، ولا يقول: هو يِلْف، استثقلا للكسرة في الياء»⁴، فالكسر أنسب للياء (الكسرة تجانس وتناسب الياء)؛ أي الكسرة في الياء الأولى مماثلة للياء الثانية، ومنه فالكسرة بسبب الياء المجاورة لها، لكن العرب استثقلا الكسرة مع الياء في هذا الموضع (اجتماع ياء + كسرة + ياء) حيث إذا جاءت هذه الياء في بداية الكلمة كانت الكسرة ثقيلة عليها فينتقل إلى فتحها بغرض التخفيف وتيسير النطق، فابن جني يشير إلى كسر التاء والهمزة من أحرف المضارعة ويرفض كسر الياء استثقلا للكسرة عليها.

من ذلك قراءة "فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ" بكسر التاء، وقال أبو الفتح هذه لغة تميم، أن تكسر أول مضارع ما ثاني ماضيه مكسور نحو عَلِمْتَ تَعْلَمُ وأنا إِعْلَمُ وهي تَعْلَمُ، وتقل الكسرة في الياء نحو: يَعْلَمُ استثقلا للكسرة في الياء، وذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة؛ مثل: تَنْطَلِقُ و"يوم تَسُودُ وجوه وتَبْيِضُ وجوه" فكَذَلِكَ "فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ"⁵، وجاء في كتاب اللهجات العربية في التراث أن «كسر حرف المضارع من خصائص الجزء الشرقي من الجزيرة كقيس وقيم وأسد وربيعة وعامة العرب»⁶.

¹ - ينظر: التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، ص 62، وفقه اللغات السامية، بروكلمان، ص 64، والتطور اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه،

رمضان عبد التواب، ص 34، ودراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص 383

² - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 315

³ - المصدر نفسه، ص 316

⁴ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 302

⁵ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 352-453

⁶ - اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندبي، ص 391

كما يحدث التفاعل الصوتي بين الصّوامت فيما بينها الصوامت، وبين الصوائت بعضها مع بعض، فإن علاقة التأثير تمتد كذلك بين الصوامت والحركات؛ فيؤثر كل منهما في الآخر، بتحويل الصوائت إلى حركات مماثلة لطبيعتها، أو عن طريق تغيير مخارج الصوامت والتعديل في صفاتها؛ أي: تأثير الصوامت في الحركات أو العكس.

ثالثاً/ المماثلة بين الصّوامت والحركات

أ/ أثر الحركات في الصّوامت

ومن صورها:

لما يعرف بظاهرتي الكشكشة والكسكسة، ذكر ابن جني أن كشكشة ربيعة؛ يريد قولها مع ضمير المؤنث: إنكش، ورأيتكش، وأعطيتكش، وتكون في الوقف، فإذا وصلت أسقطت الشين، وأما كسكسة هوازن فقولهم أيضاً: أعطيتكس، وعنكس، ومنكس، وتكون في الوقف دون الوصل¹، فالكشكشة تتمثل في إضافة الشين بعد كاف الخطاب المؤنث المفرد، وتثبت وقفاً لا وصلاً، في حين الكسكسة هي زيادة الشين وتكون في الوقف فقط، وزيادة الشين أو الشين لبيان كسرة الكاف²، وذكر ابن جني أن منهم «من يُجري الوصل مجرى الوقف فيبدل أيضاً»³، ومنهم من يبدل كاف المؤنث في الوقف شيناً في الكشكشة، وأنشدوا للمجنون⁴:

فَعَيْنَا شَ عَيْنَهَا وَجَدُشَ جِيدُهَا سَوَى أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْشٍ دَقِيقُ

ومن الشواهد الشعرية أيضاً قول أبي العباس أحمد بن يحيى⁵:

عَلِي فِيمَا أَبْتَعِي أَبْغِيشِ

بَيْضَاءُ تُرْضِينِي وَلَا تُرْضِيشِ

وَتَطْبِي وَدَّ بَنِي أَبِيشِ

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص315

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص216، 218

³ - المصدر نفسه، ص218

⁴ - ديوان قيس بن الملوّح، ص45

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص219

إِذَا دَنَوْتَ جَعَلَتْ تُنْشِشِ

وَإِنْ نَأَيْتَ جَعَلَتْ تُدْشِشِ

وَإِنْ تَكَلَّمْتَ حَثَّتْ فِي فِشِ

حَتَّى تَنْقَى كَنْقِيقِ الدِّشِ

فشبه كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث.

يتفق اللسانيون على أن هذه الظاهرة الصوتية تمثل تحولا صوتيا ؛ ناجما عن تأثير الصوت الطبقي المهموس /k/ بالكسرة، مما يؤدي إلى تغيير في صفاته الصوتية، فيتحول /k/ إلى صوت مزدوج، يُعد النظير المهموس للجيم العربية الفصيحة، ويُحقق صوتيا بصيغة /tʃ/ في ظاهرة الكشكشة، أو بصيغة /ts/ في الكسكسة؛ وسبب هذه الظاهرة هو تأثير الكسرة التي تدفع بالصوت الطبقي نحو الأمام، مقتربة به من منطقة النطق (الحنك الأوسط)، مما يؤدي إلى انتقاله من كونه صوتا طبقيًا إلى صوت وسطي أكثر أمامية من حيث الموضوع النطقي¹.

لـ ومن مظاهر مماثلة الصوامت للحركات: ما يعرف بالترقيق والتفخيم في الصوامت بحسب الصوائت التي تكتنفها، وفي هذا السياق يقول ابن جني: «فإذا جاور الشيء الشيء دخل في كثير من أحكامه لأجل المجاورة»²، وقد سبق ذكر تأثير السين بالأصوات المفخمة في المماثلة الجزئية؛ حيث وإذا كان بعد السين غين أو خاء أو قاف أو طاء، جاز قلبها صادًا؛ نحو يساقون، وسقر، وأسبع—يصاقون، صقر، أصبغ³.

ومن ذلك: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَةً﴾ [ق، 10] وباصقات، قال ابن جني: «الأصل السين، وإنما الصاد بدل منها؛ لاستعلاء القاف، فأبدلت السين صادًا لتقرب من القاف، لما في الصاد من الاستعلاء»⁴.

ب/ أثر الصوامت في الحركات:

¹ - ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ص 108-109

² - المنصف، ابن جني، ج 2، ص 2

³ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 223

⁴ - ينظر، المحتسب، ابن جني، ج 2، ص 221

ومن صورها:

لـمما أشار إليه ابن جني المتمثل في العلاقة الوطيدة بين الحلقيات وبين الفتحة (فتح الحرف الحلقى)، وقد قرأ الحسن "إلى يوم البعث" وقرأ أيضا: " فهذا يوم البعث" بفتح العين فيهما من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم، 56]، فهنا جاء الحرف الحلقى بعد فتحة؛ وهو ساكن ثم حرك بالفتح¹.

من ذلك قراءة سهل بن شعيب التهمي: جَهْرَةٌ وَ زَهْرَةٌ² من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يُمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة، 55] ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه، 131]. كما أنه قرأ كل ما كان من هذا النحو في القرآن الكريم محركا³.

ذهب البصريون إلى أن مثل هذا التحريك ليس قياسيا، وإنما هو من باب اختلاف اللغات واللهجات، كما في: الزَهْرَةُ ← الزَهْرَة، النَّهْر ← النَّهَر، وغيرهما، حيث يُنظر إلى الفتح في هذه الأمثلة على أنه لغة وليست قاعدة، أما الكوفيون، فيرون جواز تحريك الحرف الثاني إذا كان حرفا حلقيا، اعتمادا على الخصائص الصوتية لهذه الأحرف، حتى وإن لم ترد في السماع العام، وهو المذهب الذي أخذ به ابن جني معتبرا أن الحق معهم في هذه المسألة؛ وقد دعم هذا الرأي بشواهد من كلام العرب، كقولهم: اللَّحْم بفتح الحاء، وساروا نحوه، وأنا محموم، مما يدل على وجود ظاهرة لغوية مقبولة وإن كانت مخالفة للمألوف النحوي، وقد خلاص إلى أن كلمات مثل: جَهْرَةٌ وَ زَهْرَةٌ يمكن تأويلها على صيغة فَعْلَةٌ لا فَعْلَةٌ، مما يسوغ هذا النوع من التحريك في إطار التنوع الصوتي والصرفي في العربية⁴.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص209

² - المصدر نفسه، ج1، ص166

³ - المصدر نفسه، ص166

⁴ - ينظر: ، المصدر نفسه، ج2، ص166-167

نجد ابن جني يخالف البصريين في هذه المسألة وينحاز إلى جانب الكوفيين؛ قال في المحتسب: «وما أرى القول بعد إلاّ معهم؛ والحق إلا في أيديهم»¹ ويؤكد في موضع آخر قوله «وإني أرى في رأيهم لا رأي أصحابنا»².

من شواهد هذا النوع من المماثلة؛ قراءة طلحة: الضَّان بفتح الهمزة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْلُغُكَ مِنَ الْضَّانِ الْإِثْنَيْنِ﴾ [الأنعام، 143]، وفي رواية الخلواني عن شباب، عن أحمد بن موسى عن أي عمرو وعيسى الثقفي أنهما قرآ: " حملته أمه وهنا على وهن " بفتح الهاء فيهما³ من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان، 14]، والفتح مع حروف الحلق مذهب الكوفيين ومن سار على نهجهم كالبعثاديين.

وقد أشار ابن جني إلى أن هذا التحريك ليس عشوائياً، بل يهدف إلى تحقيق نوع من الانسجام بين الصامت والحركة وأنه لا بد للحنجريات ولا للحلقيات في المجيء بالفتحة قال ابن جني: «فحروف الحلق لا تحرك ساكناً، ولا تسكن متحركاً، بل لعمري أنه يراد فيها الاتباع، وتجانس الصوت، فأما تسكين متحرك أو تحريك ساكن، فلا يجب لها»⁴، ألا ترى أن من قال: شعير وبغير ورغيف فقد أبدل فتحة فاء فعيل كسرة لأجل كسرة حرف الحلق ولم يحرك ساكناً ولا سکن متحركاً⁵.

يرى إبراهيم أنيس أنه «لا معنى لما يشترط بعض اللغويين من أن الحرف الثاني في مثل هذه الكلمات يجب أن يكون من حروف الحلق»⁶، وعلل اشتراطهم له بقوله: «ويظهر أن الراوي قد سمع كلمات من تميم تصادف إن كانت مشتملة على حروف الحلق، وليست هذه الظاهرة التيممية إلاّ انسجاماً بين الحركات يشبه ما نسمعه الآن في بعض اللهجات الحديثة من نطق: كبير بعيد، نظيف بكسر أولها»⁷.

¹ - المحتسب، ابن جني، ج2، ص166

² - المصدر نفسه، ج2، ص209

³ - المصدر نفسه، ص210

⁴ - المنصف، ابن جني، ج2، ص307

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص307

⁶ - في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ص102

⁷ - المرجع نفسه، ص102

نجد ابن جني في تفسيره لقراءة قرَح بفتح القاف والراء من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران، 140]؛ يقول «إن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرا معتدًا معتمدا (...) ويكون فتح الحاء من القَرَح لها ما قبلها كفتحها لها عين الفعل المضارع نحو يسنح ويسفح ويسمح، ويؤنس بذلك أن هذه الحروف حلقية، فضارعت بذلك الألف التي لا يكون ما قبلها إلا مفتوحا»¹.

يعلل في موضع آخر ما جاء من فعل بفتح العين في الماضي والمضارع مما عينه أو لامه حرف حلقى؛ «بأنهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق؛ لما كان موضعا منه مخرج الألف التي منها الفتحة»²؛ ومنه فحرف الحلق، إذا كان ساكنا جاز تحريكه بالفتح عند بعض العرب؛ وذلك لأنه من موضع منه الألف، والفتحة بعض الألف، وإذا كان الحرف الذي قبله ساكنا جاز فتحه أيضا عند بعض العرب لكونه من مخرج الألف التي يفتح لها ما قبلها.

فالأمر إذا؛ مرتبط بالألف عند ابن جني كما هو واضح من تعليله سواء في فتح الساكن قبل حرف الحلق أم في فتح حرف الحلق الساكن، فكأن كل حروف الحلق عند هؤلاء لها أثر الألف، مما يستدعي أن يسبقها بعض الألف وهو الفتح، ومعنى ذلك أن ما قبل حرف الحلق يكون منسجما في حركته مع حرف الحلق، وهذا الانسجام نجده أيضا في الكسر، فحين انكسر حرف الحلق في مثل: شعير وبغير مال إلى الياء، فلم يعد له ذلك القرب من الألف بانفتاحه الذي استدعى بعض الألف قبله أو بسكون الذي استدعى بعض الألف كونه من مخرجها من غير حركة معارضة، فمالوا مع الصّوت الجديد بمنحه بعض الياء وهي الكسرة وذلك ليتّـمّ التّناسب الصّوتي بين الفتح والفتح، والكسر والكسر³.

يضيف النعيمي أن هؤلاء «لم يطرد عندهم الفتح مع غير حروف الحلق، أو يفتح عندهم الساكن قبل غير حروف الحلق يُقال لا شأن لحروف الحلق بهذا، فإذا قد ثبت هذا عنهم هكذا كان القول بأنهم ناسبوا

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 264-265

² - الخصائص، ابن جني، ص 401

³ - ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، النعيمي، ص 216

بالفتح مع حرف الحلق إذا كان ساكناً أو مفتوحاً، وبالكسر معه إذا كان مكسوراً، فهو إذن انسجام صوتي جر إليه حرف الحلق»¹.

يرجح أن شيوع بناء فعيل جاء نتيجة انسجامه الصوتي، فعَمَّمته اللهجات الحديثة في ألفاظ مختلفة تحقيقاً للانسجام الصوتي، فكأننا آنسنا الصيغة الجديدة في فعيل فجرينا عليها بالقياس الخاطيء، وإن خلت من حروف الحلق².

يؤكد المحدثون أنَّ الصَّوائت تتأثر في كل لغة من اللغات السامية، ولا سيما في اللغة العربية، بالأصوات الصامتة المجاورة لها، فتغير من مخارجها أو صفاتها إلى أصوات تناسب طبيعتها³، كما أن التفسير العلمي لهذه الظاهرة أن تحريك الصوت الحلقي أخف من تسكينه؛ حيث إن أصوات الحلق بعد صدورها من مخارجها تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم، فلا يعوق هذا المجرى سيء، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعاً وهي الفتحة⁴.

يتضح من دراسة ابن جني لظاهرة المماثلة؛ أنه سبق المحدثين في كثير من التقارير الصوتية، وإن اختلفت مصطلحاته مع مصطلحات الدرس الصوتي الحديث، وقد عالج الظاهرة في مستويات متعددة: المماثلة بين الصوامت، وبين الصوائت، وبين الصامت والصائت، مما يدل على إدراكه العميق لتفاعلات الأصوات داخل الكلمة، كما يلاحظ أن ابن جني لا يتبنى رأياً نحويًا جامداً، بل يعمل العقل التحليلي والصوتي في الحكم على الظواهر، ويخالف مدرسته (البصرية) إن اقتضى الأمر، كما في موقفه من مسألة تحريك الحروف الحلقية، فيُعَدُّ بذلك ابن جني رائداً في الدِّراسة الصوتية؛ وذلك رغم غياب الأدوات التحليلية الحديثة، ومن أبرز مظاهر ريادته: استخدام مصطلحات وظيفية تقترب من المفاهيم الفونولوجية المعاصرة، ووعيه بأثر السياق في تغيير وظيفة الأصوات، وقد مهَّدت أعماله لبناء وتطوُّر الدرس الصوتي عند علماء اللغة العرب، بل إن بعض آرائه توازي ما وصل إليه اللسانيون الغربيون بعده بقرون.

¹ - الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، النعيمي، ص 216

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 216

³ - ينظر: فقه اللغات السامية، بروكلمان، ص 53

⁴ - ينظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996م، ص 113-114

بعد تناول الجوانب المتعلقة بمفهوم المماثلة في كتب ابن جني وما يتصل بها من ظواهر صوتية، لابد لنا من التطرق إلى الظاهرة الصوتية المقابلة لها؛ والتي تقوم على نزوع الأصوات نحو التباين والاختلاف بدلا من التقارب والائتلاف.

المبحث الثاني: المخالفة الصوتية في كتب ابن جني

تُعدّ ظاهرة المخالفة الصوتية من أبرز الظواهر التي تناولها ابن جني في إطار تفسيره للتغيرات الصوتية التي تطرأ على الكلمات؛ إذ تناولها بالتحليل والشرح ضمن مباحثه اللغوية، وفي سياقات متعددة.

عقد ابن جني في كتابه الخصائص بابا باسم: "باب في العدول من الثقيل إلى ما هو أصقل منه لضرب من الاستخفاف" تناول فيه ابن جني أنّ هذا العدول يحدث في الأمثال لتجنّب التكرار الثقيل؛ بحيث يترك الحرف الأصلي ويُستبدل بما هو أثقل منه ليختلف اللفظ ويخفّ على اللسان، وهو شكل من أشكال التخفيف والتيسير في التعبير اللغوي، وهذا يعكس مبدأ الاقتصاد في اللغة، وهي عملية تعد أسهل وأيسر في النطق، يقول ابن جني عن هذا الباب بأنّه «يعرض للأمثال إذا ثقلت لتكريرها؛ فيترك الحرف إلى ما هو أثقل منه؛ ليتلف اللفظان فيخفّ على اللسان»¹، فبعض الأبنية وإن بدت أثقل من حيث الصيغة، لكنها أكثر انسجاما مع طبيعة اللسان العربي في حركته، ومن ذلك الحذف استخفافا هروبا من التضعيف نحو ظلت ومست وأحسست، وكان الأجدر بهم إبدال أحد المثلين لأنه حسب رأي ابن جني «أحسن وأسوغ؛ لأنّه أقل فحشا من الحذف وأقرب»².

كما يتناول أبو الفتح في "باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف" يشرح ابن جني في هذا الباب أن قلب الألفاظ عند العرب عملية لغوية مقصودة تقوم على الصنعة والتلطف، تقوم على الملاينة والتخفيف والتيسير في النطق، لا عن طريق التعسف والإجبار، والهدف منها تحقيق سهولة النطق وانسجام الأصوات، وهي ظاهرة منهجية تخضع لقواعد صوتية وصرفية، وليست اضطرابا

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 645

² - المصدر نفسه، ص 646

في اللسان، وتعدّ دليلاً على دقة الحسّ اللغوي العربي، وقدرة العربيّة على التطوّر الداخلي المنتظم، ومثل ذلك قول العرب: «تسريت من لفظ (سرر)، وقد أحالته الصنعة إلى لفظ (سري)¹».

شأنها شأن المماثلة؛ فيمكن تقسيمها إلى: المخالفة بين الصّوامت، المخالفة بين الحركات، والمخالفة بين الصّوامت والحركات، وهي وفق التفصيل الآتي:

المطلب الأول: المخالفة بين الصّوامت:

تتحقّق المخالفة بين الصّوامت عن طريق الحذف الواقع في الحروف المتماثلة أو المتقاربة، سواء أكان هذا الحذف دون تعويض أم مصحوباً بتعويض عن الصّوت المحذوف، كما أن هذه الظاهرة لا تقتصر على موضع معيّن من الكلمة، بل قد تطرأ في بدايتها ووسطها ونهايتها.

أولاً/ المخالفة بالحذف بين المتماثلين، وبين المتقاربين:

1/ المخالفة بين المتماثلين:

1-1/ المخالفة بالحذف دون تعويض:

من أشكال المخالفة بين الصّوامت عند ابن جني: المخالفة بالحذف بين المتماثلين ودون تعويض، ومن ذلك مخالفة الصوت المضعف؛ إذ يرى أن تكرار الحرف نفسه يؤدّي إلى ثقل في النطق، وهو ما يستدعي أحياناً مخالفة هذا التكرار بتغيير أحد الحرفين لتيسير النطق، وقد أطلق على هذه الظاهرة مصطلح **إحالة الصنعة**، وهو مصطلح يدلّ على انتقال اللفظ من صيغة ثقيلة إلى أخرى أخفّ، ويذكر أبو الفتح في هذا السياق قول العرب: **قصيت** أظفاري من لفظ **قصص**، وقد آل بالصنعة إلى لفظ **قصي**، وكذلك قوله: **تَقْصِي** البازي: إذا البازي كَسَرَ، وهو في الأصل من تركيب **قَضَض**، ثم أحاله ما عرض من استئثار تكريره إلى لفظ **قضي**².

أ/ المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في بداية الكلمة:

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 365

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 365-366

تبرز هذه المخالفة في أحكام ابن جني على بعض القراءات القرآنية، كما في حكمه على قراءة الكسائي "أئمة"، حيث قال: «ومن شاذ الهمز عندنا قراءة الكسائي "أئمة" بالتحقيق فيهما، فالهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة، إلا أن تكونا عينين نحو: سَلَّ، وسَّار، وجَّار»¹، وهذا يدل على أن ابن جني رأى أن اجتماع همزتين في بداية الكلمة ثقيل على اللسان، لذا عدّه من الشذوذ.

من ذلك ما ذكره في حذف التاء كراهة اجتماع المثليين في تخريجه لقراءة السلمي والحسن وابن محيصن وسلام وقتادة: يَوْقَدُ من قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ [النور، 35]، وعلل ذلك بأن أصل الفعل يتوقّد، فحذفت التاء لاجتماع حرفين زائدين في أول الفعل، هما الياء والتاء، والمعروف في مثل هذا السياق حذف التاء الثانية إذا كان حرف المضارعة تاء، كما في: تتفكّرون وتتذكّرون؛ إذ يُستثقل تتابع المثليين الزائدين، في حين أن في: يتوقّد لا يوجد مثلاً؛ فالتاء ليست مكرّرة، ومع ذلك حذفت، وقد فسّر ابن جني ذلك بتشبيه الياء في: يتوقّد بالتاء في: تتوقّد؛ من حيث كونهما حرفي مضارعة زائدين، وأشار إلى أن القياس يقتضي على هذا الأساس أن يُقال أيضاً: أنا أوقد ونحن نوقد على نحو ما قيل: يوقد، بتشبيه النون والهمزة بالتاء².

ثمّ استشهد بقراءة: نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ، على أنّها من باب حذف التّون الأصليّة (نُجِّي) - وهي غير زائدة - على غرار حذف الزّائد، لاتفاقها لفظاً مع التّون الزّائدة، مما يدلّ على تشبيه الأصل بالزّائد من أجل التّخفيف، وبهذا يكون التّغيير معلّلاً بما يسمّيه ابن جني بـ: تشبيه الأصل بالزّائد لا لاتّفاق اللفظ، والأول تشبيه حرف مضارعة بحرف مضارعة لا لاتّفاق اللفظ³، وهذا من باب تشبيه الزّائد بالزّائد، وليس لاتّفاق اللفظ، بل لاتّحاد الوظيفة النّحوية، فهنا تشابه الوظائف لا تشابه الأصول.

من هذا القبيل ما روي عن ابن كثير وأهل مكة: وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ من قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان، 25]، قال ابن جني: «أراد: وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ، إلّا أنّه حذف التّون الثانية التي هي فاء فعل نزل؛ لاتّقاء التّونين استخفافاً؛ وشبّهها بما حذف من أحد المثليين الزّائدين في نحو قولهم: أنتم تفكّرون وتطهّرون، وأنت تريد: تتفكّرون وتطهّرون»⁴.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 728

² - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 2، ص 154-155

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 154-155

⁴ - المصدر نفسه، ص 164

من هذه الشواهد نلاحظ أن المخالفة بالحذف تمت بين المتماثلين في وسط الكلمة دون تعويض الصوت المحذوف، تحقيقاً لمبدأ التخفيف والتيسير في النطق وتجنب التكرار الصوتي.

ب- المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في وسط الكلمة:

من نماذج المخالفة بالحذف بين المتماثلين دون تعويض في وسط الكلمة ما ذكره ابن جني في مخالفة الحرف المضعف في وسط الكلمة؛ نحو ظلت، ومست، وأحسنت، وظننت ذاك؛ أي: ظننت، وجعل الإبدال أحسن وأسوغ، لأنه - في رأيه - أقلّ فحشا من الحذف¹، وقال أيضاً: «ومن الحذف لاجتماع الأمثال قولهم في تحقير أحوى: أحوي، فحذفوا من الياءات الثلاث واحدة، وقد حذفوا أيضاً من الثنتين في نحو: هيّن ولين وسيد وميت»²، ومن ذلك «قولهم: عمبر؛ أبدلوا النون ميما في اللفظ وإن كانت الميم أثقل من النون فخففت الكلمة، ولو قيل عنبر بتصحيح النون لكان أثقل»³.

ومن ذلك حذف التنوين من "سابق" في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَلِيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس، 40]، وذكر ابن جني أن العربي يتصرف أحياناً في اللغة؛ فيتكلم بلغة غيرها أقوى في القياس عنده منها، ما رواه أبو علي -رحمه الله-، قال: عن أبي بكر عن أبي عباس أن عمارة كان يقرأ: (ولا الليل سابق النهار) بالنصب، قال أبو عباس: فقلت ما أردت؟ فقال: أردت سابق النهار فقلت له: فهلا قلته؟ فقال: لو قلته لكان أوزن، فقوله أوزن أي أقوى وأمكن في النفس⁴.

يرى فوزي الشايب أن هذه القراءة من قبيل المخالفة الصوتية بين الأمثال المتتابعة في حشو السلسلة الكلامية؛ وذلك لأنّ كلمة سابق بالتنوين سينشأ عنها توالي النونات في الأصل sabikuninnahara، فاتصلت نون التنوين بالنون المشددة في النهار، وفي ذلك ثقل، فخالف القارئ بين هذه الأمثال المتتابعة وذلك بالتخلص من التنوين فأصبحت القراءة sabikunnahara والغاية من ذلك هي طلب الخفة⁵.

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 646

² - المصدر نفسه، ص 646

³ - المصدر نفسه، ص 646

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 293

⁵ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 308-309

ومن ذلك قراءة التثني سَيْغًا لقوله تعالى: ﴿نَسْفِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرَبِينَ﴾ [النحل، 66] ، قال أبو الفتح: «ينبغي أن يكون سَيْغٌ هذا محذوفًا من سَيْغٍ، كمَيْتٍ ومَيْتٍ، وهَيْنٍ وهَيْنٍ، وذلك أنه من الواو، لقولهم ساغ شراهم يسوغ، ولو كان سَيْغٌ فعلا لكان سَوْغًا ومنه قولهم: هو أخوه سَوْغُهُ؛ أي قابل له غير متباعد عنه، كالشراب إذا قبلته نفس شاربته، ولم تنب عنه»¹.

كذلك قراءة أبي جعفر يزيد: بِلْدَةً مَيْتًا بالتشديد من قوله تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف، 11] ويناقش النص وجهي قراءة هذه الكلمة بالتشديد والتخفيف؛ موضحة أن التشديد لا يكسب اللفظ قوة في التذكير، وأنه يشبه صيغا عربية يتعاقب فيها التخفيف والتشديد نحو: (سائد/سيد، بائع/بيع، قائم/قيم)، وقرئ: "إنك مائت" و"ميت" ، ويبيّن أبو الفتح أن حذف عين الأوزان المعتلة يؤدي إلى صيغ مخففة مثل: مَيْت، هَيْن، لَيْن، وأن التشديد هنا يضعف قياسا على صيغ ك: امرأة مائتة وبائع، كما يؤكد أن لفظ الموت ليس مؤنثا ليحمل على صيغ التأنيث، وأن مَيْت المخفف يشبه صيغة المصدر، واستعمال المصدر وصفا لمؤنث شائع في العربية (امرأة عدل، صوم، رضا)، ويخلص إلى أن الفروق بين الأبنية لطيفة ودقيقة من جهة الصّرف².

ج- المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في آخر الكلمة

من أشكال المخالفة بالحذف في الصّوامت بين المتماثلين دون تعويض في آخر الكلمة اختزال المشدد، فيحذف أحد المثلين من الحرف المشدد؛ وذلك على نحو ما ورد في قراءة أبي جعفر وشيبة والحسن بخلاف، والحكم بن الأعرج: إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ، وَلَا أَمَانِي من قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة، 78]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء، 123]، والياء فيهما خفيفة ساكنة، وأصله: أَمَانِي جمع أُمْنِيّة، وذكر أبو الحسن في قولهم أثاف أنه لم يُسمع من العرب بالتشديد البتة، وقال الكسائي: قد سمع فيها التثقل، وأنشد الشاعر³:

أَثَافِي سَفْعًا فِي مُعَرَّسٍ مَرَجَلٍ

¹ - المحتسب، ابن جني، ج2، ص54

² - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص301

³ - ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، ص90

قال ابن جني: «المحذوف من نوع هذا هو الياء الأولى التي هي نظيرة ياء المد مع غير الإدغام، نحو: ياء قراطيس»¹.

من هذا القبيل؛ ما رواه هارون عن أسيد عن الأعرج، أنه قرأ: "لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ" بالجزم، وأصلها لا تُضَارُّ، وينبغي أن تكون المحذوفة الراء الثانية لأنها أضعف في حين أن قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَلِدَةُ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلِدَةٍ﴾ [البقرة، 232] فإن المحذوف هي الأولى؛ وذلك لأنهم شبهوا المضعف بالمعتل العين، فكما قالوا: لست، قالوا أيضا: ظَلْتُ، ومثله: مست في مسست وأحست في أحسست. وقراءة لاتضار بسكون الراء لا بكسرهما؛ وذلك أنه لما حُذفت الثانية وقد كانت الأولى ساكنة لأنها كانت مدغمة في أختها أُقِرَّت على سكونها ليكون ذلك دليلا على أنها قد كانت مدغمة قبل الحذف²، واستشهد ابن جني بقراءة نافع: وَمَحْيَايَ وَمَحْيَايَ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام، 162] «ساكن الياء من محياي ولا تقدير إدغام هناك كان سكون الراء من لا تضار؛ وهو يريد تضار أجدر»³.

من ذلك قراءة الزهري (وَالدَّوَابُّ) من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج، 18] بتخفيف الباء، وقد حكم ابن جني على هذه القراءة بالضعف من حيث السماع والقياس، ولكنه يجد العذر في أنهم إذا كرهوا تضعيف الحرف، فقد يحذفون أحد المثلين⁴.

2- المخالفة بالحذف بين المتقارين:

فكما كرهت العرب اجتماع الصَّوتَيْن المتماثلين، فقد نفرت أيضا من اجتماع الأصوات المتقاربة، وبناء عليه فقد سلكوا طرق عدّة لتفادي تلك التركيبات الصَّوتِيَّة تخفيفا وتيسيرا في التَّطْق، ومن ذلك الحذف عند اجتماع صوتين متقارين. وقد تَمَّت المخالفة بين المتقارين بالحذف في حذف التَّاء من "استطاعوا" وأصبحت استطاعوا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطُغُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف، 94]؛ إذ حُذفت

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 178

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 213

³ - المصدر نفسه، ص 214

⁴ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 2، ص 118-119

التاء لكثرة الاستعمال، وأيضا لقرب التاء من الطاء، ويؤكد هذا الأصل اللغوي ورود صيغة " استطاعوا" بعدها في الآية الكريمة نفسها من قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطُغُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف، 94]¹ مما يدل أن الصيغتين - بحذف التاء ولإثباتها - كلتيهما صحيحتان ومسموعتان.

كما وردت في العربية لغات أخرى في هذا الفعل، منها²:

لـ استعت: بحذف الطاء قياسا على حذف التاء.

لـ أسطعت: بهمزة قطع مفتوحة مع حذف التاء.

لـ أستعت: بهمزة مقطوعة مفتوحة مع حذف الطاء.

وبذلك يكون للفعل خمس لغات هي: استطعت، واسطعت، واستعت، وأسطعت، وأسعت. قال

جران العود النميري³:

وَفِيكَ إِذَا لَا قِيتَنَا عَجْرَفِيَّةٌ... مِرَارًا فَمَا نُسْتِيعُ مَنْ يَتَعَجَّرُ

بضم حرف المضارعة (الياء) والإبقاء على التاء، مع حذف الطاء.

3- المخالفة بالحذف والتعويض:

نحو: تعلّيت من اللعاعة، وأصلها تلعتت؛ فأبدوا من العين الآخرة ياء كما قالوا تَفَضَّيْتُ وَتَطَلَّيْتُ⁴؛ فهنا حُذفت العين وتم تعويضها بالياء.

مثال ذلك: التعويض بالتّون في لعل ← لعن، ومنه قول الفرزدق:

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ * بِنَا لَعْنًا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرِ الْحِيَامِ

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 216

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 216

³ - عجرفيه: الجفاء والاعتراض. اللسان ج 4، ص 2814. والمعنى: إنك إنسان متعجرف، ونحن لا نطيع المتعجرفين. ديوان جران العود

النميري، دار الكتب المصرية، مصر، 1931، ص 17. ينظر: الخصائص، ص 216

⁴ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 388

كما يقال لابن في لابل وعلوان في عنوان¹.

وهو ما ذكره أبو الفتح في المحتسب، بأنهم يبدلون ليختلف الحرفان فيخفاً، كما ذكر أمثلة تعضد قوله نحو: اجلواذ—اجليواد، دوآن—ديوان².

من ذلك قراءة الحسن: "لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ" بفتح اللام وسكون الياء مع عدم الهمز من قوله: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد، 29]، وحكاها قطرب: لَيْلًا بكسر اللام وسكون الياء، وفسرها بحذف همزة أن وإبدال التون ياء، فلما تُحذف الهمزة يبقى اللَّفْظ لَيْلًا، فتدغم النون في اللام: لِلَّافْتَجْتَمَعَ ثلاث لامات فتُبدل الوسطى ياء، كما في إبدال راء قراط ونون دتار—قيراط، دينار نتيجة الإدغام وانكسار ما قبل الحرف المبدل، وأشار ابن جني إلى أن ما ذكره قطرب هو الأقرب³.

كما أورد ابن مجاهد وجهاً آخر بفتح اللام وسكون الياء لَيْلًا، وهو جائز لغوياً، ويُحتمل فيه البديل أيضاً، استناداً إلى شواهد قرآنية وشعرية تدعم هذا الاستخدام، منها قراءة: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم، 46]، وقول سعد بن قُريط:

يَا لَيْتَمَا أَثْمَنَا شَالَتْ نَعَامَتُهَا... أَيَّمَا إِلَى جَنَّةٍ أَيَّمَا إِلَى نَارٍ

يريد أما بالفتح، وقول الراجز:

لَا تُفْسِدُوا آبَالَكُمْ ... أَيَّمَا لَنَا أَيَّمَا لَكُمْ

مما يدل على جواز الإبدال بين المثلين مع الفتح.

* - عائجين: مائلين، العرصة: الفسحة حول المنزل. شرح ديوان الفرزدق، ضبطه وشرحه: إليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1983

ص556

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ج1، ص35

² - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص365

³ - المصدر نفسه، ص364-365

يُستدل من ذلك على أن أصل "الن" هو "لا أن"، فحُذفت الهمزة تخفيفاً، والألف لالتقاء الساكنين، مما أدى إلى تشكل لفظ "ليلا"، وهو ما أقره الخليل بن أحمد في تفسيره لهذه الظاهرة الصوتية¹.

من صور هذا النوع من المخالفة أيضاً ما أورده ابن جني في قراءة الحسن: "أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ" بسكون الياء من قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ﴾ [القصص، 28].
رأى ابن جني أن لتخفيف الياء في "أَيَّمَا" طريقين²:

الأول: حذف أحد المثلين عند التقاءهما، كما في: أَحَسْتُ، مَسْتُ، ظَلْتُ بدلا من أَحَسَسْتُ، مَسَسْتُ، ظَلَلْتُ.

والثاني: ثقل حرف الياء يجعل تضعيفه أثقل، فيميل العرب إلى التخفيف، خصوصا عند التقاء الواو والياء.

ذكر ابن جني أن الكلمة أي أصلها أَوْيٌّ، وهي من الأفعال التي عينها واو ولاهما ياء، وعند التقاء الواو الساكنة بالياء، ثُقل الواو ياء وتُدغم، فتصبح أيُّ، كقولهم: طويت الثوب طَيًّا من "طَوَى"، وزوى وجهه زَيَّامَن "زَوَى". وبعد حذف الياء الثانية (لام الفعل)، تبقى العين (الواو) مقلوبة ياء (أوما)، وإظهار العين ياء بعد حذف اللام يفيد الدلالة على المحذوف واستحضاره ذهنيًّا، ومن ذلك قولهم: عواور بدلا من عَوَاوِير مع إظهار الواو الثانية للدلالة على المحذوف (الياء).

قولهم: ذيت وكيت، مع إبقاء الياء للدلالة على الأصل ذية وكية، وأن التاء بديلة عنها.

إن بيت للفردق يوضح هذا الاستخدام في الشعر:

تَنْظَرْتُ نَصْرًا وَالسَّمَائِينَ أَيُّهُمَا ... عَلَيَّ مِنَ الْغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مُوَاطِرُهُ

استخدم أيهما على نمط قراءة الحسن: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ³.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج2، ص364-365

² - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص195

³ - قوله: تَنْظَرْتُ: التنظر: الانتظار، وقصد به استعجال نصر بالعتاء. وأراد بالسماكين: أحدهما، وهو السماك الأعزل، وهو الذي له نوء، وأما السماك الراح فلا نوء له. ينظر: شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، ج1، ص459. المحتسب، ابن جني، ج2، ص195، ص196-195

كما تناول ابن جني ظاهرة الإبدال في المخالفة، خاصة حين يتم قلب بعض الأصوات لتيسير النطق، كقلب الراء ياء أو واو، قال في هذا الشأن: «وذلك قول بعضهم: شيراز وشراريز، حكاها أبو الحسن، فأصل شيراز على هذا شرّاز، فأبدلت الراء الأولى ياء، ومثله قولهم: قيراط، وقراريط، وأصله قرّاط، والعلة واحدة. فأما من قال في: شيراز: شوايز، فإنه جعل الياء فيه مبدلة من واو، وكان أصله على هذا شوراز، فلما سكنت الواو وانكسر ما قبلها قلبت ياء، ثم إنه لما زالت الكسرة في الجمع رجعت الواو، فقالوا: شوايز»¹، وهذا طلبا للحقّة.

علّل ابن جني في سياق مشابه تخفيف بعض الصّغ مثل: يئأس (من يئس)، ويوجل (من ياجل)، بقوله: «فإنما قلبوا الياء والواو فيهما وإن كانتا ساكنتين تخفيفاً، وذلك أنهم رأوا أن جمع الياء والألف أسهل عليهم من جمع اليائين، والياء والواو»².

ثانياً / المخالفة بين الصّوائت (الحركات)

تتباين اللهجات العربية في نطق الصّوائت القصيرة بشكل واضح؛ حيث قد يُنطق الحرف مكسوراً في لهجة ومضموماً في لهجة أخرى، وقد يكون ساكناً في لهجة ومتحرّكاً في لهجة أخرى، وتفسير هذا التّباين يعود إلى اختلاف طبيعة الأداء الصّوتي للقبائل العربيّة، وقد أهتمّ ابن جني بالحركات وأشار إليها في كتبه: قال في سر صناعة الإعراب: «وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات؛ لأنّها تُغلق الحرف الذي تقترن به، وتجذب نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجذب نحو الياء، والضمّة تجذب نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها، تكملت له الحركات حروفاً، أعني ألفا وياء وواو»³

جعل ابن جني الحروف؛ من حيث الحركة والسكون على ضربين⁴:

١- الساكن: وهو الذي يحمل الحركات الثلاث: نحو الكاف في بكر، والميم في عمرو؛ إذ يمكن القول: بكر وعُمر، بكر وعُمر، وبكر وعُمر، فلما جاز أن تحمّله الحركات الثلاث، علمت أنه قد كان قبلها ساكناً.

¹ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 2، ص 377

² - المصدر نفسه، ص 309

³ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 42

⁴ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 42-43

لـ **المتحرك**: وهو الذي لا يمكن تحميله أكثر من حركتين؛ نحو لبميم في: عَمَر، يمكن تحميلها الكسرة والضمة فيقال: عُمِر وعُمِّر، ولا يمكن أن تحتلب لها الفتحة؛ لأنها كانت مفتوحة أصلاً، فالحركة التي في المتحرك قد استغني بكونها فيه عن اجتلابها له.

وبما أن **الحركات** ثلاثاً: الفتحة، والضمة والكسرة، فكذلك **المتحرك** على ثلاثة أضرب: مفتوح، ومكسور، ومضموم.

ومن صور المخالفة بين الحركات في كتب ابن جني:

لـ **المخالفة بين الفعل ومصدره** نحو: **أكرم**، و**إكرام**¹؛ فالكسرة في في الهمزة في المصدر إكرام تخالف الفتحة في الفعل أكرم.

لـ **ما جاء على وزن افتعل مما عينه تاء** نحو: قتل، فتح، شتم، ستر، ختم، يُقال في الأصل: **اقتَل**، **افتَتَح**، **اشتَتَم**، **استَتَر**، **اختَتَم**، وعند حذف فتحة التاء الأولى لتوالي الفتحات، كان لابد من حدوث الإدغام، ثم تُحرَّك فاء الكلمة بالكسر على الأصل، ومع تحرُّكها تُستغنى عن همزة الوصل، فتغدو الصيغة النهائية على نحو: **قَتَلَ**، **فَتَحَ**، **شَتَمَ**، **خَتَمَ**، وقد أشار ابن جني إلى أن بعض النحاة **يفتحون** فاء الكلمة في مثل هذه الصيغ، كأن يقولوا: **قَتَلُوا**، **فَتَحُوا**، **شَتَمُوا**، **خَتَمُوا**، وعَلَّ ذلك بأن حركة التاء الأولى تُلقى على الفاء عند إدغام المثليين المتحرِّكين، إذ لا بدَّ من التخلُّص من حركة التاء الأولى، فانتقلت إلى الفاء²؛ فالقراءة بالكسر نتيجة حذف حركة التاء الأولى فيلتقي بذلك ساكنان فاء افتعل والتاء، فيُحرَّك الساكن الأول بالكسر، في حين القراءة بالفتح نتيجة التخلص من حركة التاء الأولى في هذه الصيغة وإلقاؤها على الفاء والاستغناء عن همزة الوصل بتحرُّك فاء افتعل، وسواء أكانت القراءة بالفتح أو الكسر فمفادها تجنُّب التماثل الصوتي بين الحركات المتتابعة (حركات الفتحة هنا).

لـ **ما ورد في الفعل اطمأن الذي على وزن افعلل**، حيث يشير ابن جني إلى أن أصله **اطمأنن**، ولكن تمَّ التَّخفيف بإسكان الأول ونقل حركته إلى ما قبله ثمَّ إدغام اللام الثانية في اللام الثالثة فصار **اطْمَأَنَّ (اطْمَأَنَّ ← اطمأنن)** وذلك كراهة اجتماع مثليين متحرِّكين³، ولتجنُّب تنابع فتحتان متتاليتان

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج2، ص363-364

² - ينظر: المنصف، ابن جني، ج2، ص222-223

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص90

في الكلمة تم إسكان النون الأولى ونقل حركتها إلى الهمزة، من قبيل المخالفة بين الحركات، ثم أدغمت النون الساكنة في المتحركة.

من صور المخالفة بين الحركات اختلاف أَيْضاً كلمتي "صِنَوَانٌ وَصُنَوَانٌ" بين ضَمِّ الصَّاد وكسرها، من قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجُنُتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍّ﴾ [الرعد، 4] ونسب ابن جني الكسر لأهل الحجاز والضَّم لتميم وقيس¹، وعلى نحو ذلك قراءة "رَبِّيُونَ" من قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران، 146]، قال ابن جني: «الضم في رَبِّيُونَ تميمية، والكسر أيضاً لغة»²، وهذا ما ذهب إليه إبراهيم أنيس حين أشار إلى أن القبائل البدوية مالت بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفي المسمى بالضممة؛ وذلك لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية، في حين أن القبائل المتحضرة تميل إلى الكسر³.

من ذلك قراءة: "لا يَضُرُّكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ" بين الكسر والضم من قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا إِهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة، 105]، وقراءة الكسر جاءت على لهجة ضاره يضيره، في حين أن قراءة الضم جاءت على لهجة ضاره يضوره⁴، ومن صور الاختلاف بين الكسر والضم أيضاً قولهم: رَعُوْة اللبْن، ورُعُوْته، ورِغُوْته، ورُغَاوْته، ورُغَاوْته، ورُغَاوْته، وقولهم: الدَّرُوح، والدَّرِيح، والدَّرَاح، والدَّرَج، والدَرْنُوح، والدَرَحْرَح، والدَرَحْرَح، فكل ذلك ما انحرفت فيه الصيغة واللفظ واحد⁵.

ومن بين اختلافهم بين الفتح والكسر؛ ما ورد عنهم في قراءة: "الشَّجَرَةُ" بكسر الشين من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة، 35]، وقد كررها أبو عمرو وقال: يقرأ بها برابر مكة وسودانها⁶.

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 2، ص 24

² - المصدر نفسه، ج 1، ص 272

³ - في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ص 91

⁴ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 328

⁵ - ينظر: الخصائص، ص 293

⁶ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 155

كذلك قراءة الحسن: "فما وهنوا" بكسر الهاء من قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران، 146]، قال أبو الفتح: «فيه لغتان: وهن يهن، ووهن يوهن، وقولهم في المصدر: الوهن بفتح الهاء يؤنس بكسر الهاء من وهن فيكون كفرقاً فرقاً وحذر حذراً (...) وقولهم فيه: الوهن، بسكون الهاء يؤنس بفتح عين الماضي كَفَتَرَ فترا»¹؛ فتتجلى المخالفة في الحركات هنا في تباين الحركة في عين الفعل وهو الهاء من الفتح إلى الكسر.

ومن ذلك قراءة الحسن: "يُنْحَتُونَ" بفتح الحاء من قوله تعالى: ﴿وَكَاَنُوا يَنْجُثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر، 82]، ورأى أبو الفتح أن أجود اللغتين نَحَتْ يَنْحِتُ بكسر الحاء، وفتحها بسبب حرف الحلق الذي فيها كَسَحَرَ يَسْحَرُ²؛ وذكر النعيمي أنه «جعل الكسر أجود لما فيه من مخالفة بين حركة العين في الماضي والمضارع وهو ما حرصت عليه اللغة في الغالب الأعم من ألفاظها، ومعنى ذلك أنه إذا ورد لفظ بصورتين الأولى مخالفة للماضي والثانية موافقة كان التفضيل لما خالف الماضي لأنه جاء على وزن الكثرة لا القلة»³.

ومن نماذج المخالفة بين الحركات؛ ما ذكره أبو الفتح في قراءة "النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ" بفتح همزة الأمي، من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف، 157]، فيرى أنه يجوز أن يكون قد أراد الأمي بضم الهمزة كقراءة الجماعة، ثم لحقه تغيير النسب؛ وذلك كقولهم في الإضافة: أموي، بفتح الهمزة، وكقولهم في الدهر: دُهري وفي الأمس إمسي، والأمي منسوب إلى مصدر أمت الشيء أمّا، كقولك قصدته قصداً، ثم أُضيف إليه عليه السلام⁴، فهنا مخالفة بين حركتي الضمة والفتحة.

ومن هذا القبيل قراءة يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان "عَشْرَةَ"، وقرأ "عَشْرَةَ" بفتح الشين بخلاف من قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ إِنْثَنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَمًا﴾ [الأعراف، 160]، قال ابن جني: «أما عشرة فتميمية، وأما إسكانها فحجازية»⁵، والمشهور عند الحجازيين تحريك الحرف الثاني من الثلاثي إذا كان

¹ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 155

² - ينظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 47

³ - الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، النعيمي، ص 213-214

⁴ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 382-383

⁵ - المصدر نفسه، ص 374

مضموماً أو مكسوراً نحو: الرُّسْل والكِبْد، وأما بنو تميم فيسكنون الثاني من هذا ونحوه فيقولون رُسْل، كَبْد، لكن القبيلتين جميعاً فارقتا في هذا الموضع من العدد، وأخذت كل واحدة منهما لغة صاحبتها، وتركت مألوف اللغة السارة عنها، فقال الحجازيون: اثنتا عشرة بالإسكان، وقال التميميون: عشرة بالكسر¹، وتعليل ذلك ما وضحه ابن جني حين قال: «وذلك أن العدد موضع يحدث معه ترك الأصول وتضم فيه الكلم بعضه إلى بعض، وذلك من أحد عشر إلى تسعة عشر، فلما فارقوا أصول الكلام من الأفراد وصاروا إلى الضم فارقوا أيضاً أصول أو ضاعهم ومألوف لغاتهم، فأسكن من كان يحرك، وحرك من كان يسكن»²، فالتباين بين الضم والإسكان في هذا السياق أي الاختلاف في الحركات الصوتية هو مخالفة صوتية بين الحركات.

وردت المخالفة بين الحركات؛ في قراءة ابن مسعود: "الْكَبَرِ عَتِيًّا" بفتح العين من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾ [مريم، 8]، وكذلك قرأ: "أُولَى بِهَا صَلِيًّا" بفتح الصاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صَلِيًّا﴾ [مريم، 70]

وقد علّق ابن مجاهد على هذه القراءات بقوله: «لا أعرف لهما في العربية أصلاً»³، وأضاف أن بعض القراء قرؤوا أيضاً: "بُكِيًّا" بضم الباء، إلا أن ابن جني قد ردّ على إنكاره، مؤكداً أن لهذه القراءات أصولاً في العربية، ويمكن تأصيلها من خلال ما ورد من المصادر على وزن "فَعِيل" نحو: الحَوِيل، والزَوِيل، والشَّخِير، والنَّخِير، وهذه المصادر تدل على معنى ثابت يمكن القياس عليه، كما أن لفظ "بُكِيًّا" بضم الباء له نظائر في صيغ الجموع على وزن "فُعُول" نحو: الحَثِيّ، والحَلِيّ، والفُلِيّ، وهذه الأخيرة جمع "فلاة"، وكذلك الحُلِيّ⁴، مما يُشير إلى وجود قواعد صرفية مضبوطة تدعم هذه القراءات.

نلاحظ المخالفة بين الحركات في قراءة السُّلمي: "إِيَّانَ مُرْسِهَآ" من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا﴾ [الأعراف، 187]

¹ - ينظر: المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 374

² - المصدر نفسه، ص 374

³ - المحتسب، ابن جني، ج 1، ص 83

⁴ - ينظر: المصدر نفسه

كما قرأ السلمي: "إِيَّانَ يُبْعَثُونَ" بكسر الهمزة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل، 21]، وعلق عليها ابن جني بقوله: «فيه لغتان: أَيَّانَ وَإِيَّانَ بالفتح والكسر»¹، فكلمة أَيَّان تتابعت فيها حركة الفتحة فتحة الهمزة ثم فتحة الياء فتم المخالفة بكسر الهمزة لتقليل الجهد العضلي.

تبرز المخالفة بين الحركات في قراءة نصر بن عاصم: "في زَجَاجَةِ الزَّجَاجَةِ"؛ بفتح الزاي في الكلمتين من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورٍ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور، 35]، وذكر أبو الفتح أن فيها ثلاث لغات: بالفتح والضم والكسر: زَجَاجَة، زُجَاجَة، زَجَاجَة وتُجمع على زَجَاج، زُجَاج، زَجَاج كَنَعَامَة ونَعَام، ورُقَاقَة ورُقَاق، وعِمَامَة وعِمَام²، فقراءة الضم والكسر مخالفة للفتحة الطويلة بعد الزاي.

ثالثا/ المخالفة بين الصوامت والصوائت (الحروف والحركات)

أ/ المخالفة بين عنصري المزدوج الهابط:

تناول أبو الفتح بعض السياقات الصوتية التي فيها مشقة وكلفة على اللسان؛ يقول: «وليس في كلامهم واو ساكنة صحت بعد كسرة»³؛ أي: لا وجود لواو ساكنة قبلها كسرة، وفي السياق نفسه يقول: «امتناعهم من تصحيح الواو الساكنة بعد الكسرة، ومن تصحيح الياء الساكنة بعد الضمة»⁴، ويقول في موضع آخر موضّحا صعوبة تتابع كل من الواو والكسرة، والضمة والياء: «لو تكلفت الكسرة قبل الواو الساكنة المفردة، أو الضمة قبل الياء الساكنة المفردة لتجشمت فيه مشقة وكلفة لا تجدها مع الحروف الصحاح»⁵، وذلك مثل فَعَلَ من الطَّوْل والقول وأصله: طَوَّل وقول، ثم تستثقل ذلك، فتقلب الواو ياء بسبب الكسرة التي قبلها، فتقول: طَبِل وقِيل، ومثل ذلك أيضا: ميزان وميعاد وميقات، وموسر وموقن وأصلهما مُيَسَّر ومُيَقَّن، فأبدلوا الياء واوا كراهة مجيئها بعد ضمة⁶؛ وأصل ميزاد وميعاد موزان موعاد، حصلت

¹ - المحتسب، ابن جني، ج2، ص51

² - ينظر: المصدر نفسه، ص152

³ - الخصائص، ابن جني، ص538

⁴ - المصدر نفسه، ص538

⁵ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص34

⁶ - ينظر: المصدر نفسه، ص34-35

مخالفة بين عنصري المزدوج الهابط؛ وذلك عن طريق التخلص من شبه الحركة (الواو) بحذفه والتعويض بمد (الياء المدية).

كذلك الشأن إذا جاءت قبل الألف ضمة أو كسرة، فتقلب مع الضمة واوا ومع الكسرة ياء نحو: ضُويرب فالواو فيها بدل من الألف في ضارب، وقرطيس فالياء بدل من ألف قرطاس¹، ويعلل ابن جني ذلك بقوله: «وإنما قلبت هذه الحروف بعد هذه الحركات، لأنك إذا بدأت بالكسرة فقد جئت ببعض الياء، وآذنت بتمامها، فإذا تراجعت عنها إلى الواو فقد ناقضت أول قولك بآخره، وخالفت بين طرفيه، وكذلك الشأن إذا بدأت بالضمة ثم جئت بعدها بالياء، فقد جئت بأمر غيره المتوقع، وذلك لأنك لما جئت بالضمة تُوقعت الواو، فإذا عدلت إلى الياء فقد ناقضت بآخر لفظك أوله إلا أن ذلك وإن كان مُستثَقلاً فليس بمستحيل في الطاقة والطوع، كاستحالة مجيء الألف بعد الكسرة أو الضمة»².

ومن صور المخالفة بين الصوامت والصوائت ما ورد في قول الشاعر:

مُظَاهِرَةٌ نِيًّا عَتِيقًا وَعُوطَطًا *.... فَقَدْ أَحْكَمًا خَلَقًا لَهَا مُتَبَايِنًا

والأصل في كلمة عوططا هو عُيْطَطًا، فُلبت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها³، فهنا تم المخالفة بحذف شبه الحركة وتعويضها بمد (الواو).

ومن الأمثلة أيضا ما جاء في قراءة أحد الأعراب على أبي حاتم السجستاني: "طِي هُم وَحُسْنُ مَأَبٍ" من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد، 29] فقال له السجستاني: طوبي، فقال: طيبي، فأعاد له التصحيح فقال: طوبي، فأصر الأعرابي قائلا: طيبي، فلما طال الجدل بينهما قال السجستاني: طوطو، فأجابني: طي طي، ويعلق ابن جني على هذه الحكاية قائلا: أفلا ترى إلى هذا الأعرابي، الذي قد يُظن به الجفاء والخشونة، كيف نفر طبعه السليم من ثقل الواو إلى خفة الياء، فلم

¹ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص35

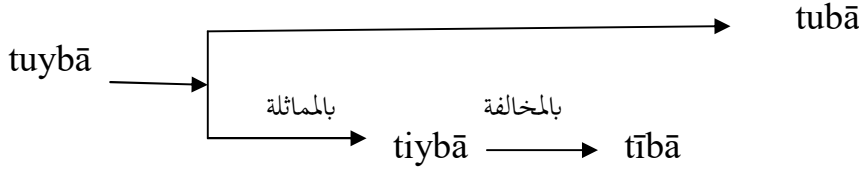
² - المصدر نفسه، ص36

* - عوطط: من عاطت الناقة، تعيط عياطا: إذا لم تحمل سنين من غير عقر. ينظر: اللسان، ج7، ص357. المنصف، ابن جني، ج2، ص12

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص12

يتأثر بالتلقين أو التكرار، ولم يُعَيَّر سَلِيقَتَهُ ما سمع من التصحيح؟ فما ظنك به إذا تُركَّ يتصرف على سَجِيَّتِهِ، ويعتمد على فطرته العربية الصافية ونحته اللغوي الأصيل؟¹.

كلمة طوبى أصلها طُيْبِي "tuyba"، ثم تطوّرت هذه الصّيغة في اتّجاهين: عام مشهور هو: طوبى tubā عن طريق التّخلص من المزدوج الهابط "uy" بحذف الياء ومدّ الحركة تعويضاً، في حين أن هناك من مال إلى المماثلة أولاً بين عنصري المزدوج ثم بالمخالفة ثانياً بينهما على النحو الآتي²:



من صور المخالفة بين الحركات والصوامت؛ التخلص من المزدوج ومثال ذلك ما ورد في قول خفاف بن ندية³:

تَقَاكَ بِكَعْبٍ وَاحِدٍ وَتَلَدَهُ... يَدَاكَ إِذَا مَا هَزَّ بِالْكَفِّ يَغْسِلُ

فأصل تقاك: اوتقاك، ومثله أيضاً تجه يتجه وأصله اتجه، ومنه قول مرداس بن حصين⁴:

قَصَرْتُ لَهُ الْقَبِيلَةَ إِذْ تَجَّهْنَا... وَمَا ضَاقَتْ بِشِدَّتِهِ ذِرَاعِي

والأصل: اتجهنا.

ب/ المخالفة بين عنصري المزدوج الصّاعد:

ورد في اسم المفعول من الأجوف اليائي؛ نحو: باع ودان فيقال: مبيع ومدين، والأصل فيهما: مبيع ومديون⁵؛ فالذي حصل في هاتين الكلمتين وأمثالهما أن تطور بنية اسم المفعول في الأجوف اليائي قد مر بمراحل صوتية وصرفية متعاقبة؛ ففي المرحلة الأولى، حدثت مماثلة بين الحركة (الواو) وشبه الحركة (الياء)، مما

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص95

² - ينظر: اثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص420

³ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص496

⁴ - قصرت: حبست، (اللسان 97/5) القبيلة: اسم فرس. يقول: لقد حبست فرسي عليه ولم أضق بتصرفه. الخصائص، ابن جني،

ص496، وسر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص212

⁵ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج1، ص33

أدى إلى تحول المقطع الصوتي yu إلى yi، فانتقلت الكلمة من: مبيوع إلى مبيع، ومن: مديون إلى مدين، أي من البنية الصوتية madyūn إلى madyīn، ومن 'mabyū' إلى 'mabī'، ثم وقع نوع من المخالفة بين الحركة وشبه الحركة، تمثلت في التخلص من شبه الحركة؛ أي حذف الياء، فاستقرت الصيغتان على مبيع ومدين، وبهذا يكون تطور اسم المفعول من الجذر الأجوف اليائي قد مر بالمراحل الآتية: مبيوع ← مبيع ← مبيع؛ فقد تحولت الصيغة الصرفية من مفعول إلى مفعيل¹، وذلك نتيجة للتغيرات الصوتية والصرفية التي طرأت على بنية الكلمة.

وقد احتفظت ميم باللهجة الأصلية لاسم المفعول من الأجوف اليائي؛ وذلك نحو قول الراجز²:

وكأنها تفاحة مطيوبة

ومثل ذلك مغيوم في قول علقمة³:

يَوْمَ رَذَاذَ عَلَيْهِ الدَّجَنُ مَغْيُومٌ

إنَّ إتمام مفعول من الأجوف؛ هو لغة تميم، قال أبو الفتح: «وبنو تميم فيما زعم علماءنا يتمون مفعولا من الياء؛ فيقولون مبيوع ومعيوب ومسيور به»⁴، وأكّد ذلك في موضع آخر بقوله: «أخبرني أبو زيد أن تميما تقول ذلك، ورواه الخليل وسيبويه عن العرب»⁵، ويعلّل ذلك بقوله: «وإنما أتمّوا في الياء، لأنّ الياء وفيها الضمة أخفّ من الواو وفيها الضمة»⁶.

ومن شواهد المخالفة بين الصّوامت والصّوائت؛ ما يتعلّق بالمزدوجات الصّاعدة في بداية الكلمة؛ إذ تُبدل الواو المكسورة همزة فيقال في: وسادة: إسادة، وفي: وشاح إشاح، وفي وعاء إعاء، وقرأ سعيد بن جبّير ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخَرَّ جَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيَّةٍ﴾ [يوسف، 76]⁷.

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 428

² - المنصف، ابن جني، ج 1، ص 286

³ - المصدر نفسه ج 1، ص 286

⁴ - المنصف، ابن جني، ج 1، ص 283

⁵ - المصدر نفسه، ص 286

⁶ - المصدر نفسه، ص 283

⁷ - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 106، 114

يرى فوزي الشايب أن البعد الشديد بين الهمزة والواو في المخرج والصفات لا يجعل هناك مجالا للتبادل بينهما، وما حدث لا يزيد على كونه مخالفة بين عنصري المزدوج الصاعد و(wi)؛ وذلك بإسقاط شبه الحركة وتحقيق الحركة فتتولد الهمزة¹، كما ذكر ابن جني أن كل واو انضمت ضمنا لازما جاز همزها نحو: قولنا في وجوه: أجوه، وفي وعد: أعد، وفي وقّت: أقّنت²، ويفسر الشايب أن ما حصل هنا مثل ما حصل مع المزدوج wi حيث تمت المخالفة بين عنصري المزدوج الصاعد و(wu) بحذف شبه الحركة وتحقيق الحركة فتنتج الهمزة³.

ومن صور هذا النوع من المخالفة؛ إعلال الواو والياء من الأجوف اليائي والناقص، يقول أبو الفتحفي ذلك: «وإنما كان الأصل في خاف خوف، وفي قام قوم، وفي طال طول، وفي هاب هيب، وفي باع بيع، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة، وهي الفتحة، والواو أو الياء، وحركة الواو والياء، كره اجتماع ثلاثة أشياء متقاربة، فهربوا من الواو والياء إلى لفظ تؤمن فيه الحركة، وهو الألف، وسوّغها أيضا انفتاح ما قبلها»⁴؛ فتتابع ثلاثة عناصر متقاربة أدى إلى ثقل صوتي فتم قلب الواو أو الياء ألفا من باب المخالفة الصوتية بين الأمثال المتتالية، وسبب الإعلال هنا هو تحرك هذين الحرفين وانفتاح ما قبلهما.

هذا بالنسبة للمخالفة بين الصّوامت والصّوائت في حالة الاتّصال أما في حالة الانفصال، فمن ذلك المخالفة بين الضمة والواو في بناء فُعَلَى نحو: الدنيا والعليا، والأصل فيهما الدنوا والعلوا، فوقع نوع من المخالفة الصوتية بين الضمة والواو، إذ هما من الأصوات المتجانسة، حيث أبدلت الواو ياء، وعلل ابن جني هذا التغيير بأنه لتمييز الفرق بين الاسم والصفة⁵.

كما يرى ابن جني أن قلب العرب لام وزن فَعَلَى من الياء إلى الواو في بعض الأسماء، مثل التَّقْوَى والفتوى، إنما هو نوع من التعويض بين الحرفين، ويبيّن أبو الفتح أن العرب إذا كان الاسم على وزن فَعَلَى وكانت لامه واوا، قلبوها ياء طلبا للخفة، كما في قولهم: الدنيا والعليا والقصيا، وهي في الأصل من دنوت وعلوت وقصوت، فلما غلب استعمال الياء في هذا الموضع وفي غيره من الأوزان المشابهة، عوّضت العرب عن

¹ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 430

² - ينظر: سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 106

³ - ينظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، ص 430

⁴ - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج 1، ص 37

⁵ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 459

تلك الغلبة برّد الواو في بعض الألفاظ مثل: التقوى والفتوى، تحقيقاً للتكافؤ بين الواو والياء في البنية اللغوية، ويُعدّ هذا القلب - عند ابن جني - مظهراً من مظاهر الموازنة الصوتية والتعويض في نظام العربية¹.

أكد الرضي أن الأمر ليس كما ذهب إليه ابن جني بأنه متعلقاً بالتمييز بين الاسم والصفة، بل إن الظاهرة تعود في جوهرها إلى تفاعلات صوتية محضة، وأشار الرضي إلى أن قلب ياء فعلى المفتوحة العين واوا، وقلب واو فعلى المضمومة العين ياء، إنما مردّه إلى تحقيق نوع من التوازن الصوتي، لا إلى التمييز الدلالي بين الاسم والصفة، ويؤكد هذا المعنى بقوله: «والأصل في قلب ياء فعلى بفتح واوا، وواو فعلى بالضم ياء، إنما كان طلب الاعتدال، لا الفرق بين الوصف والاسم، ألا ترى إلى عدم التفريق بينهما في فعلى الواوي المفتوح فاؤه، وفُعلى اليائي المضموم فاؤه، لما كان الاعتدال فيهما حاصلًا»².

وعموماً يمكن القول؛ أن علة المخالفة هو الاقتصاد في الجهد العضلي المبذول، وأن أحد أسباب إبدال الحرف المضعف بحرف من حروف المد أو الأصوات المائعة هو التيسير الصوتي؛ «إذ يصعب على اللسان أن يرتفع عن مكانه ثم يعود إلى نفس المكان في نفس اللحظة لينطق الصوت مرة ثانية وليس الأمر كما زعم برجستراسر الذي جعل التخالف لعل نفسية محضة نظيره الخطأ في النطق»³، فالخطأ ناتج عن الصعوبة في تكرار نفس الصوت بسرعة، وهو ما يتطلب القيام بجهد من طرف المتكلم؛ لذلك يتبع أيسر الطرق بأن يبدل أحد هاته الأصوات بأصوات اللين أو الأصوات المائعة لسهولة على اللسان، وهنا دحض رأي برجستراسر، الذي عدّ ظاهرة التخالف ناجمة عن علة نفسية خالصة شبيهة بالخطأ في النطق، وفي هذا السياق ينقل قول برجستراسر: «فإننا نرى الناس كثيراً ما يخطئون في النطق، ويلفظون بشيء غير الذي أرادوه، وأكثر ما يكون هذا إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض، لأن النفس يوجد فيها قبل النطق بكلمة تصورات الحركات اللازمة على ترتيبها، ويصعب عليها إعادة تصور بعينه بعد حصوله بمدة قصيرة، ومن هنا نشأ الخطأ إذا أسرع الإنسان في نطق جملة محتوية على كلمات تتكرر فيها وتتابع حروف متشابهة»⁴.

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 460

² - شرح الشافية، الرضي الاسترابادي، ج 3، ص 179

³ - المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، عبد القادر مرعي بني بكر، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط 1، ص 177

⁴ - التطور النحوي، برجستراسر، ص 34

يتّضح مما سبق ذكره؛ أنّ دراسة ابن جني لظاهرة المخالفة تكشف عن وعي عميق بالقوانين الصّوتية الطبيعية التي تحكم اللّسان البشري؛ حيث يجعل من مبدأ التيسير أساساً لتفسير مختلف التغيرات الصوتية، فضلاً عن قدرته على تحليل مختلف الظواهر الصوتية من الناحية الفونتيكية (النطقية) والفونولوجية.

المبحث الثالث: القلب المكاني عند ابن جني:

القلب المكاني عند ابن جني ظاهرة تقوم على تبديل مواقع الحروف في الكلمة الواحدة وقد أورد له شواهد وأمثلة متعددة في كتبه.

المطلب الأول: شواهد عند ابن جني:

عالج ابن جني هذه الظاهرة بشكل جليّ في "باب في الأصلين يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير"، ويرى أن «كل لفظين وُجد فيهما تقديم وتأخير فأمكن أن يكونا جميعاً أصلين ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه (...) وإن لم يكن ذلك حكمت بأن أحدهما مقلوب عن صاحبه، ثم أريت أيهما الأصل، وأيهما الفرع»¹، وأطلق عليه مصطلح القلب بصفة عامة.

فمما كان أحدهما مقلوباً عن صاحبه نحو قولهم: «أني الشيء يأتي، وآن يئني؛ فآن مقلوب هن أني»²، والدليل على هذا القلب «وجودك مصدر آني وهو الإني، ولا تجدلآن مصدرا (...) فلما عُد من آن المصدر الذي هو أصل الفعل، علّم أنه مقلوب عن أني يأتي إني»³، قال تعالى: ﴿الْأَنْ يُؤَذِّنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ إِنِّيهِ﴾ [الأحزاب، 53]؛ أي: بلوغه وإدراكه، ومنه سموا الإناء؛ وذلك لأنّه لا يستعمل إلا بعد إتمام حظه من نجرة أو خُرْزة أو صياغة أو نحو ذلك، ومن جهة أخرى حكى أبو زيد أن لأن مصدراً هو الأين، وإن كان الأمر كذلك فهما إذا ليس أحدهما أصلاً لصاحبه، بل هما أصلان متساويان⁴.

ورد مثل هذا النوع من القلب في نحو قولهم: أيست، فهو مقلوب من يئست؛ وذلك لأمرين⁵:

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 352

² - المصدر نفسه، ص 353

³ - المصدر نفسه، ص 352

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 352

⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص 353-354

لأحدهما: أن أيسر لا مصدر له، وإنما المصدر ليئست، وهو اليأس واليأس.

لثانیهما: أنه لو لم يكن مقلوبا لوجب إعلاله، وأن يقول: إئست آس، كهبت أهاب، فظهوره صحيحا يدل على أنه إنما صح لأنه مقلوب عما تصح عينه وهو يئست؛ وذلك لتكون الصّحة دليلا على ذلك المعنى؛ كما كانت صحة عور دليلا على أنه في معنى ما لا بدّ من صحته وهو أعور.

ومن المقلوب؛ قولهم: «امضحل، وهو مقلوب عن اضمحل»¹؛ وذلك أن «المصدر إنما هو على

اضمحل؛ وهو الاضمحلال، ولا يقولون: امضحلال»²، ومن ذلك: اكرف مقلوب اكفر، ومصدر الأول الاكفرار، ولا نقول الاكرفاف³، قال النابغة⁴:

أَوْ تَرْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ ... كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامِ

ذكر سيبويه - في هذا السياق- أن طمأن مقلوب طامن؛ وعلق عليه ابن جني: أن حجة سيبويه فيه أن طمأن غير ذي زيادة، واطمأن ذو زيادة، والزيادة- كما ذكر أبو الفتح- إذا لحقت الكلمة لحقها ضرب من الوهن؛ وذلك لأن مخالطتها شيء ليس من أصلها ومزاحمة لها وتسوية في التزامه بينها وبينه، وهو إن لم تبلغ الزيادة على الأصول فحش الحذف منها فإنه- على كل حال على صدد من التوهين⁵؛ فلضعف المزيد ووهنه احتاج إلى زيادة حروف، وهي حروف ليست من أصل الكلمة، فتم القلب لذلك.

ومن الأمثلة التي أوردها ابن جني عن القلب المكاني قوله: «ذهب الفراء في (الجاه) إلى أنه مقلوب من الوجه، وروينا عن الفراء أنه قال: سمعت أعرابية من غطفان وزجرها ابنها، فقلت لها: ردي عليه، فقالت: أخاف أن يُجوهني أكثر من هذا، قال وهو الوجه، أرادت يواجهني»⁶.

كان أبو علي الفارسي يرى أن الجاه مقلوب من الوجه، ولما أعلوه بالقلب بتحريك عينه ونقله من (فَعَلَ) إلى (فَعَل) يريد أنه صار من (وجه) إلى (جَوْه)، ثم أبدلت عينه لتحركها وانفتاح ما قبلها (جاه)¹،

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 355

² - المصدر نفسه، ص 355

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 355

⁴ - والمكفهر: الجيش. ديوان النابغة الذبياني، ص 105

⁵ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 355-356

⁶ - المصدر نفسه، ص 356-357

وحكى أبو زيد «قد وجه الرجل وجاهة عند السلطان وهو وجيه، وهذا يقوى القلب لأنهم لم يقولوا (جوبة)، ولا نحو ذلك»².

ومن المقلوب أيضا الطادي من الواطد، وهو الفاعل من وطّد يطرّد، فقلب عن فاعل إلى عالف³، قال عمير بن شبيب التغلبي⁴:

ما اعتاد حُبُّ سُلَيْمَى حِينَ مُعْتَادٍ... وَلَا تَقْضَى بَوَاقِي دَيْنِهَا الطَّادِي

مثل ذلك كلمة الحادي؛ وهو من فاعل من وحد، وأصله: الواحد؛ فنقل عن فاعل إلى عالف، ومثله فأحدهن مقلوب من وحد⁵.

من شواهد القلب المكاني أن أشياء مقلوب شيئا؛ يقول ابن جني: «أشياء فعلاء، وكان أصلها شيئا؛ مثل حمراء فقلبت فجعل الهمزة التي هي لام أولا فقال: أشياء كأشياء لفعاء»⁶، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾؛ [المائدة، 101] فكلمة أشياء منعت من الصرف على غير قياس، فهي ليست مما تنطبق عليه شروط المنع من الصرف، فوزن "أفعال" لا يمنع الكلمة من الصرف، لهذا اضطررنا إلى اعتبار ترتيبها مقلوبا، وأنها على زنة "لفعاء"، فبهذه الزنة تكون همزتها المتطرفة محوالة عن ألف التأنيث التي تمنع الأسماء من الصّرف⁷.

يرى ابن جني أنه لا يوجد قلب في كلمتي "جذب" و"جبد"؛ قال: «فمما تركيباه أصلا لا قلب فيهما قولهم: جذب وجبد ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه»⁸؛ والعلة في ذلك «أنهما جميعا متصرفان

¹ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 357

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 357

³ - المصدر نفسه، ص 358

⁴ - ينظر: ديوان القطامي، ص 211

⁵ - ينظر: الخصائص، ابن جني، ص 357

⁶ - المنصف، ابن جني، ج 1، ص 280

⁷ - ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ص 148

⁸ - الخصائص، ابن جني، ص 352

تصرّفًا واحدًا، نحو: جذب يجذب جذبا فهو جاذب، والمفعول مجذوب، جذب يجذب فهو جابذ، والمفعول مجبوذ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك»¹.

يتّضح مما سبق ذكره؛ أنه يمكن الكشف عن القلب المكاني عند ابن جني بواسطة:

١- المصدر؛ فالحكم على اللفظين بالقلب المكاني؛ إن كان له مصدر يمثل الأصل والآخر مقلوب عنه، نحو امضحل واضمحل.

٢- عدم الإعلال مع موجه؛ لما يكون أحد اللفظين مما وجب فيه الإعلال؛ لكن لم يعل، فحينها يكون مقلوبا عن اللفظ الآخر، وصحته دليلا على قلبه مثل في أيس ويئس.

٣- المزيد يكون مقلوب عن المجرد؛ مثل: ما ورد في طمأن وطأمن.

٤- ما كان ممنوعا من الصرف لغير علة؛ نحو: أشياء.

وهكذا؛ نقول إن تأمل وصف وتحليل ابن حني للأصوات؛ من حيث انعزالها، وتجاورها، وتغيراتها، وقوانينها يدل على وعي منهجي ودقة علمية في دراسة الأصوات العربية دراسة فونتيكية وفونولوجية؛ تتقاطع نتائجها مع الدرس الصوتي الحديث.

¹ - الخصائص، ابن جني، ص 352

خاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج التي تُبرز عمق التفكير الصوتي عند العرب، وتكشف عن المكانة الريادية التي يحتلها ابن جني في تاريخ الدرس الفونولوجي العربي، كما تؤكد على قدرة هذا التراث على محاربة المناهج الصوتية الحديثة.

— تدرج دراسة الظواهر الفونولوجية في كتب ابن جني ضمن سياق تحيين التراث؛ من خلال الاستفادة من منجزه؛ ثم تطعيمه بالمناهج اللسانية الحديثة؛ للكشف عن قيمته العلمية في بيان أصول الدرس الصوتي العربي وكذا تطويره.

إن الناظر في التراث العربي؛ يجد أن الظاهرة الصوتية قد تناولها الفيلسوف والبلاغي والناقد وعالم الكلام والنحوي وعالم التجويد كل من زاوية نظره؛ ومن الموقع الذي تخدم فيه العلم الذي يهتم بوضعه أو تأصيله أو الإسهام في توضيح ما غمض منه؛ وعليه فالدرس الصوتي العربي مفتوح على العديد من العلوم وموزع بينها؛ الشيء الذي نتج عنه تفتيت الظاهرة الصوتية وإلحاق كل عنصر منها بعلم من العلوم المذكورة، وهكذا درس الفيلسوف والموسيقي الأصوات من وجهة نظر فيزيائية بالدرجة الأولى؛ لأنهم يبحثون في ماهية الأصوات وكيفية حدوثها وتنوعها)، والنحوي من وجهة تأليف هذه الأصوات، ومن ثمة تأثيرها في بعضها البعض وما ينتج عنه من الظواهر الصوتية الصرفة من إدغام وإعلال...، وعالم التجويد من وجهة تحقيق نطق سليم وقراءة معيارية للنص القرآني، والناقد والبلاغي من وجهة تنافر وتلاؤم الحروف المؤلفة، ومن ثمة أدوات تحقيق نصوص أدبية ذات جرس موسيقي، وعالم الكلام من وجهة نفي أو إثبات خلق القرآن، وذلك جره إلى التطرق إلى ماهية الكلام وما يتألف.

— يعدّ ابن جني امتداداً للفكر الخليلي التأصيلي؛ تعكسه نقوله وشواهد.

— قدّم علماء العربية القدماء بحوثاً جمة في ميدان الدراسات الصوتية؛ اعتمدت على الملاحظة الذاتية والذوق، فحدّدوا مخارج الأصوات وصفاتها، وميّزوا بين الأصوات الصحيحة والمعتلة؛ أي: أنهم وصفوا الأصوات العربية وصنفوها.

— فسّروا آلية إنتاج الصوت ومختلف الظواهر الصوتية؛ كالإدغام والإبدال، كما أدركوا مفاهيم تقارب نظريات حديثة كالفونيم والنبر والتنغيم، مما يبرز سبقهم وإسهامهم العميق في تأسيس الدرس الصوتي العربي.

— اتسم منهج العلماء العرب في دراسة الأصوات بطريقة علمية دقيقة؛ إذ تتبعوا مخارج الأصوات من أقصى الحلق إلى الشفتين، واعتمدوا تقسيمات صوتية دقيقة؛ كالمجهورة والمهموسة والصحيحة والمعتلة، وقد جاءت أوصافهم لمخارج الأصوات وصفاتها متقاربة، بل متطابقة في كثير من الجوانب، مع ما انتهى إليه الدرس الصوتي الحديث، رغم بعض الاختلافات الجزئية

— أسهم ابن جني، من خلال مؤلفاته، ولا سيما سرّ صناعة الإعراب إسهاما كبيرا في تطوير الدرس الصوتي العربي، إذ تميّز بدقة التعبير وعمق التحليل، وهو ما يتجلى في تشبيهاته الفيزيولوجية الدقيقة، كتشبيهه مجرى النفس بالناي، مما يعكس وعيه بجهاز النطق، والقوانين النطقية التي تحكم الأصوات وتفاعلها داخل السياق الكلامي.

— درس ابن جني الأصوات العربية حال انعزالها و تجاورها؛ فقدم وصفا وتحليلا لكل التغيرات والقوانين التي تطرأ عليها أو تحكمها؛ وقد توصل إلى نتائج علمية؛ تتقاطع مع الدرس الصوتي الحديث من الناحية الفونولوجية والفونولوجية.

— بيّنت الدّراسة في تتبّعها لنشأة التّفكير الصّوتي عند العرب، أن اللّغة العربية قامت منذ بدايات تقييدها على نظام صوتي دقيق؛ تحكمه مبادئ واضحة، على سبيل المثال لا الحصر؛ مبدأ المخالفة بين الحركات وأشباه الحركات، اتقاء لتتابع الأمثال، وتحقيقا للوضوح الصّوتي والاقتصاد العضلي، وقد انعكس هذا المبدأ بجلاء على البنى الصّرفية العربية، سواء في تصريف الأفعال أو اشتقاق الأسماء، بما يدلّ على الترابط العضوي بين المستويات الصوتية والصرفية داخل النسق اللغوي.

— أن العرب القدماء حققوا تقدما ملحوظا في الدرس الصوتي ضمن دراساتهم اللغوية، إذ قدّموا تحليلات دقيقة قائمة على الملاحظة والاستقراء، وربط الظواهر الصوتية بوظائفها النطقية والسمعية، وقد توافقت كثير من آرائهم مع منجزات علم الأصوات الحديث، بما يعكس أصالة الدرس اللغوي العربي وعمقه المنهجي، ويؤكد أنه قام على أسس من التفكير العلمي المنظم.

— قدّم ابن جني تصورا واسعا لمختلف الظواهر الفونولوجية العربية وتغيّراتها وقوانينها: كالإدغام، الإعلال، الإبدال، الإمالة.

— لم يحصر الإمالة مفي التحويل المباشر من الفتحة إلى الكسرة أو الضمة، بل وسّع مفهومها ليشمل تداخل الحركات وتأثر بعضها ببعض، وقد علّل ذلك بطبيعة الفتحة بوصفها أخفّ الحركات وأقواها تمكّنا في النطق، وباعتبارات فيزيولوجية تجعلها أقرب إلى الحلق وأسهل أداء من الضمة والكسرة، وهو تفسير ينسجم في جوهره مع مبادئ الدّرس الصّوتي الحديث.

— يُعدّ الإدغام صورة من صور المماثلة الصوتية الناتجة عن تجاور الأصوات؛ فإذا أدّى هذا التجاور إلى تقارب في المخرج أو الصفة تحقّقت المماثلة، وإذا حدث العكس نشأت المخالفة، وقد ميّز ابن جني بدقّة منهجية بين الإدغام الأكبر والإدغام الأصغر، فجعل الأول تقريبا للصوت من الصوت، والثاني تقريبا للحرف من الحرف دون إدغام تام، وأرجع اختلافهما إلى السياق الصوتي ووظيفة الحرف داخل البنية الكلامية، وهو تمييز يدل على وعيه بالفارق بين الصوت المجرد ووظيفته السياقية.

— تشير الشواهد اللغوية إلى أن للحركة دورا بارزا في ظاهرة الإبدال؛ إذ تكتسب الواو والياء قوة صوتية إذا كانتا متحركتين، مما يحدّ من خضوعهما للإعلال، وهو ما يدل على أن الحرف المتحرك يتمتع بقوة بنيوية تفوق الحرف الساكن، الأمر الذي يجعله أقل عرضة للتغيرات الصوتية. — تدلّ مميزات المقطع العربي على أن العربية لغة ذات نظام فونولوجي محكم، يقوم على قواعد دقيقة في بناء المقطع، أبرزها اعتبار الصائت نواة أساسية، وتقيد توالي الصوامت والحركات بما يحقق التوازن الصوتي وسهولة النطق.

— أوضحت الدّراسة وعي ابن جني والعلماء العرب القدماء بالظواهر الفونولوجية التطريزية كظاهري التّبر والتّنعيم، رغم عدم اكتمال نظرياتهم آنذاك؛ إذ وردت إشارات واضحة إلى أن النبر يتمثّل في الضّغط على مقطع معيّن يجعله أوضح سمعا، وأن التّنعيم يقوم على ارتفاع الصّوت وانخفاضه أثناء الكلام، ولكلّ منهما دلالة معجمية وتركيبية وسياقية؛ تسهم في تقوية المعنى وتوجيهه. وقد ثبت وجود علاقة تلازم بين النبر ودرجة علو الصوت، بما يؤكّد إدراكهم للوظيفة الصوت.

— كشفت الدراسة أن اختلاف المصطلحات بين القدماء والمحدثين — مثل المماثلة، والإبدال، والتقريب، والعوض — لا يمثّل في جوهره اختلافا في المفهوم، بل هو في الغالب اختلاف اصطلاحى أو جزئي، ويتجلّى ذلك بوضوح في معالجة المحدثين لبعض الظواهر الصوتية؛ كتعليقهم ما يحدث بين حروف العلة والهمزة، بما يُسمّى التعويض، وهو في حقيقته صورة من صور الإبدال الصوتي في دلالاته العامة.

- أبانت النتائج أن ما قدّمه ابن جني من تعليقات صوتية منهجية يعكس وعيا صوتيا متقدّما، يقوم على تفسير الظواهر بالرجوع إلى قوانين النطق والتيسير الصوتي، والتخفيف من الثقل الناجم عن تجاوز الأصوات، وهو ما يجعل الدرس الصوتي العربي، في كثير من جوانبه، سابقا لما انتهى إليه الدرس اللساني الحديث.

- انطلاقا من ذلك، يتبين أن الربط بين التراث اللغوي القديم والمناهج الحديثة (وتطعيمه بها) ليس ترفا معرفيا، بل هو ضرورة علمية بتطوير الدرس اللغوي العربي، شريطة أن يتمّ هذا الربط بمنهج علمي يوازن بين فهم منطلقات التراث واستيعاب أدوات التحليل الحديثة.

- تمثل القراءات الشاذة في التراث العربي مادة لغوية بالغة الأهمية؛ إذ تكشف عن ثراء البنية الصوتية والصرفية التي كانت متداولة في العربية، كما تُبرز ملامح التنوع الفونولوجي الذي ميّز الاستعمال العربي في عصوره الأولى، فهي لا تُحتزل في كونها ظاهرة نصية أو اختلافا في الأداء القرائي فحسب، بل تتجاوز ذلك لمثل شواهد لغوية حية تعكس أنماط النطق، وتباين البنية المورفولوجية، وتعدد الأساليب التعبيرية التي كانت سائدة في البيئات اللغوية المختلفة، وانطلاقا من هذا التصور فإن دراسة هذه القراءات تتيح للباحثين إمكانية إعادة بناء صورة دقيقة عن التطور التاريخي للأصوات العربية، وعن مدى التفاعل بين النظام الفونولوجي والأنماط الصرفية في سياق التداول اللغوي، مما يجعلها دليلا علميا على حيوية اللغة العربية وقدرتها على استيعاب التنوع الصوتي والصرفي عبر العصور.

- قدم البحث مسردا للمصطلحات الصوتية عند ابن جني؛ وهذا يدل على وعيه المنهجي بالدراسة الصوتية؛ التي أفرد لها مصطلحات خاصة؛ مما يجعله رائد الدرس الصوتي العربي.

- زواج ابن جني في دراسته الصوتية حال انغزال الأصوات و تجاوزها بين الجانب الفونتيكي والفونولوجي، وهذا يؤكد على التكامل بين الجانبين؛ ويتقاطع هذا التصور مع الدراسات الصوتية الحديثة.

-يمثّل ابن جني حلقة مركزية في تاريخ الفونولوجيا العربية، وقد أسهمت جهوده في ترسيخ أسس نظرية صوتية متكاملة، لا تزال قادرة على الإسهام في إثراء الدرس اللساني المعاصر، متى أُعيدت قراءتها قراءة علمية واعية تربط الماضي بالحاضر، وتفتح آفاق البحث في مستقبل الدراسات الصوتية العربية، ومن ثمة وجب النظر إلى التراث على أنه وظيفي؛ يمكن الرجوع إليه وإثراءه وتطعيمه.

— تتقاطع نتائج ابن جني الصوتية الفونولوجية مع الدرس الفونولوجي الحديث؛ مما يعني ضرورة الاستفادة من التراث وتطعيمه بالمناهج الحديثة؛ لأنّ التطوير لا يتحقق إلاّ بالمراجعة والنقد، والعلم يبنى على التراكمية العلمية.

ومن التوصيات:

- إن موضوع الظواهر الفونولوجية في كتب ابن جني موضوع دقيق؛ يحتاج إلى مزيد تعمق واستقصاء وتتبع لتلك الظواهر في كل كتبه، وكذا الانفتاح على جملة من المجالات: الفيزيائية، النفسية، الاجتماعية...؛ بغية حصرها وفهمها والاستفادة منها؛ انطلاقاً من فكرة تحيين التراث؛ بتطعيمه بالمناهج اللسانية الحديثة.
- العناية بالمصطلح الفونولوجي عند ابن جني من حيث ضبطه وتحليله وتتبع دلالاته في مؤلفاته المختلفة.
- تخصيص بحوثاً مستقلة لكل ظاهرة فونولوجية تناولها ابن جني، مثل الإعلال والإبدال والإدغام والمماثلة الصوتية، لما في ذلك من تعميق للتحليل وتفصيل للنتائج.

قائمة المصادر والمراجع

- المصحف الإلكتروني برواية ورش عن نافع.

- 1- إتخاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، البنا أحمد بن مُجَدّ، تح: شعبان مُجَدّ إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407/1987م، ج.1
- 2- أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي الشايب، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، د.ط، 1425هـ/2004م.
- 3- الإدغام الأصغر عند ابن جني، كريمة أبو القاسم خليفة، إُمَجَدّ، مجلة جامعة صبراتة العلمية، المجاهد 7، العدد14، (ديسمبر، 2023م).
- 4- أسس علم اللغة، ماريوباي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998م.
- 5- إعجاز القرآن، الباقلاني أبي بكر مُجَدّ بن الطيب، تح: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، 2009م.
- 6- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 1975م.
- 7- الأصوات اللغوية، عاطف فضل مُجَدّ، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 1434هـ/2013م.
- 8- الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، 1418هـ/1998م.
- 9- الأصول في النحو، أبو بكر مُجَدّ بن السري بن سهل ابن السراج ، تح: مُجَدّ عثمان، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ط1، 1430هـ/2009م، مج.2
- 10- الأصوات اللغوية وظواهرها عند الجاربردي في شرحه على شافية ابن الحاجب، مصطفى عبد كاظم الحسناوي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1433هـ/2012م.
- 11- الإمالة في القراءات واللهجات العربية، عبد الفتاح إسماعيل شلي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، د.ت. - ألفية ابن مالك في النحو والصرف، مكتبة الآداب- القاهرة. 2001
- 12- الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م، ج.2
- 13- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988م.
- 14- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: مُجَدّ أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ج.1

- 15- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام هارون، ج.1
- 16- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد في النحو، ابن مالك جمال الدين أو عبد الله مُجَدِّد، المطبعة الميرية، مكة، 1319هـ.
- 17- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992.
- 18- التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ/1997م.
- 19- التعريفات، علي بن مُجَدِّد بن علي الجرجاني، تح: إبراهيم اليباري، دار الريان للتراث، د.ط، د.ت.
- 20- التعليل الصوتي عند العرب في ضوء علم الصوت الحديث -قراءة في كتاب سيويه-، عادل نذير يبري الحسني، ديوان الوقف السني، بغداد، ط1، 1430هـ/2009م.
- 21- التكملة، أبو الحسن، بن أحمد بن عبد الغفار، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1419هـ/1999م.
- 22- التمهيد في التجويد، مخطوط، أبو بكر مُجَدِّد المستغفري، نقلا عن الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد.
- 23- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تح: مُجَدِّد خلف الله أحمد، و مُجَدِّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م.
- 24- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، عبد البديع النيرباني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سورية، ط1، 1427هـ/2006م.
- 25- حاشية الصبان، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، طه عبد الرؤف سعد، المكتبة التوفيقية.
- 26- الحجة للقراء السبعة ، أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، تح: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني، دار المأمون للتراث، ج.1.
- 27- الخصائص، ابن جني أبو الفتح عثمان، تح: مُجَدِّد علي النجار، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.

- 28- خصائص التأليف النحوي في القرن الرابع الهجري، أبو تاكي سعود بن غازي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1425هـ / 2005م.
- 29- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، 1428هـ / 2007م.
- 30- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، د.ط، 1980م.
- 31- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1997م / 1418هـ.
- 32- الدرس الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصبيغ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1428 / 2007م.
- 33- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحمَّد الجرجاني، تعليق: محمود مُحمَّد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ / 1992م.
- 34- ديوان الأعشى الكبير، تح: محمود إبراهيم مُحمَّد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2010م.
- 35- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1406هـ / 1986م.
- 36- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1969هـ / 1950م.
- 37- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي مُحمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ / 2002م.
- 38- ديوان طرفة بن العبد، شرح: مهدي مُحمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 1423هـ / 2002م.
- 39- ديوان طفيل الغنوي، تح: مُحمَّد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968م.
- 40- ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1416هـ / 1996م.
- 41- ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م.
- 42- ديوان كثير عزة، شرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، د.ط، 1391هـ، 1971م.

- 43- ديوان النابغة الذبياني، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط2، 1426هـ/2005م.
- 44- ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1995م، ج.2
- 45- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تح: مُحمَّد حسان الطيان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ط، 428/370هـ.
- 46- سر الفصاحة، أبو مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد بن سعيد بن سنان الخفاجي، مكتبة لسان العرب، مصر، د.ط، 1372هـ/1952م.
- 47- سر صناعة الإعراب، ابن جني أبو الفتح عثمان، تح: مُحمَّد حسن مُحمَّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 2007م.
- 48- الشامل في التجويد، عمر بن أحمد بوسعدة، الدار البيضاء، الجزائر العاصمة، ط3، 1435هـ/2014م.
- 49- شرح المفصل، موفق الدين بن أبي البقاء يعيش بن علي الموصلي ابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، ج.5.
- 50- شرح الهاشميات، ابن زيد الأسدي، تح: داود سلوم ونوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، ط2، 1406هـ/1982م.
- 51- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين مُحمَّد بن الحسن الإستربادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1402هـ/1982م.
- 52- الشوقيات، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، ط1، 2012م.
- 53- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تح: عمر الطباع، مكتبة المعارف، بيروت-لبنان، 1993م.
- 54- الصحاح، الجوهري، تح: مُحمَّد تامر، دار الحديث، القاهرة، مج1، 1430 هـ، 2009.
- 55- الصوت اللغوي في القرآن، مُحمَّد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1420هـ/200م.
- 56- الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، تحسين عبد الرضى الوزان، دار دجلة، عمان، الأردن، ط1، 2011م.

- 57- الصوتيات اللغوية دراسات تطبيقية على أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد هلال، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1430هـ/2009م.
- 58- الصوتيات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998م/1418هـ.
- 59- ظاهرة التنغيم ودورها المعنوي في توجيه الدلالة- نماذج مختارة من القرآن الكريم، نور الدين بوزناشة، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، المجلد 8، العدد 2، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، (ديسمبر، 2022م).
- 60- العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، مختار نويوات و مُجّد خان، مشروع دراسة لسانية للدارجة في منطقة الزيبان، بسكرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، ط1، 2005م.
- 61- العربية الفصحى نحوى بناء لغوي جديد، هنري فليش، تعريب: عبد الصبور شاهين، المطبعة الكاثوليكية، ط1، بيروت.
- 62- علم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1430هـ/2009م.
- 63- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997م.
- 64- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت، ج1.
- 65- فصول في علم الأصوات مع دراسة لظاهرة الإبدال عند ابن جني، ناصر علي عبد النبي، ط1، 1434هـ/2013م، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا -القاهرة-
- 66- فقه اللغات السامية، بروكلمان كارل، المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض، 1397هـ/1977م.
- 67- فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.
- 68- فقه اللغة مفهومه موضوعاته قضاياها، مُجّد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، ط1، 1426هـ/2005م.
- 69- فقه اللغة وأسرار العربية، الثعالبي، مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، (د.ت).

- 70- الفكر اللغوي عند العرب القدماء: دراسة تأصيلية، عاطف فضل، مجلة التواصل في اللغات والآداب، العدد 49، جامعة إربد الأهلية، الأردن، (مارس 2017م).
- 71- في الدراسات اللغوية والقرآنية الإمامة في القراءات واللهجات العربية، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1429هـ/2008م.
- 72- في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992م.
- 73- في علم الأصوات الفيزيقي، مدخل إلى التصوير الطبقي للكلام، آرنست بولجرام، تر: سعد مصلوح، ط1، 1977م، مكتبة دار العلوم، القاهرة.
- 74- في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1980م.
- 75- القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصوتة الإيقاعية، أحمد البايبي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2012م، ج1.
- 76- الكتاب، أبو بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تح: مُحمَّد كاظم البكاء، مكتبة زين الحقوقية والأدبية، بيروت-لبنان، ط1، 1435هـ/2015م.
- 77- الكتاب، أبو بشر عمرو عثمان بن قنبر سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ/1988م، ج1.
- 78- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، القيسي أبو مُحمَّد مكي بن أبي طالب، تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1404هـ/1984م، ج1.
- 79- لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشرق، مصر، القاهرة، ط2، 2000م.
- 80- لسان العرب، دار الأبحاث للنشر، مُحمَّد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور، الجزائر، ط1، 2008م، ج1.
- 81- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994.
- 82- اللغة وعلم اللغة، ليونز جون، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1987م.
- 83- اللغة، فندريس، تر: عبد الرحمن الدواخلي، وُحمَّد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950م.

- 84- اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: سميح أبو مُغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 1988م.
- 85- اللهجات العربية في التراث القسم الأول في النظامين الصوتي والصرفي، علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، د.ط، 1934م.
- 86- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996م.
- 87- المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، ابن جني أبو الفتح عثمان، تح: ناصف علي النجدي وعبد الفتاح إسماعيل شلبي.
- 88- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، مُجَد الأنطاكي، ط3، دار الشرق العربي، بيروت، ج.1
- 89- المدخل إلى الصوتيات تاريخاً جهود متعاقبة عبر العصور الفرعونية إلى العصر الحديث، عمار ساسي، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن، ط1، 2014م.
- 90- المدخل إلى علم الأصوات العربية، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ/ 2004م.
- 91- المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007/1428م.
- 92- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط3، 1403هـ/ 1983م، ج.3.
- 93- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ/ 1983م، ج.1
- 94- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تح: إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1993م.
- 95- معجم تهذيب اللغة، الأزهري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418هـ/ 1998م.
- 96- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1426هـ/ 2005م.
- 97- مفهوم الفونيم عند علماء الصوتيات العرب -ابن جني أنموذجا، مُجَد نبيل بوعافية، وإسماعيل سيبوكر، المجلة الدولية لبحوث اللغة العربية وآدابها، المجلد4، العدد 8، الجزائر، (أفريل 2023).

- 98- المقتضب، المبرد، أبو العباس مُحمَّد بن يزيد، تح: مُحمَّد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة أحياء التراث الإسلامي، مصر، القاهرة، ط3، 1415هـ/1994م.
- 99- المقطع الصوتي في العربية، صباح عطوي عبود، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1435هـ/2014م.
- 100- الممتع في التصريف، ابن عصفور، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط1، 1407هـ/1987م، ج1.
- 101- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990.
- 102- المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية، ملا علي بن سلطان مُحمَّد القارئ، شرح: زكريا الأنصاري، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، 1367هـ/1948م.
- 103- منظومة المقدمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد بن علي بن يوسف بن الجزري، تح: أيمن رشدي سويد، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط2، 1433هـ/2012م.
- 104- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث لعلّي زوين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986م.
- 105- منهج الدرس الصوتي عند العرب، علي خليف حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011م.
- 106- المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربية، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1400هـ/1980م.
- 107- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، نوزاد حسن أحمد، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، 1906.
- 108- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، زوبينز روبرت، تر: أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط3، 1997م.
- 109- الموسيقى الكبير، الفارابي أبو نصر مُحمَّد بن مُحمَّد بن طرخان، تح: غطاس عبد الملك خشبة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- 110- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن مُحمَّد لأنباري، تح: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ/1998م.

- 111- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن علي بن يوسف، دار ابن الجوزي، مصر، القاهرة، ط1، 1435هـ/ 2014.
- 112- نظرية الفونيم في الدرس العربي والأوروبي، بنينة مصطفى، حلويات الآداب و اللغات، مجلة علمية دولية محكمة، المجلد9، العدد3، كلية الآداب واللغات، جامعة مُجَدِّد بوضياف المسيلة، الجزائر.
- 113- هدي المجيد في شرح قصيدتي الخاقاني والسخاوي في التجويد، جمال مُجَدِّد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، د.ط، د.ت.
- 114- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تح: عبد العالم سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1400هـ/ 1980م، ج.2.
- 115- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُجَدِّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، مج3، ط1900.
- الكتب الأجنبية:
- 116- مبادئ علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا)، أتروبتزكوي، تر: عبد القادر قنيني، دار قرطبة، المغرب، 1994.
- 117- David Odden, Introducing Phonology, Penultimate draft, Cambridge University Press 2003

ملحق

مسرد للمصطلحات الصوتية عند ابن جني:

المصطلح	موضع وروده
إبدال	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها
الإبعاد	الخصائص
أبعاد حروف	سر صناعة الإعراب
الإتباع	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
أجراس الحروف	سر صناعة الإعراب
إحالة الصنعة	الخصائص
إدغام	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الإدغام الأكبر	الخصائص
الإدغام الأصغر	الخصائص
الاستثقال	الخصائص + المحتسب
الاستخفاف	الخصائص + المحتسب
الاستعلاء	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
إسكان	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
أشبع ومطلت الحركة	الخصائص
أشبه الحروف	سر صناعة الإعراب
إشمام	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الأصوات الناقصة	سر صناعة الإعراب
الإطباق	سر صناعة الإعراب + الخصائص
الاعتلال	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الإعلال بالحذف	الخصائص
الإمالة	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الأمثال	الخصائص

سر صناعة الإعراب	أملس
سر صناعة الإعراب+الخصائص	انفتاح
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	انقلاب
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	البدل
سر صناعة الإعراب+الخصائص	بعض الياء
سر صناعة الإعراب	تجانس
سر صناعة الإعراب	تجانس الصّوت
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	التحريك
المحتسب	تحريك ساكن
الخصائص	تسكين المتحرك
سر صناعة الإعراب+ الخصائص + المحتسب	التشديد
الخصائص +سر صناعة الإعراب	تضجّع
سر صناعة الإعراب+الخصائص + المحتسب	التطويح والتطريح
سر صناعة الإعراب+الخصائص +	التفخيم
الخصائص+سر صناعة الإعراب+ المحتسب	تقارب
الخصائص+سر صناعة الإعراب+المحتسب	التّقريب
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	تقريب الحرف من الحرف
الخصائص +سر صناعة الإعراب	تلتلة
الخصائص	تمطيط
المحتسب	اجتماع المثليين
المحتسب	جريان الصوت
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	الجهر
الخصائص	الحذف لاجتماع الأمثال
الخصائص +سر صناعة الإعراب +المحتسب	الحرف
المحتسب	حرف أقوى
الخصائص + المحتسب	الحرف المشدد
سر صناعة الإعراب +المحتسب	الحرف المنقلب

سر صناعة الإعراب	حرف ضعيف
سر صناعة الإعراب + المحتسب	حرف مهموس
الخصائص	الحرفين المتقاربين
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الحركات
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الحركة
سر صناعة الإعراب	الحركة المجاورة للحرف الساكن
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	حركة التقاء الساكنين
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	حروف الحلق
الخصائص + سر صناعة الإعراب	حروف الزيادة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الحروف الصراح
سر صناعة الإعراب	الحروف المستحسنة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	حروف المعجم
الخصائص	الحروف الممطولة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الحلق
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الخفة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الخفة على اللسان
سر صناعة الإعراب	الرخوة
الخصائص	رزمة مختلصة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	روم
الخصائص	سواكن توابع
الخصائص + المحتسب	شديد
الخصائص + سر صناعة الإعراب	الشفيتين
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الصحة
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الصحيح
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	صحيح
الخصائص + سر صناعة الإعراب	الصفات
سر صناعة الإعراب + المحتسب	الصفير

الصوت	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الصوت الأضعف	الخصائص
الصوت الأقوى	الخصائص
عجرفيّة	الخصائص + سر صناعة الإعراب
العدول عن الثقيل إلى ما هو أثقل	الخصائص
عننة	الخصائص + سر صناعة الإعراب
الفتح	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
الفتحة المشوبة بالكسرة	سر صناعة الإعراب
القلب	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
قلب لفظ	الخصائص
كسكسة	الخصائص + سر صناعة الإعراب
كشكشة	الخصائص + سر صناعة الإعراب
اللسان	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
اللين	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
المجاورة	سر صناعة الإعراب
مجهور	سر صناعة الإعراب
مجهورة	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
مخالفة	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
مُختلّسة	الخصائص + سر صناعة الإعراب
مخرج	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
المخرج الواسع	سر صناعة الإعراب
المد	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
مستثقلا	سر صناعة الإعراب
مستعل	سر صناعة الإعراب
مستفل	سر صناعة الإعراب
المضارعة	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب
المضموم	الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب

الخصائص	مطل الحركة
الخصائص + المحتسب	المفتوح
سر صناعة الإعراب	مقاطع الحروف
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	مقلوب
الخصائص + سر صناعة الإعراب	الممدود
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	مهموسة
الخصائص	الموقوف
سر صناعة الإعراب	النائي
الخصائص	نبرة واحدة
الخصائص + سر صناعة الإعراب	النظير
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	النفس
المحتسب	نقل الحركة
الخصائص	هجوم الحركات على الحركات
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الهمز
الخصائص + سر صناعة الإعراب	الهمس
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الوصل
الخصائص + سر صناعة الإعراب + المحتسب	الوقف
الخصائص + المحتسب	الوقفة

الفهارس

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾	[البقرة، 179]	51
﴿وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾	[النور، 55]	96
﴿قَالُوا لَكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾	[الفرقان، 70]	70
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾	[النساء، 58]	86
: ﴿فَلَا تَتَجَوَّأُ﴾	[المجادلة، 9]	96
﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾	[النساء، 58]	96
﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾	[الصافات، 8]	98
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	[البقرة، 137]	124
﴿أَنْزَلُكُمْ مِّنْهَا﴾	[هود، 28]	124
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رِءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾	[الأنعام، 77]	138
﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنُ هِيمٍ﴾	[الأنبياء، 62]	140
﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾	[النمل، 22]	147
﴿وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾	[يوسف، 45]	149
﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾	[القمر، 15]	151
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾	[المائدة، 6]	151
﴿فَاصْدَقْ وَأكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾	[المنافقون، 10]	151
﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾	[النساء، 92]	151
﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّغُونَ﴾	[الأعراف، 94]	151
﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ إِلَهًا تَطْهَرُونَ﴾	[الأحزاب، 4]	
﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	[البقرة، 268]	152
﴿لَوْ لَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾	[القلم، 49]	152
﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾	[الأنعام، 125]	152
﴿تَطْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ﴾	[البقرة، 85]	152
﴿قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ﴾	[النمل، 47]	152
﴿أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾	[يونس، 24]	152
﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا﴾	[الأعراف، 36]	153
﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْمِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ﴾	[التوبة، 38]	153
﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾	[يونس، 35]	153

153	[الصف، 14]	﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةً﴾
153	[آل عمران، 122]	"﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَيْنِ﴾
154	[الكافرون، 4]	﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾
154	[التوبة، 117]	﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾
154	[الصف، 5]	﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾
154	[البقرة، 51]	﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾
154	[البقرة، 259]	﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالِ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالِ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامًا﴾
155	[النبا، 1]	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾
156	[القمر، 9]	﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾
167	[الأنعام، 80]	﴿قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِيْتُ﴾
167	[الزمر، 64]	﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
167	[الكهف، 97]	﴿فَمَا اسْطُغُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾
171	[مريم، 8]	﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾
171	[مريم، 70]	﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾
196	[النساء، 128]	﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾
196	[الأعراف، 38]	﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا حَتَّىٰ إِذَا إِدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِبُهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾
196	[الأعراف، 169]	﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
196	[البقر، 63]	﴿وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
196	[النمل، 48]	﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفَنِّتُونَ﴾
209	[الفاتحة، 7]	﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾
210	[الرحمن، 39]	﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾
210	[مريم، 4]	﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾
225	[الأنعام، 33]	﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾
225	[البقرة، 155]	﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
233	[غافر، 39]	﴿وَإِنَّ الْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾
236	[مريم، 83]	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾
236	[مريم، 25]	﴿وَهَزَّزَ إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ﴾

239	[الرحمن، 66]	﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَيْنِ﴾
256	[يس، 30]	يُحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾
256	[البقرة، 225]	﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾
259	[الواقعة، 47]	﴿وَكَاثُرًا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾
259	[عبس، 2]	﴿أَن جَاءَهُ أَلَا عَمِي﴾
259	[عبس، 1]	﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾
266	[البقرة، 20]	﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾
267	[الأعراف، 163]	﴿وَسَلُّهُمْ عَنِ الْفَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾
267	[الأنفال، 9]	﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾
268	[الأنفال، 57]	﴿فَإِذَا تَنَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾
268	[المائدة، 3]	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾
269	[الرعد، 2]	﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾
269	[لقمان، 20]	﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾
269	[لقمان، 20]	﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾
270، 278	[ق، 10]	﴿وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ﴾
272	[الأعراف، 117]	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن ألقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾
274	[النساء، 104]	﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾
278	[الروم، 56]	﴿لَقَدْ أَلَيْنَاكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
278	[الرعد، 4]	﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجِئَتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُوفٍ وَغَيْرِ صُنُوفٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾
278	[المائدة، 105]	﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا إِهْتَدَيْتُمْ﴾
294	[البقرة، 35]	﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
294	[الحجر، 82]	﴿وَكَاثُرًا يُنَجِّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا أَمِينِينَ﴾
295	[الأعراف، 157]	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّءَ الْأَمِّيَّ﴾
295	[مريم، 8]	﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا﴾
295	[مريم، 70]	﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صُلًيًا﴾
296	[الأعراف، 187]	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا﴾
296	[النحل، 21]	﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

296	[النور، 35]	﴿مَثَلُ نُورٍ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الزُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾
298	[الرعد، 29]	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا ابْتَغُوا﴾
300	[يوسف، 76]	﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾
304	[الأحزاب، 53]	﴿إِلَّا أَنْ يُودَنْ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِيَّةٍ﴾
304	[المائدة، 101]	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ

2/ فهرس الأشعار

البيت الشعري	صاحبه	الصفحة
فإن أصبح بلا نسب ... فعلمي في الوري نسبي على أنني أوول إلى ... فزوم سادة نجب قياصرة إذا نطفوا ... أرم الدهر ذو الخطب أولاك دعا النبي لهم ... كفى شرفاً دعاء نبي	ابن جني	18
صدودك عني ولا ذنب لي ... يدل على نية فاسده فقد وحياتك مما بكيت ... حشيت على عيني الواحد ولولا مخافة أن لا أراك ... لما كان في تركها فائده	ابن جني	19
أقول مقالاً معجباً لأولي الحجر... ولا فخر إن الفخر يدعوا إلى الكبر أعلم في القول التلاوة عائداً ... بمولاي من شر المباهاة والفخر	أبو مزاحم الخاقاني	40
وليس بينه وبين تركه... إلا رياضة امرئ بفكه	ابن الجزري	42
أحرف الإبدال هدأت موطيناً فأبدل الهمة من وادٍ ويا	ابن مالك	62
بمقربات بأيديهم إذا أعنتها ... حوص إذا فرغوا أدغم باللجم	ساعده بن جوية	77
ولو أنها ضحكك فتسمع نغمها رعى المفاصل صلبه متحنن	ساعده بن جوية	126
ثم قالوا تحبها قلت بمرأ... عدد النجم والحصى والثراب.	عمر بن أبي ربيعة	127
فو الله ما أدري وإني لحاسب بسبع رميت الجمر أم بثمان	عمر بن أبي ربيعة	128
طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً متي وذو الشيب يلعب	الكميت	128

129	جرير	أَعْبَدًا حَلَّ فِي شُعْبَى غَرِيًّا أَلْوَمًا لَا أَبَا لَكَ اغْتِرَابًا
173	أبو عثمان المازني	لَوْ عَرَضْتُ لِأَيْبَلِي قَسٍ أَشَعْتُ فِي هَيْكَلِهِ مُنَدَسٍ حَنٍّ إِلَيْهَا كَحَنِينِ الطَّسِّ
174	بن عامر بن جُوين الطائي	فَتَرَكَن نَهْدًا عَيْلًا أَبْنَاؤُهَا وَبَنِي كِنَانَةَ كَاللُّصُوتِ الْمَرْدِ
174	منظور بن مرثد الأزدي	أَنْ لَا دَعَا وَلَا شَيْعٍ مَالَ إِلَى أَرْطَاةٍ حِقْفٍ فَالطَّجَعِ
174	رجل من بني سعد	عَمِّي عُوفُفُ وَأَبُو عَلِجٍ الْمُطْعَمَانِ اللَّحْمَ الْعَشِجَ وَبِالْعَدَاةِ فَلَقَ الْبَرْزَجَ تُقْلَعُ بِالْوَدِّ وَبِالصَّيْصَجِ
178	أبو النجم العجلي	كَأَنَّ فِي أَذْنَائِهِمُ الشُّوَالِ مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونِ الْإِجْلِ
178	الفراء	لَاهُمَّ إِنْ كُنْتُ قَبِلْتُ حُجَّتَجٍ فَلَا يَزَالُ شَاحِجُ يَأْتِيكَ بَجٍ أَقْمَرُ نَهَاتٍ يُنْزِي وَفَرْتَجٍ
179	قيس بن الملوح	فَعَيْنَاشَ عَيْنَاهَا وَجِيدُشَ جِيدُهَا سَوَى أَنْ عَظُمَ السَّاقِ مِنْشٍ دَقِيقُ
179	قيس بن الملوح	عَلَيَّ فِيمَا ابْتَغَى ابْغِيشَ بَيْضَاءُ تُرْضِينِي وَلَا تُرْضِيشَ إِذَا دَنَوْتَ جَعَلْتُ تُنْثِيشَ وَإِنْ نَأَيْتَ جَعَلْتُ تُدْنِيشَ وَإِنْ تَكَلَّمْتَ حَثْتُ فِي فَيْشَ حَتَّى تَنْقَى كَنْقِيقِ الدِّيشَ
182	ليبيد	وَالْيَبِيبُ إِنْ تَعْرَمِي رَمَّةً خَلْقَابَعِدِ الْمِمَاتِ فَإِنِّي كُنْتُ أَتَثْرُ
184	لم أقف على قائله	إِلَّا كَعَهْدِكُمْ بِذِي بَقَرِ الْحِمَاهِيَّاتِ ذُو بَقَرِ الْمُزْدَارِ
186	الأعشى	فَإِنْ تَتَّعِدْنِي أَتْعِدُكَ بِمِثْلِهَا وَسَوْفَ أَزِيدُ الْبَاقِيَاتِ الْقَوَارِصَا
186	طرفة بن العبد	فَإِنْ الْقَوَائِي يَتَلَجَّنَ مَوَالِجَا تَضَائِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْرَ
186	سحيم	وَمَا دَمِيَّةٌ مِنْ دَمِي مَيْسَنَا نَ مُعْجَبَةٌ نَظَرًا وَاتِّصَافًا

190	طُفِيلُ الْغَنَوِيِّ	فَهِيَ أَخَوَى مِنَ الرَّعْيِيِّ خَاذِلَةٌ وَالْعَيْنُ بِالْإِثْمِدِ الْحَارِيِّ مَكْحُولٌ
190	أَبُو النِّجْمِ الْعَجَلِي	تُبْتُ إِلَيْكَ فَتَقَبَّلَ تَابَتِي وَصُمْتُ رَيِّ فَتَقَبَّلَ صَامَتِي
197	ذَكَرَهُ صَاحِبُ اللِّسَانِ وَلَمْ يَنْسِبْهُ	وَبَعْدَ انْتِهَاضِ الشَّيْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى لَمَّتِي حَتَّى اشْعَالَ يَهِيمُهَا
197	جَرِير	لَحَبَّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَى مُوسَى
237	كَثِير	لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةٍ رُكْعًا وَسُجُودًا
237	جِرَانُ الْعُودِ النَّمِيرِيِّ	وَحَدِيثُهَا كَالْعَيْثِ يَسْمَعُهُ رَاعِي سِنَّينَ تَتَابَعَتْ جَدَبًا فَأَصَاحَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ هِيَ رَبَّا
242	الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ	فُلْنَا لَهَا فِي لَنَا قَالَتْ قَافٌ
242	الْهَذَلِي	فَوَاللَّهِ لَا أُنْسَى قَتِيلًا رُزْنَتُهُ بِجَانِبِ قُوسَى مَا مَشَيْتَ عَلَى الْأَرْضِ
269	زَهِيرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى	أَثَابِي سَفْعًا فِي مُعَرِّسِ مِرْجَلٍ
269	النَّابِغَةُ الذِّيَابِي	أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعْنَا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرِ الْحَيَامِ
272	سَعْدُ بْنُ قُرْطٍ	يَالَيْتِمَا أُمْنَا شَالَتْ نَعَامَتُهَا أَيْمًا إِلَى جَنَّةٍ أَيْمًا إِلَى نَارٍ
272	الْحَطِيطَةُ	لَا تُفْسِدُوا آبَاكُمْ أَيْمًا لَنَا أَيْمًا لَكُمْ
248	مِرْدَاسُ بْنُ حَصْنٍ	فَصَرْتُ لَهُ الْقَبِيلَةَ إِذْ بَجَّهْنَا وَمَا ضَاقَتْ بِشِدَّتِهِ ذِرَاعِي
248	عَلْقَمَةُ	يَوْمَ رَذَا عَلَيْهِ الدَّجَنُ مَغِيومٌ
248	النَّابِغَةُ	أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
248	عَلْقَمَةُ	وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ حَبَطَ بِنِعْمَةٍ فَحَقَّ لَشَأْسٍ مَنْ نَدَاكَ دُثُوبُ
277	جِرَانُ الْعُودِ النَّمِيرِيِّ	وَفِيكَ إِذَا لَا فَيْتِنَا عَجْرَفِيَّةٍ مِرَارًا فَمَا نُسْتَبِيعُ مَنْ يَتَعَجَّرُفُ
280	الْفِرْزَدَقُ	تَنْظَرْتُ نَصْرًا وَالسَّمَاءَ كَيْنَ أَيْهَمَا ... عَلَيَّ مِنَ الْعَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مُوَاطِرُهُ
281	مِرْدَاسُ بْنُ حَصِينٍ	فَصَرْتُ لَهُ الْقَبِيلَةَ إِذْ بَجَّهْنَا وَمَا ضَاقَتْ بِشِدَّتِهِ ذِرَاعِي
287	أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ	تَقَاكَ بِكَعْبٍ وَاحِدٍ وَتَلَذَّ يَدَاكَ إِذَا مَا هَزُّ بِالْكَفِّ يَغْسِلُ
288	عَلْقَمَةُ	يَوْمَ رَذَا عَلَيْهِ الدَّجَنُ مَغِيومٌ
292	النَّابِغَةُ	أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
293	الْقُطَامِي	مَا اعْتَادَ حُبُّ سُلَيْمَى حِينَ مُعْتَادٍ وَلَا تَقْضَى بَوَاقِي دَيْنِهَا الطَّادِي

3_ فهرس الموضوعات:

مقدمة.....و - س

مدخل: التعريف بمصطلحات البحث مع ترجمة ابن جني 35-16

المبحث الأول : التعريف بمصطلحات البحث 23-16

المطلب الأول: تعريف اللغة، الصوت، الفونيتيك، الفونولوجيا..... 23-17

1/ تعريف اللغة: 18-17

2/ تعريف الصوت: 21-19

3/ الفونينيك والفونولوجيا تحديد وتعريف..... 23-21

المبحث الثاني ترجمة ابن جني وكتبه..... 35-23

المطلب الأول: نبذة عن حياة ابن جني..... 26 -23

1-1/ اسمه ونسبه ومولده: 25-24

2-1/ شيوخه وتلاميذه..... 26-25

3-1/ مؤلفاته ومكانته العلمية..... 27 -26

أ/ مؤلفاته..... 27-26

ب/ مكانته العلمية..... 27

ج/ وفاته..... 28

المطلب الثاني: التعريف بكتب ابن جني(الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والمختسب في وجوه شواذ القراءات

والإيضاح عنها)..... 35-28

1-1/ كتاب الخصائص..... 30-28

أ/ محتوياته.....29-28

ب/ الغاية من تأليفه..... 29

ج/ منهجه.....30

2-1/ سر صناعة الإعراب.....33-30

أ/ محتوياته.....31-30

ب/ الهدف من تأليفه.....31

ج/ منهجه.....33-32

3-1/ المحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.....35-33

أ/ محتوياته.....33

ب/ الهدف من تأليفه.....34-33

ج/ منهجه.....35-34

الفصل الأول: الدرس الصوتي العربي (النشأة والتطور).....67-36

المبحث الأول: التفكير الصوتي عند اللغويين.....45 - 37

المطلب الأول: مرحلة الملاحظات: نقط الإعراب عند أبي الأسود الدؤلي..... 38-37

المطلب الثاني: مرحلة التأسيس مع الخليل بن أحمد الفراهيدي.....41-38

المطلب الثالث مرحلة الاستقلال في التأليف مع ابن جني(ت392هـ).....45-41

المبحث الثاني: التفكير الصوتي عند علماء القراءات و التجويد..... 50-45

المطلب الأول: تحليلات التفكير الصوتي عند علماء القراءات والتجويد..... 48 -45

المطلب الثاني: منهج علماء التجويد في الدراسة الصوتية.....	48-50
المبحث الثالث: الدرس الصوتي عند المؤلفين في إعجاز القرآن الكريم والبلاغة....	49-61
المطلب الأول: عند الرماني.....	49-50
المطلب الثاني: عند ابن سنان الخفاجي.....	50
المطلب الثالث: عند الباقلاني.....	50-51
المبحث الثالث: التفكير الصوتي عند الفلاسفة.....	53-61
المطلب الأول: الفارابي.....	54
المطلب الثاني: ابن سينا.....	54-61
المبحث الرابع: التفكير الصوتي في العصر الحديث.....	62-64
المبحث الخامس: أهمية الدراسات الصوتية وفائدتها.....	64-67
الفصل الثاني: الظواهر الفونولوجية في اللغة العربية (تغيراتها وقوانينها).....	68-179
المبحث الأول: الفونيمات القطعية.....	68-110
المطلب الأول: الإبدال.....	69-80
1/ تعريف الإبدال.....	69-70
أ/ الإبدال لغة.....	69-70
ب/ الإبدال اصطلاحاً.....	70
2/ أقسام الإبدال وحروفه.....	70-72
3/ مظاهر الإبدال.....	72-78

80-79.....	4/ قوانين الإبدال
86-81.....	المطلب الثاني: الإعلال
81.....	1/ تعريف الإعلال
81.....	أ/ لغة
81.....	ب/ اصطلاحا
86-81.....	2/ أقسام الإعلال
99-86.....	المطلب الثالث: الإدغام
87-86.....	1/ تعريف الإدغام
87-86	أ/ لغة
89-87.....	ب/ اصطلاحا
91 -89.....	2/ أقسام الإدغام وأحكامه
92 -91.....	3/ مسوغات الإدغام الكبير وموانعه
93.....	4/ حالات الإدغام الشاذة
99-93.....	5/ إدغام المتقاربين
110-99.....	المطلب الرابع: الإمالة
110 -100.....	أولا/ الإمالة الصوتية مفهومها، درجاتها، وأسبابها
102-100.....	1/ تعريف الإمالة
100.....	أ- لغة
102-100.....	ب- اصطلاحا

103-102.....	2/ درجات الإمالة
106-103.....	3/ أسباب الإمالة وشروطها
110-106.....	ثانيا/ أسباب قوة الإمالة وأسباب ضعفها
107-106.....	1- أسباب قوة الإمالة
108.....	2- أسباب ضعف الإمالة
109.....	3- ألفات لا تمال
109.....	4- ألفات أميلت سماعا
109.....	5- إمالة الفتحة قبل هاء التأنيث
110.....	6- إمالة الفتحة قبل الراء المكسورة
110.....	7- إمالة الضمة والواو
143-111	المبحث الثاني: الظواهر التطريزية
128-112.....	المطلب الأول: المقطع (مفهومه أنواعه ومميزاته)
115-112.....	1/ تعريف المقطع
112.....	أ/ لغة
115-112	ب/ اصطلاحا
116 -115.....	2/ أنواع المقاطع ووقوعها في اللغات
117-116.....	3/ المقطع والكلمة العربية
119-117.....	4/ أشكال المقاطع في اللغة العربية وخصائصها

121-119.....	5/ النسيج المقطعية.
122-121.....	6/ مميزات المقطع العربي.
124-123.....	7/ مقارنة بين تركيب المقطع في العربية واللغات الأجنبية:
123-121.....	8/ أهمية الدراسة المقطعية.
128-124.....	9/ النبر والمقطع.
135-128.....	المطلب الثاني: النبر
130-128.....	1/ تعريفه.
129 - 128.....	أ/ لغة.
130-129.....	ب/ التعريف الاصطلاحي.
132-130	2/ النبر في اللغة العربية
132.....	3/ درجات النبر.
133-132.....	4/ أنواع النبر.
135-133.....	5/ قواعد النبر.
136 - 135.....	6/ العوامل التي تؤثر على مواقع النبر.
143 - 136.....	المطلب الثالث: التنغيم.
137-136.....	1/ تعريف التنغيم.
136.....	أ/ لغة.
137.....	ب/ اصطلاحا.
139-138.....	2/ وظيفة التنغيم.

141-139.....	3/ ظاهرة التنغيم في التراث اللغوي العربي
143-141.....	4/ ظاهرة التنغيم عند المحدثين العرب
179 -144.....	المبحث: الثالث: القوانين الفونولوجية:
163-144.....	المطلب الأول: المماثلة
146-144	1/ تعريف المماثلة وأسبابها والهدف منها
163 -146.....	2/ أنواع المماثلة
159-147.....	1- المماثلة بين الصوامت
160-159.....	2- المماثلة بين الحركات
163-160.....	3- المماثلة بين الصوامت والحركات
161-160.....	أولا/ أثر الحركات في الصوامت
163-161.....	ثانيا/ أثر الصوامت في الحركات
176-163.....	المطلب الثاني: المخالفة
164-163.....	1/ تعريفها
175-164.....	2/ أنواع المخالفة وصورها
170 -164	أولا/ المخالفة بين الصوامت
169 -164	1/ الحذف دون تعويض
167-165.....	1-1 - المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين
165	أ- في بداية الكلمة

ب- في وسط الكلمة.....	165-166
ج- في آخر الكلمة.....	166-167
1-2- المخالفة بالحذف بين المتقاربين دون تعويض.....	168-169
أ- الحذف بين المتقاربين في استطاع وأمثالها.....	168-169
ب- الحذف بين المتقاربين في أسماء القبائل(حذف النون).....	169
1-3- المخالفة بالحذف والتعويض.....	169-170
ثانيا/ المخالفة بين الحركات.....	170-172
1/ المخالفة بين الفعل ومصدره.....	171
2/ المخالفة في النسبة.....	171
3/ المخالفة في الإعراب.....	171
4/ نون المثنى وجمع المذكر السالم.....	171
5/ نون الأفعال الخمسة.....	172
6/ في القراءات القرآنية.....	172
7/ المخالفة في الكلمات المعربة.....	172
ثالثا/ المخالفة بين الصوامت والحركات.....	173-175
3/ علة المخالفة الصوتية.....	175-176
المطلب الثالث: القلب المكاني.....	177-179
1/ تعريفه.....	177

أ/لغة.....177

ب/ اصطلاحا.....177

2/ طرق الكشف عن القلب المكاني.....177-179

3/ علة القلب المكاني.....179

الفصل الثالث: الظواهر الفونولوجية (الفونيمات القطعية وفوق قطعية) وتغيراتها عند ابن جني 181-

261

المبحث الأول: الفونيمات القطعية.....183-235

المطلب الأول: الإبدال.....183-200

1/ أقسام الإبدال عند ابن جني.....185-192

أ/ إبدال شاذ.....186

ب/ إبدال شائع في بعض لغات العرب:.....187-189

ج/ إبدال صرفي:189-192

2/ مظاهر الإبدال القياسي وقوانينه عند ابن جني.....192-200

المطلب الثاني: الإعلال.....200-221

أولا/ الإعلال بالقلب.....200-215

1/ قلب حروف العلة إلى حرف علة آخر.....201-210

أ/ قلب الواو والياء ألفا.....202-203

ب/ قلب الألف واوا أو ياء.....203-205

ج/ قلب الواو ياء.....206-208

210-208.....	د/ قلب الياء واوا
21-210.....	2/ قلب حروف العلة همزة:
218-215.....	2/ الإعلال بالنقل
221-218.....	3/ الإعلال بالحذف
225-221.....	المطلب الثالث: الإدغام
222-221.....	أولا/ مفهومه عند ابن جني
225-222.....	ثانيا/ أقسامه
225.....	ثالثا: الغرض منه
235-225.....	المطلب الرابع: الإمالة في كتب ابن جني
23-225.....	أولا/ تعريفها وأنواعها
132 -230.....	ثانيا/ مخرجها
234-232	ثالثا: أسبابها وموانعها
235-234.....	رابعا/ الغاية منها

المبحث الثاني: الظواهر التطريزية عند ابن جني في ضوء الدرس الصوتي الحديث... 261 -235

247 -236.....	المطلب الأول: نظرية الفونيم
241-236	1/ تحليلات الفونيم في كتب ابن جني
245-241.....	2/ بين الفونيم والحرف والصوت
247-245.....	3/ مدارس الفونيم
252-247	المطلب الثاني: المقطع

255-252.....	المطلب الثالث: النبر عند ابن جني
261-255.....	المطلب الثالث: التنعيم عند ابن جني
257-255	أولا/ ملامح التنعيم عند ابن جني
261-257.....	ثانيا/ وظائف التنعيم عند ابن جني
307-262	الفصل الرابع: القوانين الفونولوجية (المماثلة، المخالفة ، القلب) عند ابن جني
283-263.....	المبحث الأول: المماثلة
273-263	المطلب الأول: المماثلة بين الصوامت
266-264.....	1/ المماثلة الكلية المقابلة المتصلة
267-266	2/ المماثلة الكلية المقابلة المنفصلة
269 -267.....	3/ المماثلة الكلية المدبرة المتصلة
270-269.....	4/ المماثلة الجزئية المقابلة المتصلة
270.....	5/ المماثلة الجزئية المقابلة المنفصلة
273-270	7.6/ المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة/ المتصلة
277 -273.....	المطلب الثاني: المماثلة بين الصوائت
283-277.....	المطلب الثالث: المماثلة بين الصوامت والحركات
279-277.....	1/ أثر الحركات في الصوامت
283-279.....	2/ أثر الصوامت في الحركات
300-283.....	المبحث الثاني: المخالفة الصوتية في كتب ابن جني

المطلب الأول: المخالفة بين الصوامت.....284-292

أولا/ المخالفة بالحذف بين المتماثلين، وبين المتقاربين.....284-292

1/ المخالفة بين المتماثلين.....284-289

1-1/ المخالفة بالحذف دون تعويض.....284-289

أ- المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في بداية الكلمة... 285-286

ب - المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في وسط الكلمة..286-287

ج- المخالفة بالحذف دون تعويض بين المتماثلين في آخر الكلمة....288-289

2/ المخالفة بالحذف بين المتقاربين.....289-290

3/ المخالفة بالحذف والتعويض.....290-292

ثانيا/ المخالفة بين الصوائت(الحركات).....293-298

ثالثا/ المخالفة بين الصوامت والصوائت.....298-300

أ/ المخالفة بين عنصري المزدوج الهابط.....298-300

ب/ المخالفة بين عنصري المزدوج الصاعد.....300-300

المبحث الثالث: القلب المكاني عند ابن جني.....304 - 307

المطلب الأول: شواهد عند ابن جني.....304-307

المطلب الثاني: طرق الكشف عنه.....306-307

خاتمة.....308-313

قائمة المصادر والمراجع.....314-323

329-324.....ملحق

343-330.....الفهارس

ملخص

Abstract

Résumé

ملخص:

يُعدّ علم الأصوات الوظيفي أحد فروع اللسانيات التي تُعنى بدراسة الجانب الصوتي للغة، من زاوية النظام الصوتي الذي يميّز لغة عن أخرى؛ أي من حيث كَيْفِيَّة انتظام الأصوات داخل اللغة، والعلاقات التي تربط بينها، والطرائق التي تتحوّل بها تبعاً للسياقات المختلفة.

يمثّل ابن جني (ت 392هـ) أحد أبرز علماء العربية في دراسة الأصوات؛ إذ قدّم في مؤلفاته رؤية دقيقة تُعدّ من أوائل البدايات العلميّة في الدّراسات الفونولوجية بالمعنى الحديث؛ حيث عالج في هذه الكتب مجموعة من الظواهر الفونولوجية التي تعكس فهمه العميق للغة العربية، وتكشف عن وعي مبكّر ببنية الأصوات العربية وآليات انتظامها، فعلى مستوى الفونيمات القطعية يتناول أبو الفتح ظواهر الإبدال والإدغام والإعلال والإمالة بوصفها عمليّات صوتيّة منتظمة تخضع لقواعد لسانية وفيزيولوجية محدّدة تتحكّم في انتقال الأصوات وتحوّلها، أمّا القوانين الفونولوجية فيعرض لها من خلال مفاهيم المماثلة والمخالفة والقلب المكاني، مبرزاً كَيْفِيَّة تفاعل لأصوات في السياقات المختلفة وتأثيرها بعوامل التّجاور والانسجام الصوتي، ويتجاوز ابن جني الدّراسة الصوتية التقليدية إلى تحليل الظواهر التطريزية، فيتناول الفونيم والمقطع والنبر والتّنعيم بوصفها وحدات تنظيمية عليها لها أثر جليّ على التّطق، ومن ثمّ تُسهم في تشكيل المعنى وتأليف الكلام ودلالته، مما يدلّ على رؤيته الشّمولية للصّوت اللّغوي وتكامله في نظام اللغة، ثمّ إنّ هذا التّصور الشّامل في مجمل مؤلفاته يبرهن على أن ابن جني لم يقف عند حدود الوصف، بل أسّس لنظرية صوتيّة ذات طابع استقرائي وتعليلي، جعلت التراث العربي في موقع الريادة مقارنة بالتّصورات الفونولوجية الحديثة.

كما أظهرت الدّراسة أن ابن جني لم يكتفِ بجمع الظواهر أو وصفها، بل قدّم تعليقات دقيقة، ما يدلّ على أصالة الدّرس الصوتي العربي، وتميّزه بالدّقة العلميّة توازي في كثير من وجوها التّصورات الغربيّة الحديثة. وبهذا يؤكّد الدراسة أن التراث اللغوي العربي يحمل في طياته أسساً نظرية قادرة على التفاعل مع مناهج اللسانيات المعاصرة، بل ومنافستها من حيث الدّقة والعمق التحليلي والتّعليلي.

الكلمات المفتاحية: ابن جني، الظواهر الفونولوجية، الفونيمات القطعية، الفونيمات فوق القطعية، الدرس

الصوتي الحديث.

Abstract

Functional phonology is one of the branches of linguistics concerned with the study of the phonetic dimension of language from the perspective of the phonological system that distinguishes one language from another. It means how sounds are organized within a language, the relationships that link them, and how they change according to different contexts. IbnJinnī (d. 392 AH) stands one of the most prominent Arab scholars in the study of sounds. In his works, he presented a precise vision that constitutes one of the earliest scientific foundations of phonological studies in the modern sense. In his writings, he addressed a range of phonological phenomena that reflect his profound understanding of the Arabic language and reveal an early awareness of the structure of Arabic sounds and the mechanisms governing their organization. At the level of segmental phonemes, Abū al-Faḥ examines phenomena such as substitution (ibḍāl), assimilation (idghām), vowel modification (iʿlāl), and imāla as systematic phonological processes governed by specific linguistic and physiological rules that regulate sound transitions and transformations. As for phonological laws, he discusses them through concepts such as assimilation, dissimilation, and metathesis, highlighting how sounds interact in different contexts and how factors of adjacency and phonological harmony influence them. IbnJinnī goes beyond traditional phonetic description to analyse supra-segmental phonemes, addressing the phoneme, syllable, stress, and intonation as higher-level organizational units that have a clear impact on pronunciation and, consequently, contribute to the formation of meaning, speech composition, and semantic interpretation. This demonstrates his holistic view of linguistic sound and its integration within the language system. Moreover, this comprehensive perspective throughout his works proves that IbnJinnī did not limit himself to mere description; rather, he laid the foundations for an inductive and explanatory phonological theory, positioning the Arabic linguistic heritage at the forefront in comparison with modern phonological conceptions. The study also shows that IbnJinnī did not confine himself to collecting or describing phenomena, but rather provided precise explanations, which attests to the originality of Arabic phonological scholarship and its scientific rigor, one that, in many respects, parallels modern Western theoretical frameworks. Consequently, the study affirms that the Arabic linguistic heritage contains theoretical foundations capable of engaging with contemporary linguistic methodologies, and even competing with them in terms of analytical precision and explanatory depth.

Keywords: IbnJinnī, Phonological phenomena, Segmental phonemes, Supra-segmental phonemes, Modern phonetic studies.

Résumé

La phonologie fonctionnelle constitue l'une des branches de la linguistique qui s'intéressent à l'étude de la dimension phonique du langage, du point de vue du système phonologique qui distingue une langue d'une autre, c'est-à-dire en termes de l'organisation des sons au sein de la langue, des relations qui les unissent et des modalités selon lesquelles ils se transforment en fonction des contextes variés.

Ibn Jinnī (m. 392 H) représente l'un des plus éminents savants de la tradition arabe dans le domaine de l'étude des sons. Dans ses ouvrages, il a proposé une conception rigoureuse qui constitue l'une des premières amorces scientifiques des études phonologiques au sens moderne. Il y aborde en effet un ensemble de phénomènes phonologiques qui témoignent de sa compréhension profonde de la langue arabe et révèlent une conscience précoce de la structure des sons arabes et des mécanismes régissant leur organisation. Au niveau des phonèmes segmentaux, Abū al-Faṭḥ traite des phénomènes tels que l'alternance (ibḍāl), l'assimilation (idghām), la modification vocalique (i'lāl) et l'imāla, en les considérant comme des processus phonétiques réguliers soumis à des règles linguistiques et physiologiques précises qui gouvernent le passage et la transformation des sons. Quant aux lois phonologiques, il les expose à travers des notions telles que l'assimilation, la dissimilation et la métathèse, mettant en évidence les modalités d'interaction des sons dans différents contextes ainsi que leur influence par les facteurs de voisinage et d'harmonie phonique.

Ibn Jinnī dépasse la simple description phonétique traditionnelle pour analyser les phonèmes suprasegmentaux ; il aborde le phonème, la syllabe, l'accent et l'intonation en tant qu'unités organisationnelles supérieures ayant un impact manifeste sur la réalisation phonétique et contribuant, par conséquent, à la construction du sens, à l'agencement du discours et à sa valeur sémantique. Cela témoigne de sa vision globale du son linguistique et de son intégration au sein du système de la langue. Par ailleurs, cette conception globale, présente dans l'ensemble de ses œuvres, démontre qu'Ibn Jinnī ne s'est pas limité à une démarche descriptive, mais qu'il a jeté les bases d'une théorie phonologique à caractère inductif et explicatif, plaçant ainsi le patrimoine linguistique arabe dans une position de prééminence par rapport aux conceptions phonologiques modernes.

L'étude montre également qu'Ibn Jinnī ne s'est pas contenté de recenser ou de décrire les phénomènes, mais qu'il en a proposé des explications précises, ce qui atteste de l'originalité de la phonologie arabe et de sa rigueur scientifique, laquelle rivalise à bien des égards avec les conceptions occidentales modernes. Ainsi, l'étude confirme que le patrimoine linguistique arabe recèle des fondements théoriques capables d'interagir avec les approches de la linguistique contemporaine, voire de les concurrencer en termes de précision et de profondeur analytique et explicative.

Mots-clés: Ibn Jinnī, Phénomènes phonologiques, Phonèmes segmentaux, Phonèmes suprasegmentaux, Études phonétiques modernes.

The People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Emir Abd El kader University



Faculty of Letters and Islamic Civilization Department of Arabic Language

Constantine – Algeria

Registration Number: DS3/AIC/GL/02/19

Phonological Phenomena in the Books
Jinnī (d. 392 AH) of Ibn

A Thesis Submitted in the Field of Linguistic Studies in Candidacy for the Degree of
Doctorate (LMD) in Arabic Language and Literature
Speciality: General Linguistics

Prepared by: Hadjira DRIBI

Supervised by: Pr. Nouredine Bouzanacha

Board of Examiners:

Name	Rank	Affiliation	Role
Kameche Ahmed	Full Professor	Emir Abd El kader University	President
Bouzanacha Nouredine	Full Professor	Mouhamed Lamie Deaghie-Sétif 2 University	Supervisor and Rapporteur
Kharroubi Issam	Dr. (MCA)	Emir Abd El kader University	Examiner
Rouabah Naima	Dr. (MCA)	Emir Abd El kader University	Examiner
Belkhiri Adel	Dr. (MCA)	Frères Mentouri University	Examiner
Hebira Ezzeddine	Dr. (MCA)	Frères Mentouri University	Examiner

Academy Year (2025-2026)-(1447-1448)